

مؤثرة، سحرية
ومليئة بالمفاجآت*
س. ج. واطسون



1
حانعة الأدمى
جيسك بيرتون

مخكنته ياسمين

الاهون
للنشر والتوزيع

مخكنته ياسمين

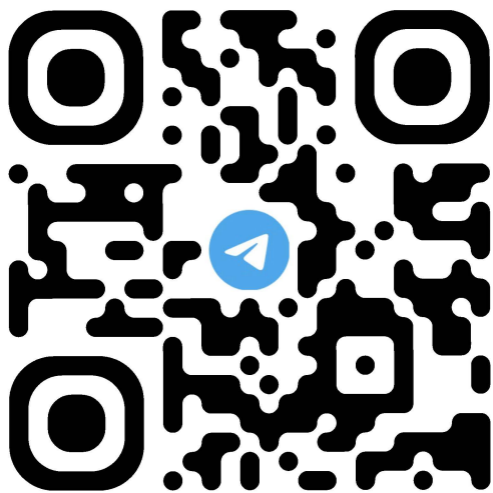
t.me/yasmeenbook

جيسي بورتن

طائفة الدُّمى

ترجمة: منى فهمي

الهدوى
للنشر والتوزيع



مکتبہٴ یاسین علیہ علیہ



إلى

ليندا،

وادوارد،

ويپپ.



بيت الأدمى الخاص ببيرونيليا أورثمان،

متحف ريكز، أمستردام



يشير مصطلح الفوك إلى شركة الهند الشرقية الهولندية، المعروفة في اللغة الهولندية باسم فيرغينخدي أوست-إنديسي كومباني (الفوك). تأسست الفوك عام ١٦٠٢م وسيرت مئات السفن التجارية عبر إفريقيا وأوروبا وآسيا والأرجيل الإندونيسي.

بحلول عام ١٦٦٩م، صارت الفوك تملك ٥٠ ألف موظف و٦٠ شريكاً و١٧ عضواً في مجلس الإدارة. وفي عام ١٦٧١م، وصلت أسهم الفوك في بورصة أمستردام إلى ٥٧٠٪ من قيمتها الاسمية.

ونظراً للحالة الزراعية الجيدة والقوة المالية لمقاطعات هولندا المتحدة، فقد قيل إن موائد فقراهم كانت أفضل كثيراً من نظرائها في إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا. أما موائد الأثرياء فكانت الأفضل على الإطلاق.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إِنَّهٗوَا فِضَّةً. إِنَّهٗوَا ذَهَبًا،

فَلَا نِهَآيَةَ لِلتَّحَفِ لِلكَّثْرَةِ مِنْ كُلِّ مَتَاعِ شَهْوَى.

سفر ناحوم 2: 9

وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ: يَا

مَعَلِّمُ، انظُرَا مَا هَذِهِ الْمَجَارَةُ! وَهَذِهِ الْأَبْنِيَّةُ!

فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هَذِهِ الْأَبْنِيَّةَ الْعَظِيمَةَ؟

لَا يَتْرُكُ حَجْرٌ عَلَى حَجْرٍ لَا يَنْقُضُ.

إنجيل مرقس 13: 1-2

(جميع الاقتباسات تأتي من مقاطع محدّدة بالقلم في الكتاب
المقدّس في منزل عائلة براندت)

الكنيسة القديمة، أمستردام:

الثلاثاء، ١٤ كانون الثاني، ١٦٨٧ م



يُفترض أن تكون الجنازة هادئة إذ كان المتوفى بلا أصدقاء.. لكن الكلمات كالماء في أمستردام، تُغرق الآذان وتبدأ النُخر، ويصبح ركن الكنيسة الشرقي مزدحماً. شاهدت المنظر يتجلى من مكناها في مقاعد الجوقة، والعمال وزوجاتهم يقتربون من اللحد المفتوح كالنمل نحو العسل. ولا يلبث أن يضم إليهم موظفو الشوك وقباطنة السفن، وأعضاء مجلس الإدارة، والخبازون. وهو مازال يعتمر القبعة العريضة. حاولت أن تشعر بالشفقة نحوه، خلافاً للكراهية، التي يمكن تحجيمها وإزاحتها.

يرتفع السقف المطلي للكنيسة، الشيء الوحيد الذي لم يقم المُجددون بهدمه، فوقهم مثل هيكل مقلوب لسفينة مذهلة. إنه مرآة لروح المدينة؛ فعلى عوارضه القديمة، رُسم يسوع في يوم الحساب يحمل سيفاً وزنبقة، وسفينة ذهبية تشق الأمواج، والعدراء تجلس فوق هلال. وفيما تطوي المتكأ القديم المجاور، تمر أصابعها على المقولة المحفورة في الخشب الظاهر. إنه نقش بارز لرجل يتأبط صُرة نقود، قد تغضن وجهه بتعايير الألم. تُفكر، ما الذي تغير؟

وبعد.

حتى الموتى حاضرون اليوم، ألواح القبور توارى جثامين فوق جثامين، وعظام فوق تراب، مُكومة تحت أقدام المعزّين. أسفل تلك البلاطات عظام فك لامرأة، وتجويف حوض لتاجر، وهيكل صدر لنبيل سمين. في الأسفل جثامين صغيرة،

بعضها لا يزيد طولها على رغيف خبز. لاحظت كيف يشيح الناس بأعينهم عن مثل هذا الحزن المكثف، ويتعدون عن أي قبر صغير يرونه، فلا يسعها أن تلوومهم.

في وسط الجموع، لمحت المرأة ما جاءت من أجله. تبدو الفتاة منهكة، مطبوعة بالحزن، واقفة إلى جانب حفرة في الأرض. لا تكاد تلتفت إلى المواطنين الذين جاءوا للمشاهدة. يسير حاملو النعش في ممشى الكنيسة، والتابوت على أكتافهم ثابت كحقيقية لآلة عود. قد يُخيّل للمرء من النظرات التي تملو وجوههم، أن بضعة منهم يضمّر تحفظات حول هذه الجنازة. نعمت، لا بد أنه بيليكورني من فعلها. السم القديم نفسه في الآذان.

يحكم مواكب كهذه في العادة نظام متشدد، فيكون المحافظون في المقدمة والعامّة بعدهم، لكن لا أحد في هذا اليوم اهتم بذلك. تراءى للمرأة أن حشداً مثله لم يحدث من قبل في أي من بيوت الرب في محيط هذه المدينة. أحببت طبيعته النادرة والجريئة. إن أمستردام، المغامرة، تموق الآن إلى اليقين، ممر مرتّب في الحياة، يحمي أموالها بالطاعة المملة. تُفكّر، كان يجدر بي أن أرحل قبل اليوم. بات الموت قريباً جداً.

تفرقت الدائرة وأنزل حاملو النعش التابوت في الحفرة من دون مراسم، تحركت الفتاة نحو الحافة. ورمت باقة زهور في الظلام، وفي اللحظة التي رفرف طائر زرزور بجناحيه، متسلقاً جدار الكنيسة المُكّس. استدارت الرؤوس، منصرفة بانتباهها إليها، لكن الفتاة والمرأة اللتين كانتا تجلسان في مقاعد الجوقة، لم تجفلا، وظلنا تشاهدان قوس البتلات وبيليكورني ينشد صلاته الأخيرة.

وبينما يدفع حاملو النعش البلاطة الجديدة إلى مكانها، جثت الخادم على حافة الغلام المتلاشي. وبدأت في النحيب، وعندما لم تحاول الفتاة المنهكة أن تكبح هذه الدموع المتزايدة، علت التعليقات التي عدت تصرفها هذا نقصاً في الكرامة والانضباط. وقفت امرأتان، ترتديان الحرير، قرب مقاعد الجوقة وهما يتبادلان الهمسات. تمتت إحداهما:

- سلوكيات كهذه هي سبب وجودنا هنا في المقام الأول.

أجابت صديقتها:

- إذا كانوا يفعلون هكذا في الأماكن العامة، فلا بد أنهم يتصرفون كحيوانات الغابة في المنزل.

- صدقت. لكنني كنتُ سأضحي بأي شيء لأكون ذبابة على جدار منزلهم.

كتمتا ضحكة، وفي مقاعد الجوقة لاحظت المرأة كيف ابيضّ مفصل إصبعها فوق المتكأ المنقوش بالعبر.

مع إغلاق أرض الكنيسة من جديد، انحلت الحلقة، وأدركت الفتاة، التي بدت مثل قديس من زجاج ملون هبط من نافذة حقيقة المنافقين غير المدعوين، الذين بدؤوا في الترتة وهم يغادرون إلى شوارع المدينة المتعرجة، ومن بعدهم أخيراً الفتاة وخادمتها، اللتان تتحركان في صمت، وإحداهما تتأبط ذراع الأخرى على ممشى الكنيسة إلى خارجها. سيعود معظم الرجال إلى مكاتبهم ومتاجرهم، لأن دوران عجلة أمستردام يتطلب عملاً مستمراً. وكما يقول المثل، بالكبح نحصل على المجد، وبالكسل نفرق في البحر. وهذه الأيام، يبدو وكأن منسوب المياه يزداد ارتفاعاً.

حالما خلت الكنيسة، خرجت المرأة من مقاعد الجوقة. مسرعة، غير راغبة في أن يراها أحد. "لا شيء يبقى على حاله" همست. عندما وجدت غطاء القبر الذي وضع حديثاً، قد أنجر على عجلة، والجرائيت أكثر دفئاً من بقية القبور، والكلمات المنقوشة يعلوها التراب. إن جريان هذه الأحداث أمر لا يُصدق.

جثت على ركبتها، وأدخلت يدها في جيبيها لتتم ما بدأه. هذه هي صلاتها الخاصة، منزل مصغرٌ بحجم يكفي لتضمه في راحة يدها. نُقشت في داخله تسع غرف ونحس تماثيل بشرية، بحرفية شديدة التعقيد، ونسيان تام للزمن. وضعت المرأة بعناية هذا القربان في المكان الذي اعتزمت دائماً أن تضعه فيه، ورسمت الصليب على الجرائيت البارد بأصابعها المتينة.

دفعت باب الكنيسة، تبحث غريزياً عن القبعة العريضة، عن عباءة بيليكورني، عن النساء في أثواب الحرير. جميعهم ذهبوا، وكانت ستصبح وحيدة في العالم لولا الجلبة التي أحدثها طائر الزرزور المحبوس. إنه وقت الرحيل، ولكن لبرهة أمسكت المرأة باب الطائر. لكنه حينما شعر بفعاليتها، رفر ف بعيداً خلف المنبر.

أغلقت الباب على جوف الكنيسة البارد، واستدارت لتواجه الشمس، ثم مضت خلال القنوات التي تجري في حلقات إلى البحر. فكرت: "أيها الزرزور، إن كنت تظن أن ذلك البناء مكان آمن بالنسبة إليك، فلست أنا إذن من يطلق سراحك.

الجزء الأول

منتصف تشرين الأول، ١٦٨٦ م

قناة المهير غراخت، أمستردام

لا تَشْتَهِ أَطَايِبَهُ

لأنها خُبزٌ أَكَاذِيبٌ.

سفر الأمثال ٢٣: ٣

ظاهر الأشياء



على عتبة منزل عريسها، رفعت نيلا أورتمان مطرقة الباب التي على شكل دولفين ثم تركتها تسقط، مُخرجة من الصوت المكتوم الذي أحدثته. لا أحد يجيب على الرغم من أن حضورها مُتوقع. فقد رُتّب الموعد مسبقاً وتبذلت الرسائل، بين ورق والدتها الرقيق جداً مقارنة بورق براندت الثمين. فكرت "كلا، ليس استقبلاً جيداً، نظراً إلى حفل الزواج السريع في الشهر السابق، فلا أكاليل، ولا كأس عروسين، ولا سرير زفاف. وضعت نيلا صندوق متاعها الصغير وقفص عصفورها على العتبة. إنها تعلم أنه سيتعين عليها تجميل هذا في خطابها إلى أمها، عندما تجد طريقها إلى الطابق العلوي، إلى غرفة، إلى طاولة كتابة.

استدارت نيلا إلى القناة بينما يتصاعد ضحكات المراكبية من البناء المقابل. كان صبي نحيل قد ارتطم بامرأة وسلة السمك التي تحملها، وانزلت سمكة رنكة نصف ميتة على الواجهة العريضة لتنورة البائعة. جففت نيلا من الصرخة القاسية لصوتها الريفي وهي تصيح: "أحمق! أحمق!" كان الصبي أعمى، وراح يبحث في التراب عن الرنكة الهاربة وكأنها حلية فضية، أصابعه سريعة، لا يحجم عن تحسس ما حوله. ظفر بها، مُقهقها، فركض في الشارع بغنيمته، وذراعه الحرة ممدودة ومستعدة.

كتمت نيلا سراً، ومكثت تنعم بهذا الدفء النادر لتشرين الأول في الوقت المتاح. تُعرف هذه الناحية من الهيرغراخت باسم الجودين بوخت أو المنعطف الذهبي، إلا أن الامتداد

الواسع صار اليوم بنياً وروتينياً. وفوق القناة التي بلون الوحل، تظهر المنازل مُدهلة للعيان. تثير الإعجاب بتناسقها فوق الماء، نغمة وجميلة، كجواهر ترصّع أبرز مناطق المدينة. وفوق سطوحها، تبدل الطبيعة قصارى جهدها لمواكبة ذلك، فتعكس الغيوم بدرجاتها من ألوان الزعفران والمشمس مغنم الدولة المجيدة.

عادت نيلا إلى الباب، فوجدته الآن موارباً قليلاً. هل كان هكذا من قبل؟ لا يسعها أن تجزم. دفعته، ونظرت في الفراغ بينما يأتيها الهواء البارد من الرخام، ونادت: "يوهانس براندت؟"، وبشيء من الذعر. سألت نفسها، هل هذه لعبة؟ سأظل في هذا المكان حتى كانون الثاني. يُرعى بيبيو، ببغاؤها، أطراف ريشه على قضبان القفص، وزقزقته الخافتة لا تبلغ الرخام. حتى القناة التي غلفها الهدوء الآن خلفهما بدت وكأنها تحبس أنفاسها.

تثق نيلا في شيء واحد وهي تمنع النظر أكثر في العتمة. ثمة من يراقبها. هيا، يا نيلا إليزابيث، هكذا تقول لنفسها، وهي تخطو فوق العتبة. هل سيعانقها عريسها، هل سيقبلها أم بصالحها وكأنما الأمر مجرد صفقة؟ لم يفعل أياً من هذه الأمور في الحفل، مُحاطين بعائلتها الصغيرة ولا أحد من عائلته.

ولتثبت أن بنات الريف أيضاً يعرفن آداب السلوك، تخفي وتخلع حذاءها - أنتق، من الجلد، أفضل ما تملك بالطبع - مع أنها تحار الآن في فهم مقصدهم. الوقار، هكذا قالت والدتها، لكن الوقار مزيج جداً. تضرب الحذاء بالأرض، لعل الصوت يوقظ أحداً، أو ربما يجفله. تمنعها والدتها بالمفرطة في الخيال، نيلا الحاملة. يهبط الحذاء المكتوم في نهاية مُحبطة وتشعر نيلا

بأنها ليست أكثر من حمقاء.

في الخارج امرأتان تتادي إحداهما على الأخرى. استدارت نيلاً، لكنها لم ترَ من خلال الباب المفتوح سوى ظهر امرأة واحدة، من دون قلنسوة، لها شعر ذهبي وقامة طويلة، تبتعد بخطوات واسعة صوب الشمس الغاربة. كان شعر نيلاً نفسها قد تشعث في أثناء رحلتها من أسدلفت، فتسبب النسيم الخفيف في إفلات خصلات منه. وإذا أعادتها إلى مكانها، فإن ذلك سيظهرها بتوتر لن تطيق احتمالها، لذا ستركها تدغدغ وجهها.

- هل سنحظى بحديقة حيوانات؟

أتى الصوت ثابتاً وسريعاً من عتمة البهو. انقبض جلد نيلاً، لأن إثبات صحة شكوكها عجزت عن إيقاف القشعريرة. شاهدت شخصاً ينسلُّ من الظل، ويداً ممدودة احتجاجاً أو تحية، لا يمكنها أن تجزم. إنها امرأة، مستقيمة ونحيفة، تتشح بالسواد العميق، وقلنسوتها منشأة ومكوية في لون أبيض مثالي، لا تفلت منها خصلة شعر واحدة، وتجلب معها رائحة خفيفة وغريبة من جوزة الطيب. عيناها رماديتان، وفها مزمووم. منذ متى وهي هناك، تراقب؟ يزقزق بيبو مع الحضور الجديد.

تقول نيلاً:

- هذا بيبو. بيبائي.

- هكذا أرى. قالت المرأة، وهي ترمقها من أعلى إلى أسفل، أو أسمع. أفهم أنك لم تجلبي حيوانات أخرى؟

- أملك كلباً صغيراً، لكنه في المنزل...

- جيد. كان سيعيثُ فساداً في غرفنا. ويقشّر الخشب. تلك المخلوقات الصغيرة هي من تحلق الفرنسيين والإسبان، عابرة

كأصحابها.

- ويشبهون الفئران أيضاً، هكذا يهتف صوت ثان من مكان ما في البهو.

تجهم وجه المرأة، وأغمضت عينها لوهلة. أخذت يتأملها نيلا، وهي تتساءل من أيضاً يراقب هذا اللقاء. ففكرت، لا بد أنني أصغرُها بعشرة أعوام، مع أن بشرتها ملساء للغاية. وإذا تحركت المرأة متجاوزة نيلا نحو الباب، كان في حركاتها بهاء، ووعي وتصلُّف. ألقت نظرة راضية موجزة على الحذاء الأنيق عند الباب، ثم حدقت في داخل القفص، شفتاها مزمومتان. كان ريش بيبو قد انتفش من الخوف.

قررت نيلا أن تصرف انتباهها بإمساك يدها في تحية، لكن المرأة أجفلتها اللبسة.

قالت المرأة:

- عظام قوية مقارنة بفتاة في السابعة عشر.

فأجفلت وهي تسحب يدها:

- أدعى نيلا. وأنا في الثامنة عشر.

- أعرف من تكوينين.

- اسمي الحقيقي برونيليا، لكن عائلتي ينادونني...

- قلته من قبل.

سألها نيلا:

- هل أنتِ مدبرة المنزل؟ وانبعثت من عتمة الدهليز ضحكة مكتومة. تجاهلت المرأة، وهي ترسل بصرها إلى الغسق اللؤلؤي:

هل يوهانس هنا؟ أنا عروسه. صمتت المرأة، وواصلت نيلا:
لقد وثقنا زواجنا منذ شهر في أسدلفت. " يبدو أنها لا تملك
هنا سوى مواصلة الكلام.

- إن شقيقي ليس في المنزل.

"شقيقك؟"

جاءت ضحكة أخرى من داخل الظلام. نظرت المرأة مباشرة
في عيني نيلا:

- أنا مارين براندت، قالتها، وكأنا في ذلك كل التفسير لنيلا.
قد تكون نظرة مارين قاسية، لكن نيلا تشعر بتراجع الانضباط
في صوتها. وتابعت مارين: إنه ليس هنا. ظننا أنه سيكون هنا.
لكنه ليس كذلك.

- أين هو إذن؟

عادت مارين تنظر إلى السماء. وتنشر أصابع يدها اليسرى
ليتخللها الهواء، ومن العتمة المجاورة للدرج يظهر شخصان،
فقالت:

- أوتو.

دنا منهما رجل، فابتلعت نيلا ريقها، وهي تعصر قدميها
الباردتين فوق الأرضية.

لأوتو بشرة داكنة؛ بنية داكنة في كل مكان، رقبتة التي تبرز
من طوقه، ومعصماه ويداه اللتان تبرزان من كميته، جميعهم
يكتسبون بجلد بني داكن لا ينتهي؛ وجنتاه المرتفعتان، ذقنه،
جبينه الواسع، كل شبر. لم تر نيلا في حياتها رجلاً مثله.

بدا على مارين أنها تراقبها لترى ماذا ستفعل. لا تظهر عينا

أوتو الواسعتان إدراكاً لانبهار نيللا المفضوح. المنحنى لها فردت له التحية، وهي تعض على شفيتها إلى أن ذكرها مذاق الدم بأن تهدأ. ترى نيللا كيف تلمع بشرته كجوزة مصقولة، وينبتق شعره الأسود من رأسه. إنه مكللة من الصوف الناعم، وليس مستويًا ومدهنًا كبقية الرجال. تقول:

- أنا...

شرع ييبو في الزقزقة. ومد أوتو يديه، وعلى كفيه العريضتين يستقر زوج من القباقيب. قال:

- لقدميك.

لهجته أمستردامية - لكنه يلحن الكلمات، فيجعلها دافئة ومائعة. تناول منه نيللا القبقاب، لمست أصابعها بشرته لمساً طفيفاً. وبخرقٍ، وضعت قدميها في الحذاء العالي. إنه كبير جداً، لكنها لا تجرؤ على قول ذلك، وهو على الأقل يرفع باطن قدميها عن الرخام البارد. سوف تحمك ربط الحذاء لاحقاً، في الطابق العلوي - لو قدّر لها أن تصل إلى هناك، لو سمحوا لها بتجاوز هذا البهو.

- إن أوتو هو وصيف أخي،" قالت مارين، وعيناها ما زالتا ثابتتين على نيللا، وهذه كورنيليا، خادمتنا. سوف تُعنى بك."

تقدمت كورنيليا. هي أكبر قليلاً من نيللا، ربما في العشرين، أو الواحد والعشرين، وأطول قليلاً. رمقتها كورنيليا بابتسامة جافة، وعيناها الزرقاوان تجولان فوق العروس الجديدة، وتريان الرجفة في يدي نيللا. ابتسمت نيللا، مكتوية بفضول الخادم، وجاهدت لقول أي كلمات شكر جوفاء. هي ممتنة ومُحرجة في الوقت نفسه، لكن مارين قاطعتها:

- دعيني آخذكِ إلى الطابق العلوي. سترغبين في رؤية غرفتك.

انبعثت نظرة لهو في عيني كورنيليا. وترددت زقزقة مرحة من القفص أعلى الجدران، وأشارت مارين إلى كورنيليا بحركة من معصمها أن الطائر يجب أن يذهب إلى المطبخ.
احتجت نيلا:

- لكن أبخرة الطهي. فالتفتت إليها مارين، وقال أوتو:

- إن ييبو يحب الضوء.

أخذت كورنيليا القفص، وبدأت في أرجمته مثل مثل دلو، فقالت نيلا:

- احترسي من فضلك.

تبادلت مارين وكورنيليا النظرات، ومضت الخادم إلى المطبخ، يصحبها النغم الحاد لزقزقات ييبو القلقة.

في الطابق العلوي، تشعر نيلا أنها قزمة وسط نخامة غرفتها الجديدة. لا يبدو على مارين سوى الاستياء:

- لقد طرّزت كورنيليا أكثر من اللازم. لكننا نأمل ألا يتزوج يوهانس إلا مرة واحدة.

توجد وسائل مطرّزة بالأحرف الأولى من اسميهما، ومفرش سرير جديد، وزوجان من ستائر جُدِّدت حديثاً. علقَت مارين:

- إن سماكة المخمل ضرورية لمنع شُبُورة القناة. كانت هذه غرفتي، هكذا وتوجهت إلى النافذة لتتنظر إلى النجوم القليلة

التي بدأت تظهر في السماء، ووضعت يدها على زجاج النافذة:
إنها تطل على مشهد أجمل، لذا منحناكِ إياها.

قالت نيلا:

- رباه. يجب أن تحتفظي بها إذن.

وقفتا متواجهتين، يطوقهما الحشد الكبير من أعمال الإبرة،
وفرة من المفارش المطرزة بحرف الباء عن براندت، في دائرة
من أوراق العنب، وتحميها أعشاش الطيور، التي تبرز من
أحواض الزهور. لقد التهمت حروف الباء اسمها قبل الزواج،
مررت نيلا إصبعها فوق هذه الكمية السخية من خيوط
التطريز، الذي يشغل الآن كاهلها.

سألت مارين:

- هل منزل أسلافكِ الكبير في أسدلفت، دافئ وجاف؟

- ربما يكون رطباً. أقرت نيلا وهي تخني وتحاول إصلاح
القبقاب الكبير المربوط على نحو أخرق إلى قدميها: إن السدود
لا تعمل دائماً. لكنه ليس كبيراً...

قاطعتها مارين:

- ربما لا تملك عائلتنا نسبكِ القديم، ولكن ما الذي يُضاهي
منزلاً دافئاً وجافاً ومتيناً؟

- صدقت.

“- أفكومست سايت نيت. النسب لا وزن له، استطردت،
وهي تركز الوسادة لتؤكد على كلمة لا وزن له: قالها القس
بيليكورني في الأحد الماضي ودونتها في الصفحة الفارغة في أول
الكتاب المقدس. سيعلو المد إن جانبنا الحذر. ثم بدا عليها أنها

تصرف فكرة من ذهنها. وتضيف: راسلتنا والدتك. أصرت في خطابها أنها ستتكفل بمصاريف رحلتك إلى هنا. لم نكن لنقبل بذلك. وأرسلنا ثاني أفضل عبارة لدينا. لم تستائي؟

- لا، لا.

- جيد. إن ثاني أفضل شيء في هذا المنزل مازال يعني طلاء جديداً ومقصورة مبطنة بالحرير البنغالي. يوهانس يستخدم الأخرى.

تساءلت نيلّا أين زوجها، مع أفضل عباراته، حتى يتأخر عن موعد استقبالها. فكرت في ييبو، وحيداً في المطبخ، قرب النار، قرب المقالي. وتساءل:

- لديكم خادمان فقط؟

- يكفي وجودهما، نحن تجار، ولسنا عاطلين. يخبرنا الكتاب المقدس أن المرء لا ينبغي له أن يتباهى بثروته.

- لا. طبعاً.

- هذا لو تبقى لديه ما يتباهى به. حدّقت مارين فيها، فأشاحت نيلّا بناظريها. يبدأ الضوء في الغرفة في التلاشي، وأشعلت مارين الشموع الرخيصة والمصنوعة من الشحم.

كانت نيلّا تطمح في شمع نحل أكثر عطراً. دهشت من اختيار هذا النوع الذي هو كثير الدخان وقبيح الرائحة. قالت مارين:

- يبدو أن كورنيليا قد طرّزت اسمك الجديد على كل شيء.

فعلاً، همست نيلّا لنفسها، وهي يُمذّر نظرات كورنيليا العدوانية. لا بد أن أصابها قد حُفرت بخطوط حمراء، ومن

تُراها ستُعاقب على ذلك؟

سألت مارين:

- متى يأتي يوهانس، ولماذا هو ليس هنا؟

- قالت والدتك إنك مُتلهفة لبدء حياتك بوصفك زوجاً في أمستردام. هل أنتِ كذلك؟

- نعم. لكن الزوجة تحتاج إلى زوج لتقوم بذلك.

في الصمت المغلف بالصقيع الذي أعقب ذلك، تساءلت نهلاً أين زوج مارين. ربما أخفته في القبو. أحمدت رغبتها المستميتة في الضحك، ونظرت إلى إحدى الوسائد. قائلة:

- كل هذا جميل جداً. لم يكن عليكِ تكلف هذا العناء.

- كورنيليا هي من فعلت كل شيء. لستُ ماهرة في استعمال يدي.

- غير صحيح بالتأكيد.

- لقد أزلتُ لوحاتي. رأيتُ أن هذه قد تكون أقرب إلى ذوقك، وأشارت مارين بيدها إلى الحائط حيث لوحة تصور زوجاً من الطيور البرية بألوان زيت، في لوحة يتدلى من خطاف، مفرقة بالريش والمخالب. وبعدها على الحائط نفسه لوحة لأرنب بري معلق، جائزة صياد. وإلى جانبها رُسمت كومة محار فوق صحن صيني منقوش، يظلها كأس نبيل مسكوب ووعاء من فاكهة قاربت على التحلل. ثم ما يثير القلق في المحار، انفتاحه المكشوف. في بيتها الأول، كانت والدة نهلاً تكسو الجدران بمناظر من الطبيعة والكتاب المقدس. "هذه تخص شقيقي"، هكذا تعلق مارين، وهي تشير بإصبعها

إلى زهرية مترعة بالزهور، بالغة الجفاف، وكثيرة الألوان، وفي قاع اللوحة تنتظر نصف حبة رمان.

- شكراً لك. تتساءل نيلا كم ستستغرق حتى تقلب اللوحات على وجهها قبل أن تنام.

قالت مارين:

- لا بد أنكِ ترغبين في تناول الطعام هنا الليلة. لقد أمضيت ساعات في السفر.

- هذا صحيح. سأكون ممتنة. ارتعدت نيلا سراً أمام مناقير الطيور الدامية، وأعينها الجامدة، واللحم المنتظر قضمه. وأمام منظرهم، تستحوذ عليها رغبة في الحلوى: هل لديكم مرزبانية؟

- لا. إن السكر - ليس مما نستهلكه كثيراً. إنه يُسقم الأرواح.

- اعتادت والدتي أن تلفها في أشكال مختلفة. كانت حجرة الكرار لا تخلو من المرزبانية، الميل الوحيد للإسراف الذي قلّدت فيه السيدة أورتمان زوجها. حوريات بحر، وسفن، وقلائد من حلي مغلّقة بالسكر، عجينة اللوز تلك وهي تدوب في أفواههم. لم أعد أنتمي إلى والدتي، قالت نيلا لنفسها. يوماً ما، سألف أشكال السكر كرمي لأيدٍ أخرى صغيرة رطبة، وأصوات تطالب بالحلوى.

تقول مارين، مُنتزعة نيلا من أفكارها:

- سأطلب من كورنيليا أن تحضر لكِ شيئاً من الهيربيرود، وكأساً من الريبيش.

- شكراً لك. هل لديكِ فكرة متى يصل يوهانس؟

رفعت مارين أنفها في الهواء:

- ما هذه الرائحة؟

لمست يدا نيللا عظم ترقتها:

- هل هي مني؟

- هل هي منك؟

- اشتريت لي أمي عطراً. زيت الزنبق. هل هي الرائحة التي
تجدونها؟

أومأت مارين. وقالت:

- إنها كذلك. إنها الزنبق. "ثم تسعل برفق. هل تعرفين ما
يقولون عن الزنابق.

- لا؟

- تنضج سريعاً، وتنعفن سريعاً.

وأغلقت مارين الباب.

عباءة



في الرابعة من صباح اليوم التالي، كانت نيلا ماتزال عاجزة عن النوم. غرابة محيطها الجديد، البراق والمطرز، والمغلف برائحة الشحم المدخن، تمنعها من الاسترخاء. تبقى اللوحات في براويزها مكشوفة، لأنها لم تملك الشجاعة لقلبها على ظهرها. رقدت في فراشها، وتركت الأحداث التي قادت إلى هذه المحطة تلف رأسها المنهك.

عندما مات السنيور أورتمان منذ عامين، قالوا في أسدلقت إنه كان رجلاً تبني مصانع الجمعة. ومع أن نيلا امتعضت من التليخ بأن والدها لم يكن أكثر من ذكر مخمور، فقد ثبتت صحة الأمر بصورة كثيفة. كجهم والدها بأغلال الديون، صار الحساء أخف، واللحم أعجم، وتناقص الخدم. لم يصنع سفينة قط، كما يفترض بجميع رجال هولندا أن يفعلوا، لمقاومة المد. "عليك أن تزوجي من رجل قادر على حفظ النقود في جيبه"، قالتها أمها وهي ترفع قلبها.

وأجابت نيلا:

- لكنني لا أملك ما أقدمه في المقابل.

تأفقت أمها:

- انظري إلى نفسك. ما الذي تملكه معشر النساء غير هذا؟

أذهل التصريح نيلا. شعرت مع تقليل أمها من شأنها بنوع جديد من البؤس، واستبدل الحزن على والدها بشيء من الحزن على نفسها. ظل شقيقها الصغيران، كاريل وأرابيلا، يخرجان

إلى الشارع ويلعبان معاً لعبة أكلة لحوم البشر أو القراصنة.

تمرت نيلاً لعامين، على التصرف كسيدة. صارت تمشي بأناقة وبهاء - مع أنه لا مكان تذهب إليه، كما تدمرت، وهي تشعر لأول مرة برغبة في الهروب من قرينتها، وقد عميت عن السماء الفسيحة، ولم تر سوى سجن ريفياً تراكت عليه طبقات رقيقة من الغبار. وفي مشدّها الجديد، حسنت من عزفها على العود، محرّكة أصابعها الأنيقة على أوتاره، يشغلها غضب والدتها بما يكفي ألا تمرد. وفي تموز من هذا العام، نجحت استعلامات والدتها من خلال آخر معارف زوجها في المدينة، في أن تقع أخيراً على أرض خصبة.

وصل خطاب، بخط يد أنيق ومسترسل، خطّ واثق. لم تسمح لها والدتها بقراءته، لكن نيلاً اكتشفت بعد أسبوع، أنها ستعزف أمام رجل، تاجر يدعى يوهانس براندت، يأتي إلى الريف من أمستردام. وفيما غربت الشمس فوق سهول أسدلفت البنية، جلس هذا الغريب في منزلهم الرقيق في تداعيه واستمع إلى عزفها.

ترأى لنيلاً أن مشاعره تحركت، وعندما انتهت قال إنه استمتع بالعزف. قال لها:

- أحب العود. آلة موسيقية جميلة. لديّ عودان مُعلّقان إلى حائطي، ولكن لم يعزف عليهما منذ سنوات.

وعندما طلب يوهانس براندت، ذو التسعة والثلاثين عاماً، متوشأخاً كما صاح كاريل، عندما طلب يدها، قررت نيلاً أن تقبل. كان الرفض يبدو جهوداً وغباءً. لا تملك خيارات سوى أن تكون زوجاً، حسب تعبير مارين؟

بعد الاحتفال في أسدلفت بشهر أيلول، بُتت اسمها في سجل الكنيسة، وتناولوا عشاء بسيطاً في منزل أورتمان ثم رحل يوهانس. قال إن ثحنة في حاجة إلى توصيلها إلى فينيسيا، وإن عليه أن يفعل ذلك بنفسه. حيثة نيلا ووالدتها. كان يوهانس ساحراً جداً، بابتسامته اللعوب، وإيحائه بالسلطة. وفي ليلة زفافها، نامت العروس الجديدة نيلا كما فعلت لسنوات، جنباً إلى جنب مع أختها المتقلبة في نومها. لكن الأمور ستصير للأفضل، كما فُكرت، وهي تتخيل نفسها تنهض من نيران أسدلفت كامرأة جديدة، زوج، وكل ما يأتي...

قطع أفكارها صوت كلاب في البهو. وسمعت صوت رجل، إنه يوهانس، بلا ريب. إن زوجها هنا، في أمستردام، متأخر قليلاً، إنما هنا. جلست نيلا في سرير زفافها، تتمرّن على الكلام بعينين مغبّشتين. أنا مسرورة جداً. هل كانت رحلتك آمنة؟ نعم؟ أنا سعيدة جداً، آه، سعيدة جداً.

لكنها لم تجرؤ على النزول. لا تكفي الלהفة لرؤيته في التغلب على توترها. في أثناء انتظارها، وانتشار الخوف في معدتها، تساءلت كيف تبدأ. وأخيراً اتعلت قبقابها، وشدت وشاحاً فوق منامتها، وقطعت الممر بخطى بطيئة.

خفّ أقدام الكلاب فوق البلاط. إنهم يجلبون هواء البحر في فروهم، وذيوهم تضرب الأثاث. سبقتها مارين إلى يوهانس، وتناهى إلى نيلا حديثهما.

قال يوهانس بصوت عميق وجاف:

- لم أقل ذلك قط، يا مارينز

- انس الأمر الآن. أخي، إنني سعيدة برؤيتك. دعوتُ الرب

أن تعود سالماً. خرجت مارين من الظل لتمن النظر إليه، في ضوء الشمعة الذي كان يتراقص. وقفت نيلا إلى سور السلم، تراقب الخيال الغريب لعباءة سفر يوهانس، مدهوشة بأصابعه التي تشبه أصابع الجزار. استطردت مارين:

- تبدو مرهقاً.

- أعرف، أعرف. والخريف في لندن...

- شنيع. إذن كنت هناك. اسمح لي.

ساعدته مارين في خلع عباءته، وقالت:

- آه، يا يوهانس. إنك نحيل. لقد غبت طويلاً.

- لستُ نحيلاً، وتحرك مُبتعداً، وهو ينادي: "ريزيكي، دانه،"

فتلحق به الكلبتان كالتابعة. تحاول نيلا هضم الوقع الغريب لاسميها. ريزيكي، دانه. في أسدلفت، أطلق كاريل على كلابهم أسماء مثل فنطيسة والأعور، أسماء تفتقر إلى الخيال، ولكنها انعكاسات مثالية للشخصية والمظهر.

قالت مارين:

- أخي. إنها هنا.

توقف يوهانس، لكنه لم يستدر، تهدل كتفاه، وأمال رأسه قليلاً إلى صدره، قائلاً:

- آه. فهمت.

- كان يحسن بك أن تكون هنا عندما وصلت.

- أنا واثق أنك عالجت الأمر بنجاح.

سكتت مارين، وطال الصمت بين وجهها الشاحب والكتلة

الصماء لظهر شقيقها. ثم قالت:

- لا تنس.

يمرر يوهانس أصابعه خلال شعره. ويجيب:

- وكيف لي أن أنسى؟ كيف لي؟

كانت مارين على وشك أن تقول شيئاً، لكنها عوضاً عن ذلك
لفت ذراعها حول جسدها. وقالت:

- الجو بارد جداً.

- اذهبي الى الفراش إذن. عليّ أن أعمل.

أغلق بابها، وطوحت مارين بعباءة أخيها حول كتفها. مالت
نيلا للأمام أكثر، فشاهدت مارين تدفن وجهها في طيات
القماش الطويلة. أصدر سور السلم صريراً، فتزعت مارين
العباءة بسرعة، وهي ترفع أنظارها وتحقق في الظلام. وحينما
فتحت مارين خزانة في الدهليز، عادت نيلا زحفاً إلى غرفتها
لتنظر.

بعد دقائق، وإثر سماعها صوت باب غرفة مارين يُغلق في
نهاية الممر، نزلت نيلا مُتسللة على الدَّرَج الرئيس، وتوقفت
عند خزانة البهو، توقعت أن تجد العباءة معلقة، لكنها وجدت
مكومة على أرضية الخزانة. جثت، وتناولتها، فوجدت فيها
رائحة رطبة لرجل متعب والمدن التي رآها. بعد تعليقها على
المشجب، اقتربت نيلا من الباب الذي اختفى وراءه زوجها،
فطرقتة، قال:

- بحق السماء. سنتحدث في الصباح.

- إنها أنا. بترونيلا. نيلا.

بعد لحظة، فُتح الباب، وظهر يوهانس، وجهه في الظل. إنه عريض المنكبين، لم يذكره نيلا بهذه الهيئة في الكنيسة نصف الخالية بـ أسدلفت. يقول:

- "إسبوزا ميا."

لم تفهم نيلا ما قاله. تراجع إلى ضوء الشمعة، فرأت وجهه الذي اصطبغ بالسمرة وسفحته الشمس. عيناه الرماديتان شفافتان كعيني مارين، ليس زوجها شاباً، شعره مُدهن عند منابته، لونه فضي باهت. قالت: إنني هنا.

- أنتِ كذلك. ثم أشار إلى منامتها، وقال: يجدر بك أن تكوني نائمة.

- جئتُ لتحييتك.

يتقدّم ويقبل يدها، فه أنعم مما تخيلت.

- سنتحدث في الصباح، يا نيلا. إنني مسرور لوصولك سالمة. جد مسرور.

لا تركز عيناه على شيء لفترة طويلة. تمكنت نيلا في لغز إرهابه، وانتبهت إلى رائحة مسك نفاذة في الهواء، كثيفة ومزعجة. ثم تراجع يوهانس إلى الوجود الأصفر في داخل ما يبدو أنها حجرة مكتبه، وأغلق الباب.

انتظرت نيلا للحظة، ثم رفعت عينها إلى السلم الرئيس حيث الظلام الدامس. فكرت، لا بد أن مارين نائمة من دون شك، سألقي نظرة واحدة فقط، لأطمئن على طائري الصغير.

نزلت الدرج على رؤوس أصابعها إلى المطبخ، فوجدت قفص بيغائها معلقاً قرب الموقد المفتوح، حيث الجمرات

المحتضرة تضيء القضبان المعدنية برقة. قالت والدتها في أحد الأيام: "جميع الخادmates خبيثات. لكن خادmates المدينة أسوأ." لم تشرح لها السبب تماماً، لكن المهم أن يبيو على قيد الحياة، على مجثمه، ريشه منفوش، يقفز ويطلق وقد تعرف نيلاً. رغبت أكثر من أي شيء آخر في أن تأخذه إلى غرفتها، لكنها تفكر فيما قد تفعله مارين إن عصت أمرها، وكورنيليا وهي تضع عشاء مكوناً من وركين صغيرين مع إكليل من الریش الأخضر. فهمست:

- طابت ليلتك، يا بيبو.

خلف نافذة غرفتها، ارتفع الضباب فوق قناة الهيرغراخت، و بدأ القمر في الأعلى مثل قطعة نقدية باهتة. أسدلت نيلاً الستائر، والتفت بشاها جيداً، متخذة مقعداً في الزاوية، بعيداً عن سريرها الضخم. إن عريسها رجل ثري في أمستردام، صانع قرار سياسي في المدينة، سيد للبحر وكل ما يهبه. كانت والدتها قد علقت:

- تصبح الحياة صعبة إن لم تكوني زوجاً.

سألته نيلاً: "لماذا؟" بعد أن شهدت تحول امتعاض والدتها المستمر من والدها إلى ذعر بعد أبناء ديونه التي تلت وفاته، سألته عن سبب حرصها البالغ على تكبير ابنتها بخطر ربما يكون مشابهاً. فنظرت إليها والدتها كما لو كانت مجنونة، لكنها هذه المرة فسرت كلامها:

- لأن سنيور براندت راعي قطع، ووالدك مجرد خروف.

نظرت نيلاً إلى الإبريق الفضي جانباً، وطاولة الكتابة المصنوعة من خشب الماهوجني الأملس، والبساط التركي، واللوحات

الشهوانية. وهناك ساعة بدول جميلة تعلن عن الوقت بدقة، وقد نُقِشت. على وجهها شمس وأقار، وعقاربها مزركشة. إنها أجمل ساعة رأتها نيليا في حياتها. كل شيء يبدو جديداً، ويطلق بالثراء. لم يسبق لنيليا أن تعلمت هذه اللغة بعينها، لكنها ترى بأنها ستكون ضرورية. تناولت الوسائد التي سقطت على الأرض، ووضعتها على غطاء السرير المصنوع من الحرير الأحمر الغامق.

كانت السيدة أورتمان لا تكف عن الشكوى من عدم وجود خطاب مناسبين لأميال "جرايمع"، هكذا وصفت فتیان القرية. لكن المدينة، ويوهانس براندت، ضمنا مستقبل ابنتها.

- لكن - الحب، يا أمي. هل سأحبه؟

فصاحت السيدة أورتمان بطريقة مسرحية مخاطبة جدران أسدلفت المتقشرة:

- الفتاة تريد الحب. تريد الخوخ والقشدة.

قيل لنيليا إن الصواب في مغادرة أسدلفت، ويعلم الرب أن الهروب في النهاية كان كل ما أرادت. لم تعد لديها رغبة في لعبة السفن المتحطمة مع كاريل وأرابيلا، لكن هذا لا يمنع الإحباط الذي يتدفق الآن، وهي تجلس جوار سرير زفافها الخالي في أمستردام كمرضة تعنى بشخص عليل. ما الغاية من وجودها هنا وزوجها لم يستقبلها بصورة لائقة؟ اعتلت الفراش الخالي، استكانت بين الوسائد، مُحَبطة من نظرة الازدراء في عيني كورنيليا، والحدّة في صوت مارين، ولامبالاة يوهانس، همست لنفسها: "أنا الفتاة التي لم تأكل خوخة واحدة، ناهيك عن القشدة"

يبدو المنزل مستيقظاً رغم الساعة التي تمضي بلا رحمة. سمعت صوت باب المنزل الرئيس يُفتح ويُغلق، ثم باباً آخر في الطابق الذي يعلوها. هناك همسات وخطى أقدام تقطع الممر، قبل أن يغلف هدوء كثيف الغرفة.

أصغت بأثمة، وشق رفيع من نور القمر يتلأأ فوق الأرنب والرمان المتعفن في اللوحات. إنه هدوء خادع، وكأن المنزل نفسه يتنفس. لكنها لا تجرؤ على ترك فراشها مرة أخرى، ليس في ليلتها الأولى. كانت ذكريات عزف العود في الصيف الماضي قد أمتت، وكل ما استطاعت نبلا أن تسمعه يتردد في رأسها هو كلمات بائعة الرنكة "أحمق، أحمق" تحدث صريراً في صوتها القروي.

من كتابتي ياسمين

t.me/yasmeenbook

أبجدية جديدة



بعد أن فتحت كورنيليا الستار لتدخل شمس الصباح، وقالت عند نهاية سرير نيليا المُسعث. وقالت للقدم الصغيرة التي تبرز من أغطية الفراش:

- لقد وصل السنيور من لندن. ستتناولان الفطور معاً.

انفضت نيليا من فوق الوسادة، وجهها منتفخ مثل أطفال الملائكة. تنهى إلى أذنها صوت كل خادم بامتداد الهيرغراخت، مما سمهن تقمعق في الأسطال كأجراس مكتومة وهن يغسلن الأوساخ من أمام عتباتهن. سألت:

- كم بقيتُ نائمة؟

فأجابت الخادم:

- وقتاً كافياً.

- وكأني بقيتُ في هذا الفراش لثلاثة أشهر، تحت تأمير تعويذة.

ضحكت كورنيليا، قائلة:

- يا لها من تعويذة.

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء، يا مدام. ثم مدّت يديها: هيا. عليّ أن ألبسكِ.

- استيقظتِ حتى وقت متأخر.

- فعلت، أفعلت؟ تحدثت كورنيليا بصفاقة، وهذه الثقة

دفعت نيلًا إلى التلعم. لم تخاطبها أي من خادمتها والدتها بمثل هذه اللهجة.

تقول:

- لقد سمعتُ باب المنزل ليلاً، وباباً آخر في الطابق فوق. أنا واثقة من ذلك.

أجابت الخادم:

- محال. لقد أوصده توت قبل أن تصعدي.

- توت؟

- هكذا أنادي أوتو. إنه يعدّ أسماء التديل مخيفة، لكنني أحبها. وتناولت كورنيليا قيصاً داخلياً ووضعتته فوق رأس نيلًا ثم ألبستها ثوباً أزرق موشى بالفضة:

- "لقد دفع السنيور ثمنه.

قالت كورنيليا بصوت يملؤه الإعجاب. لا تلبث حماسة نيلًا للهدية أن تتلاشى - فالكمان طويلان جداً، ومهما تشد كورنيليا أربطتها، يظل صدرها متقلصاً داخل مشدها الضخم.

تأفقت كورنيليا، وهي تشد الأربطة إلى آخر مدى، من الزيادات الكبيرة، وقالت:

- لقد أرسلت مدام مارين قياساتك إلى الخياطة. كانت والدتك قد أرفقتها في خطاب. ماذا سأفعل بكل هذا القماش الزائد؟

قالت نيلًا، وهي تنظر إلى ذراعيها العائمتين:

- لا بد أن الخياطة قد أخطأت. أنا متأكدة من أن والدتي

عندما دخلت نيلا حجرة المائدة، وجدت يوهانس يتحدث مع أوتو في تمتمة أمام وثائق مُسببة. وعند رؤية زوجه أحفى رأسه تحية، وعلى وجهه تعبير لاه. ترسخ اللون في عينيه، من مائع إلى صلد. كانت ماري تحتسي ماء بالليمون، وعيناها ثابتتان على خريطة عملاقة تكسو الحائط خلف رأس شقيقها، متفرقات من اليابس متناثرة وسط محيطات فسيحة من الورق.

قالت نيلا:

- أشكرك على الثوب. تحرك أوتو إلى الزاوية ينتظر، ويده مملؤتان بمعاملات يوهانس.

ردّ يوهانس:

- لا بد أن هذا واحد من الأثواب. لقد أمرتُ بصنع عدة. لكنه لا يبدو كما تخيلت. أليس واسعاً قليلاً؟ يا مارين اتخذت مارين مقعداً، وربت فوطة مائدتها.

قالت نيلا:

- أخشى أنه ربما كذلك، يا سنيور. الرجفة في صوتها محرجة. متى كان، على مدار المراسلات بين أسدلفت وأمستردام، أن تقلص جسدها الذي تزوجت به إلى مسخ؟ تنظر إلى الخريطة على الحائط، عازمة ألا تبالي بالطول المضحك لكميها. ها هي هولندا الجديدة (أستراليا)، أشجار نخيل على ساحلها، وبحار فيروزية، ووجوه أبوسية تنادي المتطفلين.

قال يوهانس:

- لا بأس، ستصلح كورنيليا من شأنها. تضم يده كأساً صغيرة من الجعة. تعالي واجلسي، كلي شيئاً.

استقر رغيّف جاف وسمكة عجفاء في صحن في منتصف مفرش المائدة الدّمقس. فسرت مارين، متأملة كأس شقيقتها:

- سنأكل فطوراً مقتصداً هذا الصباح. إظهاراً للتواضع.

تمم يوهانس، وهو يتناول ملء شوكة من الرنكة:

- أو حرماناً من باب التجديد. تصمت الغرفة سوى من صوت مضغه اللطيف، ويرقد الرغيّف حاجزاً بينهم، جافاً، ولا يلبس. تحاول نيلا ابتلاع خوفها، وهي تحديق في صحنها الفارغ، وتلاحظ كيف أن هالة من الحزن لا تلبث أن تحيط بزوجها. تذكر كلمات شقيقتها كاريل:

- فكري في الأطعمة التي ستأكلينها، يا نيلا. سمعت أنهم في أمستردام يهتمون فراولة مغطّسة في الذهب. كم كان انبهاره سيخبو الآن.

وأخيراً قال يوهانس:

- مارين، اشربي بعضاً من هذه الجعة الممتازة.

فتجيب:

- إنها تسبب لي عسر الهضم.

حمية الأمستردامين بتجنب المال والندم. لا يمكنك أن تتركي العنان لنفسك. هيا، تحليّ بالتحدي. إن الشجاعة في هذه المدينة نادرة جداً هذه الأيام.

- لا أشعر بخير لحسب.

يضحك يوهانس أمام قولها، لكن وجه

- مارين يتقلص في ألم لا هزل فيه. وتقول: "كالوليكي.

وخلال الفطور الهادئ، لم يعتذر يوهانس عن إخفاقه في الحضور لاستقبال عروسه في اليوم السابق. إن شقيقته هي من توجه إليها الحديث، فيما تُضطر نيلًا إلى برم كُئيبها حتى لا تلتطمحها بحصتها من السمك المزيث. صرف أوتو الذي انحنى بتجئة، وأصابه تعاقب بعناية حزمة الورق. قال يوهانس:

- اعتنِ بالأمر، يا أوتو. مع شكري. تساءلت نيلًا إن كان التجار الذين يتعامل معهم يوهانس يمتلكون أيضاً مُساعدين مثل أوتو، أم أنه الوحيد. دقت في وجه أوتو بحثاً عن أي تعبير ينم عن الضيق، لكنه بدا مطمئناً وحاذقاً.

مع أسعار السبائك، المقايضة باللوحات، وإهمال بعض مُعلبي البضائع الذين ينقلون مخزونه من باتافيا، التهمت مارين فطوراً ألد من الأخبار التي يلقي بها يوهانس. وإن حدث وأبدى عزوفاً، تنتزعها مارين منه. تتناول التفت التي يقوها عن مبيعات التبغ، ومبيعات الحرير والقهوة، ومبيعات القرفة والملح. يتحدث عن قيود الشوغان الجديدة لنقل الذهب والفضة من ديمبا، عن الضرر الذي قد يسببه هذا على المدى الطويل، وكيف أن الفوك مع ذلك، عازمة على تقديم الرمح على الكرامة.

شعرت نيلًا بالثمالة مع كل هذه المعلومات الجديدة، لكن رأس مارين ظل ثابتاً. ما أهمية اتفاقية الفلفل مع سلطان باتنام، وما الذي يعنيه ذلك للفوك؟ يخبرها يوهانس عن تمردات مزارعي القرنفل في أمبون، إذ اكتظت أراضيهم بالأشجار بطلب من الفوك. عندما سألت مارين عن الطبيعة الحقيقية لاضطراباتهم، تجهم وجهه، وقال:

- لا بد أن الوضع قد تغير الآن، يا مارين، ولن نعرف شيئاً.
- وتلك، يا يوهانس، هي المشكلة في كثير من الأحيان.
سألته عن نوع من الحرير مردّه خياط في لومباردي: من أخذ
حق الاستيراد؟

- نسيت.

- من، يا يوهانس؟ من؟

- هنري فيلد. تاجر من شركة الهند الشرقية الإنجليزية.
ضربت مارين الطاولة بقبضتها:

- "الإنجليزية." نظر يوهانس إليها من دون أن يقول شيئاً،
وتابعت: فكر فيما يعنيه هذا، يا أخي. فكر. طوال العامين
الماضين. تركها تهيم في جيب رجل آخر. ولم...

- لكن الإنجليزية تشتري كل مكان هارلم الذي نصنعه.
- بأياد شحيحة.

- يقولون الشيء نفسه عنا.

كانت مفردات مارين مفاجأة حقيقية، من السبائك إلى
السلاطين عبوراً بالشركة الإنجليزية. لا ريب أن يوهانس
يتعدى حداً محظوراً، فأى امرأة تلك التي تعرف كل هذه
التفاصيل عن الفوك؟

شعرت يلا بأنها غير مرتئية، إنه يومها الأول هنا ولم يوجه
أيهما لها سؤالاً واحداً، وإن كان الجدل حول المستأجرين يمنع
نحلاً على الأقل فرصة لتفحص عريسها من طرف خفي. تلك
البشرة المسمرّة - هي ومارين شبهان مقارنة به. تخيله نحلاً

بقبعة قرصان، وسفينته تضرب الأمواج الزرقاء الداكنة لبحر بعيد، ثم انتقل خيالها إلى أماكن أخرى.

وخشية أن يرى الشخصيان الآخران هذه الصور تعبر وجهها، حدقت نيلا في صحتها. "كفانا من كل هذا"، قالت مارين، فانتفضت نيلا وكأنها قرأت أفكارها، وظل يوهانس يتحدث عن الشركة الإنجليزية، متجرعاً لجمعة الكهرمانية في قاع كأسه. قاطعته مارين:

- هل تحدثت إلى فرانس ميرمانز عن السكر الخاص بزوجه؟
صمته جعلها تتجهم: إنه يقبع فقط في المستودع، يا يوهانس. لقد وصل من سورينام منذ أكثر من أسبوع وما زلت لم تخبرهم بما ستفعله به. إنهم ينتظرون.
وضع يوهانس كأسه على المائدة. وقال:

- يفاجئني اهتمامك بالثروة الجديدة لآغنيس ميرمانز، لست قلقة على ثروتها. أعرف كيف تريد آغنيس هدم هذه الجدران.
- يا لشكوكك التي لا تنتهي! إنها تريد مني توزيع السكر الخاص بها لأنها تعرف أنني الأفضل.

- حسناً، فلتبعه إذن واتبه منهما. تذكر الخطر الذي نواجهه.
- ولكن من بين كل الأشياء التي قد أبيعها، تطالبين بهذا! ماذا عن الليكيريدي، يا مارين، اشتاء الأطحمة الحلوة - ماذا سيقول راعي كنيستك؟ التفت يوهانس إلى زوجته: تعتقد شقيقتي أن السكر ليس خيراً للروح، يا نيلا، لكنها تريد مني بيعه على أية حال. ما رأيك في ذلك؟

شعرت نيلا، وهي تذكر طلبها المرفوض للهرزبانة، بالامتنان

لاهتمامه المفاجئ. فكرت، الروح والمال، هذان الاثنان مهووسان بالروح والمال، قاطعتهما مارين قائلة بصوت حازم:

- كل ما أفعله هو الحفاظ على قوتنا، إنني أمتي الرب، يا يوهانس. هل تفعل أنت؟ أمسكت مارين بشوكتها مثل رمح ثلاثي صغير: أرجوك بع السكر لحسب، يا أنخي. إن عدم وجود نقابة لباعة السكر سيعود علينا بالنفع. نحن من نحدد السعر، ونحن من نحدد المشتري. تخلص منه وافعل ذلك سريعاً. سيكون هذا هو الأفضل.

حدق يوهانس في الرغيف المنبوذ راقداً بعدُ في منتصف المفرش الدمقس. قرقرت معدة نيلا، فوضعت يدها عليها غريزياً وكأن يدها ستسكتها. قال يوهانس رداً على مارين:

- لن يوافق أوتو على توجيهنا الجديد في التجارة الحرة. دفعت مارين أسنان شوكتها في القماش الدمقس:

- إنه رجل هولندي. رجل عملي. لم يرَ في حياته حتى مزرعة قصب.

- كاد أن يفعل.

- إنه يفهم تجارتنا مثلما نفعل تماماً، ونظرت إليه بعينها الرماديتين نظرة ثابتة، وأردفت:

- ألا توافقي؟

- لا تتحدثي باسمه. إنه يعمل لحسابي وليس لحسابك. وهذا المفرش ثمنه ثلاثون جِلدراً، لذا كفي رجاء عن صنع ثقوب في كل ما أملك.

صاحت مارين غضباً:

- كنتُ في المرفأ. أغرق رؤساء البلدية ثلاثة رجال صباح أمس، واحداً تلو الآخر. علقوا أبقالاً في أعناقهم. وضعوهم في أكياس وألقوا بهم في الماء.

في مكان ما في الدهليز، سُمعت قعقة، أعقبها صيحة كورنيليا:

- ريزيكي، كلبة شقية!

لكن نيليا لاحظت أن كلابي يوهانس في ركن هذه الغرفة، غافيان. أسبل يوهانس جفنيه، وتساءلت نيليا ما علاقة الرجال الغرقى بمخزون السكر، أو رأي أوتو، أو رغبة آغنس ميرمانز في زعزعة جدران منزلهم.

تمم يوهانس:

- أعرف كيف يغرق المرء. يبدو أنكِ نسيتِ أنني قضيتُ معظم حياتي في البحر.

بدا في صوت يوهانس تحذير، لكن مارين لا تستسلم:

- سألتُ الرجل الذي يخلي رصيف المرفأ لماذا أغرقهم رؤساء المدينة. فقال لأنهم لا يملكون نقوداً كافية لإرضاء ربهم." ثم توقفت لاهثة. بدا يوهانس أقرب إلى رجل مُنسحق، وقال:

- ظننتُ الرب يغفر للجميع، يا مارين؟

وصمت لا ينتظر إجابة.

كان الهواء حاراً والجو ساحقاً، جاءت كورنيليا بوجه أحمر لترفع الأطباق، نهض يوهانس عن كرسيه، ونظرت النساء الثلاث إليه بترقب، لكنه خرج من الغرفة، ضارباً الهواء بيده.

بدا على مارين وكورنيليا أنهما تعرفان ما يعنيه هذا، فتناولت مارين الكتاب الذي أحضرته معها. ولحّت نيليا العنوان، مسرحية هوفت، "الأحمق الحقيقي".

سألته نيليا:

- كم مرة يسافر؟

وضعت مارين الكتاب، متأففة من اثناء الصفحة، على الطاولة، وقالت:

- يرحل أخي. ثم يعود. ثم يرحل من جديد، تنهدت، وأردفت: سترين. ليس الأمر صعباً. أي شخص في وسعه أن يفعلها.

- لم أسأل إن كان الأمر صعباً. ومن يكون فرانس ميرمانز؟
سألت مارين:

- كورنيليا، كيف حال بيغاء بترونيليا هذا الصباح؟

- إنه بخير، يا مدام. بخير. تحاشت كورنيليا عيني نيليا. لا ضحكات في هذا اليوم، أو تعليقات لثيمة. بدت متعبة، وكان شيئاً يشغل بالها.

قالت نيليا:

- إنه يحتاج إلى هواء نقي. لا بد أن المطبخ تملؤه أبخرة الطهي. أريد أن أطيره في غرفتي.

قالت مارين:

- سينقر غرضاً ثميناً.

- لن يفعل.

- سيطير من النافذة.

- لن أفتحها.

أغلقت مارين كتابها بقوة خرجت، فاعتدلت الخادم في وقفها، مُضَيِّقَةً عينيها الزرقاوين في أثر سيدتها. وبعد لحظة من التردد، غادرت بدورها الغرفة. تتراجع نهلا في كرسيا، مُحَدِّقَةً بشرود في خريطة يوهانس. ظلَّ الباب مفتوحاً، وتناهت إلى أذنيها همسات مارين ويوهانس خارج حجرة المكتب.

- كرمي يسوع، يا مارين. ألا تملكين شيئاً أفضل تفعلينه؟

- لديك زوج الآن. إلى أين تذهب؟

“ولدي عمل أيضاً.”

“وما العمل الذي لديك في يوم أحد؟”

“مارين، هل تظنين هذا المنزل يُدار بالسحر؟ سأذهب لتفقد السكر.”

“لا أصدقك،” تقولها مارين بفحيح. “لن أسمح بهذا.” تشعر نهلا بالتوتر يزداد بين الشقيقتين، لغة صامتة أخرى تفيض في المكان.

- من غيري يسمح لشقيقته أن تخاطبه بهذه الطريقة؟ إنَّ كلامك ليس القانون.

- ربما. لكنه أقرب إليه مما تظن.

خرج يوهانس بخطى واسعة من باب المنزل، وشعرت نهلا بدخول الهواء بعومة، ثم أغلق الباب في وجه العالم الخارجي من جديد. اختلست النظر من خلف الباب تراقب مارين التي غطت وجهها، وتحدَّب كتفاها، صورة للبؤس.

ترومبلوي



صعدت مارين إلى الطابق العلوي، وابتعد صدى خطاها، فتسللت نيلاً إلى الطابق الأسفل، حيث يقطعق بيبو لسيدته. فوجدت قفص بيبو معلقاً الآن في مطبخ التقديم. لا طبخ يجري هنا، إذ يُدخّر الجهد لمطبخ الخدمة، في الجهة الأخرى من الممر. مطبخ التقديم هو غرفة تستخدم حصراً لعرض الأواني الصينية لعائلة براندت، بلا قدور ومقالٍ ترسل رذاذاً، وجدرانه نظيفة. تساءلت نيلاً منذ متى يتنفس بيبو هواء نقياً، وما يثير تساؤلها أكثر، من قام بهذا الفعل الخير.

جلس أوتو إلى طاولة جانبية صغيرة، يلّمع على مهل أدوات المائدة الفضية التي سيتناولون بها العشاء. لم يكن طويلاً لكن كتفيه عريضان، ويبدو حجمه كبيراً على كرسيه. وحينما رآها على العتبة، أشار نحو قفص بيبو. وقال:

- إنه مخلوق صغير صاخب.

- أعتذر. كنتُ سأضعه في غرفتي...

- أحب صغبه.

- آه. جيد. شكراً لأنك وضعته هناك.

- لم أكن أنا، يا مدام.

مدام... لها وقع جميل عندما يقولها. كان قيصه نظيفاً جداً، ومكويماً بعناية، بلا خيوط متقطعة أو بقع. تحركت ذراعه من تحت قماش الكاليكو ببهاء غير مُتعمد. كم عمره؟ ثلاثون، ربما أصغر قليلاً. حداؤه يلعب كحذاء ضابط في الجيش. كل شيء

فيه جديد جداً، غريب جداً. أصبحت مخاطبتها بمدام في منزلها،
يقولها خادم في ثياب متقنة كهذه، هي لجأة جوهر وجودها.
أفعم قلبها بالامتنان، لكن أوتو لم يلاحظ ذلك.

تضرج وجهها، وسارت إلى القفص تمسك ريش بيغائها من
خلال القضبان. أصدر بيبو صوتاً رقيقاً، ومرر منقاره خلال
ريشه كأنه يبحث عن شيء.

سألها أوتو:

- من أين هو؟

- لا أعرف. عمي اشتراه.

- لم يولد من بيضة في أسدلفت إذن؟

هزت نيلا رأسها نفيًا. لا شيء يمثل هذه البهجة والعجائية
سيولد في أسدلفت. شعرت بحرج ولكن أيضاً ببهجة شديدة،
إن أوتو يعرف اسم قريتها. ماذا تراه سيكون رأي أمها، وبار
البلدة، والتلاميذ الصغار، في هذا الرجل؟

تناول أوتو شوكة، ومرر خرقة ناعمة حول كل واحدة من
أسنانها، ضغطت نيلا على قضبان القفص إلى أن ابيضت
أناملها، وهي تمد عنقها متتبعه بلاط الحائط المصقول إلى نهاية
السقف. أحدهم رسم عليها ترومبلوي - قبة زجاجية ترتفع إلى
ما بعد الملاط نحو سماء وهمية.

- السنيور براندت هو من طلب صنعها قال أوتو، متتبعاً الجهة
التي تنظر إليها.

- إنها ذكية.

- إنها خدعة. لن تلبث أن تتقشر مع الرطوبة.

- لكن مارين أخبرتني أن هذا المنزل جاف. وأنه لا أهمية للنسب.

ابتسم أوتو:

- لا بد أني أخالفها الرأي إذن.

تساءلت نيلا إلى أي عبارة من عبارتي مارين يشير أوتو. جالت عيناها على الرفوف العملاقة المبنية داخل الجدار، حيث تحمي ثلاثة ألواح زجاجية ضخمة تشكيلة من الأطباق وقطع البورسلين. لم يسبق لها من قبل أن رأت مثل هذه المجموعة الكبيرة. كان أهلها يملكون مجموعة صغيرة من الخزف الدلني والقليل غيرها، إذ كان عليهم بيع معظمها.

قال أوتو:

- عالم السنيور في طقم من الأطباق. أصغت نيلا، مُحاولَة البحث في صوته عن تفاخر أو حسد، لكنها لا تجد أيًا منهما. كانت نبرة أوتو محايدة بصورة مدروسة. استترد:

- - دلفت، ديبما، الصين، عبور البحار في أواني الفخار.

- أليس زوجي غنياً بما يكفي لتعيين شخص يسافر نيابة عنه؟

عقد أوتو حاجبيه أمام نصل السكين الذي يلبّعه. "على المرء أن يحافظ على جريان ثروته، ولا أحد سيفعل ذلك نيابة عنه. سوف تنساب من بين أصابعه إن جانب الحرص. توقف، وطوى، الخرقاة الناعمة في مربع أنيق.

- هو يعمل بجهد إذن؟

حرك أوتو إصبعه حركة حلزونية، وأشار إلى إلى القبة الزجاجية الزائفة فوق رأسيهما، وقال:

- لقد ارتفعت أسهمه إلى أعلى وأعلى.

- وماذا يحدث عندما تصل إلى القمة؟

- ما يحدث منذ الأزل، يا مدام. يحدث الفيضان.

- ثم؟

- حسناً، أفترض أننا إما نفرق وإما نعوم. تناول ملعقة مرق

كبيرة، ونظر إلى ملامحه، وقد انكشيت في الفضة المحدبة.

- هل تذهب معه إلى البحر؟

- لا.

- لماذا؟ أنت خادمه.

- لقد أقلتُ عن الإبحار.

تساءل نيلا كم عاش على هذه الأرض الاصطناعية،

المدعومة من المستنقعات بالأراضي المستصلحة العميقة. سمته

مارين هولندياً. قال أوتو:

- إن روح السنيور تنتمي إلى البحر. أما روحي فلا، يا مدام.

سحبت نيلا يدها من قفص بيبو، واتخذت مقعداً إلى جوار

المدفأة:

- كيف تعرف كل هذا عن روح زوجي

- أليس لي أذنان وعينان؟

جفلت نيلا. لم يتوقع مثل جرائمه، لكن كورنيليا التي شعرت

بحرية القول نفسها، قالت:

- طبعاً لك، أنا...

يقول أوتو:

- إن البحر شيء لا تستطيع اليابسة أن تكون مثله، يا مدام.
لا رقعة تبقى على حالها.

- أوتو.

برزت مارين من الباب. فنهض أوتو، وأدوات المائدة التي
يلبّعها مُسجّاة كترسانة من الأسلحة البراقة. فالتفت إلى نيلا
قائلة:

- إنه يعمل. ولديه قائمة طويلة من المهام.

- كنت أسأله فقط عن شيء يخص...

- اترك هذا، يا أوتو. عليك إرسال تلك الخطابات.

استدارت مارين، واختفت. فهمس أوتو لنيلا خلف وقع
الخطى المتراجع:

- مدام، لو أنك أمام خلية نحل فهل كنتِ تركلينها؟ لن تجني
حينها سوى لسعة.

لم تستطع نيلا أن تجزم هل هي نصيحة أم أمر. ثم يضيف
وهو يومئ نحو يبيو:

- لو كنتِ مكانكِ لأبقيتُ هذا القفص مغلّقاً، يا مدام.
وراح يصعد سلم المطبخ بخطى محسوبة تماماً وناعمة.

الهدية



طوال الليلتين التاليتين في المنزل، انتظرت نهلاً أن يضع يوهانس يديه عليها ويفتح حياتها من جديد. ترك باب غرفتها موارباً، والمفتاح يتدلى من اللوح الخشبي السميك، ولكنها عندما تستيقظ في الصباح، تجد نفسها كما هي، لم تُمس. يبدو أنه يعمل إلى وقت متأخر. في الليل، تسمع صرير باب المنزل يُفتح، وغالباً في باكورة الصباح عندما تشق الشمس أفق السماء. يتسرب الضوء الكليل إلى عينيها، تنهض، وتدرك أنها مازال بعد وحيدة.

ما إن تبدل نهلاً ملابسها، حتى تتحول بلا هدف بين الغرف في الطابقين الأرضي والأول. في مؤخرة المنزل، حيث لا وجود للضيوف، تصبح الغرف أبسط، لأن كل الأبهة قد أُدخرت للغرف التي تطل نوافذها على الشارع. هذه الغرف تبدو في أجمل صورها عندما تخلو من أي أحد.

تدير رأسها حول الأعمدة الرخامية المستديرة وتدخله في المدافئ الفارغة، وتُجمل عينين مبتدئين على اللوحات - الكثير جداً منها! سفن بصوارٍ صليبية الشكل تشق السماء، مناظر طبيعية تبدو حارة، مزيد من الزهور المحتضرة، جماجم مقلوبة تشبه خضروات جذرية بُنية، آلة كان مقطوعة الأوتار، حانات متناثرة وراقصات، صحن ذهبية، أقداح صدفية مطلية بالمينا. إن النظر بسرعة فيهم جميعاً يُشعر بالغبثان. وما زال ورق الحائط الجلدي الرقيق يفوح قليلاً برائحة الخنازير، ويذكرها بمزارع أسدلفت. وإذا تبتعد عنه، عزوفاً عن مكان ظننت أنها حريصة

جداً على نبذه، تجد نيلاً نفسها أمام بساط جداري ضخم يتدلى من الإزار؛ عليه مشاهد من الكتاب المقدس، لمريم ومرثا مع يسوع، عُرْس قانا الذي حول فيه يسوع الماء إلى خمر، نوح العبقري وملكه المتين.

في مطبخ الخدمة، لاحظت نيلاً عودي يوهانس اللذين تواظب كورنيليا على تليعهما وتعليقهما على القرميد. وحينما امتدت يدها لتزج أحدهما من خطافه، انتفضت مجفلة، لأن يداً رادعة أمسكت بكتفها.

قالت مارين بغضب:

- إنها ليست للعزف. إنها قطعة فنية سيتلفها نترك على أوتارها.

- هل تلاحقيني؟ وعندما لم ترد مارين، ربت نيلاً على العود: إن أوتاره مرتخية. من فقر الرعاية.

انقلبت على عقبها تصعد الدرج باختيال. كانت غرفة مارين في نهاية الممر في الطابق الأول قد ظلت مجهولة بالنسبة إليها، فنظرت إلى ثقب بابها البعيد، مُتسائلة أي زلزلة جرداء لا بد أنها تكمن في الداخل. يكاد حنقها يدفعها إلى أن تدخل. من تحسب مارين نفسها حتى تقول لها لا؟ إنها سيدة هذا المنزل في النهاية.

لكن نيلاً عادت عوضاً عن ذلك إلى غرفتها، تحدق في ضيق إلى الريش الملطخ بالدماء للطيور المرسومة، مناقيرها المقوسة الشبيهة بأفواه السحالي. يا إلهي، إن مارين تكره حتى الموسيقى! ألا تعرف أن العود لم يُصنع لتعليقه على الجدران؟

لا تحادثها مارين عادة إلا بأمر، أو عظة دينية مقتطفة من

إنجيل العائلة، والمصممة عادة للإخضاع. عندما تجمع أهل المنزل في الدهليز ليسمعوا مقاطع من الكتاب المقدس، تُفاجأ نيلًا عندما ترى أن هذه هي وظيفة مارين. كان والدها من تولى تلك المهمة عندما أفاق من سكره، ثم خلفه كاريل، بأعوامه الثلاثة عشر وطول ممارسته، في القراءة لشقيقته وأمه.

في أوقات أخرى، تجلس مارين على كرسي أخضر من القטיפي في الصالون، عاكفة على دقتر حساباتها. يبدو أنها دقيقة جداً مع حسابات المنزل، أعمده مدرج موسيقي، وأرقامه نوتات تُعثر عليها أمواهم في لحن صامت. رغبت نيلًا في معرفة المزيد عن تجارة زوجها، عن سكر فرانس وآغنس ميرمانز، لكن الحديث مع مارين لم يكن هيناً قط.

إلا أنها في اليوم الثالث، تسللت إلى الصالون حيث تجلس مارين، مُطأطئة الرأس كمن تصلي. وكعادته يكون دقتر حسابات المنزل مفتوحاً فوق حجرها.

- مارين؟

لم تكن نيلًا قد نادت مارين باسمها مجرداً من قبل؛ شعرت بجرأة صريحة غير مألوفة من أثر ذلك، لم تصل طعناتها في جسد الحميمة إلى نهايتها.

- نعم؟ رفعت مارين رأسها بحركة سريعة. أراحت قلبها بحركة استعراضية على الصفحات المفتوحة، ووضعت يديها على نقوش أوراق الشجر المُعقدة للكرسي. ومن خلال النظرة الصارمة في عيني مارين الرماديتين، نمت نيلًا أن المناقشة حول العود لم تُنس؛ أحست أن مارين تُفحصها بدقة، فازداد هلمها. كانت بقعة حبر قد تسربت من رأس قلم مارين.

اندفعت نيلاً قائلة:

- هل هكذا سيكون الوضع دائماً؟

السؤال الصريح شعن الجو، وتصلب من ذلك ظهر مارين:

- أي وضع؟

- إنني... لا أراه أبداً.

- إن كنتِ تقصدين يوهانس، فأؤكد لك أنه موجود.

- أين المكان الذي يعمل فيه؟ تحرك نيلاً المحاذة إلى حيث تضطر مارين إلى منحها إجابة أكثر تحديداً، ويترك سؤالها تأثيراً أغرب من الأول؛ فيصبح وجه مارين جامداً.

وأجابت بصوت مكتوم ومقتضب:

- في أماكن عدة. البورصة، الميناء، مكاتب الفوك في الهوجسترات القديمة.

- و... ماذا يفعل في هذه الأماكن؟

- لو كنتُ أعرف ذلك، يا برونيل...

- لكنك تعرفين. أعرف أنك تعرفين...

فثارت مارين قائلة:

- إنه يحول الطين إلى ذهب. يحول الماء إلى جلدات. يبيع أسهم الآخرين بأسعار أفضل. يملأ سفنه ويرسلها إلى البحر. إنه يظن الجميع يفضلونه. هذا كل ما أعرفه. ناوليني الكانون، قدماي مثل جبلي جليد.

اعتقدت نيلاً أن هذه ربما أطول سلسلة جمل على الإطلاق تحدثت بها مارين إليها. قالت:

- في وسعك دائماً إشعال المدفأة. ثم حملت كأنوناً صغيراً
ساخناً إلى حيث مارين، التي وضعت فوقه قدمين لصيقتين،
فتابعت نيلا: أرغب في رؤية المكان الذي يعمل به. سوف
أذهب لزيارته قريباً.

أغلقت مارين دفتر الحسابات، وظل القلم عالقاً في داخله،
حدقت في غلافه الجلدي المهترئ، وقالت:

- لا أنصحك بذلك.

عرفت نيلا أنه يجدر بها الكف عن طرح الأسئلة، لأنها لا
تلقى رداً سوى لا. لكنها لا تتمالك نفسها:

- لماذا؟

- إنه مشغول.

- مارين...

تهتف مارين:

- أخبرتكِ والدتكِ من دون شك أنه سيكون الوضع هكذا ؟
إنكِ لم تتزوجي بكاتب العدل المحلي.

- لكن يوهانس...

- برونيللا إن عليه أن يعمل. وكان عليكِ أن تتزوجي أحداً.

- أنتِ لم تفعلي. لم تتزوجي أحداً.

انقبض فك مارين و شعرت نيلا بشراة نصر صغيرة.

أجابت مارين:

- كلا. لكنني حظيتُ دائماً بكل ما أردته.

في الصباح التالي، اختارت مارين أمثلة، قصة عقابية من سفر أيوب، تَهِبُهَا بالتطهير من إنجيل لوقا.

“وَلَكِنْ وَبِئْسَ لَكُمْ أَيُّهَا الْأَغْنِيَاءُ، لِأَنَّكُمْ قَدْ نَلِمْتُمْ عِرَاءَ كُمْ.

وَبِئْسَ لَكُمْ أَيُّهَا الشَّبَاعَى، لِأَنَّكُمْ سَتَجُوعُونَ.

وَبِئْسَ لَكُمْ أَيُّهَا الضَّاحِكُونَ الْآنَ، لِأَنَّكُمْ سَتَحْزَنُونَ وَتَبْكُونَ.”

كانت تملو بسرعة، وبلا نغم، وكأنما يجرجها أن تسمع صوتها يتردد على القرميد الأبيض والأسود، وتمسك يداها بالمِقْرَأِ وكأنه طوق نجاة. رفعت نيلا عينها فيما مارين تترنم بالآيات، وتتساءل لماذا ما تزال هنا، عزباء، من دون ديلة زواج حول إصبعها. ربما لم يجدوا ذلك الرجل الشجاع بما يكفي لتحمل التعنيف؟ استمتعت نيلا بلذة الفكرة اللثيمة.

سألت نفسها، هل هذه هي عائلتي الجديدة؟ لا يبدو ممكناً أن هؤلاء الناس قد ضحكوا قط، خلا قهقهات تخفيها أيديهم. مهام كورنيليا المنزلية تبدو أبدية. إذا لم تكن في الأسفل تغلي سمك حفش، فهي تلبع الأثاث المصنوع من خشب البلوط والورد، أو تكنس المساحات الشاسعة من أرضيات الطابق العلوي، وتنفض الشراشف، وتلبع لوح نافذة تلو الأخرى. يعلم الجميع أنه بالكبح يتحلى المرء بالفضيلة. إنه يصون جميع الهولنديين الصالحين من قبضة الترف الخطرة والخسيسة، إلا أن شيئاً في كورنيليا لا يوحي ببراءة كاملة.

اعتلى وجه أوتو تعبير عميق في أثناء إصغائه إلى الكلمات. وعندما تلتقي عيناه بعيني نيلا، يشيح بوجهه في عجلة. ويبدو التواصل بالنظرات في لحظة تأمل روحي كهذه أقرب إلى الخطيئة. اختار يوهانس أن يشبك يديه في وضع الصلاة،

وعيناه على الباب.

عادت نيلا إلى غرفتها، وشرعت في كتابة خطاب إلى والدتها، تشرح فيه مآزقها. لكن الكلمات التي تختارها لا تكشف عن أفضل خصائصها، ترفض مضاهاة ما تشعر به في داخلها. تعجز نيلا عن وصف حيرتها، مناقشاتها مع مارين، زوجها الذي يتحدث جميع اللغات عدا الحب، أو الخدم بعوالمهم الخفية، وضحكاتهم التي هي بدورها لغة أخرى. بدلا من ذلك، تخريش أسماء - يوهانس، أوتو، توت، وترسم صورة لمارين برأس عملاق، ثم تكوّر الورقة وتلقها، لتقع منحرفة عن النار.

بعد مضي ساعة، تصاعدت من السلم الرئيس أصوات رجال ونباح كلاب وضحكة يوهانس. نظرت نيلا من النافذة إلى مجرى القناة، فرأت ثلاثة حرفيين أقرباء يتدلى الحبال على أكفاهم. وهم يخرجون من المنزل، بأكمام مرفوعة.

في الوقت الذي غادرت فيه نيلا غرفتها، كانت مارين في البهو فعلاً. تهمس بصوت عالٍ:
- يوهانس، ماذا برّيك فعلت؟

بخطى خفيفة تقطع نيلا فسحة السلم، وتشق عندما ترى ما تركه الرجال الثلاثة في الدهليز.

في وسط الأرضية وضعت خزانة، بناء ضمن شاخص، يصل ارتفاعه إلى منتصف طول يوهانس تقريباً، صوان ضمن يقف على ثمانية أقدام مقوسة ومتينة، على واجهته تنسدل ستارتان من القطيفة الملونة بلون الخردل. وإذ نُقل مقرأ الكتاب المقدس إلى الركن لإفساح مكان، وقف يوهانس إلى جوار الخزانة.

مُريحاً يداً فوقها، وهو يحدِّق في الخشب اللامع، وابتسامته لا تخبئ بداً حيويًا، وسيماً أكثر من أي مرة رأته فيها نيلًا.

اقتربت مارين من الخزانة بحذر، وكأنما ستقع فوقها، أو ستبدأ في التحرك من تلقاء نفسها. قراجع ريزيكي بدمدمة عميقة. وسألت مارين:

- هل هذه مزحة؟ كم تكلفت؟

فيقول يوهانس: "أختاه، دعينا ولو مرة من الحديث عن المال. طلبتِ مني أن أبحث عن تسلية..."

- ليس بهذه البشاعة. هل تلك صبغة زعفران في الستائر؟

- تسلية؟ تردد صوت نيلًا وهي تقف على الدرج. فاستدارت مارين لتواجهها، بتعبير مصدوم على وجهها.

نادى يوهانس:

- شيء لأجلك. هدية زفاف. وربت على جانب الخزانة، قراءات اختلاجة في ستاؤها.

- ما هي، يا سنيور؟

- مصنوعة من خشب البلوط والدردار. الدرदार قوي، قال يوهانس، وكأنه التفسير الذي كانت عروسه تنتظره. ينظر إلى مارين: إنه يُستخدم للتوايت.

زمت مارين فها، وقالت:

- من أين حصلت عليها، يا يوهانس؟

نفض يوهانس كتفيه:

- سمعتُ من رجل في المرفأ أن لديه خزائن خلفها لنجار ميت.

طلبتُ تحسينها بكسوة مزخرفة، وتطعيمها بالفضة.”

فقلت مارين:

- لماذا فعلت هذا؟ إن برونيل لا تحتاج إلى مثل هذا الشيء.

يجيب يوهانس:

- إنه من أجل تعليمها.

- ماذا؟

مدَّ يوهانس يده إلى ريزيكي لكن الكلبة تُعرض عن سيدها.
“صه، يا فتاة. صه.”

- إنها لا تحبه، قالتها كورنيليا، التي تبعت نيلًا أسفل الدرج،
وفكرت، هل تشير كورنيليا إليها أم إلى الكلبة. كلتانا، كما يبدو،
لاحظت انتصاب الشعر على عنق ريزيكي. فحملت كورنيليا
مكنستها كهراوة أمامها، وكأنها تتوقع هجوماً.

قالت مارين بسخرية:

- تعليم؟ ما حاجة برونيل إلى التعليم؟

فقال يوهانس:

- لا بد لي من القول إنها في حاجة ماسة جداً.

“لا، لستُ كذلك” هكذا تُفكر. إنني في الثامنة عشر لا
الثامنة. سألت، مُحاولاً إخفاء استيائها:

- ولكن ما هي، يا سنيور؟

وأخيراً، مدَّ يوهانس يده إلى الستائر، وبمركبة مسرحية
متكلفة، فتحها على مصراعها. وشهقت النساء. جوف الخزانة
مكشوف، ومقسم إلى تسع أجنحة، بعضها مبطن بورق حائط

ذي نقوش ذهبية وبعضها بألواح خشبية.

تقول نيلا:

- هل هو ... هذا المنزل؟

- بل هو منزلك. صوّبها يوهانس، مُتبهجاً.

- كان تنظيفه ليصبح أسهل بكثير. قالتها كورنيليا، وهي تمد عنقها لترى داخل الغرف العلوية.

إن دقة الخزانة مخيفة، وكأنها المنزل الحقيقي وقد انكش، وقُسم بدنه إلى نصفين وكُشفت أعضاؤه. الغرف التسع، بداية من مطبخ الخدمة، إلى الصالون، صعوداً إلى العلية حيث يُخزّن السماد والحطب بعيداً عن الرطوبة، هي نسخ طبق الأصل. "إنه يحوي قبواً خفياً أيضاً"، قالها يوهانس، وهو يرفع الأرضية التي تفصل بين مطبخي الخدمة والتقديم، ليكشف عن مساحة فارغة مُخبّأة. حتى سقف مطبخ التقديم قد طُلي باللدعة البصرية نفسها. تذكرت نيلا حديثها مع أوتو. يحدث الفيضان، هكذا قال، مشيراً بإصبعه إلى تلك القبة الوهمية.

زجرت ريزيكي، وحامت حول الخزانة.

- كم كان ثمنها، يا يوهانس؟

قال بهدوء:

- كان الهيكل بألفين. ورفعتها الستائر إلى ثلاثة.

- ثلاثة آلاف جِدر؟ ثلاثة آلاف؟ تستطيع عائلة أن تعيش بهذا المبلغ، إن استثمرته جيداً لأعوام.

- مارين، إنك لم تعيشي بألفي جِدر لعام واحد، بكل وجبات الرنكة على الغداء. ومع صفقة ميرمانز، لما الداعي إلى

- حسناً، لو أنك كنتَ تفعل شيئاً بذلك الخصوص، لما قلقتُ...

- لمرة واحدة في حياتك، اسكتي.

وقفت مارين على مريض بعيداً عن الهيكل الخشبي. وظهر أوتو من المطبخ يرمق الوافد الجديد باهتمام. بدا يوهانس مُحبطاً قليلاً، وكأنه أحس ببادرته تعطي نتائج عكسية.

الكسوة المزخرفة ذُكِّرت نيلاً بالخريف في أسدلفت، هيجان اللونين البرتقالي والبني، كاريل يمسك بيديها ويدور بها تحت أشجار الحديقة. كان القصدير قد عُشِق بأوردة معدنية، في دقة وانسيابية على كامل سطح الخزانة، حتى السيقان. ثمة إثارة غريبة في الخشب والقشرة. حتى ملمس الستائر القطيفة يوحي بقوة ما.

في أسدلفت، عرفت نيلاً أطفالاً أثرياء أهداهم أهلهم منازل دمي، لكن أحدها لم يكن بهذه الضخامة. قبل أن يبدُر والدها نقودهم في الخمر، كان مُحتملاً أن تحصل بدورها على واحد - أصغر من هذا، أداة للتمرين على كيفية إدارة برآدها ومفارشها وخدمها وأثاثها. لقد تزوجت الآن، وتحب أن تقتنع ألا حاجة إلى ذلك.

ضبطت نيلاً يوهانس وهو يراقبها. قالت:

- أرضية الدهليز هي نفسها! وأشارت إلى أسفل أقدامهم إلى حيث امتدت البلاطات السوداء والبيضاء، ووضعت إصبعها بلباقة على المربعات الصغيرة المناظرة.

قال يوهانس:

- رخام إيطالي.

قالت مارين بغضب:

- إنها لا تعجبني. ولا ريزيكي كذلك.

رد يوهانس بانفعال:

- حسناً، تشترك الكلاب في ذوق واحد.

اشتعل وجه مارين باللون الأحمر، واندفعت نحو باب المنزل تصفقه خلفها.

سألت كورنيليا، ببرة مدعورة:

- إلى أين تذهب؟" وأخذت تراقب هي وأوتو مسار سيدتهم من نافذة الواجهة.

قال يوهانس:

- حسبتها ستكون مفاجأة سارة.

فقالت نيلا:

- ولكن يا سينور. ماذا علي أن أفعل بها؟

نظر إليها يوهانس نظرة جوفاء قليلاً. وفرك الستائر القطيفة بين سبابته وإبهامه قبل أن يسدها:

- ستفكرين في شيء ما.

اختفى يوهانس في حجرة مكتبه بتكّة رتاج. وأسرع أوتو وكورنيليا إلى الطابق تحت الأرضي، نحو مطبخ الخدمة. وحيدة، باستثناء ريزيكي التي تتحول في أرجاء الدهليز، تأملت نيلا هديتها. وهوى قلبها. همست لنفسها "لم أعد صغيرة على هذا" من سيرى هذا العمل الفني، من سيجلس على تلك

الكراسي، أو يأكل الطعام الشمعي؟ إنها لا تملك أصدقاء، ولا عائلة في هذه المدينة لتأتي وتهتف متعجبة - إنه تنصيب لعجزها، وأنوثتها المحبوسة. قال زوجها، هو منزلك - ولكن من يمكنه أن يعيش في غرف مُصَفَّرَة، في هذه المربعات التسع المصمتة؟ أي نوع من الرجال يشتري هدية كهذه، مهما كان غلافها نفحاً، مهما بلغ جمال صنعتها؟

- لستُ في حاجة إلى التعلم. قالت جهراً. وأنت ريزيكي. فقالت لها نيلا: "لا شيء يُخيف. إنها مجرد لعبة." ربما يمكن تفصيل قبة من الستائر، هكذا فكرت، وهي تفتحها.

وقفت نيلا أمام جوف الخزانة المكشوف، ينتابها شعور بالتوتر. خيلَ إليها أن هيكلها الأجوف المصنوع من الدردار المزخرف يبادلها النظرات وكأنَّ حجراته أعين. وتناهدت إلى أذنيها من مطبخ الخدمة أصوات مرتفعة، كورنيليا تترأس الكلام، وأوتو يجيب في هدوء. وضعت يدها مترددة على الخشب مرة أخرى. له تأثير منعش مقارنة بالقطيفة، صلب كحجر مصقول.

قالت نيلا لنفسها "في غياب مارين وهلين الاثنتين في مطبخ الخدمة في الأسفل، أستطيع أن أحضر بيبو وأطيره قليلاً. لن يلاحظ يوهانس، وسوف أسرُّ برؤية بيغاثي يحلق في الهواء. لكنها عندما تتحول عن الخزانة إلى السلم الرئيس تقفز أفكارها مرة أخرى إلى الثقب البعيد في باب مارين، في الأعلى في نهاية الممر. انسي هذا التحقير بيت الدمى، هكذا أقنعت نيلا نفسها وهي تغلق ستائر الخزانة ذات اللون الخردلي. في وسعك أن تذهبي أينما أردت.

تركت نيلا، بقلب خافق، هدية يوهانس مهجورة فوق البلاط، وشقت طريقها على السلام نحو غرفة مارين، وقد

نسيت كل شيء عن ييبو. إلا أنها شعرت أن شجاعتها المزعومة
تأخذ في التراجع. ماذا لو ضبطني أحدهم؟ هكذا تتساءل،
وخيالها ينطلق مرة أخرى وهي تقطع الممر مهرولة بأقصى سرعة
تسمح بها تنورتها. ماذا سيحدث لي عندها؟

لكن نيفلا فتحت الباب الثقيل وعلى عتبة حرم مارين، بهتت
وصرفها المشهد الاستثنائي في الداخل عن حذرهما.

انتهاك



تجمدت على العتبة، لا تصدق ما تراه. كانت الغرفة التي بحجم خلوة راهبة، تحتوي على أغراض تكفي لتملأ ديراً. تساءلت: كيف تخلت مارين طوعاً عن المساحة الكبيرة لمخدعها القديم مقابل هذه الخلوة الطالفة بالتخييلات.

تدلى من السقف جلد مسلوخ لثعبان ضخم، مُنسدلاً مثل راية، أرق من أن يُلمس. ريشات من كل شكل ونوع، كانت في يوم ما على جسد طيور غاية في العجب، لمست برقة أصابعها الممدودة. وغريزياً بحثت نيلاً عن ريشة خضراء، وتنفست الصعداء عندما لم تجد واحدة تشبه بيبيو. وعلى الحائط ثبتت فراشة أعرض من كف يدها، قد بُمِّق الأزرق السماوي لأجنحتها بدوامات من الأسود. الغرفة مفعمة بالروائح. أقواها جوزة الطيب، لكن الجدران نفسها تتشبع أيضاً بخشب الصندل والقرنفل والفلفل، روائح دفء وتحذير.

تعمقت نيلاً أكثر. فرأت على طول الرفوف الخشبية البسيطة جماجم حيوانية مصفرة، تعود إلى مخلوقات تعجز حتى عن تخمينها - فكوك طويلة، قحف فطساء، أسنان قوية وحادة. درع خنفساء، لامع كحبوب القهوة، وقزحي في الضوء، ساطع بالأسود مع لمسة من الأحمر. درع سلحفاة مقلوب يتأرجح برقة عندما تلمسه. نباتات وثمار لبية مجففة، قرون بدور، والبدور نفسها، مصدر هذه الروائح المُسكرة، في كل مكان. هذه الغرفة لا تنتمي إلى أمستردام، وإن كانت تُظهر حبَّ الأمسترداميين للاقتناء. إنها امتداد الجمهورية، في أربعة جدران صغيرة.

هناك خريطة للقارة الأفريقية، ضخمة، ومغمورة جداً. وفي منتصف خط الساحل الغربي مكان مطوق يدعى بورتو نوفو. فوقها كُتبت أسئلة، بخط مارين الأنقى. طقس؟ طعام؟ دين؟ هناك خريطة لجزر الهند، بدوائر وأسهم عديدة، تحدد من أين جاءت النباتات والحيوانات الموجودة في هذه الغرفة. جزر الملوك ١٦٧٦م، باتافيا ١٦٧٩م، جاوه ١٦٨٢م - رحلات بحرية لم تتم بها مارين بنفسها قطعاً.

على الطاولة قرب النافذة دقتر مفتوح، ويظهر أنه يحوي تصنيفاً دقيقاً لكل هذه الأشياء. تجري الكلمات على يد مارين أفضل من لسانها، وتميِّزه نيلا من الظرف الذي أرسل إلى والدتها سابقاً من هذا العام. تشعر من جديد بتوتر الشخص المنتهك - تتنازعها الرغبة المستميتة في البقاء واكتشاف المزيد، والخوف من المصيدة التي ولجتها طوعاً. تُفكر، لستُ سيدة لهذا المنزل أكثر من أرايلا الصغيرة في أسدلفت.

في آخر الرف، مصباح غريب المظهر، له جناحا طائر ورأس امرأة وثدياها. مدت نيلا يدها لتلمس معدنه السميك البارد. وإلى جوار المصباح، تلُّ من الكتب، ينبعث من صفحاتها مزيج عضوي من روائح الرطوبة وجلد الخنزير. تناولت نيلا أول كتاب، وقد غلبها الفضول لمعرفة قراءات مارين، فلم تنتبه إلى أي شخص يصعد الدرج.

الكتاب الأول دورية أسفار بعنوان الرحلة المنحوسة لسفينة باتافيا. يعرف أكثر الناس في المقاطعات المتحدة بقصة تمرد ابن كورنيليس، وقيام لوكريتيا يانس بأسر ركاب السفينة وتورطها في قتل الناجين. ليست نيلا استثناءً، لكن والدتها كرهت الجوانب الماجنة هكذا في القصة. وعلتُ والدها في حياته:

“بسبب تلك المرأة يانس، لم تعد النساء يبحرن كثيراً، وهذا شيء جيد أيضاً. النساء في السفينة يجلبن الحظ السيئ.”

فأجابت السيدة أورتمان بحدة:

- إنهن يجلبن الحظ الذي يمنحه لمن الرجال.

أغلقت نيللا الكتاب، و أعادته إلى مكانه و هي تمرر أصابعها بعومة فوق البروزات المتعرجة لكعوب الكتب. هناك الكثير منها، وبمقدار ما تودُ قراءة جميع العناوين، فهي تعرف أنها لا يمكنها التلكؤ. لا بد أن مارين تنفق مبلغاً كبيراً على هذه العادة، هكذا اقترضت نيللا، وهي تفرك الورق الفاخر.

تحت الرحلة المنحوسة كُتاب لهنسيوس، والذي يعرف الجميع أنه نُفي من البلاد بسبب القتل. إن حيازة هذا الكُتاب أقرب إلى الجريمة، وامتلاك مارين لنسخة منه أذهل نيللا. توجد أيضاً طبعة من القِطع الكبير لرزنامة سانمان، وأمراض الأطفال لستيفانوس بلانكارت، والسرد المشهود لرحلة نيوهورن لبوتكو. قلبته نيللا سريعاً. إن كُتاب بوتكو هو حكايات عن الرحلة والخطر، مليئة بنقوش خشبية بديعة، وروافد سفن محطمة، ولحظات شروق رائعة، وبحار مُبتلعة. أحد النقوش يصور شاطئاً. وفي الخلفية أمواج تحوي سفينة كبيرة. وفي الواجهة، رجلان يقفان متواجهين. الرجل الأول تمتلئ ذراعه وساقاه بخطوط سوداء رقيقة، وفي أنفه حلق وفي يده رمح. أما الآخر فيرتدي زياً هولندياً قديم الطراز. لكنهما يحملان التعبير نفسه على وجهيهما. جامدان، ومحاصران داخل فلك تجربتهما المغلق، تفصل بينهما لجوة هي أوسع من البحر في الخلفية.

الكعب مرن، كان الكُتاب قد استُخدم. وحينما تحركت نيللا لإعادته إلى مكانه، سقطت من بين صفحاته ورقة تغطيها

كتابة. رفعتها عن الأرض. جعلت تلك الكلمات الدم يتجمد في عروقها.

أحبك. أحبك. شِبرًا شِبرًا منك، أحبك.

شعرت نيلا بوخز في سقف حلقها. وضعت الكتاب مدهولة، وعاجزة عن ترك الرسالة غير العادية. هناك المزيد من الكلمات على قصاصة الورق - كلمات متعجلة مهزوزة ليست بخط مارين.

أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها، مستدفئًا.

لمسة واحدة تدوم ألف ساعة. حبيبي -

اخترق ألم ذراع نيلا - شخص ما يقبض عليه ولا يفلت. ظهرت مارين، بوجه شاحب، وأدارت نيلا كدمية قاش، فطارت الرسالة إلى الأرض، وغطتها نيلا بقدمها، بينما مارين تجرّها إلى الخارج. وتسألها بتهديد: "هل

- نظرتِ في كتيبي؟ هل فعلتِ؟

- لا ... أنا...

- بل فعلتِ. هل فتحتهم؟

- لا، طبعاً...

أحكمت مارين قبضتها، كانت يدها ترتجف من الضغط. قالت نيلا بأنفاس مقطوعة: -

- مارين. أنا أتألم. أنتِ تؤلميني.

لم تفلتها مارين لبضع ثوانٍ أخرى، ثم هبت نيلا نفسها بقوة. وصرخت:

- سوف أخبر زوجي. سأريه ما فعلتِ!

تقول مارين بتهديد:

- نحن لا نحب الخونة. اذهبي. هيا.

- ابتعدت نيلا مُتعثرة، فارتطمت بجلد الثعبان في أثناء فرارها. هتفت مارين من ورائها:

- هذه الأشياء ليست لكِ!" ثم صفقت بابها، وتبخرت رائحة التوابل.

تمتت نيلا، وهي تنزوي في فراشها، فها جاف وعقلها لا يصدق. لمسة واحدة تدوم ألف ساعة! ذلك الخبر كان رحيقاً سرياً، لمارين ليست متزوجة.

كانت الكلمات مكتوبة على عجل لكن نيلا متأكدة أنه ليس خط مارين. تُفكر، ما كان عليّ أن أدخل إلى هناك أبداً. ربما كانت مارين تنتظر في الظلام أيضاً لتضبطني مُتلبسة؟ تخيل مارين تشنقها بوساطة عارضة في السقف، وقباقباها يسقطان من قدميها المتأرجحتين وسط الريشات، وجسدها البارد يستدفئ بنور شمس شاعري يتخلل النافذة.

بدأت صورة مارين في التبدل داخل عقل نيلا. فن بين ملابسها السوداء الباهتة، نهضت مارين كطائر أسطوري، تغلفها رائحة جوزة الطيب، لا يلائمها الزنبق، أو رقة الزهور. إن مارين برموز المدينة التي تغطيها، هي ابنة نفوذها، تمسح الخرائط في سرية، وتكتب الحواشي على العينات، وهي تكتب حواشي لشيء آخر أيضاً، إلا أن تصنيفه ليس سهلاً. تخيل نيلا رائحة التوابل على جلد مارين، وهي تسمعها عبر المائدة المفروشة بقماش الدَّمَقَس، تلمي على شقيقها كيف يتاجر. من

هذه المرأة؟ شَبْرًا شَبْرًا مِنْكَ، أَحَبُّكَ.

في اليوم التالي، قبيل الفجر مباشرة، تنزل على أطراف أصابعها إلى مطبخ التقديم. المنزل يغلفه الصمت، حتى أوتو وكورنيليا ما يزالان نائمين. ويتصميم غير متردد، رفعت نهلاً قفص بيبو. وأخذته إلى غرفتها، وهي تفكر في تلك الريشات المعلقة، مُقتنعة أن عليها من الآن فصاعداً أن تبقي بيغاءها إلى جوارها.

دليل سميت



فوق رأس نيلا، رفر فبيو وزقزق مُبتهجاً في أنحاء غرفتها، وعيناه السوداوان تلمعان. "قد تقطع مارين رأسك"، هكذا تخبر طائرها الصغير، وهي تشد حولها شالها أمام برد الصباح، لاجئة إلى التهديد لتحجيمه. يبدو الأمر مخيفاً وقد طلع النهار الآن، لكن قواعد هذا المنزل مراوغة كالماء. عليّ إما أن أغرق، وإما أن أعوم، هكذا تقول نيلا لنفسها. كدمتها التي تشبه لطفة نبيذ صغيرة بعد أن مرَّ عليها يوم، تؤلم حقاً عندما تضغط عليها. إنه لأمر مُربك. هل يوهانس لا يرى شقيقته؟ إنه لم يفعل شيئاً لتطويع مارين، على الرغم من كرهها الواضح لعروسه الجديدة.

طرفة حادة على الباب تقلب معدة نيلا. تقول: "ادخل"، ويضايقها الخوف في صوتها.

ظهرت مارين على العتبة، بادية الشحوب. وتقف نيلا فيسقط عنها شالها كاشفاً عن العلامة الداكنة. وفي المقابل حدقت مارين متبيسة في البيغاء، الذي كان يجثم الآن على لوح السرير الخلفي. إنها تمسك إلى صدرها كتاباً، فتنقبض أصابعها النحيلة حوله.

تقول نيلا:

- سابقيه في غرفتي.

- هاك. قالت مارين بصوت متحشرج ويدها ممدودة، تقدّم الكتاب.

- ما هذا؟

- دليل سميت. إنه كشف بجميع الحرفيين والمتاجر في هذه المدينة.

- ولماذا قد أحتاج إلى دليل سميت؟ سألت نيلا، وهي تسحبه من قبضة مارين.

- لتزيين منزلك.

- أيهما، يا مارين؟

- إذا تركت تلك الخزانة فارغة، فإنك بهذا تحولين هدية يوهانس إلى جريمة سفه. يجب أن تفعلي شيئاً بها.

- لست مضطرة إلى فعل أي شيء... .

واصلت مارين مندفعة:

- هاك، هذه أذونات صرف عليها ختم أخي وتوقيعه. سحبت حزمة أوراق من الكتاب، وخلطتها بأصابع مضطربة: في وسع أي بائع تشتري منه أن يأخذ إذن صرفه إلى الستدهاوس ويبادلده. ما عليك سوى كتابة المبلغ والتصديق على التوقيع. تمد مارين يدها بأذونات الصرف نحو نيلا وكأنها تجعل بينها وبين الشيطان مسافة: لا أكثر من ألف جِدر لكل إذن صرف.

تقول نيلا:

- لماذا تفعلين هذا يا مارين؟ ظننتُ الكتاب المقدس يقول إن التباهي بالثروة لا مرد له. لكنها تشعر بإثارة المال. إنها تتمنى لو يمكنها أن تنسى ذلك اليوم الفظيع الذي مات فيه والدها، عندما لم تجد أرايلا شيئاً في صندوق النقود سوى زر وعنكبوت مقلوب. تفكر، لن تفهم مارين رفاهية كهذه.

- خديهم وحسب، يا بترونيلا.

سرت بينهما عدائية، لطفة اعتادت شكلها. عندما رفعت
نملا أذونات الصرف من يد مارين كما تقضي الأصول، فإنها
لاحظت كم تبدو بأسة. فكرت، لو أن هذه مباراة، فقد
خسرت كلتانا. ولكنها عندما تمرر أصابعها على أذونات
الصرف، تشعر بقوتها الخفية.

- وماذا سيقول زوجي عن هذا؟

ظهر الإرهاق على وجه مارين:

- لا تقلقي. إن أخي يعرف خطورة البطالة.

بعد انصراف مارين، شرعت نملا في إزاحة أي تفكير حولها
والرسالة العاطفية. حملت دليل سميت إلى طاولة الكتابة وفتحته.
كان الكتاب معروضاً بترتيب أبجدي أنيق حسب المهنة.
الصيدليون، والفلكيون، والشعاعون، وصانعو الشوكولاتة،
ومؤلفو الأوبرا، وصانعو الأقفال، ليسوا إلا بعضاً من أصحاب
المهن المتنوعين الذين يدفعون أجراً لماركوس سميت حتى
يعرفوا. وهم من يكتبون الإعلان بأنفسهم، من دون أية قيود
على شكل كتابتها.

خارج نافذتها، تعجُّ القناة بالحياة. يتبادل المراكبية هتافات
عن قرصة الشتاء في الجو، وفي ركن أبعد، ينادي بائع خبز على
بضاعته، ويتصايح طفلان بطوق وعصا. وفي المقابل، يعم في
داخل المنزل صمت وسكون، لا يخترقه في غرفتها سوى التكة
الخفيفة لبندول الساعة الذهبي. وإذ تواصل نملا تصفح الكتاب،
بلفت انتباهها إعلان تحت حرف الصاد:

صانع دُمى

مقيم عند يافطة الشمس، في الكالفرسترات

الأصل من برجن

تدربتُ على يد ساعاتي بروس العظيم، لوكاس فندبريك

كل شيء، ولا شيء

إنه الإعلان الوحيد المدرج تحت صانع دُمي، ووروق نيلا اقتضابه، ووقعه الغريب. هي لا تعرف أين تقع برجن، ولا ما يفعله صناع الدُمي، ولا أن الساعاتية يمكن أن يوصفوا بالعظمة. إن صانع الدُمي هذا ليس من أمستردام بلا شك، هذا واضح. وبالتالي لا يمكن أن يكون عضواً في نقاباتها - ولا يُشرع التعاقد على عمل يجني من ورائه المواطنون المسجلون مالا. والدها عليها ذلك. كان من ليدن، وزعم أن قوانين النقابة المتشددة هي الملامة على تدهور حاله أكثر من أباريق الجمعة. ولا يعقل أيضاً أنه توجد نقابة لصناع الدُمي، بالتأكيد؟ إن نيلا مدهوشة لوجود الإعلان في دليل سميت من الأساس.

ولأنها قد تحررت من الضغط الذي يسببه حضور مارين، شعرت نيلا بالتحدي في داخلها يتوطد. إن مارين لم تعتذر حتى عن قرصها وكأنها طفلة شقية. مارين، بخرائطها وتسلطها، يوهانس وبابه المُغلق دائماً، كورنيليا وأوتو، قدسهما المشترك، ولقتهما الصامته التي تتمثل في التقطيع والتليبع وماء المسححة ولمعة السكين،

انتفضت نيلا واقفة، راغبة بشدة في التخلص من أفكارها، وما تسميه مارين خطورة البطالة. لا تجد نفسها قادرة على حب الخزانة، إنها إهانة لأنوتها. لكنها إذ تنشر أذونات الصرف أمامها كالمروحة، تكون هذه أول مرة في حياتها ترى كل هذا المقدار من الأموال المتاحة.

بينما يحلّق بيبو حول لوحات يوهانس الثمينة، تناولت نيلا قلبها على المكتب وتضجر غضبها في دفقة من الخريشات:

السيد العزيز،

رأيتُ إعلانك في دليل سميت، وأتمنى منك مساعدتي.

إنني أملك منزلاً من تسع غرف، بمقياس مصغّر، معروضاً في خزانة. أغامر بطلب هذه الأصناف الثلاثة وأنتظر ردك. لا يسعني سوى تخمين أنك ماهر في فن المصغّرات. ليست القائمة شاملة أبداً، وأستطيع الدفع بسخاء.

صنف: آلة عود بأوتارها

صنف: كأس عروسين، مليء بقصاصات احتفال

صنف: علبة مرزبانية

مع امتناني مقدماً،

بترونيلا براندت، القاطنة عند يافطة الدلفين، الهيرغراخت

لقبها الجديد يبدو مقتضياً جداً، وفظاً جداً مقارنة باللقب الذي تسمت به لثمانية عشر عاماً. ما تزال تشعر بعدم ارتياح عند كتابته، كارتداء ثوب معين يخصها لكنه لا يناسب مقاسها. فتشطبه وتكتب مكانه شكراً لك، نيلا أورتمان. قالت نيلا لنفسها، سوف يلاحظ ذلك. وسوف يضحك على الأرجح. دست الرسالة في جيبتها مع إذن صرف بثلاثمائة جِلدِر، ونزلت إلى مطبخ الخدمة لترى إن كانت تستطيع خطف فطور متأخر من على طاولة كورنيليا المليئة بالنُدب. قطعة خبز، شريحة لحم، أي شيء عدا الرنكة.

حشت كورنيليا ما يبدو أنها أوزة بالجزر، من دون أن

تتصد في وحشية الفعل. وخلفها، يشهد أوتو دبايس ويصنع بها تقوباً في ثمار الجوز. تساءلت نيلا لماذا يفعل ذلك، لكنها لم تسأل، إذ كانت قد اعتادت تملصه المهذب عن الإجابة. وفوق الموقد، يغلي مرق. بدت كورنيليا وأوتو، من جميع الأوجه، مثل زوجين في كوخهما، يعدان وجبتهما اليومية. شعرت نيلا من جديد بتقاربهما المريح، وجعلها هذا تشعر بالتعاسة. تتشبث بالخطاب في جيبتها، محاولة أن تستمد القوة من تخريب سعي يوهانس ومارين إلى ترويض الوافدة الجديدة. تقول نيلا لنفسها، آه، سوف أزين منزلي، يا مارين - بكل الأشياء التي تكرهينها.

- هل يؤمك، يا مدام؟ سألتها كورنيليا، وقد علقت قشور الجزر في يديها الآن مثل شرائط احتفالات برتقالية باهتة.

شدت نيلا شالها حولها، وقالت:

- ماذا تعنين؟

- ذراعك.

- هل كنت تتجسسين؟

ألقي أوتو نظرة عاجلة إلى كورنيليا، لكن الخادم تضحك:

- إنها مثل سلطعون يخرج من قوقعته ليقرص قرصة، يا مدام! نحن نتجاهلها وكذلك يجدر بك.

أزالت كورنيليا قشور الجزر، وقالت:

- أخذت طائرِك، قالتها بشبه إعجاب. سوف أخبرك بشيء. إن مدام مارين لا ترتدي سوى الأسود، لكن أسفله قصة مختلفة.

- ماذا تعنين؟

- كورنيليا... صرخ أوتو محذراً، لكن كورنيليا التي تبدو عازمة على منح نيلا معلومة صغيرة يتابع:

- البطانة فرو سمور ومخل، تحت كل فستان. إن سيدتي، التي تتبس لنا من سفر حزقيال، «وَأَيْدُ كِبْرِيَاءِ الْأَشْدَاءِ» - تمشي في الأرجاء مرتدية فرواً سرياً.

- حقاً؟ ضحكت نيلا، متأثرة بهديّة كورنيليا، التي شجعتها، فزعت شالها لثريها جرحها.

أطلقت كورنيليا صغيراً، وقالت، وهي تختلس نظرة إلى أوتو:
- سترك ذلك أثراً، لكنه سيبت. مثل كل شيء آخر.

نيلا، التي كانت تأمل في استجابة أكثر أمومة، شعرت الآن بالحماسة. سألتها، وهي تخفي كدمتها:

- هل بقيت مُستيقظة حتى وقت متأخر مرة أخرى البارحة؟
- لماذا، يا مدام؟ رمت كورنيليا بقشر الجزر في النار وهي تناول ممسحتها.

شعرت نيلا بالأجواء الودّية يتلاشى مع كل سؤال تطرحه:

- أنا متأكدة أنني سمعتُ أصواتاً.

حدّقت كورنيليا في دلو الماء المتسخ.

قال أوتو:

- إن الإرهاق يمنعنا من سماع أية أصوات.

ظهرت دانه من العتمة، وألحقت أنفها في يد نيلا. وراحت تندرج على ظهرها وتعرض بطنها، على فرائها علامة سوداء صغيرة. تأملت كورنيليا هذا الإظهار للودّة. وقالت، وفي

صوتها لمحة من الإعجاب:

- إنها لا تفعل هذا مع أي شخص. استدارت نيلا، وأخذت تصعد الدرج. نادتها كورنيليا، وكفها ممدودة. بلفيفة ساخنة بالزبدة:

- تفضلي، يامدام.

إن عروض السلام في هذا المنزل تأتي في أشكال غريبة.
سألها أوتو:

- إلى أين تذهبين، يا مدام؟

- إلى الخارج. إنه مسموح، أليس كذلك؟ سأذهب إلى الكالفرسترات.

دفعت كورنيليا ممسحتها في الدلو. فاندفعت المياه على جانبيه، وأصبح سطحه كمرآة مكسورة.
سألها أوتو بلطف:

- هل تعرفين أين ذلك، يا مدام؟

شعرت نيلا بقطرات من الزبدة تسيل على معصمها. قالت:

- سأعثر عليها. أملك حساً جيداً في معرفة الاتجاهات.

تبادل أوتو وكورنيليا نظرة أخرى أطول؛ ولحت نيلا حركة خفية جداً من رأس أوتو.

ثم قالت كورنيليا:

- سأرافقك، يا مدام. أحتاج إلى بعض الهواء.

- ولكن...

قال أوتو:

- ستحتاجين إلى معطف. الجو بارد جداً.

لكن كورنيليا تناولت شالها، ورافقت نيهلا إلى الخارج.

في الكالفرسترات



تمتت كورنيليا:

- يا يسوع الحبيب. كان أوتو مُحَقًّا. هذا الشتاء سيكون فظيماً.
لماذا تريدان الذهاب إلى الكالفرسترات؟

أجابت نيللا، وقد أزعجتها البساطة التي تطرح بها كورنيليا
أسئلتها:

- سأترك رسالة لشخص ما.

- من يكون هذا الشخص؟

- لا أحد. حربي.

- فهمت. ارتجفت كورنيليا، وتابعت:

- سوف نحتاج إلى شراء مخزوننا من اللحم قريباً، فلتأخر حتى
أذار على الأقل. عجيب أنه لم يرسل لنا حصّة.

- من الذي لم يرسل لنا حصّة؟

- لا عليك. قالت كورنيليا، وهي تنظر نحو القناة ويتأبط
ذراع نيللا: شخص ما. تقارب جسدا الشابين، وهما تسيران
بسرعة في الهيرغراخت نحو مركز المدينة. لم يكن البرد ثقيلاً
بعد، لكن نيللا شعرت باقتراب بطشه. أحست بذراع كورنيليا
في ذراعها، فكرت في غرابة التلامس. لم يكن الخدم رجالاً
ونساء في أسدلفت من ذوي الحميمة في تصرفاتهم. أغلبهم كان
نافراً بوضوح.

- لماذا لم يأت أوتو؟ وعندما لم تقل كورنيليا شيئاً، واصلت

في إلحاح: رأيت، لقد رفض.

أجابت كورنيليا:

- إنه يبقى في المكان الأسهل.

- الأسهل؟

ضحكت نيللا، وتجهم وجه الخادم، وتأمل نيللا ألا تمنحها أخرى. ولكن لا؛ عندما يتعلق الأمر بأوتو، فإن كورنيليا تستفيض.

- إن توت يطلق على حفله سيفاً ذا حدين. إنه هنا، وليس هنا بعد.

- لا أفهم قصدك.

- لقد وضع في سفينة عبيد برتغالية، يا مدام، مُكبلاً من بورتو نوفو في داهومي إلى سورينام. مات والداه. وكان السنيور يزور شركة الهند الشرقية في ذلك الوقت، حيث يبيعهم النحاس لمعامل تكرير القصب خاصتهم.

- ماذا حدث؟

- رأى السنيور حالة توت وأعاده إلى أمستردام.

- يوهانس اشتراه!

عضت كورنيليا على شفتها:

- إن النقود أحياناً تعمل أسرع من الدعاء.

- لا تدعي مارين تسمع قولك.

تتجاهل كورنيليا هذا التعليق؛ يبدو أن نافذة الثروة حول مارين وكلاباتها قد أغلقت. تقول:

- كان أوتو في السادسة عشرة عندما وصل، وكنت في الثانية عشرة، حديثة عهد بالمنزل مثله.

حاولت نيلا تخيلهما وهما يصلان إلى عتبة الباب كما فعلت هي. هل كانت مارين تترىص في ظلام الدهليز حينها أيضاً؟ أي عالم تركه أوتو وراءه؟ إنها يتوق إلى سؤاله، لكنها لا تعرف إن كان سيرغب في الإجابة. كانت نيلا قد سمعت عن شجر النخيل، لكنها تعجز عن تخيل حرارة بورتو نوفو، أو عالم سورينام. كل ذلك قد استُبدل بمحاطط من طوب وقنوات مياه، ولغة لم يكن يتكلمها.

تقول كورنيليا:

- إنه لا يختلف عن أي هولندي محترم، لكن الناس لا يفكرون بشكل واحد. اكتشفت نيلا عمقاً جديداً في صوتها: "عندما وصل لم يتكلم لشهر كامل. كان يستمع لحسب، دائماً يستمع، ثم أضافت بمكر طفيف: تلك البشرة البنية كحبوب القهوة. أراكِ عندما تتحلقين.

قالت نيلا باحتجاج:

- لا أفعل.

- الجميع يفعل. معظم الناس لم يسبق لهم أن رأوا رجلاً مثله. عندما كانوا زماناً يأتون للزيارة، كانت السيدات يضعن عصافيرهن في شعره وكأنه عش. لقد كره ذلك، سكنت كورنيليا قليلاً: لا عجب أن مدام مارين لا تطيق ببغاءك.

سارتا وسط صمت غريب يغلف رصيفي القناة، والماء البني الراكد بينهما يشكل قشرة رقيقة من الجليد عند الحواف. حاولت نيلا التشبث بهذه الصورة للشاب الأسود، ورأسه

المملوء بالعصافير، وأصابع النساء تفتح شعره. شعرت بالنجمل لأن ذهولها به شديد الوضوح. إن يوهانس يعامله تماماً كأبي رجل آخر، وأوتو كذلك فعلاً - لكن صوته، ووجهه - لا أحد في أسدلفت سيصدق الأمر. سألت:

- لماذا لم تعد السيدات يأتين للزيارة؟

لكنها لم تثنق إجابة على هذا، لأن كورنيليا تتوقف خارج متجر حلويات، فوق بابه يافطة عليها مخروطا سكر واسم أرنود ماكفريد. تحثها كورنيليا: "مدام، لتتوقف قليلاً هنا." و على الرغم من رغبتها في ممارسة ولو قليل من السلطة، شمت نيلا رائحة الخبز وانهارت مقاومتها.

في الداخل دفء لذيذ. وعبر فاصل متقوس في مؤخرة المتجر، يقع نظر نيلا على رجل ممتلئ في أواسط عمره، أحمر الوجه ويتصبب عرقاً بسبب الموقد. وعند رؤيتهما، أدار عينيه في محجريهما. وصاح في الهواء: "هانا، صديقتك هنا."

ظهرت امرأة، أكبر قليلاً من كورنيليا، قلنسوتها مكوية بعناية، وثوبها معطرٌ بالدقيق والسكر. أضاء وجهها وهي تهتف:

- كورنفلاورا!

قالت نيلا:

- "كورنفلاور؟"

تضرج وجه كورنيليا، وقالت:

- مرحباً، هانا.

- أين كنتِ كل هذه المدة؟ وأشارت هانا إليهما بالجلوس في أبرد ركن في أرضية المتجر. وضعت لافتة تقول مغلق، وفي

أثرها رائحة قرفة.

هتف الرجل:

- ماذا تفعلين بحق الملائكة، يا امرأة؟

قالت هانا:

- آه، يا أرنود. خمس دقائق. تبادل الزوجان التحديق، وعاد هو إلى الموقد يصفع صوانيه بإيقاع غاضب. تمتت هانا:
- - توفي إسفنجي هذا الصباح، ومرزبانية بعد الظهر. يحسن تجنبه.

قالت كورنيليا، وقد حُفِر القلق على وجهها:

- لكن تجنبه الآن يعني أن تري الكثير منه لاحقاً.

رمت هانا إليها بنظرة، وقالت:

- حسناً، أنتِ هنا الآن وأنا أريد رؤيتك.

نظرت نيهلا حولها إلى الأرضيات الخشبية اللامعة، ومنضدة البيع المُصنفة، والمعجنات التي تزين واجهة المتجر، مُترابطة كهدايا مغرية، وتساءلت لماذا جلبتها كورنيليا إلى هنا عوضاً عن اصطحابها مباشرة إلى شارع الكالفرسترات، لكن رائحة الكعك الحلو شبيهة جداً. من تكون كورنفلاور، الفتاة الأرق والألطف التي استحضرتها زوج الحلواني؟ إن التعميد الشفهي مباغت وغريب يهز جوهر كورنيليا. تذكرت شيئاً قالته كورنيليا في أول صباح بالمنزل، حول مخاطبة أوتو بتوت. إنه يرى أسماء التدليل مضيئة، لكنني أحبها.

الورق المستخدم في تغليف الكعك يبدو غالياً، ويتوافر بألوان مختلفة: قرمزي، نيلي، أخضر عسبي، أبيض سحابي. نظرت

كورنيليا إلى هانا نظرة ذات مغزى، وأمالت ذقتها في إشارة يبدو أن المرأة الأكبر تفهمها، فقالت هانا لنيليا:

- رجاء، يا مدام. تفضلي بإلقاء نظرة على المكان.

بلباقة، طافت نيليا في أرجاء المتجر، تجول بعينها على الفطائر، والبسكويت المتبل، وقطر القرفة والشوكولاتة، وكعك البرتقال والليمون، ولقائف الفاكهة. شاهدت أرنود عبر الفاصل المقوس، يضرب الصواني الباردة ليفرغها من التوفي الإسفنجي العنيد، وفي أثناء ذلك، حاولت التنصت على هانا وكورنيليا اللتين تتبادلان حديثاً خافتاً.

قالت كورنيليا:

- إن فرانس وآغنس ميرمانز لم يريدوا من السنيور سوى توزيعه. إنهما يعرفان مدى انتشار تجارته في الخارج. ومام مارين تشجع الأمر. على الرغم من أنها تكره السكر، مع أنه سكرهما!

- إن هذا قد يكسبهم جميعاً مالاً وافراً!

قالت كورنيليا باستخفاف:

- هذا صحيح. لكنني أعتقد بوجود أسباب أخرى.

تجاهلت هانا هذا، واهتمت أكثر بما يتعلق بعملها:

- ولكن لماذا لا يبيعونه هنا؟ مع غياب نقابة تسيطر على هؤلاء الأندال، فإن كثيراً من سكر هذه المدينة يُخلط في معامل التكرير الرخيصة بالدقيق والطحاشير ويعلم الرب بماذا أيضاً. يوجد حلوانيون وخبازون بامتداد شارعي نيس وبانز ممن سيختارون منتجاً أفضل.

أطلق أرنود سباباً عالياً، وقد نزع التوفي أخيراً.

تهتف هانا لنيلا ببشاشة:

- تذوقي شيئاً. ثم مدت ذراعها إلى منضدة البيع، عادت
بصرة مجمدة قليلاً. أخذت نيلا، التي تحيرها رؤية الشفقة في
عيني المرأة الأكبر منها، الهدية وفضتها. وجدت كرة عجيب
مقلية، مغلفة بالسكر والقرفة.

- شكراً لك، قالت، وهي تعيد عينيها إلى أرنود الذي يشعل
فرنه، متظاهرة أن انتباهها ينصب على الحلواني البدين وحده.

همست كورنيليا:

- هانا، أعتقد أن الأمر يحدث من جديد.

- لم نأكدي قط في المرة الأولى.

- أعرف، ولكن...

- لا تملكين فعل شيء، يا كورنفلاور. تفاضي، هذا ما علمونا
إياه.

- هان، ليت...

- صه، خلدي هذا. إنه آخر ما تبقى تقريباً.

التفتت نيلا في الوقت المناسب لترى علبة تمر بين المرأتين،
فتختفي بسرعة من أصابع هانا إلى تنورة كورنيليا.

قالت كورنيليا وهي تنهض:

- يجب أن أذهب. علينا المرور بشارع الكالفرسترات.
شدت على الكلمة.

ضغطت هانا على يد كورنيليا. وقالت: - حسناً، ادفعي الباب.

لقد انتهت دقائق الخمس. علي الذهاب ومساعدة أرنود. سيظن أي أحد أنه كان يصنع درعاً من خلال الطريقة التي يضرب بها تلك الصواني.”

صارتما في الخارج من جديد، وسارعت كورنيليا إلى الابتعاد. راحت نيلا تسأل: “

- من تكون هانا؟ ولماذا تناديك كورنفلاور؟ ولماذا ندفع الباب؟

لكن كورنيليا ظلت كثيبة وصامتة؛ كان الحديث مع هانا قد أطلق حزناً غير متوقع.

الكافرسترات شارع طويل، ومزدحم وبعيد عن القناة، يمارس فيه باثعون كثر تجارتهم. لم يعد أحد يبيع عجولاً وأبقاراً هناك، لكن روث الخيول يضفي جواً عضوياً ولاذعاً وسط متاجر الطباعة والصبغة، ومتاجر الخردة والصيدليات.

- كورنيليا، ما الخطب؟

- لا شيء، يا مدام. كان هذا ردها المتجهم الحاسم. لكن نيلا رصدت بالفعل يافطة الشمس. كانت شمس حجرية صغيرة قد نُقشت حقاً على يافطة مغروزة في طوب المبنى. كانت في طلائها الحديث بالذهب جرم سماوي نزل إلى الأرض؛ أشعة حجرية ساطعة تنبعث من كرة متوهجة. إنها عالية جداً في الحائط حتى أن نيلا تعجز عن لمسها. وتحت الشمس، نُقش شعار: كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنُّه لعبة.

- وهكذا يظل طفلاً إلى الأبد. قالت كورنيليا بحزن: لم أسمع هذا المثل منذ سنوات. ونظرت يمين الشارع ويساره كأنها تبحث عن شيء ما. طرقت نيلا الباب الصغير الخالي

من النقوش، حتى أن المرء لا يكاد يلحظه وسط الضوضاء
والضجيج، وانتظرت صانع الدُمي أن يعلن عن نفسه.

لا أحد يجيب. وضربت كورنيليا الأرض بقدميها من البرد،
قائلة:

- مدام، لا أحد في الداخل.

- انتظري فقط. قالت نيلا، وهي تطرق الباب من جديد.
هناك أربع نوافذ تطل على الشارع، وخيّل إليها أن ظلّاً ربما
يكون خلف إحداها، لكنها لا تستطيع أن تجزم. صاحت:
"مرحباً؟" لكنها لم تلتق جواباً.

ليس في اليد حيلة؛ مررت خطابها وإذن الصرف من
عقب الباب إلى أعرق مسافة ممكنة. عندها فقط أدركت
نيلا أن كورنيليا لم تعد معها. فنادت، وهي تجول بعينيها في
الكالفرسترات:

- كورنيليا؟

تحجر اسم الخادم في حلق نيلا. إذ على بعد أقدام عدة
من باب صانع الدُمي، وقفت امرأة تراقبها. لا، لا تراقب
- تحدّق. ساكنة وسط الحشود المتحركة، وعيناها ثابتتان
على وجه نيلا. انتاب نيلا إحساس غير مسبوق بالاختراق،
نظرة المرأة الثابتة تشبه شعاع ضوء بارد يشرّحها، يملؤها وعياً
بجسدها. لا تبتم المرأة، لكنها تنهل من نيلا، عيناها البنيتان
أقرب إلى البرتقالي في ضوء الظهرية الضعيف، وشعرها
المكشوف يشبه شعاعاً ذهبياً باهتاً.

تسلت إلى عظام نيلا رجفة، فأحكمت شالها حولها، بينما
المرأة تواصل تحديقها. كل شيء يبدو أكثر سطوعاً، وأكثر

وضوحاً، مع أن الشمس ما تزال خلف السحاب بعد. فلنت
نحيا أن الطوب القديم، أو الحجر الرطب ربما يعطل التقلص
المفاجئ للدفع. ربما، ولكن تلك العينين، لا أحد نظر إلى
نحيا بهذه الطريقة من قبل في حياتها، بهذا الفضول الثاقب
المهادئ.

كاد صبي يجر عربة يد أن يدهس نحيا في أثناء مروره.
فصاحت من خلفه:

- كدت تكسر قدمي!

رد الفتى صائحاً:

- لم أفعل!

عندما أعادت أنظارها، وجدت أن المرأة قد اختفت. نادت:
"مهلاً" وهي تشق طريقها في الكالفرسترات، وتلمح مؤخرة
رأس بلون القمح الزاهي. لكن الشمس تنبج من وراء
الغيوم، وتحجب الرؤية أمام نحيا: "ماذا تريدن؟" رأت يقيناً
المرأة وهي تختفي في زقاق ضيق، فأخذت نحيا تدفع الحشود
بصورة أشد. وتغوص في هذا الزقاق المظلم، وبقاة، وثب قلبها
عند رؤية خيال أماما، لكنها وجدت كورنيليا، وحيدة في
النهاية، شاحبة الوجه، وترتجف عند باب أمامي كبير.

فسألتها نحيا:

- أين هي؟ ماذا تفعلين؟ هل رأيت امرأة بشعر أشقر؟

سددت كورنيليا ركلة سريعة إلى لوح الباب. وقالت:

- كل عام. لا تذكر فقط كم أنا محظوظة.

- ماذا؟

أغلقت كورنيليا عينها، وقالت:

- بيتي القديم.

أصبح ضجيج الزبائن في شارع الكالفرسترات مكتوماً الآن بين جدران الزقاق المتقاربة، فانكأت نيلا على الباب الذي ركته كورنيليا. فوق عارضته وُضِعَت لافتة تُصوِّر أطفالاً يرتدون اللونين الأسود والأحمر رمز المدينة، ويتحلّقون حول حمامة عملاقة. وفي الأسفل، تمتد الكلمات في قافية غير مُضحكة:

أعدادنا تزيد وجدراننا تثن حولنا

لقد بما تستطع حتى يسعد أطفالنا

سألت نيلا:

- كورنيليا، هل هذا ملجأ؟

لكن الخادم كانت قد غادرت الزقاق، نحو الحياة والضوء والضجيج. ولا تملك نيلا إلا الحقاق بها، وفي داخلها خواء من أثر نظرة المرأة الشقراء.

وحال عودتها إلى الهيرغراخت، اكتشفت نيلا أن مارين قد ربتت وضع الخزانة في غرفتها. ولأن الخزانة أعرض من أن يتسع لها باب غرفة النوم، فقد نُقِلت برافعة من أمام المنزل.

- لم يكن ممكناً أن تظل في البهو، قالت مارين، وهي تفتح الستائر التي بلون الخردل لتكشف عن الغرف التسع الفارغة: إنها كبيرة جداً. كانت تحجب الضوء.

وبعيداً عن الوجود المتطفل للخزانة، صارت غرفة نيلا تفوح الآن برائحة الزنبق. وفي ليلة ذلك اليوم، وجدت زجاجة العطر

التي جلبتها من أسدلفت، مقلوبة على جنبها، والزيت قد صنع
بركة على الأرض في فوضى لزجة أسفل سريرها.

- كانوا عمال النقل. قالت مارين، عندما تريها نيلا الشطايا
الزجاجية وتطلب تفسيراً. غير مُقتنعة، أَلقت نيلا ببعض وسائل
الزفاف المطرزة فوق اللطخة. وهي تأمل أن تمتص حشوتها
الرائحة، مسرورة بغياب رموز الزواج الساخرة من أمام
ناظرها.

اضمعت على ظهرها، تصني إلى ييبو وهو ينقر في قفصه،
والهواء تملؤه رائحة هدية والدتها غير السيدة، فكرت نيلا
في أوتو وكورنيليا. الولد العبد، والبنت اليتيمة. وتساءلت في
نفسها: كيف وصلت كورنيليا من هناك إلى الهيرغراخت؟ هل
أُنقلت مثل أوتو؟ هل أنت أيضاً أُنقلت؟ إن الحياة هنا تبدو،
حتى الآن، نقيض الهروب.

في ظلام غرفتها، استحضرت الرأس الأشقر الفاتح والعينين
الفريدين للمرأة في شارع الكالفرسترات. كانت وكأنها تسليخ
نيلا، مثل أحد الحيوانات في لوحات يوهانس، ثم تفكك
جسدها قطعة قطعة. إلا أن نيلا في الوقت نفسه، شعرت
باحتشاد في كل تركيزها. لماذا كانت المرأة هناك، في أكثر
شوارع المدينة ازدحاماً، تقف وتحقق، ألم يكن لديها شيء
أفضل تفعله؟ ولماذا كانت تنظر إلي؟

غطت نيلا في النوم، وهي تتخيل صحنواً فضية كبيرة ويوهانس
يدورها في الهواء، وقد التفت وجهه إلى سقفه المزيف،
لحو العمق غير الموجود. وإذا تعمق في هذا الكابوس اللولبي
المضطرب، أيقظتها صرخة عالية قصيرة لما يبدو أنه كلب يتألم.
ربما هي ريزيكي، هكذا فكرت، وقد أفاقت تماماً، وقلبا يدق

بقوة.

خيم الصمت من جديد كقماش الدَّمَقَس، التفتت نهلا إلى
الخزانة الفارغة. الضخمة، التي بدت أقرب إلى حارسه، تقف
هناك منذ الأزل، في ركن غرفتها.



بعد ثلاثة أيام، كانت كورنيليا مع مارين في سوق اللحوم. وكانت نيليا قد سألتها: - هل يمكنني المجيء؟ فردت مارين باقتضاب:

- سننجز الأمر أسرع أنا وكورنيليا.

كان يوهانس قد ذهب إلى مكاتب الفوك في الهوجسترات القديمة، وأوتو في الحديقة الخلفية، يزرع البصيلات والبذور للربيع القادم. الحديقة هي مملكته. فيها جُلُّ وقته، فيشكّل أسيجة جديدة، ويناقش يوهانس في رطوبة التربة.

وبينما كانت نيليا تعبر الدهليز مع بعض المكسرات التي اختلستها من أجل ييبو، سمعت طرقات متتالية على الباب الأمامي. أجفلت، ودست. المكسرات في جيبتها، وحاولت أن تفتح الباب الثقيل.

وقف أمامها شاب على أول سلم المدخل، لا يكبرها سوى بسنوات قليلة. فخبست أنفاسها في حلقها. كان يباعد بين ساقيه الطويلتين وكأنما يحاول شغل كل المساحة. يتوجّ وجهه الشاحب شعر أشعث داكن، وله وجنتان منحوتتان بدقة متماثلة. ملابسه عصرية لكنه يرتديها من دون ترتيب. فيخرج سوارا كئيّ من ذراعي معطفه الجلدي الفخم، ويلتصق زوجها حذاء أحدث من المعطف بربّتي ساقيه وكأنهما يأبهان أن يفلتاه. أربطة قيصه مفكوكة، يظهر منها مثلث من جلده عليه بعض النمش. جسده حكاية في ذاته، يبدأ بالثقة وينتهي بالشك. أمسكت نيليا بإطار الباب، وهي تأمل أنها يتألق في

عينيه، كما بدا واضحاً تألقه في عينيه.

قال بابتسامة:

- طرد. باغت صوته و لهجته الغربية نيلا، بلا نغم، ورتيبة. إنه يعرف الهولندية، ولكن يبدو جلياً أنها ليست لغته الأم. وثبت ريزيكي، وشرعت في النباح أمام هذا الصبي، وزججرت عندما حاول التريت على رأسها. نظرت نيلا إلى يديه الفارغتين. وقالت:

- يفترض بك استخدام الباب الخلفي لتسليم الطرود. ابتسم مرة أخرى. وقال:

- طبعاً. دائماً ما أنسى. رغبت نيلا، التي أربكها جماله، في لمس تلك الوجنتين حتى لو كان ذلك لإبعادهما. ثم أحست بوجود شخص خلفها، فاستدارت، ووجدت يوهانس مقبلاً إليهما، شاقاً طريقه للأمام ومُعترضاً الطريق بين نيلا والفتى. هتفت متعجبة:

- يوهانس؟ حسبتك في العمل. لماذا أنت هنا.

سأل يوهانس الفتى:

- ماذا تفعل هنا؟ صوته أجش، يكاد يكون همساً. يتجاهل تعبير نيلا الحائر ويدفع ريزيكي الغاضبة إلى داخل المنزل.

وعلى الرغم من أن الشاب يضع يده بلا مبالاة تحت سترته، إلا أنه كان قد اعتدل قليلاً، وقرب بين ساقيه. قائلاً:

- جئت لتسليم طرد لحسب.

- إلى من؟

- إلى نيلا أورتمان.

نطق الفتى لقب نيلا قبل الزواج بميكال حذر، مُواجهاً يوهانس بنظرة ثابتة، وشعرت نيلا بتوتر زوجها. مد الشاب يده بطرد موسوم بعلامة الشمس. هل انتهى صانع الدُمى من قطعي بالفعل؟ هكذا تتساءل، وهي تكاد لا تجمع رغبتها في انتزاع اللعبة والركض إلى أعلى.

- إن سيدك يعمل بسرعة. قالتها مُعلّقة، راغبة في استرداد شيء من الرزانة. فكرت، إنه طردي، وليس طرد زوجي.

استفسر يوهانس:

- عن أي سيد تتحدث؟

ضحك الشاب، وهو يسلمها الطرد، وتضمنه نيلا إليها. وقال، وهو يتناول يد نيلا:

- أنا جاك فيليبس. من بيرموندزي. كانت قبّلت جافة ورقيقة، وخلفت رجفة من الإثارة.

- بير-موند-زي؟" لا تملك نيلا صورة يمكنها ربطها بهذه الكلمة الفريدة - لا تملك في الحقيقة معنى لهذا الفتى الفريد.

قال جاك:

- على حدود لندن. أعمل أحياناً لصالح الشوك. وأحياناً بصورة مستقلة. كنتُ ممثلاً في بلدي."

نبح ريزيكي من الدهليز، وتردد صوتها في السماء المغيمة، فسأله يوهانس:

- من استأجرك لتفعل هذا؟

- أناس من جميع أرجاء المدينة يمنحونني أجراً لقاء توصيل الطرود، يا سنيور.

- من استأجرك هذه المرة؟

تراجع جاك خطوة. وقال:

- زوجك، يا سنيور. زوجك. انحنى لنيلا، وهو ينزل الدرجات على مهل ويتعد.

قال يوهانس:

- تعالي، يا نيلا. دعينا نغلق الباب عن الأعين المتطفلة.

وفي الداخل، وجدا أوتو مُنتظراً على سَلْم المطبخ، وفي يده مِدْمَةٌ، أسنانها الحادة تلمع في الضوء. سأل:

- من كان، يا سنيور؟

- لا أحد. قال يوهانس، وأوماً أوتو.

التفت يوهانس إلى نيلا التي انكشفت أمامه، وقد بدا لها الآن أضخم في حيز البهو. - ماذا يوجد في الطرد، يا نيلا؟

- إنه للخزانة التي اشتريتها. قالت متسائلة ماذا سيقول إن رأى العود، والمرزبانة، وكأس العروسين.

- آه. ممتاز.

انتظرت نيلا مزيداً من الفضول، ولكن لا بوادر تنبئ بذلك في الواقع، لا يبدو على يوهانس شيء سوى الاضطراب: هل أفتحه في الطابق العلوي؟ تستطيع المجيء والمشاهدة. هكذا عرضت عليه، علّه يضم إليها. " في وسعك أن ترى كيف تكبر هدية زفافك."

أجاب بابتسامة متوترة، مُشيراً نحو مكتبه: "عليّ أن أعمل، يا نِلا. سادعكِ لخصوصياتك."

"لا أريد خصوصياتي" صرخت في سرّها. سأنبذها حالاً إن كنتَ ستعيرني بعضاً من انتباهك.

لكن يوهانس كان قد رحل، وهرولت ريزيكي كعادتها خلفه.

اعتلت نِلا فراشها الضخم، وهي ماتزال مشوشة من رؤية جاك فيليبس البيرمونديزي، جلست مع الطرد، الذي كان بضخامته التي تساوي عرض صحن غداء، وقد ثلّف بورق ناعم ودوبارة. وكتبت حول الشمس جملة بحروف سوداء كبيرة:

كل امرأة هي مهندسة حفظها

قرأتها نِلا مرتين، مُتحيّرة، فكّرت، إن النساء لا يبنين شيئاً، فما بالك ببناء أقدارهن. جميع أقدارنا في يد الرب، وأقدار النساء خاصة، بعد أن وضعها أزواجهن في أصابعهم، ووضعها المخاض بين فكي الرحي.

تُخرج أول المحتويات وتزن في كف يدها صندوقاً فضياً صغيراً. على قته، نُقش نون وألف، في محيط من الزهور والعرائش. رفعت الغطاء بعناية، مفصلاته المنمنمة جيدة التزييت، ولا تحدث صوتاً. وفي الداخل استقرت كتلة أنيقة من المرزبانة بطول حبة بنّ تقريباً، وتنتعش حينما تتخيل طعم سكر اللوز الحلو. تحسستها بظفر إصبعها ووضعها على طرف لسانها. المرزبانة حقيقية، حتى أنها معطرة بماء الورد.

ثم أخرجت نِلا ثاني المحتويات. وكان العود، طوله لا يتجاوز

سبابتها، بأوتار حقيقية، وبدنه الخشبي ينتفخ ليحتوي صوت النغمات. لم تر مثل هذا من قبل، المهارة، والإتقان، وجمال هذه الأشياء. تنقر وترأ بتردد، وتدهل عندما يصدر عن الوتر الهادئ نغمة صدّاحة. تذكرت نيلا بقايا اللحن الذي عزفته ليوهانس في أسدلفت، وأعدت عزفه الآن بمفردها.

وعندما مدت يدها للمرة الثالثة، ظهر لها كأس العروسين المطلوب. مصنوعاً من القصدير، وعلى حافته رجل وامرأة متشابكا الأيدي، ولا يزيد قطره عن عرض قحمة. جميع العرسان يشربون من هذا الكأس علناً أمام الحضور، كما كان يُفترض بها ويوهانس أن يفعلا في أيلول الماضي. تتخيل نيلا كليهما يحتسيان رشفة من نبيذ ريبيش، وهما يقفان في بستان والدها القديم، ويهال على رأسيهما الأرز والبتلات. هذا الكأس الصغير هو تذكّار لشيء لم يحدث قط في الواقع. الشيء الذي اعتزمت أن يكون تمرّداً على مارين جعل نيلا الآن تشعر بأنها غريبة وحزينة بصورة تدعو إلى الشفقة.

جمعت ورق التغليف لثرميه، ثم شعرت بوجود محتويات أخرى في الداخل. ثمة خطأ هنا، هكذا ظنت، وحزنها تحول إلى فضول. كل شيء طلبته على الفراش فعلاً.

قلبت العلبة، فسقطت ثلاثة مجسمات مغلقة على الشراشف. فتحت نيلا بسرعة غلاف الأولى، فوجدت كرسيين خشبيين فائقي الجمال. نُقش على مساندهما أسود بحجم دعسوقة، وكُسي الظهران بمخمل أخضر مرصع بدبايس نحاسية. فوق كل ذراع، يملو وحوش بحر في وريقات أقتوس. أدركت نيلا أنها رأت هذين الكرسيين من قبل. الأسبوع الماضي في الصالون بالأسفل، كانت مارين تجلس على واحد منهما.

شعرت بشيء من عدم الارتياح، فضت الجسم التالي. وبين ثايات القماش كان ينتظرها شيء صغير إنما جسم، فاستلته بحركة قوية. إنه مهد، مصنوع من خشب البلوط، ومرصع بزهور متشابكة، سيقانه من الصفيح وعلى غطائه شرشف من الدانتيل. أعجوبة خشبية هادئة، لكن حضوره المنم مع ذلك بسبب انقباضاً في حلق نيل. وضعته في منتصف كفيها، حيث يتهدد في حركة مثالية، تكاد تكون من تلقاء نفسه.

فكرت، لا بد أنها غلطة، لا بد أن هذه القطع يقصد بها شخص آخر. كراس، ومهد، ربما الأشياء المعتادة التي قد تطلب امرأة نسخها من منزلها، لكنني لم أفعل. لم أفعل قطعاً. تمزق الغلاف الذي يحيط بالجسم الثالث، وتحت طبقة أخرى من قماش أزرق وجدت زوجاً من الكلاب المصغرة. جسدين رشيقين لا يزيد حجمهما عن عثة، يكسوهما فراء رمادي ناعم، ورأسان بحجم البازلاء. بينهما عظمة يعضانها، جذع قرنفة مطلي بالأصفر، الرائحة مميزة. ترفع نيل الحيوانين وتمعن النظر فيهما، وقد تجدد الدم في عروقها. هذان الكلبان ليسا أي كلبين. إنهما ريزيكي ودانه.

رمتها بسرعة كمن لدغت، وقفزت عن السرير. في الزاوية المظلمة التي لا يصلها الضوء من الغرفة، كانت الخزانة ماتزال تنتظر ضيوفها الجدد. ستاثرها ما تزال مفتوحة، كتنورة مرفوعة بصورة مُشينة. سمحت لنفسها بإلقاء نظرة سريعة على جسدي الكلبين المرمين. انحناء الخاصرة نفسه، والأذن الانسيابية الرائعة. قالت لنفسها:

- بربك، يا نيل إليزابيث. من قال إنهما الكلبان نفساهما المتقوقعان إلى جوار موقد كورنيليا؟

رفعت الكلبين المُصغَّرين إلى الضوء. الجسد إسفنجي قليلاً، والمفاصل مُبرَّزة، يكسوها جلد فتران رمادي وناعم كشحمة أذن. وعندما قلبتهما على ظهريهما، تراجعت، وبات نبضها ضعيفاً، فعلى بطن أحد الكلبين نقطة سوداء صغيرة، تماماً في موضعها نفسه على بطن دانه.

حدقت نيلا في أرجاء الغرفة. هل يوجد أحد هنا؟ حاولت جاهدة أن تلزم المنطق. فكرت، طبعاً لا، يا نيلا - أنتِ وحيدة كما لم تكوني من قبل. من قد يرغب في عمل هذا المقلب؟ كورنيليا لا تملك المال الكافي لمثل هذه الحيل، ولا الوقت للتفكير فيها. ومثلها أوتو - ولن يكاتب قطعاً شخصاً غريباً بإرادته؟

انتاب نيلا إحساس بالغزو، وكأن ثمة من يراقبها. عروس حمقاء في شهر العسل. فكرت، إنها مارين. مارين تنتقم من يوهانس لزواجه مني واعتراضي طريقها. تريق عطر الزنبق الخالص بي، تحرم علي المرزبانية، تقرر ذراعي بشدة. كانت هي من أعطتني دليل سميت. ما الذي يمنع مارين أن تؤجر صانع الدمي لإخافتي؟ إنها مجرد تسلية فارغة أخرى بالنسبة إليها.

ولكن. الفراغ والتسلية ليستا كلمتين قد يربطهما المرء بمارين براندت، وحتى أثناء تفكيرها فيها، تعرف نيلا أن الأمر يُجانب المنطق. إن مارين تأكل مثل فأرة وتتسوق مثل راهبة، باستثناء كتبها وعيناتها التي اختلستها على الأرحم من سفريات يوهانس. ليس هذا من تدبير مارين، لأنه يتضمن إنفاق الأموال. لكن نيلا إذ تعيد النظر إلى القطع التي لم تطلبها، يتمنى جزء منها لو أن مارين فعلتها. لأنها إن لم تكن مارين، هكذا تتساءل، فأبي أشكال الغرابة الأخرى دعوتُ إلى منزلي؟

كان شخصاً ما قد تلصص على حياة نيلاً وأوقعها في الحيرة. لو أن هذه الأصناف لم تُرسل خطأ، فالمهد إذن هو استهزاء من فراش الزوجية المهجور، فقد بدأت تشعر وكأنه عذرية أبدية. أي نوع من الأشخاص قد يجرؤ على وقاحة كهذه؟ الكلبان محددان جداً. الكرسيان، دقيقان جداً، المهد، إيجائي جداً، وكان صانع الدُمي يملك منفذ رؤية خاصاً متكاملًا.

وبينما تعود لاعتلاء فراشها، تستوعب نيلاً الاضطراب الذي أحدثته هذه القطع، كيف أن فضولها تخض عن رعب حاد. تفكر، لن أقبل بهذا. لن أقبل تنراً من بعيد ولا من قريب.

وبينما تستمع إلى نكات البندول الذهبي، مُحاطة بتلك الطرود الغامضة، بدأت تكتب رسالة ثانية لصانع الدُمي.

سيدي،

إنني أشكر على الأصناف التي طلبتها، والتي قام بتوصيلها اليوم جاك فيليبس البيرمونديزي. إن حرفيتك لا مثيل لها. أناملك تصنع المعجزات. والمرزبانية خاصة رائعة.

يتلأ قلم نيلاً، ولكن قبل أن يُتاح لها تغيير رأيها، يلتقي رأس القلم بالورقة بسيل من الكلمات.

إلا أنك استطردت في الطرود بطريقة لم أتنبأ بها. إن الكلبين، على الرغم من دقتهما، قد يوحيان بتخمين موفق، يا سنيور، لأن عامة الناس في المدينة يملكون كلاباً كهذه. لكنني لست من العامة - وهذان الكلبان، والمهد والكرسيان، ليسوا لي. ولأنني زوج تاجر مهم في الفوك، فلن يرهيني صنائعي. شكراً على عملك ووقتك، لكنني سأقلص معاملاتنا فوراً.

المُخلصة بنية حسنة،

بترونيليا براندت

أخفت القطع تحت شرافف السرير، ونادت كورنيليا، ووضعت الرسالة المغلقة والمُسوّدة حديثاً في يد الخادم قبل أن تغير رأيها. سوف تعترف أن الاحتمال حقيقي تماماً. تفكر، ربما أكون قد رفضتُ شيئاً هنا، تحدياً ما، غرضاً خفياً لهذه القطع المفاجئة، لن يُتاح اكتشافه أبداً. هل سأشعر بشيء من ندم؟ لا، هكذا تتدارك نيليا نفسها. إنه خيالكِ وحسب.

قرأت كورنيليا العنوان. وقالت:

- الحرفيُّ مرة أخرى؟ شخص ما؟

أمرتها نيليا:

- لا تفتحها. أومأت الخادم، بصمت غير معهود إثر الإلحاح في صوت سيدتها الصغيرة.

لم تدرك نيليا، إلا بعد ذهاب كورنيليا إلى الكالفرسترات، أنها لم ترفق القطع التي أرسلها صانع الدُمي من دون طلب. أخرجتها واحدة تلو الأخرى من تحت الشرافف ووضعتها في الخزانة. فبدت في بيتها تماماً.

عبارة



في اليوم التالي، بدت كورنيليا مُتجددة النشاط: تعالي، يا مدام. قالت الخادم، وهي تدخل الغرفة متوثبة، ومارين في أعقابها.

- دعيني أصف هذه الخصلات. أوسها تحت القلنسوة، وأداريها عن الأنظار.

- عمّ تتحدثين، يا كورنيليا؟

قالت مارين:

- سيصبحك يوهانس إلى مأدبة في نقابة صاغة الفضة هذه الليلة.

- هل كانت فكرته؟

نظرت مارين إلى الخزانة، التي صارت ستائرهما مغلقة الآن عن أعين المتطفلين. وأجابت:

- إنه يحب الولاثم. وارتأى أنه من اللائق أن ترافقيه.

فكرت نيلّا، الآن تبدأ المغامرة - زوجي يرمي بطوفه الصغير في البحار الهاججة بأرقى مجتمعات أمستردام - وهو، أفضل البحارة، سيكون هناك بوصفه مرشدي. صارفة تفكيرها عن الكلبين المصفرين والمهد، مالت نيلّا تحت سريرها، وأخذت مسحة من زيت الزنبق بأصابعها، وأمام عيني مارين، فركت بها عنقها.

وبعد انصراف مارين، سألت نيلّا كورنيليا ماذا حدث في

الكالفرسترات. قالت الخادم:

- لم يجب أحد هذه المرة أيضاً، فررته من عقب الباب.

- عند يافطة الشمس؟ ألم تري أحداً؟

- ولا نفساً واحدة، يا مدام. لكن هانا ترسل تحياتها.

سأل يوهانس في ذلك المساء، في أثناء انتظار عبّارتهم:

- مارين، لماذا لن تأتي؟ وكان يرتدي حُلّة رائعة من القطيفة السوداء، وقيصاً أبيض، وحذاء من جلد العجل مُلبّعا كالمرآة على يدي أوتو، الذي ينتظر بفرشاة ملابس في إحدى يديه.

أجابت مارين، وهي تحدّق في عينيه بثبات:

- نظراً إلى جميع العوامل، أعتقد أنه عليك الظهور مع زوجك.

سألت نيهلا:

- ماذا تقصدين نظراً إلى جميع العوامل؟

قالت مارين:

- حدث مع الناس، يا يوهانس. تباهى بها...

قاطع يوهانس شقيقته، مقطّباً في وجهها:

- سأقدمك إلى الناس، يا نيهلا. أعتقد أن هذا ما تعنيه مارين.

لكن مارين واصلت بملاح متجهمّة:

- وتكلم مع فرانس ميرمانز، يا أنخي. سيكون هناك الليلة.

ادعه وزوجه لتناول العشاء.

وأمام دهشة نيلا، أوما يوهانس. لماذا يسمح لأخته بالتحدث إليه هكذا؟

- يوهانس، هل تعد...

- مارين... انفجر يوهانس أخيراً أمام نبرة صوتها، وقال:

-- متى حدث أن أفسدتُ عملي؟

- لم تفعل. تنهدت، وتابعت: حتى الآن على الأقل.

شعرت نيلا بفمها جافاً، لكن معدتها في ميوعة سلّة سمك. إن الرحلة النهرية إلى نقابة صاغة الفضة هي المرة الأولى التي تنفرد فيها بزوجها خارج المنزل. يُخَيَّلُ إليها أن الصمت سيغرقها، لكن الصوت داخل رأسها كان عالياً حد اقتناعها أن يوهانس أيضاً يسمعه. ترغب في سؤاله عن غرفة مارين المليئة بالخرائط، عن أوتو وسفينة العبيد، رغبت في إخباره عن الكلبين المنمنمين، والمهد، والعود المصغّر الجميل. لن تخبره عن امرأة الكالفرسترات التي كانت تحرق فيها، لقد شعرت أنه شيء تريد الاحتفاظ به لنفسها، لكن فيها يرفض أن يتحرك، على أية حال.

شرع يوهانس في تنظيف أظفاره بدهن شارد. وسقطت الأوساخ الهلالية على أرضية القارب، وحينما لمحها تنظر إليه، قال:

- إنه الهال. يعلق تحت الأظفار. وكذلك الملح.

- فهمت.

استنشقت نيلا الهواء في القارب، أثر الأماكن التي سافر

إليها، رائحة القرفة العالقة في مسامه. تفوح منه بقايا رائحة من ذلك المسك الذي وجدت أثره في حجرة مكتبه ليلة أن عاد إلى المنزل في أول يوم لها. وجه زوجها البني وشعره الطويل جداً، الذي فتحت الشمس لونه وقوت الرياح خصلاته، يشعلان فيها شوقاً مُربكاً، رغبة ليست موجهة له بالضرورة، بل لمعرفة شعورها عندما يتبادلان الحب أخيراً. هدية الزواج في البداية، والآن هذه الرحلة معاً إلى النقابة، ربما سيحدث الأمر الليلة بعد المأدبة؟ كلاهما متورد الخدين بفعل النبيل، سيفعلانها.

الماء في غاية الانسيابية والمراكيبي في غاية المهارة حتى لتبدو المنازل وكأنها تتحرك وليست العبارة. نيلاً، التي اعتادت ركوب الخيل، يصيبها الإيقاع المُخدِّر بالتقلقل، حيث يُفترض به أن يهدئها في الوقت الذي تشعر فيه بكل شيء عدا الهدوء. تحاول التخلص من توترها باعتصار يديها. كيف أبدأ في حبك؟ - السؤال، بضخامته وصعوبة تجاهله، يدور ويدور داخل رأسها فيما تحديق فيه.

حاولت التركيز على بهو صاغة الفضة وكيف سيبدو، غرفة تغمرها أضواء مائية، أطباق تشبه قطعاً نقدية عملاقة، ووجوه المدعوين تنعكس على كل سطح. يسألها يوهانس، مُقاطعاً أفكارها:

- ماذا تعرفين عن النقابات؟

- لا شيء..

امتص يوهانس جهلها بإيماءة، وشاهدته يغمص في داخله، مُتمنية لو أمكنها أن تبدو أكثر ذكاء. ثم قال يوهانس:

- إن نقابة صاغة الفضة تملك الكثير من المال. أحد أغني

النقابات. والنقابات توفر الحماية في الأوقات العصيبة، والتدريبات المهنية ووسائل البيع، لكنها أيضاً تحدد كمية العمل وتتحكم في السوق. ولهذا تحرص مارين على بيع السكر.

- ماذا تقصد؟

- حسناً، مثل الشوكولاتة والتبغ - والألماس والحريز والكتب، فإن سوقها حر. لا نقابة لها. أستطيع تحديد سعري - وكذلك فرانس وأغنس ميرمانز.

- فلماذا نذهب إلى نقابة صاغة الفضة؟

يبتسم مظهرأ أسنانه. "للفوز بوجبة مجانية. لا، إنني أمزح. إنهم يريدون مني أن أزيد من دعمي، وتسرهم رؤيتي أفعال ذلك لحسب. أنا الصدع في الجدار الذي يؤدي إلى الحديقة السحرية.

تساءلت نهلاً، كم يبلغ سحر حديقته، وإلى أي مدى قد يفتح صرة نقوده؟ لقد بدت مارين في غاية القلق حول المال الذي أنفقه على بيت الدمى، وماذا يقصد أوتو حين قال: "يحدث الفيضان؟" فكرت. كفاكِ مخافة. إنك تعيشين في الهيرغراخت الآن.

كانت مارين حريصة جداً على أن تبيع سكر فرانس ميرمانز، تكلمت بجمرة لم تلبث أن ندمت عليها. خيم سكوت طويل، طويل جداً، حتى ليُخيل إليها أنها تفضل الموت على تحمله لفترة أطول.

قال يوهانس أخيراً:

- إنها مزرعة آغنس ميرمانز. لكن فرانس تولى إدارتها. مات والد آغنس في العام الماضي من دون أن يُنهب ذكوراً على

الرغم من محاولاته المضنية حتى أنفاسه الأخيرة: توقف عند رؤية نبالا يتضرج نجلاً: “

- اعتذر. لم أقصد التحدث بفجاجة. كان والدها رجلاً فظلياً، ومع ذلك ورثت آغنس فداديته من حقول القصب، جميع الأوراق تحمل اسم امرأة، على الرغم من جهود والدها الكبيرة كلها. وقد سلمتهم الآن إلى فرانس. تلك المخاريط من السكر جعلت من كليهما بين عشية وضحاها شخصين قد يفعلان أي شيء من أجل المال. إنه ما كانا ينتظرانه.

- ما هو الذي كانا ينتظرانه؟

- فرصة جيدة. إنني أخزن الأقماع في مستودعي، وانفقت على بيعها. لكن شقيقتي لا تثق في أنني سأفعل.

- لماذا؟

- لأن مارين تجلس في المنزل وتملك أفكاراً، لكنها لا تفهم الفروق البسيطة المتعلقة بالتجارة الحقيقية. إنني أفعل هذا منذ عشرين عاماً، منذ زمن طويل جداً، تنهد، وأردف: على المرء أن يظأ الأرض بحرص شديد، لكنها ترتطم بها مثل فيل.

- فهمت...

قالت نبالا مع أنها لا تعرف ما هو الفيل. بدا من وقع الكلمة أنها زهرة بهية، لكن لا يظهر على يوهانس أنه يمدح أخته:

- يوهانس، هل مارين، صديقة لآغنس ميرمانز؟

ضحك يوهانس:

- لقد تعارفتا منذ زمن طويل، وأحياناً يكون من العسير أن يحب المرء أحداً يعرفه حق المعرفة. هاك إجابة سؤالك. أمل

ألا تصدمك.

انغرز التعليق في نيهلا مثل شظية جليد:

- هل تؤمن بذلك حقاً، يا يوهانس؟

- عندما تتعمقين جيداً في معرفة شخص ما، يا نيهلا، عندما ترين ما وراء اللفات اللطيفة والابتسامات، عندما ترين الغضب والخوف البائس الذي يخفيه كل منا، فإنك لا تملكين حينها سوى المغفرة. جميعنا يحتاج إليها بشدة. ومارين، ليست ممن يغفرون بسهولة. سكت قليلاً، وأردف: توجد سلام في هذا المجتمع... وآغنس تحب تسلقها. المشكلة هي أنها لا تحب المنظر أبداً. لمعت عيناه أمام نكتة غير مرئية: على أية حال. أراهنك بجِلد أن فرانس سيرتدي أكبر قبعة في الغرفة، وآغنس هي من ستجعله يرتديها.

- هل غالباً ما تذهب الزوجات إلى هذه الولايم؟

ابتسم قائلاً:

- تكون النساء پروبيداس في العادة، إلا في المناسبات الخاصة. لكن نساء أمستردام يحفظن بحرية يفتقر إليها الفرنسيون والإنجليز.

- حرية؟

- تستطيع المرأة أن تسير بمفردها في الشارع. وتستطيع الزوجان حتى أن يشبكا أيديهما. يسكت مرة أخرى، وهو ينظر عبر النافذة. "هذه المدينة ليست بجناً، ما دمت ترسمين طريقك بصورة صحيحة. قد يتأفف الأجانب بكلمات مثل ويل-آي-نيفيرز، وآلورز، لكنني واثق أنهم يغبطوننا.

أجابت نيلا:

- طبعاً. لم تكن تفهم كلماته الأجنبية على الإطلاق. بروبيداس. كان يوهانس خلال إقامتها القصيرة في المنزل، كثيراً ما يتحدث بلغات أخرى، وهو يفتنها عندما يفعل ذلك. لا يظهر أنه يتفاخر - بل هي محاولة للتعبير عن معنى تعجز لفته الأم عن بيانه. أدركت نيلا أنه لا رجل، لا شخص في الواقع، تحدث إليها قط بطريقته الليلة. بصرف النظر عن التلميحات الغامضة، فإن يوهانس يعاملها بمساواة؛ يتوقع منها أن تفهم.

قال:

- تعالي هنا، يا نيلا.

تحركت نحوه مُطبعة مع شيء من الخوف، رفع ذقنها برقة ليُطيل عنقها. وبادلته التحديق كأنا يقوم أحدهما الآخر بجارية وسيد في السوق. وبينما يحتوي وجهها بين يديه، يلبس منحني خدها النضر. تميل إلى الأمام. أنامله خشنة، لكن هذا ما كانت نيلا تنتظره. صدغها ينبض من أثر لمسته. أغلقت عينيها، فيما تذكر كلمات والدتها - الفتاة تريد الحب. تريد الخوخ والقشدة.

سألها يوهانس:

- هل تحبين الفضة؟

- نعم. قالتها نيلا همساً. لن تفسد هذه المحفظة بالثرثرة.

قال يوهانس:

- لا شيء في العالم أجمل من الفضة. ثم أبعد يديه عن وجهها، فتحت عينيها على اتساعهما، وقد شعرت بهجمة من

الإحراج مع وقفها المائلة.

- سوف أمر بصنع قلادة تليق بهذا العنق.

بدا صوته بعيداً عن هدير أفكارها، فركت حنجرتها وكأنها تعيدها إلى الحياة، وسمعت نفسها تقول:

- شكراً لك.

- أنتِ الآن زوج. يُفترض بنا أن نُجملِكِ.

ابتسم يوهانس، لكن الجملة بدت مؤلمة لنيلا، وتحجّر الخوف في أعماقها، ولم تجد شيئاً تقوله.

- إنني لن أؤذيكِ، يا بترونيلا.

نظرت نيلا عبر النافذة إلى التدفق غير المنقطع لواجهات المنازل التي تمر أمامها. تضمُّ ساقها بإحكام، وهي تتخيل لحظة حميمة هل شيء ما بداخلها سيتمزق، هل سيكون الأمر مؤلماً كما تتخيل وتخشى؟ أياً كان الإحساس، فهي تعلم أنها لا تستطيع تجنبه، ويجب أن تتجاوزه.

قال يوهانس:

- أنا جاد فيما أقول. جاد جداً. ومال نحوها. روائح الملح والهال العالقة به، لحولته الغريبة، تهددان بالاستحواذ عليها.

- نيلا، نيلا، هل تصغين إليّ؟

- أجل. أصغني إليك، يا يوهانس. أنا ... أنت لن تؤذي.

- جيد. ليس هناك ما يدعوكِ إلى الخوف مني.

قال يوهانس هذا، وتراجع محققاً في المنازل المطلّة على القناة. تذكرت نيلا الصورة في كتاب الأسفار الخاص بمارين، الأصلي

والمُحتل، مساحات شاسعة من سوء الفهم بين جسديهما. كان الليل قد حلَّ بتمامه. نظرت إلى أضواء القوارب الأصغر حجماً، وشعرت أنها وحيدة تماماً.

شركاء الزواج



كانت قاعة الطعام في نقابة صاغة الفضة واسعة وتمج بالناس، الذين تمازجت وجوههم في غشاوة من الأعين والأفواه والريشات التي توابت من أطراف القبعات. حولهما، صوت اصطكاك أوان فضية يتصاعد، وضحك رجالي يبلغ أعلاه إلى نقيض أكثر رقة من ضحكات نسائية مكتومة. هناك وجود هائل للطعام. حيث اصطفت موائد طويلة يكسوها الدّمقس الأبيض، تعلوها أطباق الدجاج والديوك الرومية والفواكه المُخلّفة بالسكر، وفطائر الخمس لحوم والشمعدانات الفضية. تأبط يوهانس ذراع نيلا بإحكام، وسارا حول الجمع المدوّخ، ملتزمين الجدار المكسو بألواح الماهوجني الداكن، والهمسات والضحكات المكبوتة كأنها تلاحقهما حول الغرفة.

تحركت بقية الزوجات بانسيابية إلى أماكنهن، وقد بدا على كل منهن أنها تعرف أين تجلس. جميعهن يرتدين الأسود، ويغطين ما فوق صدورهن بـ"جابوط" من الدانتيل، شريحة من الجلد الأبيض للعرض. امرأة بذاتها قفزت بعينين لامعتين كالكهرمان الأسود في ضوء الشموع، مُستهدفة نيلا. نظرتها تختلف تماماً عن نظرة المرأة في شارع الكالفرسترات. قال يوهانس، وهو يمنح المرأة ابتسامة مُتصلبة:

- ابترسي، واجلسي معي. دعينا نأكل شيئاً قبل مواجهة الحشود.

خُيلَ لنيلا أنها قد تُؤكل حية لولا الطعام.

اتخذوا مجلسيهما إلى مائدة وُضع عليها أول صنف مكون من

السلطعون.

- إنني أجد في الطعام كثيراً من نفسي. قال يوهانس مُعلقاً وهو يرفع شوكة السلطعون. وتتساءل نيلا، مُحَدِّقة في الأمشاط الفضية اللامعة وأباريق النبيذ البارزة، عما يعنيه. إنه ينسى مشكلاته مع مارين في حضور هؤلاء الآخرين. ويصير يوهانس لطيفاً، مُدركاً لنظرات الضيوف المجتمعين، يرددش مع عروسه الصغيرة وكأنهما أمضيا عقدين من الزمان معاً يبحران حول العالم.

قال يوهانس بصوت مرتفع:

- بذور الكمون، التي تزين الجبن الطازج، تُدَكِّرني بأنني شخص مُبهج. زبدة دلفت - التي هي غاية في النعومة والدمامة، وغاية في الاختلاف عن غيرها من الأنواع، تمنحني أبلغ الرضا. إنني أبيع الأطباق الصينية في دلفت وأبتاع منها قوالب كاملة. أما جعة الخوخ بالمرdqوش من يد كورنيليا فهي تمنحني سعادة تفوق سعادتي بصفقة ناجحة. لا بد أن تعدَّ لك شيئاً منها.

أجابت نيلا، وقد بدأت أصوات المضغ واصطكاك الأواني ترهبها:

- إن أمي تصنعها. شعرت أن حيوية الغرفة تستنزفها، تبلورها مثل قطع الفاكهة المُغلَّفة بالسكر.

لكن يوهانس من دون انتباه لما قالت، يتابع: - التين والقشدة الحامضة في وجبة فطور مبكرة بالصيف، هي فرحة استثنائية، تعيدني إلى أيام الطفولة، التي لا أتذكر منها سوى المذاق، ونظر إليها قائلاً: تُذكرين طفولتك، بلا شك، إذ لم يمضِ عليها زمن طويل.

تساءلت نيلًا: هل تراه تعمّد هذا المعنى اللاذع، أم أنه أحد أعراض جراثمه، التي استمدها من وجوده هنا وسط الصحبة، وتحت نظراتهم المدققة؟

وعلى أي حال، فهي تريد الاعتراض على قوله. إن طفولتها تبدو الآن بعيدة بصورة لا تُصدق. كانت قد استبدلت بالشكوك، ومعدل أساس من الاستياء المتواصل. ينقسم حجر الخوف في بطنها إلى توتر مُغثٍ، فهي تكره تنافر الأصوات في هذه الغرفة، ورنين هذه المحادثة، واجتياح الغرباء.

تمت:

- لقد تركت مهدي منذ زمن طويل. وتذكرت المهدي الذي أرسله صانع الدُمى من دون أن تطلبه، فشعرت بمزيد من الغثيان.

قال يوهانس:

- الذكريات المرتبطة بالطعام. الطعام لغة في ذاته. الجزر الأبيض واللفت والكراث والهندباء، أقرمشها عندما لا يوجد أحد قد يسمع. والسّمك المفلطح، وسّمك موسى، والداب، والقد، هم أكثر الأنواع التي أحب، لكنني سأتناول أي شيء آخر تقدمه البحار والأنهار التي تجري عبر بلادي.

شعرت نيلًا أن طريقة حديثه تطوي احترازًا، وكأنه يأمل أن تمحي كلماته عقلها من التوهان في القلق. استجمعت شجاعتها لمجاراته، وسألته:

- ماذا تأكل عندما تكون في المحيط؟

وضع شوكتته، وقال:

- أكل رجالاً.

أطلقت نيلا ضحكة، انفجرت بنجل، ورفع قطعة أخرى من السلطعون إلى فمه. وقال: -

- إن أكل لحوم البشر هو الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة حال نفاد الطعام، لكنني أفضل تناول البطاطا. تقع حانتي المفضلة في هذه المدينة على الجزر الشرقية، قرب مستودعي. يصنعون بطاطا ساخنة لها من أطرى ما يكون. "نكر السلطعون في صحنه: إنها مكاني السري.

- لكنك أخبرتني به لتوك.

وضع شوكتة على المائدة. وقال:

- حقاً فعلت. حقاً فعلت. يبدو عليه أنه أخذ بتعليقها، و أشاح بعينه إلى سلطعونه. ونيلا، التي لا تجد شيئاً تقوله، تعان بدورها أشلاء السلطعون المعرضة للتلف، كلاباته بلون الحبر، ووقوعته تشكل ظلالاً حمراء أكثر التهاباً. وفيما ينتزع ساقاً ويستخدم شوكتة لاستخراج آخر ما تبقى من ألياف بيضاء، يصيح يوهانس بتحية لأحد صاغة الفضة. نجحت نيلا في تناول لقمة صغيرة من سلطعونها. كان مذاقه مالحاً، ويلتصق بأسنانها. يغادرها يوهانس بعد انتهائه من تفرغ سلطعونه تماماً: "لن أغيب كثيراً،" قالها بتنهيدة. "إنه العمل،" وانضم إلى مجموعة من الرجال في أحد الأركان.

شعرت نيلا أنها مكشوفة تماماً من دونه، لكنها تراقب بافتتان تحول زوجها الظاهر. حتى لو أن يوهانس سم من الحديث عن العمل، والطلبیات، وحالة التجارة، فقد نجح في إخفاء ذلك. كم يبدو وسيماً مقارنة بالآخرين، على الرغم من معاطفهم

وأحديتهم الجلدية الفاخرة. علت الضحكات فوق قبعاتهم،
وتراجعت رؤوسهم إلى الخلف، ووسط الوجوه البيضاء
والحدود الحمراء، بلحي تناثرت عليها بقايا صغيرة من السلطعون،
تمركز يوهانس، مُسمرًا ومبتسماً.

فكرت نيلا، في وسعي أن أحبه. لا صعوبة في أن تكون المرأة
زوج رجل كهذا. والحب يجب أن يأتي، وإلا ضاقت الحياة.
ربما سينمو على مهل، كإحدى بذور أوتو الشتوية.

شرع التلامذة في الاقتراب من يوهانس، فيريه كل
منهم صنع يديه، وهو يتناول كل قطعة، فيحمل الأباريق
والمزهريات الفضية باحترام مُرهف. بإطراء واحد منه ينصرف
الشبان مسرورين. تراجع بقية التجار، وهم يشاهدون يوهانس
بأعين فطنة يفتح المجال للنقاش في الفن، ومزايا النقوش التي
تصور مشاهد البحر مقارنة بالأشكال الزهرية. إنه يظهر اطلاعا،
وقوة ملاحظة، نادرين حتى الصميم. فيدوّن الأسماء، ويقبل
صندوقاً فضياً، ويخبر تلميذاً أن يقابله في الفوك.

وبينما تنظر نيلا إلى ثاني أصناف العشاء، والذي هو زبدية
تحوي إسكالوب مرشوش بمرق اللحم وصلصة البصل، تُقبل
المرأة صاحبة العينين الثابتين. ظهرها مستقيم، وشعرها الأشقر
ملفوف داخل قلنسوة متقنة يتوجها شريط أسود من القطيفة،
خيّطت على طول تقوسه لآئى صغيرة. في سرها شكرت نيلا
الرب على معجزاته الصغيرة؛ على حياكة كورنيليا الرشيقة التي
جعلت فستانها يناسب مقاسها.

توقفت المرأة عند المائدة، والمنحت بتحية، وقالت:

- حسناً، قالوا إنك صغيرة في السن. هل همركِ؟

أمسكت نيلاً بطرف زبديتها:

- إنني في الثامنة عشر.

اعتدلت المرأة في وقتها، وعيناها تمسحان الغرفة. وواصلت
بببرة الصوت الهادئ نفسها:

- لقد تساءلنا كيف ستكون هيئتك. لكنني أرى الآن أن
براندت يختار زوجه بالمعايير ذاتها التي يفعل بها كل شيء آخر.
اسم أورتمان غاية في القدم. وماذا يقول سفر الجامعة؟ أَلصَّيْتُ
خَيْرًا مِنَ الدُّهْنِ الطَّيِّبِ؟ في نبرتها اهتمام وإعجاب، لكنها
تطوي على شيء يثير حساسية نيلاً.

تحاول نيلاً أن تحرر نفسها من مجلسها، لكن رأس الطاولة
وتنورتها الكبيرة يتآمران لإبقائها في الداخل. انتظرت المرأة
المنحناة التحية بصبر، مراقبة محاولات نيلاً. وأخيراً إذ تحرر من
الفراغ الضيق بين المسند والدكة، انحنت نيلاً المنحناة كبيرة،
واقرب وجهها من تنورة المرأة السوداء المقصبة، وهي تمتد
أمامها كجناحي غراب خائق.

قالت المرأة:

- هه اعتدلي، يا صغيرة، أنا آغنس، زوج فرانس ميرمانز.
نقيم عند يافطة الثعلب في البرنسفراخت. إن فرانس يعشق
الصيد، لذا هو من اختار المكان.

هذه الحميمة المعروضة تعلق بصورة مخرجة في الجو، وتكتفي
نيلاً بالابتسام، إذ كانت قد تعلمت من مارين أن في الصمت
ربحاً أكيداً.

رَبَّتْ آغْنِسُ عَلَى قَلَنْسُوتِهَا وَرَأَتْ نَيْلًا مَا يُفْتَرَضُ أَنْ تَرَاهُ
- الخواتم التي تزين كل واحد من أصابعها- ياقوتاً أحمر

وجمشت وزمرداً بلمعته الخضراء المعدنية. إن هذا العرض العلفي لكل هذه الجواهر الثمينة يكاد يخالف الطبيعة الهولندية - أكثر النساء يرتدين جواهرهن تحت طبقات عميقة من ملابسهن. تحاول نيلا تخيل يدي مارين مثلاً لأن بهذه الطريقة. وأمام صمت نيلا، ابتسمت آغنس ابتسامة مقتضبة واستأنفت:

-إننا في حكم الجيران، جزء من الخيبورت نفسه.

تتكلم آغنس ميرمانز بطريقة متكلفة، كلماتها مُصطنعة، وكأنها كانت تتمرّن على اللباقة أمام مرآة. حدّقت نيلا في حالة اللآئى الصغيرة المتدلّية التي تحيط رأس المرأة المتعجرف. اللآئى بحجم الأسنان اللبّنية، مثلاً في الضوء الراقص للشمعدانات.

ربما تكون آغنس أكبر قليلاً من مارين، لكن وجهها النحيف المجرد لم يشبه شيء - فلا شامات أو بقعاً شمسية، لا حالات تحت عينيها، ولا إشارة لكّد أو أطفال. تبدو لا مادّية، لا مأهولة، باستثناء تلك العينين الداكنتين، اللتين ترمشان في تعاقب سريع ثم ترتخيان في كسل سنوري. تمعنت آغنس بفتان نيلا الفضي وخصرها الصغير. ثم سألتها:

- من أين أنتِ؟

- أسدلفت. واسمي برونيللا.

- اسم شائع تحمله كثيرات في هذه المدينة. هل كنتِ تحبين أسدلفت؟

أسنان آغنس، كما تلاحظ نيلا، مصفرة قليلاً. فكرت ملياً في أفضل إجابة تمنحها لهذه المرأة، التي يبدو أنها تختبرها:

- لقد رحلتُ عنها منذ أحد عشر يوماً، يا مدام، شعرتُ بها
عِقدًا.

ضحكت آغنس:

- إن الوقت يشبه شمعة عنيدة في الشباب. وكيف وجدتكِ
مارين؟

- وجدتي؟

مرة أخرى ضحكت آغنس، مُقاطعة نيلًا، نفخة هواء خفيفة
بدت مثل ازدراء. ليست هذه محادثة، بل هي آغنس تطلق
سهاماً وتشاهدها يتغلغل. في صوتها ما يبدو أنه إيقاع هو
ثابت، لكن نيلًا يثق في أن شيئاً آخر يجري خلف هذه الثقة
المستقرة، شيئاً تحس به ولكنها تعجز عن تسميته. نظرت
في عيني آغنس، وابتسمت مُدافعة عن ضيقها بأسنان أنضر
وأنصح بياضاً.

من حولهما، روائح الدجاج المطبوخ ومنقوع الفواكه وصوت
النبيذ الخافت في أباريقه تهدد بالتعدي على دائرتيها الصغيرة،
لكن انجذاب نيلًا المغناطيسي نحو آغنس يُبعد كل شيء آخر.
- عروس من أجل يوهانس براندت. قالتها آغنس مع تهيدة،
وهي تجذب نيلًا برفق مُلجّ من ذراعها لتجلس معها على
الدكة.

- لقد مضى زمن طويل جداً. لا بد أن مارين في غاية
السرور؛ لطالما قالت إن عليه أن ينهب أطفالاً. لكن براندت
كان يثير غيظاً شديداً بسبب رأيه في الورثة.

- عفواً؟

- ليسوا رهاناً مضموناً، حسب قوله، ووقحون على الرغم من الرعاية، وأغبياء رغم ذكاء والديهم. ظريف إلى حد ما طبعاً، وبرانديت ظريف دائماً. لكن على المرء أن يورث كل شيء..

ليس من الاحترام أو التوقير أن تستخدم آغنس لقب يوهانس وحده للتحدث عنه بهذه الطلاقة. شعرت نيلا بالإهانة، والخرس، عاجزة عن تخيل ظرف قد يجعل يوهانس يناقش أمر الورثة مع هذه المرأة الغريبة.

رفعت آغنس إبريقاً وأخذت تصبُّ لهما كأسين من النبيذ. ولبضع لحظات جلستا في صمت، تستطلعان حالة السكر المستقر، رذاذ البورت على المفرش الدّمقس، بريق الأطباق المرفوعة، آخر طعام يوضع. "الجودين بوخت"، قالت آغنس وعيناها تجثان في نيلا وكأنها مجموعة أوراق لعب: لا بد أنها تبدو لك من أسدلفت في بُعد باتافيا. ودست خصلة وهمية خلف أذنها، فأرسلت أصابعها المزينة بالحواتم وميضاً من جديد.

- بعض الشيء..

- لكن زواجاً عن حب كزواجي، هو نادر جداً إن فرانس يُدلّني. هكذا همست وكأنه سر: كما أن برانديت سيدللك.

أجابت نيلا، وهي تشعر بالسخافة:

- آمل ذلك.

قالت آغنس:

- إن زوجي فرانس رجل صالح.

حام التعليق الدخيل كتحدٍ، ودهشت نيلا من هذه المواجهة الغريبة. ربما تكون طريقة نقاش عصرية، عدوانية ومستفزة،

فِيخِيلُ لِلرَّءِ أَنَّهُا مَحَادَّةٌ تَخْلُو مِنْ التَّكْلِفِ.

تَابَعَتْ آغْنَسُ:

- وَهَلِ قَابِلَتِ الزَّنْجِي؟ أَعْجُوبَةٌ! يَوْجَدُ مِنْهُ الْمَثَاتُ فِي أَرْضِي
بِسُورِينَامِ، لَكِنِّي لَمْ أَقَابِلْ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

ارْتَشَفَتْ نَيْلًا مِنْ نَبِيدِهَا.

- تَتَحَدَّثِينَ عَنْ أَوْتُو. هَلِ ذَهَبْتِ إِلَى سُورِينَامِ مِنْ قَبْلِ؟

ضَحَكَتْ آغْنَسُ، وَقَالَتْ:

- يَا لِلطَّفِكَ!

- لَمْ تَفْعَلِي إِذْنًا؟

- إِنْ مَنَحْنَا التَّرَكَّةَ بِكَامِلِهَا هُوَ مِثَالُ رَائِعٍ عَلَى إِحْسَانِ الرَّبِّ،
يَا مَدَامَ. لَا أُخْوَةٌ يَتَرَبِّصُونَ، كَمَا تَرِينَ، أَنَا فَقَطْ. كَانَ يَسْتَحِيلُ
أَنْ أَخَاطِرَ بِحَيَاتِي فِي رِحْلَةٍ مَدَّتْهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَقَدْ وَضَعَ الرَّبُّ
مَحْصُولَ السُّكَّرِ الْخَاصِّ بِبَابَا فِي عَهْدِي. كَيْفَ سَأَكْرَمُ ذِكْرَاهُ وَأَنَا
عَالِقَةٌ فِي مَكَانٍ مَا عَلَى سَفِينَةٍ؟

مَالَتْ آغْنَسُ عَلَيْهَا. وَأَرْدَفَتْ:

- أَقْرَضُ أَنْ الزَّنْجِي لَيْسَ عَبْدًا بِالْمَعْنَى الْحَرْفِيَّ لِلْكَلِمَةِ. لَمْ يَكُنْ
بِرَانْدَتِ لِيَقْبَلَ أَنْ نَطْلُقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ. أَعْرَفُ اثْنَتَيْنِ مِنْ وَصِيَّاتِ
الْعَرْشِ تَمْلِكَانِ وَاحِدًا هُنَا فِي أَمْسْتِرْدَامِ. أُرِيدُ وَاحِدًا يَعْرِفُ
الْمُوسِيقَى. الْأَمِينُ الْعَامُّ عَلَى خَزِينَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ يَمْلِكُ ثَلَاثَةَ، مِنْهُمْ
امْرَأَةٌ، وَهِيَ تَعْرِفُ الْعَرْفَ عَلَى كَمَا السَّاقِ! أَقْرَضُ أَنْ هَذَا
إِثْبَاتٌ عَلَى أَنْ فِي وَسْعِ الْمَرْءِ الْآنَ أَنْ يَبْتَاعَ أَيَّ شَيْءٍ فِي وَضْعِ
النَّهَارِ. جَمِيعُنَا نَتَسَاءَلُ، كَيْفَ تُرَاهُ يَجِدُ الْحَيَاةَ هُنَا؟ كَعَادَتِهِ،
يَحْضُرُهُ بِرَانْدَتِ إِلَى الْمَنْزَلِ...

- آغنس... ناداها أحدهم: فأسرعت نيلا بالنهوض: من فضلك، قال الرجل الذي أمامهما، وهو يشير إليها ألا داعي إلى الانحناء تحية.

شبكت آغنس أصابعها الرشيقة في حجرها. وقالت:

- زوجي، سنيور ميرمانز. وهذه بترونيلا أورتمان.

- بترونيلا براندت. قالها، مُجِلاً أنظاره في الغرفة. "أعرف."

لوهلة، بدا المشهد، إذ الرجل واقف، والمرأة إلى جواره جالسة، ترتدي ثروتهما، وبينهما رابط خفي، هو أكثر صورة مثالية رأتها نيلا للزواج على الإطلاق. كان الاتحاد فيها مُهدداً.

كان فرانس ميرمانز أصغر قليلاً من يوهانس، إذ لم تلوح وجهه الضخم آثار الريح والشمس؛ ويمكن لفكه الحليق العريض أن يأكل خمس أسقلوبات. ويحمل قبعة، حرفها أعرض من أي قبعة في الغرفة: فكرت نيلا، الجِلد لك، يا يوهانس، وتساءلت: ما الرهانات الأخرى التي يكسبها زوجها.

ميرمانز من الرجال الذين يسمنون سريعاً، حسب تخيلها. والأرجح أنه سيفعل نظراً إلى الطعام الذي يقدم في هذه الأماكن. كانت رائحته مثل رائحة الكلاب الممزوجة بالرطوبة ودخان الحطب، وأكثر برية من دهن الفاكهة الذي تضعه زوجته. المنحنى وتناول ملعقة برّاقة. وسألها:

- هل أنتِ صائغة فضة؟

ابتسمت آغنس باقتضاب أمام النكتة الثقيلة. وقالت:

- هل سنتحدث مع براندت الليلة؟

رفع ميرمانز رأسه تلقائياً، ومسح الغرفة. كان يوهانس قد

ترك المجموعة القريبة من مائدة نيلا وغاب تماماً عن الأنظار.
قال ميرمانز:

- سنفعل. إن السكر في مستودعه منذ قرابة أسبوعين.

- علينا - أن نتفق على الشروط. ليس لأنها ترفض تناول
الحلويات، فعلى الجميع أن يُحرم منها. ها، أطلقتها آغنس بقمة
في الهواء؛ بينما تسكب لنفسها كأساً آخر من النبيذ، ويدها
ترتجف قليلاً.

نهضت نيلا، قائلة:

- عليّ أن أجد زوجي.

- إنه مُقبل علينا، قالتها آغنس بتزمت. وانحنت بتبجيل بطيء
وعميق عند اقتراب يوهانس. قال يوهانس:

- - مدام ميرمانز، لكن الرجلين لا يتبادلان التحية بانحناءة
لائقة.

- سنيور، همست آغنس، وعيناها الداكنتان تنهلان من قصة
معطفه الفخمة. يبدو لنيلا وكأن آغنس تكبح رغبة عميقة في
أن تمد يدها وتلمس ياقته المخملية:

- أراك تمارس سهرك المعتاد هذا المساء.

- ليس سهرًا، يا مدام. إنه أنا وحسب.

اختلست آغنس نظرة إلى زوجها، الذي يظهر أنه يركز عينيه
على مفرش المائدة. ثم وكأن في وسعه أن يشعر بعينها على
عنقه، يتحدث ميرمانز:

- كما نريد التباحث في السكر... بدا صوته يتراجع، ورأت نيلا
الغشاوة على وجهه غير الواضح.

- متى يُباع؟ هكذا طرحت آغنس سؤالها الذي يشق الهواء..

- إنني أبدل قصارى جهدي، يا مدام.

- طبعاً، يا سنيور. لا أملك أي شك في...

قاطعها يوهانس:

- إضافة إلى فساد فان ريبك في مستوطنة الرجاء الصالح، والأباطرة الملاعين التافهين على حدودنا النائية. ومقدمي الرشاوي في باتافيان، والأسواق السوداء في الشرق، فإن الناس يتوقون إلى منتج جيد، وأنا أخبرهم أنه سيتوافر عن طريقك، يا مدام. أتخيل أن جزر الهند الغربية هي في النهاية من سينقلنا جميعاً، لكنني لن آخذ محصولك من السكر إلى البورصة. إن قاعة التداول هي سيرك، والسماسة يعجبهم الهاربيات (1) المجنونة. هذا السكر يحتاج إلى تصديره بدقة وتحكم إلى الخارج... قاطعته آغنس:

- ولكن ليس إلى الإنكليز. إنني أكره الإنكليز. لقد أثاروا مع أبي الكثير من المشكلات في سورينام." طمانها يوهانس:

- ليس إلى الإنكليز أبداً، وأضاف ببرة معسولة: إنه مخزن في أمان. تستطيعين أن تذهبي وثأ كدي إن شئت." علق ميرمانز:

- أنت غريب، يا سنيور، في إصرارك على التصدير. أكثر الهولنديين الصالحين سيحتفظون بكثر كهذا لأنفسهم، ونظراً إلى جودته، فإنه سيُباع بثمن كبير.

- إنني أجد حب الذات نهجاً غير مشعر. لا يساعد أحداً إنهم
يرونا في الخارج غير أهل للثقة. لا أحب أن أوصف بهذا.
لماذا لا تنشر صيت السكر الذي تنتجه؟

- في السراء والضراء، وضعنا ثقتنا بك.

قاطعته آغنس، في محاولة لتلطيف الجو:

- إنني احتفظ بمخروط سكر في المنزل. إنه جميل في تماسكه.
صلب كالماس، حلو كالجرا. ذاك ما كان أبي يقوله دائماً.
تمايلت نيلاً، مُحَدِّقة في بقايا النبيذ بكأسها، مخمورة قليلاً.

قال يوهانس: "سوف أبحر إلى فينيسيا من أجلكما. إن فيها
الكثير من المشترين. إنه ليس أفضل وقت لوصول محصولكما
من السكر، ولكن تأكداً أنه يوجد بندقيون سيرغبون في
الشراء."

شهقت آغنس:

- فينيسيا؟ كاثوليك؟

اندفع ميرمانز قائلاً:

- لم يكده والدها، يا سنيور براندت، ليملاً بطون الكاثوليك.
- الجِلدِر يظل جِلدراً من أي جيب كان، أليس كذلك؟
كل رجل أعمال حقيقي يعرف ذلك. إن فينيسيا وميلانو
يا كلان السكر كما نتنفس نحن الهولنديون...

- هيا، يا آغنس. قال فرانس: إنني مُتعب. ومعدتي مُمتلئة. ثم
ضغط قبعته على رأسه كأنما يضع سداة على أفكاره. وقفت
آغنس منتظرة والصمت المهرج يتنامى.

- طابت ليلتكما، إذن. قال يوهانس أخيراً، وابتسامته العريضة تعجز عن إخفاء الإنهاك خلف عينيه.

- في أمان الرب، ردت آغنس مُتأبّطة ذراع زوجها. واذ بشق الزوجان طريقهما بين ألواح الماهوجني، ومفارش المائدة المشوّهة، والأباريق الفضية المقلوبة وبقايا الطعام، شعرت نيلا بإحساس قلق يتنامى.

قالت: "يوهانس. قالت مارين إن علينا دعوة..."

وضع يده على كتفها فتهدلت تحت ثقله. تنهد وقال:

- نيلا، عليكِ دائماً مع هذا النوع من الناس، أن تتركهم في شوق إلى المزيد.

ولكن عندما أدارت آغنس عينيها، وألقت إليها بنظرة متعجرفة، أصاب نيلا الشك فيما يقول.

حجرة المكتب



وفي طريق عودتهما، استلقى يوهانس ممدداً داخل العبارة مثل فقمة جنحت إلى الشاطئ.

- تملك الكثير من المعارف، يا يوهانس. وهم يقدرّونك.

ابتسم، وقال:

- هل تظنين أنهم سيوجهون إلي حديثاً لولا أنني غني؟

- وهل نحن أغنياء؟ خرجت الكلمات من فمها قبل أن يسعها إيقافها، كان القلق في صوتها واضحاً، ونبرة الاستفهام عالية جداً واتهامية.

أدار رأسه نحوها، وشعره محصور على الدكة تحت خده.
وسألها: " "

- ما الخطب؟ دعك من مارين وما تقول. إنها مغرمة بالقلق.

أجابت نهلاً:

- ليست مارين.

- عندما يخبرك شخص شيئاً بقليل من الشغف، فإن ذلك لا يعني أنه حقيقي. كنتُ أغني من ذلك. وكنتُ أيضاً أفقر. لم يترأى لي قط أنه صنع فرقاً ملبوساً. خفت صوتي، مخدراً بالطعام وإرهاق الأمسية: لا يمكنك حقيقة أن تلسي ثروتي، يا نهلا. إنها في الهواء، تنتفخ، وتقلص. وتنمو مرة أخرى. ما تشتريه صلب، لكنها هلامية مثل سحابة.

- ولكن، يا زوجي، لا شيء قطعاً أكثر صلابة من قطعة

ثياب وأغمض عينيه، وراحت نيلا تتخيل أموال زوجها، لا أكثر من ندى، يذوب ويعود للتشكل من دون تكهن:

- يوهانس، ثمة ما أريد إخبارك به. سكتت لبرهة قصيرة، ثم تابعت:

- هناك ... صانع دُمى استعنتُ به...

لكنها من خلال نظرة سريعة، رأت أنه استسلم لإغفاءة الشعب. رغبت نيلا في أن يستيقظ، حتى يسعها أن تطرح عليه المزيد من الأسئلة، فهو بعكس مارين، يعطيها دائماً جواباً مشيراً للاهتمام. بدا متمللاً بعد انصراف فرانس وأغنس، وعيناه الرماديتان تنتقلان بين أفكار خاصة، عازلاً نفسه عنها من جديد. لماذا بدا ميرمانز أقل حماساً من زوجه في التعامل مع يوهانس؟ لماذا لم يقيم يوهانس بدعوتها إلى منزله؟

شمت نيلا آثار عطر آغنس الزهري على يديها. وبدأت معدتها تترقرق من تحت ثورتها الدانتيل الداخلية، وتمنت لو أنها أكلت أكثر. أصبح عمر يوهانس واضحاً في انسداد جفنيه وتهدل ذقنه على صدره. يبدو متغضباً، بوجه عمره تسع وثلاثون حكاية خرافية. فكرت في الصمت الذي يعقب ثرثرته المنفتحة، قبل أن ينتقل من جديد إلى شرود أكثر قتامة. أغلقت عينها، وتذكرت قول آغنس "كما أن براندت سيدللك".

تذكرت رسالة الحب المخبأة في غرفة مارين. من أرسلها، وكم يوماً - أو عاماً - مرَّ عليها هناك بين صفحاتها؟ تتساءل نيلا بأي إحساس تقرأها مارين - بسرور أم بازدراء؟ ملبس الفرو الناعم مقابل خشونة مشدِّها الأسود البسيط، باقة زفافها

جمجمة مصفرةٌ تكتئ على رفوفها. كلا، لا أحد أبداً سيدل
مارين. لم تكن لتسمح بذلك.

رفعت نيلاً يدها في العتمة، ونظرت إلى خاتم زواجها،
أظفارها تشبه أصدافاً وردية باهتة. ربما لم يكن في أسدلفت
سوى ميدان واحد، إلا أن من يجلسون فيه كانوا سينصتون
إليها على الأقل. هنا هي دمية، إناء يسكب فيه الآخرون
أحاديثهم. كما أن من تزوجته ليس رجلاً، بل هو عالم. صاغة
فضة، شقيقة زوج، معارف غربيون، منزل تشعر فيه بالضيق،
وآخر أصغر منه يخيفها. إن ما يُقدّم لها كثير في الظاهر، لكن
نيلاً تشعر أن شيئاً يؤخذ منها.

عندما يدخلان إلى المنزل، تلتفتُ، عازمة على التحدث، لكن
يوهانس ركع يهمس لرزيكي. إنها المفضلة لديه كما هو واضح،
مرر يوهانس كفاً مضمومة فوق رأس الكلبة. كشفت رزيكي
عن أسنانها في سرور ودي. لم يكن أحد قد أوقد الشموع في
البهو. المكان مظلم جداً، ولا قر من وراء النوافذ العالية.

سأل بصوت رقيق مفعم بالحب:

- هل أطعموك، يا جميلتي؟" ردت الكلبة بلطم ذيلها القوي
فوق البلاط، فقهقه يوهانس.

تثير الضحكة غيظ نيلاً، ما تريده من اهتمام يُمنح لحيوان.
قالت:

- سأخذ إذن إلى الفراش.

فأجاب وهو ينتصب:

- افعلي، افعلي، لا بد أنك متعبة.

- لا، يا يوهانس. لست متعبة.

تبادلا التحديق إلى أن أشاح بعينه:

- عليّ تدوين ملاحظات عن الرجال الذين قابلتهم. وسار نحو مكتبه والكلبة في أعقابه.

قالت نيلّا:

- هل تؤنسك؟ وتفكر، أحد عشر يوماً وحدي وأنا متزوجة. أطول مما استغرقه الرب في خلق العالم.

أجاب:

- إنها تساعدني. لو أنني جرّبتُ مباشرة حل مشكلة ما، فلأنني أفضل. أما عندما أدللها، فإن الجواب يأتي.

- إنها مفيدة إذن.

ابتسم يوهانس:

- هي كذلك.

سأله:

- وبكم اشتريتَ أوتو، هل هو مفيد؟ صوتها بارد وحاد بوقاحة.

تلبد وجه يوهانس، وشعرت نيلّا بالدم ينبض في صدغها. قال:

- ماذا قالت لكِ آغنيس؟

أجابت:

- لا شيء، لكن كانت فعلاً قد تأثرت بكلمات آغنيس.

قال بصوت هادئ:

- كل ما فعلته هو أنني دفعتُ أجر الشهور الأولى لأوتو مقدماً.

- هل يعتقد أوتو أنك حرره؟

زم يوهانس فه، وقال:

- هل يزجك، يا برونهلا، أنك تعيشين معه هنا؟

- مُطلقاً. كل ما هنالك، أنه لم يحدث من قبل... أعني...

أجاب يوهانس:

- إنه الخادم الوحيد الذي اقتنيته. والذي لن أقتني بعده.

أدار وجهه. وقالت نيهلا في سرها، لا تذهب. إن ذهبت، أصبح خفية، الآن في هذا الدهليز، ولا أحد سيجدني مرة أخرى. أشارت إلى الكلبة التي تجلس مطيعة إلى جانبه. وسألته:

- هل هذه ريزيكي أم دانه؟

رفع يوهانس حاجبيه، وهو يرت على الكلبة بيد محبة: حفظت اسميهما إذن. هذه ريزيكي. دانه لديها دائرة لون في بطنها.

أعرف ذلك، هكذا فكرت، وهي تستعيد صورة الكلبة الصغيرة في الأعلى، قابعة في الخزانة.

- اسمها غرييان.

- ليس إن كنت من سومطرة.

- ماذا تعني ريزيكي؟ شعرت أنها صغيرة وغبية.

- رزق، هكذا أجاب، وهو ينسلُّ إلى المكتب ويفلق الباب.
انتظرت نيلا في ظلام البهو، ومن جهة ما عبر البلاطات
الرخامية الفسيحة هبَّ تيار بارد نحوها وكأنَّ باباً آخر انفتح.
انتصب الشعر على مؤخرة عنقها. هناك شخص ما في العتمة.
- من هناك؟

انبعثت من أعماق المطبخ أصوات خافتة، تمتمات لحوحة،
جلجلة مقلاة من حين إلى آخر. يتناقص قليلاً إحساس
المراقبة، وهذه الأصوات، وإن كانت بعيدة، إلا أنها مطمئنة.
يُفقد المنزل نيلا إحساسها بالأبعاد، فتمد يدها وتلمس الخشب
الصلب لإطار باب يوهانس، وكأنما لتطمئن نفسها. عندما
تسمع ما يُخَيِّلُ إليها أنه شهيق خلفها، ويلامس شيء طرف
فستانها، طرقت نيلا بقبضتها على باب المكتب.

- مارين، ليس الآن.

- أنا نيلا!

لم يجب يوهانس، وتحقق نيلا في نهاية الظلام وهي تحاول
ألا تسمع لرعبها أن ينتصر، فتقول بببرة رجاء:
- يوهانس، أرجوك. دعني أدخل.

عند الباب، رحب بها الوجع الأصفر إلى درجة أوشكت معها
نيلا على البكاء.

صدمها منظر حجرة المكتب، التي بدت لها أكثر مكان مأهول
دخلته في المنزل. هذه غرفة ذات غاية محددة. إنها تعرف
نفسها، وهي أشبه الأماكن بزوجها. عندما خطت إلى الداخل
وأغلق الباب، حاولت أن تنفض عنها رعب الدهليز.

- لا أحد هناك، يا نيهلا. إنه الغلام لحسب. لماذا لا تخلدن
إلى الفراش؟

دهشت نيهلا كيف عرف خوفها، تماماً كما عرف كيف
أثارت آغنس استياءها حول أوتو. ففكرت، عندما يتأملك
يوهانس فكأنما تراقبك بومة. تشعر بأنك مُكبَّل.

كان المطر قد بدأ ينهمر في الخارج، وفي الغرفة الصغيرة تنوح
رائحة ورقية لاذعة، أخذت تجول ببصرها في الغرفة، فرأت
طاولة خشبية عالية مُركبة بمفاصل إلى الحائط، وفوضى من
اللفائف، ودواة حبر من الذهب. كان دخان الشمعة يغطي
السقف المنخفض ببطانة سوداء، ويكاد التصميم الدوامي
لبساط تركي سميك ألا يرى بسبب الأوراق المتناثرة والمخطوطة
بلغات غير مألوفة. تبعثرت قطع صغيرة من أختام شمع أحمر في
كل مكان، وبعضها دُكَّ في الصوف.

على جميع الجدران خرائط، أكثر مما لدى مارين. تفحصت
نيهلا أشكال فرجينيا وبقية الأمريكيتين، المحيط الهادئ، جزر
الملوك، اليابان. كل منها نُقش بخطوط دقيقة رُسمت بنمط
ماسي. رسومات تسم بالدقة، وليست تلك التي تتناثر بأسئلة
تواقة. أسفل النافذة صندوق ضخم مُغلق بقفل، منحوت من
خشب داكن. "ذلك هو المكان الذي تُحفظ فيه الأموال، قال
يوهانس وهو يستوي على كرسیه.

تمنت نيهلا لو أن يوهانس يكون أشبه بالذئب منه باليوم. كان
ذلك سيمنحها دوراً مناسباً، مادامت عاجزة عن أداء دورها
بوصفها زوجاً:

- أردتُ ... أن أشكرك... على بيت الدمى. لديّ خطط...

- لا حاجة بكِ إلى شكري، قالها، مُلّوْحاً بيده في الهواء مرة أخرى: "إنه أقل شيء أقدمه.

تقول:

- لكنني أردتُ أن أظهر لك شكري.

حاولت تقليد حركات آغنس ميرمانز الرشيقية، فسدت قبضه بيدها المرتجفة. إنها تريد أن تجعل من ذلك الاتحاد، من تلك الصورة الزوجية حقيقة. لكنه لم يستجب. وظلت أصابعها تلامسه بصورة خرقاء مثل طفل نافر.

قال: نعم؟

خفضت يدها، ووضعتها على مقدمة نخله. لم يسبق لها قط أن لمست رجلاً هكذا، فضلاً عن رجل بكل هذه المهابة. إنها تشعر بالكلمة العضلية لساقه عبر الصوف السميك. قالت: -

- عندما تتحدث تلك اللغات، فإنك تسحرني.

عرفت فوراً أنها قالت شيئاً في غير محله. لأنه ينتزع نفسه من المقعد. ويقول:

- ماذا؟

اضطرب يوهانس، حتى أن نبلا وضعت يديها على فخها وكأنها تريد أن تمحو الكلمات:

- أنا فقط... كل ما هنالك...

- تعالي هنا. قاطعها. وأمام ذهول نبلا، مسد شعرها بحركات خشنة.

- أنا آسفة... قالت، مع أنها لا تعرف علام تعتذر. مال

ممسكاً بذراعيها النحيلتين وهو يقبلها على فيها.

صدمت من تصرفه، الآثار الحارة والمنبهة للنييد والسلطعون، استجمعت كل قوتها حتى لا تتخشب بين يديه. فتحت شفتيها قليلاً، ليجرد أن تخفف من ضغط لفة. ظل ممسكاً بها، -وتقرر بسرعة قبل أن يتمكن الخوف منها، أن تنزل يدها إلى واجهة سرواله القصير. لو أن هذا شيء واجب فعله على جملة النساء، فعلى التطبيق إذن أن يضفي على الأمر متعة ما.

نيلا لا تستطيع سوى البحث عنه، الانتفاخ المستكين الذي لا تعلم عنه شيئاً. لكنها لم تجد ما وعدتها أمها به، بل وجدت شيئاً مثل دودة متلوية، أو...

رماها يوهانس بنظرة مرعبة، وتراجع مصطدماً بحافة مكتبه.
قال:

- نيلا. رباه...

- زو...

يصرخ "اذهي! اخرجي."

تراجعت نيلا متعثرة، يلاحقها نباح ريزيكي، الذي بدا محذراً، فصفق يوهانس الباب. وسمعت مفتاحه يدور في القفل، شعرت برهبة الغلام مجدداً، وراحت تصعد السلم مسرعة إلى غرفتها.

كان بيت الدمى في الركن، فتحت ستائره، فلمع المهد في ضوء القمر مثل شتيمة. ركلت نيلا ساق بيت الدمى، لكن الخشب والكسوة المزخرفة لا يلينان، وسمعت صوت عظم ينكسر. فأخذت تتلوى من الألم، لكنها رفضت البكاء. وأخذت تتحول في الغرفة بقدم عرجاء، وتقلب لوحات زوجها

على ظهرها. الأرنب الفريسة والرمان العطن، كل واحدة منها.

خطوات



- لماذا جميع اللوحات مقلوبة؟

سألها كورنيليا، وهي تعيد أقرب لوحة إليها إلى وضعها الطبيعي. بسرعة مرسومة، تخرج من ثمرة رمان، وتزحف نحو طرف الإطار. ارتعدت الخادم، وهي ترسل نظرة إلى بيت الدمى. تقول بصوت خافت: في وسعك أن تتعطي العيش هنا، يا مدام. كل ما عليك هو أن ترغبي في ذلك.

راقبتها نيليا بعين واحدة مفتوحة، وخزي الليلة السابقة يعود متدفقاً إليها. يثبتها في الفراش وتدس وجهها في الوسادة. هل هي كورنيليا من كانت في البهو ليلة أمس؟ تنصت إلى الكارثة تتجلى؟ لماذا لم تواسني إذن؟ تؤلمها فكرة أن يكون أحد قد سمع فشلها بوصفها زوجاً.

صدَّ يوهانس غلّف روح نيليا بغشاوة. كانت لتهم رأسها لو أنها ستستطيع بذلك نحو هذه الأفكار الحمقاء عن الحب الحقيقي، عن فراش الزوجية، والضحك والأطفال. وإذ تدير كورنيليا لوحة أخرى، أشلاء المحار على خلفية نيلية داكنة، تشعر نيليا أن الجدران تطبق عليها، بلوحاتها المضخمة للطرائد الميتة والزهور التي تحطت زمن تفتحها.

قالت كورنيليا: أظن أن مارين حاولت أن تدفع إليك بأسوأ اللوحات. فئات آخر تلقيه، على الأقل هذه الابتسامة، عطايا كورنيليا الصغيرة من المعلومات، مارين واحتياها يفضحان على يد شخص ما كر.

فتحت كورنيليا الستائر، فأضاف ضوء صباح أواخر تشرين الأول وضوحاً صارخاً إلى كل شيء. تلوَّى وجهها وهي تنزع فردة قبقابها، وتبرز قدماً صغيرة. وتقول: صدقي أو لا تصدقي، يا مدام، لكن قديمي يتعبان أيضاً. اتكأت على الجدار، وبدأت في تدليك باطن قدمها: يتعبان بشدة. كقدي رجل ميت.

استوت نيلا جالسة في فراشها. إنها لم ترقط خادماً كهده عندما كانت في أسدلفت. إحساس الحرية الذي تمتلكه كورنيليا، أن تفعل وتقول أشياء لم تكن لتفعلها أو تقولها في مكان آخر. صوت كورنيليا غير متكلف بصورة مبهجة، ومنتعة فرك قدميها تبدو أكبر من أن تبالي بما قد تظنه سيدتها. تفكر، ربما هو شيء في هذا المنزل، تساهل من نوع ما لا أفهمه. إن الحياة هنا فعلاً مقلوبة، تبدو خطئاً، لكنها تشع نوراً عليهم جميعاً. يا لاهتراء جوربي كورنيليا، غابة من الغرز، تصل بين خرق من الصوف. ألا يسع مارين أن تقدم لها جوربين أفضل حالاً؟ تذكر نيلا تعليق يوهانس على ثروته الضبابية التي لا يمكن لمسها.

تذكر لمسة يوهانس المبهمة، المتحفظة والخالية من الإحساس. ارتعدت نيلا وهي تشاهد كورنيليا تعيد لوحة الأرنب المعلق إلى وضعها الأول، وشعرت بالاستياء ينخر جلدتها. أرادت أن تقول، إنك لا تعرفين شيئاً. جربي أن تكوني زوجاً.

لكنها قالت:

- كورنيليا، لماذا مارين مصممة على بيع محصول آغنس من السكر؟ هل نحن فقراء؟

حدقت فيها كورنيليا فاغرة لها:

- مدام، لا تكوني مهيضة. فقراء! إن نساء المدينة ليقطعن ذراعاً مقابل أن يكن في مكانك...

- لا أحتاج إلى موعظة، يا كورنيليا. لقد سألت سؤالاً...

- أن تحظي بزواج يعاملك باحترام، ويصحبك إلى الولايم ويتع لك الفساتين وبيت دمي بثلاثة آلاف جلدري؟ إنه بطعمنا، ويسأل عن أحوالنا. أوتو سيقول المثل.

“ما قاله أوتو إن فيضانا سيحدث.”

ردت كورنيليا، بكلمات مندفة ومُتلاحقة:

- حسناً، إن في السنيور الكثير مما يثير الإعجاب. لقد ربّي توت كابنه. من قد يفعل ذلك؟ خادم يستطيع التحدث بالفرنسية والإنجليزية؟ خادم يستطيع رسم خريطة، والتأكد من جودة ثوب صوف من هارلم...

- ولكن بم يفيد أوتو من كل ذلك، يا كورنيليا؟ بم يفيد أيّ منا؟

ظهر على كورنيليا عدم الارتياح:

- من موقعي هذا، يا مدام، أرى أن حياتك قد بدأت للتو. تفضلي. مدت الخادم يدها إلى جيب مئزرها الرئيس، ووضعت طرداً كبيراً على فراش نيل: لقد ترك في الخارج على عتبة الباب، مُعنوناً إليك. ما الخطب؟

- لا شيء، تلعثت نيل. واستقرت العلبة الدخيلة، موسومة بعلامة الشمس، على شرافتها.

واصلت كورنيليا، وعيناها على الطرد: “سيسرك أن تسمي ألا رنكة اليوم. بل مربى الفواكه الشتوية وكريمة الزبدة. لقد

طلب السنيور عشاء مبكراً، ثم تناول قبقابها الشارد وتدفعه من جديد فوق نعلها.

قالت نيلا:

- لا شك في ذلك. إنه يجد كثيراً من نفسه في الطعام حسبما يبدو. سأنزل بعد قليل.

وحالما أغلقت الباب، تناولت نيلا الطرد برفق في يديها. وفكرت، لم أطلب هذا. لقد أبلغ خطابي صانع الدمى بوضوح أن يتوقف. لكن حتى وهي تتذكر ذلك، مرقت الغلاف الورقي. ومن قد يقاوم فتح طرد كهذا؟ هكذا أقنعت نفسها. وهي تستحضر كلمات خطابها بدقة. وبوصفي زوج تاجر كبير في الشوك، فلن أسمح بإرهابي على يد صنائعي.

تنبثق رسالة، وفوقها كلمات تقول:

أحارب من أجل الظهور

- آه، أحقاً تفعل، يا سيد منمنم؟ قالت نيلا جهراً.

تقلب بقية اللعبة فتسقط منها تشكيلة من القطع المنزلية الصغيرة. مكابو بطول حبتي شعير، سلال منمنمة، أجولة منسوجة، بضعة براميل وممسحة، كانون لتجفيف الملابس. قدور ومقال، سكاكين وشوك للسك، وسادة مطرزة، بساط جداري ملفوف يكشف عن لوحة لامرأتين ورجل، أدركت نيلا أنها القصة نفسها التي تكسو حائط يوهانس في الأسفل، مرثا ومريم، تتجادلان حول يسوع.

في برواز ذهبي صغير، رسم إناء زهور بالألوان الزيتية، مُتمماً بيسروعة زاحفة. إنها فكرة شائعة، هكذا تقول نيلا لنفسها، محاولة الحفاظ على هدوئها، وعينها على النسخة الحقيقية التي

كانت كورنيليا للتو قد قلبتها على وجهها. ضمت التشكيلة أيضاً بضعة كتب مجلدة بإتقان، بعضها لا يزيد حجمه عن عملة ستايفر، تغطيها كلمات بخط غير مقروء. تُصنفها، وشيء منها يترقب أن تجد رسالة حب، لكنها لا تجد شيئاً. هناك أيضاً خريطتان صغيرتان لجزر الهند، وإنجيل خُطَّ الحرف الأول على غلافه بخط كبير.

لكن علبة منفصلة تستوقف نظر نيل، تلوح عبر ثياب القماش. وبين الطيات، وجدت مفتاحاً ذهبياً صغيراً، يتدلى من شريط. أرحمته في ضوء الصباح البارد. إنه جميل، لا يزيد طولُه عن ظفر إصبعها الصغير، نقش على عنقه زخرفة بتصميم مُعقد. أصغر من أن يفتح أي باب، فكرت نيل. عقيم إنما مزخرف.

لا شيء آخر في العلبة - لا رسالة، لا تفسير، لا شيء سوى شعار التحدي الغريب وهذا السيل من الهدايا. لقد أقسمت كورنيليا أنها سلبت الخطاب الذي أخبرت فيه صانع الدُمى بالتوقف. فلماذا لم يطعن؟

لكنها، بينما تنظر إلى هذه القطع وجمالها الاستثنائي، وغايتها التي يصعب استنتاجها، تساءلت نيل إن كانت حقاً تريد من صانع الدُمى أن يتوقف. إن صانع الدُمى نفسه لا نية له في ذلك كما هو واضح.

وضعت نيل بلطف القطع الجديدة في بيت الدُمى، واحدة تلو الأخرى. شعرت بإحساس امتنان عابر يفاجئها

- إلى أين تذهبين؟

سألها مارين وهي تعبر الدهليز، فردت نيل:

- لا مكان محدد. كان ذهنها منصرفاً إلى يافطة الشمس،

والأجوبة التي تكمن خلف باب صانع الدُهي.

قالت مارين:

- هكذا نَحْنُت. سيلقي القس بليكورني موعظة في الكنيسة القديمة واقترضت أنكِ سترغبين في الحضور.

- هل سيأتي يوهانس؟

- لن يأتي يوهانس، بعد أن ادعى ضرورة ذهابه إلى البورصة، لمتابعة آخر الأرقام التي وصلت إليها الأسهم.

تساءلت نيلا هل العبادة هي ما يتجنبه زوجها.

في استماتة لزيارة الكالفرسترات، تباطأت نيلا عمداً عن مارين، التي كانت قد ماها مضربان دروب القناة وكأنها وجهت إليها إساءة شخصية. وريزيكي، التي لا يسعدها إلا أن تكون مع سيدها، في البورصة مع يوهانس. ولأنها لم ترغب في ترك دانه وحيدة، سارت نيلا مع الكلبة الثانية، التي تحب مطيعة إلى جانبها، وهي توجه أنفها الأسود الرطب نحو سيدتها المتبناة حديثاً.

سألت نيلا كورنيلا:

- هل تصحبان الكلبتين إلى الكنيسة في العادة؟

أومأت الخادم:

- تقول مدام مارين: إنها لا تثق فيما قد تفعلانه إن تركنا وحدهما.

- يمكنني إحضار بيبو.

- يكفيك مُصَف. قالت مارين، فاستغربت نيلا من قدرتها على

استراق السمع.

إنه يوم مُشرق، سطوح المنازل التيراكوتا شبه قرمزية، ودرجة الحرارة تكفي برودتها لتخفيف أي رائحة كريهة في القناة. مرّت إلى جوارهم العربات مُحدثة جلبة، وعجّت مجاري المياه بالسفن المحملة برجال ونساء وحزم من البضائع، وبضع غنمات أيضاً. سرن في الهيرغراخت، ومنه إلى الفيزلسترات وعبر الجسر إلى سوق تورف المؤدي إلى الكنيسة القديمة. نظرت نيلا بتوق نحو وجهتها الأصلية، قبل أن تدّكرها كورنيليا بأنه إذا لم تنظر المدام أمامها، فسوف تزل فوق الحصى.

الناس يحدقون، من القوارب، من نوافذ المنازل، من درب القناة. مع كل خطوة يخطونها من جوار المنازل العالية والنحيلة لتجار الحرير في الفورموسترات، ومن جوار نوافذ المتاجر التي تبيع المايوليكا الإيطالية، وحرير ليون، والتفتا الإسبانية، وخزف نورمبرغ وكان هارلم، يمهرهم الأمسترداميون بتشكيلة من النظرات. تساءلت نيلا لوهلة ماذا تراهم فعلوا، ثم رأت توتر العضلات على مؤخرة عنق أوتو. وسمعت أحدهم يقهقه:

- إنه يتكلم!

عندما يمر أوتو، فإنه يثير الدهشة في كل الوجوه، بعض الملاح تتحول إلى شك، وأخرى إلى ازدراء أو خوف صريح. بعضها مفتون بانشداه، وأخرى لا يبدو عليها الاهتمام، لكنها لا تكفّر عن الباقي. عندما يصل الحزب الصغير إلى نهاية الفورموسترات ويقتربون من مؤخرة الكنيسة القديمة، فإن رجلاً على وجهه آثار جدري يجلس على دكة خفيضة عند الباب، ينادي عند مرور أوتو:

- لا أجد عملاً، وأنتم توظفون هذا الحيوان؟

اضطربت مارين، لكن كورنيليا توقفت عن المشي، وعادت بخطوات واسعة إلى الخلف، رافعة قبضتها مسافة بوصات عن جلده المملوء بالحفر. وقالت:

- هذه أمستردام، يا وجه الحفرة. الأفضل يفوز.

أطلقت نيلاً ضحكة متوترة مكتومة نهدت عندما يرفع الرجل قبضته إلى وجه كورنيليا، قائلاً:

- هذه أمستردام، أيتها العاهرة. الأفضل هو من يعرف من بصاحب.

نادت مارين:

- كورنيليا، أمسكي لسانك. تعالي إلى هنا.

- يجب أن ينال جزاءه!

- كورنيليا! ربّاه، هل جميعنا حيوانات؟

تمتتم الخادم في طريقها إلى سيدتها:

- عشر سنوات مضت على توت هنا، ولا شيء تغير. يظن المرء أنهم سيعتادون الأمر.

قالت مارين:

- وجه الحفرة، يا كورنيليا. كيف أمكنك؟ لكن شعرت

نيلاً بتحسن واضح في نبرة صوتها.

نظر أوتو متأملاً نحو أفق يتجاوز مباني أمستردام. يشيح ببصره

عن وجه الحفرة. وينادي:

- دانه. لا تتماذي كثيراً، يا فتاة.

فتقول كورنيليا مُتهمة:

- أنا، أم الكلبة؟

واصل الناس تحديقهم، إنما، لا أحد يجهر بتعليقه. ولاحظت نيليا كيف ينظرون إلى مارين أيضاً. طولها غير المعتاد بين النساء، مع عنقها الطويل ورأسها الشاخر، يشبهانها بتمثال الصارية في مقدمة سفينة، فتخلف في أعقابها حشوداً من الوجوه المنتبهة. نظرت إليها نيليا من خلال عيونهم، المرأة الهولندية المثالية، طاهرة، وسيمة وتسير بعزم. لا شيء يقصها سوى زوج.

سمعت نيليا مارين تقول لأوتو:

- كيف سيكون منظرنا، ويوهانس لا يحضر إلى الكنيسة. وعندما لم تجد سوى الصمت، التفتت مارين إلى الفتاتين. وسألت نيليا:

- هل دعا آل ميرمانز إلى العشاء؟

فردت نيليا، وهي توشك على اختراع كذبة:

- ليس بعد.

توقفت مارين، عاجزة عن إخفاء غضبها، وقد ففر فها بلا وقار، وهي ترسل إلى نيليا بنظرة اتهام من عينيها الرماديتين.

فقال نيليا:

- حسناً، لم أكن لأجبره على دعوتها.

صرخت مارين:

- يا إلهي... وخطت في بركة ماء، ماضية قدماً، تاركة الثلاثة

الآخرين وراءها:

- هل عليّ أن أفعل كل شيء؟

إزهار وازدهار



كانت هذه أول مرة لنيلا في الكنيسة القديمة. همست
لكورنيليا:

- من يكون بيليكورني؟ أليس في منزلنا ما يكفي من الكتاب
المقدس؟

تجهم كورنيليا، فقد سمعت مارين ما قالته، وردت:

- على المرء أيضاً أن يتعبد مع الجماعة، يا برونيليا.

تمم أوتو:

- مهما واجهت من أمور فقال؟

تظاهرت مارين أنها لم تسمع:

- إن بيليكورني، والرعية يراقبون.

لديهم في أسدلفت كنيسة أصغر، وجدت هذا البناء عملاقاً
قياساً إلى كنيستهم. تفصل بين أقبية ممشي الكنيسة وحتى
منتصفه أعمدة حجرية بيضاء شاهقة. وصوّرت على العديد من
النوافذ مشاهد من الكتاب المقدس، وعبر القديسين المرسومين
على زجاجها الملون، تفيض أشعة الشمس على الأرضية بألوان
مائعة من الأحمر والذهبي، والنيلي والأخضر الشاحب. شعرت
نيلا أن في وسعها أن تغوص فيها، لكن أسماء الموتى المحفورة
في الأرضية تذكرها أن الماء هو حجر في الحقيقة.

الكنيسة مُزدحمة، فالأحياء يطالبون بحقوقهم. تُفاجئ نيلا
بالمسوح من الضوضاء، والآباء والأمهات، والنميمة

والدردشات، والكلاب المتجولة، والأطفال الصغار. النباح
ولغو الأطفال يعتلي الجدران المكسّسة، وخشب السقف لا
يتمص الأصوات إلا قليلاً. يقضي واحد من الكلاب حاجته
في الجوار، وقد أمال ساقه بتبختر على عمود. حيثما تنظر نيلا
تجد ضوءاً، وكأنما لساعة واحدة، وجه الرب انتباهه الحصري
إلى هذه الغرفة الشاهقة والقلوب التي تنبض بداخلها.

وعندما خفضت نيلا عينها إلى الحشود التي تحوم بداخل
الكنيسة، أرسل قلبها دفقة دم حارة إلى معدتها.

امرأة الكالفرسترات هنا. تجلس وحدها على كرسي قرب
الباب الجانبي، والشمس التي تتخلل نافذة بسيطة تلمس شعرها
الأشقر. وهذه المرة أيضاً، تراقب نيلا. لا شيئاً حياً في
هذه النظرة، إنها نظرة نشطة، مُتسائلة وفضولية، لكنها شديدة
الثبات حتى ليُخيّل إلى نيلا أنها قد تكون واحدة من القديسين
المرسومين على النوافذ الملونة، وقد هبطت من زجاج الكنيسة.
شعرت أن هناك من يُقومها ويجدها ناقصة الاكتمال،
وأصبحت نيلا عاجزة عن مقاومة النظرة. لكنها هذه المرة،
تحوم فوق أوتو وكورنيليا ومارين، وحتى دانه فتستوعب
نمستهم. رفعت نيلا يدها بتحية، فقاطعها صوت مارين:

- إنها أكبر سنّاً من أن تخرج.

- ماذا؟ قالت نيلا وهي تُنزل يدها.

- الكلبة، قالت مارين، وهي تنحني، محاولة تحريك دانه من
حيث وضعت ردفها بثبات على الأرض. رفضت دانه أن
تترجح، مُصدرة عواءً مكتوماً، وخطمها صوب المرأة، ومخالبها
تمش الأرضية: ما خطبها بحق السماء؟ اعتدلت مارين وهي

تلك نهاية ظهرها: كانت طبيعية قبل دقيقة.

عادت نيلا بعينها إلى حيث تجلس المرأة، لكنها لم تجد سوى كرسي خالٍ: "أين ذهبت؟"

سألها كورنيليا:

- من؟

على الرغم من الضوء الآتي من الشمس، إلا أن الكنيسة تبدو شديدة البرودة. يعلو الصخب وينخفض ويعلو من جديد، ويواصل الناس طنينهم، ويبقى كرسي المرأة شاغراً. ثم شرعت دانه في النباح.

- لا شيء. أجابت نيلا: اصمتي، يا دانه، إنك في بيت الرب.

قهقهت كورنيليا، وقالت مارين:

- كلاهما أكثر صخباً من اللازم. تذكروا رجاء أن الناس لا يتوقفون عن المراقبة.

قالت نيلا:

- أعلم أنهم كذلك، لكن مارين كانت قد ابتعدت.

التزاماً بالمدى الكالفيني، يكون المنبر في منتصف ممشى الكنيسة، حيث تحتشد الجماهير المتهامسة في تكلمات. "كذاب فوق قطعة لحم"، قالت مارين باستنكار، وقد أدركها البقية، يسرون بخطى مترفعة في ممشى الكنيسة. "لن نجلس في الزحام. كلمة الرب تصل إلى أي مكان. لا حاجة بهم إلى التلاحم كأطفال في الرابعة لرؤية القس بليكورني."

قال أوتو:

- كلما حاولوا إضفاء قدسية على أنفسهم، قل اقتناعي.

ظهرت ابتسامة ضئيلة في زاوية فم مارين، لكنها تلاشت سريعاً عندما تبرز آغنس وفرانس ميرمانز في المشهد.

مُهَيَّجَةٌ مَحَابَةٌ مِنَ التُّوتِر، وَعَطْرُ الزُّهُورِ، تَنْسَابُ آغْنِسُ فِي تَنْوَرَتِهَا الْكَبِيرَةِ بَيْنَ شَوَاهِدِ الْقُبُورِ الْبَارِدَةِ. تَهْمَسُ فِي أُذُنِ زَوْجِهَا، وَعَيْنَاهَا مَثْبَتَانِ عَلَى أُوْتُو:

- لقد أحضروا الهمجي.

قالت مارين:

- سنيور ومدام ميرمانز، "وهي تُخْرِجُ سَفْرَ الْمَزَامِيرِ مِنْ جِرَابٍ عِنْدَ خَصْرِهَا، وَتَنْقُلُهُ بَيْنَ يَدَيْهَا وَكَأَنَّهَا تُقَوِّمُ وَزْنَهِ كَقَدِيفَةٍ. تُنْثِي الْمَرْأَةَ رَكْبَتَيْهَا تَحِيَّةً. وَانْحَنَى فِرَانْسُ مِيرْمَانَزَ، وَعَيْنُهُ عَلَى أَصَابِعِ مَارِينِ النَّحِيلَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِعَصْبِيَّةٍ فَوْقَ كَتَابِهَا ذِي الْجِلْدِ الْمُهْتَرَى مِنْ الْإِسْتِعْمَالِ.

سألته آغنس:

- أين شقيقك؟ يوم الحساب...

قاطعتها مارين:

- يوهانس يعمل. إنه يشكر الرب بطريقة مختلفة اليوم.

أطلق ميرمانز صوتاً مُزْدَرِيئاً. فقالت: هذا صحيح تماماً، يا سنيور.

قال:

- طبعاً، معلوم أن قاعة التداولات ملاذ الأتقياء.

قالت مارين مُتجاهلة لهجته:

- لقد حدث سهو في نقابة صاغة الفضة. كان في نية أخي أن يدعوكا لمشاركتنا الطعام، لكن مسؤوليات كثيرة تشغل ذهنه، لا. "لا بد أن تأتيا لتناول العشاء في منزلنا.

قال ميرمانز بازدرآه:

- لسنا في حاجة إلى...

تقاطعها آغنس، وعيناها الداكنتان تخفيان حماساً مكتوماً:

- إنه شرف لنا، يا مدام براندت. ولكن ألا ينبغي أن تكون الدعوة من زوجه؟

شعرت نيلا بخديها يتضرجان، وقالت مارين بصوت حازم:

- شاركنا العشاء غداً.

- غداً! عجزت نيلا عن كبح نفسها. ليس من عادة مارين أن تكون بهذا التسرع.

- ولكن...

- وأحضري رجاء مخروط السكر. سنتدوقه ونحتسي نخب ثروتك الموعودة.

- تريدن تدوق كترنا الكاريبي، دفنت آغنس ذقنها في ياقتها الفرو المبهرجة، وقزحيتها الكهرمانيتان تحدقان في مارين.

ابتسمت مارين، ولاحظت نيلا كم تصبح جدابة عندما تفضل، حتى وإن كان مُصطنعاً.

قالت مارين:

- أريد ذلك. بقوة.

قال ميرمانز محذراً:

- آغنس، دعينا نتخذ مجلسينا.

أضافت آغنس:

- سوف تأتي غداً، وسنحضر معنا طعاماً حلواً لم تذوقوا مثله قط.

يبتعدان على مهل، فيلقيان التحايا، ويلوحان ويومثان في أثناء سيرهما.

تمتت مارين، وعيناها على ظهريهما المنسحبين: “

- في مقدوري أن أقتله.

تساءلت نيلا من تقصده. “كنز كاريبي، تبا لي! لماذا بحق السماء وافق يوهانس على هذا؟

- ولكن ألا نحتاج إليه، يا مدام؟ تمتت كورنيليا.

التفتت مارين بحركة خاطفة:

- لا ترددي كلماتي كالبيغاء، يا فتاة. تنصتِ على الأبواب

لا يجعلكِ عالمة. احرصي فقط على صنع عشاء لائق غداً.

تراجعت كورنيليا مُنكمشة، وانحنت لتشغل نفسها بالكلبة،

وقد غلف وجهها قناع من الكبرياء المجروح. فركت مارين

صدغيها، وعيناها مُغمضتان في ألم، فسألتها نيلا:

- هل أنتِ على ما يرام؟

نظرت مارين إليها، وقالت:

- على خير ما يرام.

قال أوتو الذي يبدو كشخص منبوذ وسط التعليقات، التي

تكاد تملو عن الهمس مع كل حركة يقوم بها:

- علينا أن نتخذ مجلساً. هناك عند كراسي الجوقة.

صعد القس بيليكورني إلى المنبر. كان طويل القامة، قد تجاوز الخمسين، ذقنه حلقة، وشعره الرمادي قصير ومرتب، وياقته عريضة وناصعة البياض. يوحى مظهره أن لديه طاقم خدم مجتهدين.

لا يزجج بيليكورني نفسه بالمقدمات. "ممارسات قدرة" هكذا صرح فوق أصوات الكلاب والأطفال، والأقدام الزاحفة ونعيق النوارس في الخارج. خيم الصمت، وأصبحت كل الأنظار عليه عدا أوتو، الذي يحني رأسه، مُرْكزاً على يديه المتشابكتين. أرسلت نيلا نظرة إلى آغنس، التي يرنو وجهها إلى القس كطفل مفتون. وفكرت، كم هي غريبة. في لحظة تكون فصيحة ومتغطرة، ثم في لحظة أخرى تصبح صبيانية وتوسل الإعجاب!

تابع بيليكورني، بصوت صارم لا يهادن

- "في مدينتنا الكثير من الأبواب المغلقة التي لا يمكننا أن نرى من خلفها. ولكن لا يظن أحدكم أنه يستطيع إخفاء ذنبه عن الرب، وقبضت أصابعه المديبة على حافة المنبر. وهو يهتف على رؤوس الرعية: سوف يكشفه. لا شيء سيظل خافياً. سيأمر ملائكته أن تنظر عبر نوافذ قلبه وثقوب أبوابه، وسيلزمه بأفعاله. لقد سُيِّدت مدينتنا فوق مستنقع، ولقد عانت أرضنا سابقاً من غضب الرب. انتصرنا، وطوعنا الماء لصالحنا. ولكن لا تركنوا إلى ذلك؛ لأن ما ساعدنا على الانتصار هو الحكمة وحسن الجوار.

هتف رجل من بين الحشود: "أجل." وشرع طفل في العويل. كما أن دانه راحت تئن وتحاول الاختباء تحت تنورة

نيلا.

قال بيليكورني:

- إن لم لحكم قبضتنا على لجام ضعفنا، فسوف نعود جميعاً إلى البحر. كونوا صالحين من أجل مدينتكم! انظروا في قلوبكم وتفكروا كيف أذنبتم في حق جيرانكم، أو كيف أذنب جيرانكم في حق أنفسكم!

وسكت لإحداث الوقع المطلوب، مُبرأً في ورعه. تتخيل نيلا المصلين وكل منهم يفرج بين ضلوعه، ويحدق في الفوضى النابضة المتمثلة في قلبه الآثم، ثم ينظر كلُّ إلى جاره قبل أن يغلق جسده. في ركن الكنيسة، يخفق زرزور بجناحيه. وفكرت على أحدهم أن يُطلق سراحه.

همست كورنيليا:

- دائماً ما يعلق أحدهم في الداخل.

- دعونا نتجنب أن يصيبنا غضبه مرة أخرى.

انبعثت من المصلين همهمات موافقة، وصار صوت بيليكورني الآن مُرتجفاً قليلاً من الانفعال. - إنه الجشع. الجشع هو الداء الذي علينا استئصاله، الجشع هو الشجرة، والمال هو جذرها العميق!

تمت كورنيليا:

- المال هو ما دفع ثمن طوقك الجميل أيضاً. وشعرت نيلا باختناق وهي تحاول كتم ضحكها، وغامرت باختلاس نظرة إلى فرانس ميرمانز. ومع أن انتباهه توجه إلى المنبر، فإن عينيه لا تهربان عائلة براندت.

- علينا ألا نخدع أنفسنا بتسخير البحار. بدل بليكورني نبرته إلى مهمة لحوحة ومُسكِّنة قبل أن يفرز سكينه: أجل، لقد حلت علينا هبة إله المال، لكنها يوماً ما ستغرقنا جميعاً. وأين سيكون كل منكم في ذلك اليوم المشؤوم؟ أين؟ غارقاً حتى أذنيه في الحلويات المُغلَّفة بالسُّكَّر وفتائر الدجاج الدسمة؟ أم ساجحاً في الحرير وسلاسل الماس؟

تهتت كورنيليا، وتمتمت:

- يا ليت، يا ليت.

ظل بليكورني يحذر:

- احترسوا، احترسوا. إن هذه المدينة تزدهر وأموالها تمنحكم أجنحة تحلقون بها، لكن تلك الأموال هي أغلال على أكتافكم ويحسن بكم أن تراقبوا الكدمات التي تحدثها حول أعناقكم.

كانت مارين قد أغلقت عينيها بقوة كمن توشك على البكاء. وتمنت نيلا أن هذا ليس أكثر من سعادة روحانية، استسلام لقوة الكلمات التحذيرية المقدسة التي يلقيها بليكورني. مازال ميرمانز يحرق فيها، وحين فتحت مارين عينيها لاحظت ذلك، فانقبضت أصابعها المسككة بسفر الزمامير. وتململت في مقعدها، في حين تجلى البؤس على وجهها الجامد. حلق نيلا جاف لكنها لا تجرؤ على السعال. وصل بليكورني إلى ذروته وتكافتت أجساد المصلين معاً، في توطد، واستنفار.

صرخ القس:

- الزناة. المضاربون. اللوطيون. اللصوص. احذروا منهم، ابحثوا عنهم! أخبروا جيرانكم عندما تقترب غيوم الخطر. لا تسمحوا للشر أن يدخل دياركم، لأنه ما إن يحدث التفسخ حتى

بصبح ذهابه عسيراً. حتى اليابسة من أسفلنا ستتصدع، وغضب
الرب سيتغلغل في الأرض.”

- أجل، يقولها الرجل نفسه مرة أخرى.

- أجل!

نجت دانه باضطراب متزايد. فهمت كورنيليا: “صه.”

- ماذا في وسعكم أن تفعلوا لإبعاده؟ دوى صوت بليكورني،
عائداً إلى أعلى مستوياته، وذراعاه مرفوعان وكأنه المسيح نفسه:
الحب. أحبوا أطفالكم، لأنهم البذور التي ستجعل هذه المدينة
تزهرا! يا أزواج، أحبوا زوجاتكم، ويا نساء، كُنَّ مُطِيعَاتٍ
لكل ما هو مقدس وصالح. حافظوا على بيوتكم نقيّة، وهكذا
تصير أرواحكم...

وهنا يصل إلى ختامه. تنبث تنهدات إفراج، وهمهمات
انفاق، استيقاظ وسيقان تمطى. يتسلل إلى نيلاً شعور بالدوار.
الضوء يسطع على شواهد القبور. كُنَّ مُطِيعَاتٍ. يا أزواج،
أحبوا زوجاتكم. أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها،
مستدفئاً. حبيتي. يعود الطفل إلى العويل، وترفع نيلاً ومارين
أعينهما في وقت واحد فيما تحاول والدته إسكاته من دون
جدوى، فتسحب من بين المصلين وتنسل من الباب الجانبي
للكنيسة.

تتعقب نيلاً نظرة مارين، فتحدق كلتاهما بحسرة إلى مربع
الضوء الذهبي الوجيز الذي وفره خروج الأم. في هذا العالم
الجديد والقاسي لأمستردام، في هذه الكنيسة المدنية الباردة،
ساعة واحدة من العبادة تبدو وكأنها سنة.

في تلك الليلة في غرفة نيللا، ألقى القمر على بيت دماها رقماً من الضوء. ودقات الساعة البندول تضرب الهواء كنبض مكتوم، فتبدو أكثر وقعاً في أذنيها. تنكر في المرأة التي كانت في الكنيسة تراقبها في صمت.

“لماذا لم تتحدثي إليّ؟” تجهر نيللا بالسؤال، وهي تنظر إلى فراغات غرفها التسع المظلمة. “ما الذي أملكه وتبتغين؟”

لا تحصل على إجابة طبعاً، وترسل القطع الموجودة داخل بيت الدمى سطوعاً فضياً متحرّكاً. تُفكر نيللا، غداً سأذهب إلى صانع الدمى لتسوية أمر وجوده غير المرغوب فيه بصورة نهائية. ليس صواباً، بالتأكيد، أن يرسل إليك أحدهم أشياء لم تطلبها؟ إنه اختراق لمنطقة محرّمة.

صحيح أن نيللا مسرورة بخروجها من أسدلفت، لكن أين هو بيتها؟ لا هو هناك وسط الحقول، ولا هنا جوار القناة. شعرت أنها هائمة، ممزقة بين ظاهر زواجها وحقيقته، وبيت الدمى، بجعله وعقم فائدته، هو تذكير فظيع بكل ذلك.

كان حياء يوهانس منها قد بدأ يتغلغل عميقاً. فكان يختفي كثيراً في قاعة التداولات، أو الفوك، أو مستودعه قرب الحانات الشرقية، حيث يصنعون بطاطا ساخنة لبها من أمش ما يكون. لا يوجه إليها اهتماماً، لا يأتي إلى الكنيسة. تُفكر أن مارين تلاحظني بما يكفي على الأقل لإصابتي بكدمة. كم هو مخيف، أن يشعر المرء بامتنان بسبب قرصة! لقد ألفت مراساتها لكنها لم تجد ما تشبث به، لذا فهي تخترقها، ضخمة، وماضية، وخطيرة، وتسقط في البحر.

تنته من رثاء الذات على أصوات هامسة. حتى عندما تجلس في فراشها، تشم نيللا رائحة زيت الزنبق العالقة في الهواء. تُفكر،

حتى أنا بدأتُ أنفر منها. سارت بخطى خفيفة عبر غرفتها، وأصغفت السمع، عندما فتحت بابها. كان المر شديد البرودة، لكنها تثق في سماع صوتين في الدهليز، كلمات تهب من بين أنفاس عاجلة. يبدو الصوتان منغلين أو خائفين، ولكنهما قطعاً، لا يباليان بانتشار همساتهما في المنزل.

تساءلت نيلا هل خانها الخيال عندما توقف الصوتان، وأغلق بابان، غرق المنزل في الصمت من جديد. فسارت في الممر، تلتصق جبهتها بين أعمدة سور السلم، وتصيح السمع عبثاً. فلا تجد شيئاً سوى الصمت، وكأنما الصوتان قد تلاشيا في ألواح الحائط.

عندما انطلق صوت النبش، انتصب الشعر على ذراعي نيلا. وانقبضت أحشاؤها وهي تخفض عينيها إلى مصدر الصوت، لكنها لم تجد سوى ريزيكي، ريزيكي، ترفع إليها أنظارها قبل أن تنسل عبر البلاط. تتحرك الكلبة مثل سائل مراقٍ، بلا قيود، قطعة شطرنج يتدحرج من مكانها.

الزوجة



بحلول منتصف النهار، كانت كورنيليا قد أمضت فعلاً ساعات في مطبخ الخدمة لتحضير عشاء آل ميرمانز. ستكون الوليمة نفحة، مائدة من الأطعمة الشتوية، التي نكّمت باللذائذ من صفقات يوهانس في الشرق.

وجدتها نيلا جالسة إلى الطاولة تقطع ملفوفتين ضخمتين، فسألته:

- هل أنت جائعة؟

أجابت نيلا:

- مثل كلبة!

وحاولت تتبع علامات الأرق على وجه كورنيليا. لكن الخادم بدت مضطربة أكثر من أي شيء آخر.

قالت كورنيليا:

- تبا للإخطارات المفاجئة! لديك خبز جاف ورنكة حتى أنتهي من جميع الأصناف - كما تصر مدام مارين. هذه الملفوفة تحتاج إلى تزيين. وحينما ترى كورنيليا وجه نيلا، تخضع قائلة: آه، هاك فطيرة. لقد خرجت لتوها من المقلاة، ثم دفعت إليها بصحن، شكّس فوقه فطائر مقلية صغيرة ومغلّفة بالسكر.

- ماذا أعطتك هانا، في متجر زوجها؟ وبينما تتحرك دانه إلى مضجعهما بجوار الموقد، تردد يد كورنيليا فوق الملفوف المتبقي. جلدها أحمر ملتهب - وأظفارها بيضاء من كثرة الغسيل.

قالت كورنيليا، وهي تنحني إلى الأمام:

- إنك تأكلينه.

كانت عيناها شديدي الاستدارة والزرقة، وقزحيتها مطوقتين باللون الأسود: آخر دفعة من سكر أرنود الفانر. إن هانا مُحَقَّة. أكثر ما يباع في هذه المدينة سيئ للغاية. إنها لخسارة أن يصدر السنيور كل سكر آغنس.

أسهم بوح كورنيليا في كسر حاجز، وشعرت نيليا في داخلها بإحساس دفء يتصاعد. حتى الملفوف تراه يلمع، كرة خضراء في ضوء النار الوردي للفرن المفتوح.

حينما أخذت نيليا نفساً عميقاً من الهواء البارد، سعلت إثر رائحة طفيفة للجاري، وفكرت، وهي تسير في الجودين بوخت "هذه القناة ستكون بحيماً في الصيف" لكنها الآن تستمتع بالمشي وحيدة؛ بسير النساء من دون صحبة، كما علقت زوجها على العبارة، ليس شيئاً نادراً شعرت نيليا بترصد الأعين. إذ تقطع شارع الفيزوسترات، وتعب الرينخليرش دوورسترات لتدخل الكالفرسترات بعد السؤال عن الطريق، وجدت نيليا في يسر علامة الشمس مع الشعار أسفلها: كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنه لعبة. طرقت الباب الثقيل. لم يكن الشارع مزدحماً، فالناس يُفضّلون البقاء في الداخل حيث الدفء. تحولت أنفاس نيليا إلى بخار في الهواء وهي تطرق من جديد.

نادت: مرحباً؟ وفي سرها تقول، أجب رجاءً. "مرحباً؟ أنا نيليا أورتلمان. بترونيلا براندت. أحتاج إلى الحديث معك. لقد أرسلت أشياء لم أطلبها. إنها تروقني، لكنني لا أفهم لماذا فعلتها.

أصقت نيلاً أذنها بالخشب السميك، وأصفت عبثاً إلى أي حركة أو وقع قدمين. تراجعت، ورفعت عينها إلى النوافذ. لا شموع ترسل ضوءاً من الداخل وكل شيء ساكن، إلا أن المكان يتمتع بأجواء سكن لا لبس فيها.

عندما ظهر الوجه في النافذة، تراجعت نيلاً مُتعثرة إلى منتصف الشارع، وقد اختنقت الأنفاس في حلقها جراء صدمة تعرفه. ربما يكون الزجاج سميكاً ومموهاً، لكنها لا يمكن أن تخطئ ذلك الشعر. إنها المرأة التي كانت تراقبها في الكنيسة.

وجهها قطعة نقدية باهتة، والخصلات الذهبية تشع عبر الظلال الداكنة للزجاج، أراحت المرأة كفها على لوح النافذة. وظلت ساكنة في هذا الوضع، مُلقية نظرة هادئة على الشارع.

قالت نيلاً:

- أنتِ! لكن المرأة لا تتحرك. لماذا...

- لن تخرج... قاطعها صوت رجل، مهما بدلت من محاولات. أميل إلى إبلاغ الشرطة عنها."

دارت نيلاً حول نفسها صوب الصوت. إنه بعيد قليلاً عنها، جالس خارج ما يبدو أنه متجر صوف. ابتلعت نيلاً لعابها. إنه الجُدري، وجه الحفرة، الذي نعت أوتو بالحيوان، والذي وبخنته كورنيليا في الشارع. جلده عن قرب، يشبه إسفنجة البحر، مليئاً بفوهات وردية.

أعادت نيلاً عينها إلى النافذة. اختفت المرأة، بدت النافذة خالية، وصار للنزل جفأة مظهر خامد، وكأن لا أحد يسكنه على الإطلاق. اندفعت إلى الباب تطرقه، وكأنها تبتغي إعادة الحياة إلى المبنى.

علق وجه الحفرة:

- أخبرتك، لن تجيب، إنها لا تنصاع إلى أية قوانين.

استدارت نهلاً، وألصقت ظهرها بالباب، وقالت:

- من هي؟ أخبرني من تكون.

نفض منكبيه، وأجاب:

- إنها لا تتحدث كثيراً. لهجتها غريبة. لا أحد يعرف.

- لا أحد؟ لا أصدقك.

- حسناً، ليس جميعنا مهتماً بالانخراط في المجتمع، يا مدام.

إنها تحتفظ بشؤونها لنفسها.

تمهلت نهلاً لالتقاط أنفاسها:

- في دليل سميت، إعلان عن صانع دُمي يقطن هذا العنوان.

هل ما تقصده، يا سنيور، أن الشخص الوحيد الذي يسكن

هذا المنزل هو امرأة؟

أزال وجه الحفرة خيوط صوف عن سرواله، وقال:

- هذا صحيح، يا مدام. ومن يدري ما الذي تخطط له هناك؟

- كل شيء، ولا شيء.

- هل هكذا تسمينه معشر النساء.

لا تصدق أن امرأة تعيش بمفردها في قلب أمستردام، على

مرأى من رؤساء البلدية، والنقابات، والمتشددین أمثال وجه

الحفرة. أي أفكار يا ترى تدور كالنحل تحت شعرها الفاتح،

لماذا ترسل هذه القطع التي تخطف الأنفاس من طلب؟

كل ما أريده هو أن أعرف، هكذا تفكر نهلاً، وهي تغمض

عينها، وتذكر الإحساس الذي لا يوصف لنظرة المرأة في الكنيسة وقبل ذلك، هنا في شارع الكالفرسترات. إن هذا رائع بدرجة لا يمكن تصديقها، امرأة! يسري النجل عبر نيلما لما كتبه في خطابها الثاني - سيدي... سأقلص معاملاتنا فوراً. لكن ذلك لم يصنع فارقاً على ما يبدو. إن المرأة تملذذ فيما يبدو بخالفة الأوامر.

يستطرد وجه الحفرة: "إن امرأة تعيش بمفردها هكذا لا يعني سوى شيء واحد، أنها مومس. والفتى الذي يأتي لتوصيل طرودها أجنبي أيضاً. تلك الأحداث المريرة يجب إبقاؤها في الجزر الشرقية. أما الشرفاء الذين لا يتغنون إلا العمل وصالح العيش فليس عليهم أن..."

- مند متى وهي هنا؟

- ثلاثة أشهر أو أربعة تقريباً. لماذا هي بهذه الأهمية لك؟

- ليست كذلك. قالت نيلما، وارتجفها بالأكذوبة. شعرت بها تكيانة. شحلت همّتها، وشعرت أنها يجب أن تحمي المرأة لكنها لا تعرف السبب تحديداً:

- ليست مهمة على الإطلاق.

خيل إلى نيلما أنها ترى حركة من إحدى النوافذ العلوية، ولكن يشوشها انعكاس امرأة أخرى في النافذة التي تعلو متجر الصوف، وهي تنفض بساطاً في الشارع وتبدو مغتازلة من الضجة التي تحدث أمام بابها.

- سنيور، إن تحدثت إليها...

قاطعها وجه الحفرة:

- لن أفعل ذلك، إنها تحمل الشيطان في داخلها.

بحثت نايلا في جيبها عن جِدر، ووضعتة في كفه القدرة،
قائلة:

- إن حدث وخطبتها، ثم التفتت صوب النافذة، وهتفت:
أخبرها أن نايلا براندت آسفة! وأن تتجاهل خطابها الأخير.
كل ما أريد هو أن أعرف لماذا. وأخبرها، أنني أتلهف إلى ما
سترسله في المستقبل.

حتى وهي تصرخ بهذه الكلمات إلى النافذة، تتساءل نايلا
هل هي صادقة تماماً فيما تقول. لا تعيش وحدها سوى أرملة
أو عاهرة، بعضهن سعيدات بذلك، وبعضهن مجبرات، فما
الذي فعله صانعة الدُمى بالضبط في الأعلى؟ وكيف تجول
المدينة بمفردها؟ لا تعلم نايلا بأي شيء تلهو، لكنها لا تبدو لعبة
بالتأكيد.

جرت قدميها عائدة من الكالفرسترات. وفكرت: إن شخص
صانعة الدُمى الاستثنائي مهدور على أناس مثل وجه الحفرة.
وإنه استثنائي، أياً كانت طبيعته، عيناها، وتلك النظرة،
وطرودها المدهلة المليئة بالتلميحات والقصص. شعرت نايلا
بوخز في مؤخرة عنقها وهي تستدير بسرعة، مؤمنة باتصالها بذاك
المنزل المحدد بعلامة الشمس.

لكن الكالفرسترات يعود إلى هدوئه، غير مدرك للوجود
المختبئ في قلبه.

عادت نايلا إلى المنزل، هرعت صاعدة إلى الخزانة، تمرر
أصابعها على منحوتات صانعة الدُمى. وجدتها مشحونة

بطاقة مختلفة، محملة بمعان لا يمكنها استيعابها، لكنها موغلة في الغموض. لقد اختارتني أنا، فكرت نيلا، فرحة بهذا الاكتشاف، وتوأقة لمعرفة المزيد.

أيقظها من أحلامها صوت كورنيليا، وخطى قدميها المقتربة. فأسدلت ستائر بيت الدمى على عجل في اللحظة التي ولى رأس الخادم من الباب، وهي تقول في ثرثرة:

- سيصل آل ميرمانز خلال ساعة، ولم يعد السنيور بعد.

كانت كورنيليا وأوتو قد أنهكا نفسيهما في الطابق الأرضي، بجرعة إضافية من التلميع، والكنس، والمسح، ونفض الستائر، وضرب الوسائد، وكان المنزل في فوضى ويحتاج إلى ترتيب يتعذر تحقيقه. في مطبخ التقديم يتلأأ الخزف والأواني الصينية، ويومض عرق اللؤلؤ من بين الزخارف، وعندما ترى كيف استبدلت كل شموع الشحم بشموع عسل، تنتهز نيلا الفرصة لتنهل من رائحتها الجميلة.

تمم أوتو لنفسه في أثناء مروره:

- مهام فوق مهام من أجل شيء فارغ، وتساءل هي عما يعنيه.

كانت مارين قد ارتدت أنفم فساتينها السوداء. ولم تتنازل إلى درجة وضع عطر لكنها تدرعت بترسانة من التناير الضخمة، والآن هي تدرع غرفة الصالون، خطواتها واسعة ومنتظمة كالساعة البندول. أصابعها النحيله تنهش سفر المزامير، وشعرها تفصله عن وجهها عصابة رأس من الدانتيل الأبيض المنشي، وملاحها الوسيمة صارمة. جلست نيلا، وقد ألبستها كورنيليا فستاناً آخر من فساتينها المعدلة، فستاناً بلون الذهب. وتساءل:

“أين يوهانس؟”

قالت مارين:

- سيأتي.

مع كل خطوة مضطربة تأخذها مارين عبر الأرضية المصقولة، تتمنى نهلاً لو أمكنها العودة إلى الطابق العلوي والبحث في دُماها عن أي إشارة لما قد يحدث بعد ذلك، أو لا يحدث، وماذا تعني العبارات.

عندما وصل آل ميرمانز، ومن خلفهما هواء القناة البارد مُندفعاً إلى البهو، لم يكن يوهانس قد أتى. كانت جميع النوافذ قد غُسلت على يدي أوتو، وانعكس على زجاجها ضوء عشرين شمعة مشتعلة تومض في بواكير الشفق، وقد امتزج عطرها العسلي براائحة الخلل والقلي.

حتى وإن لاحظت آغنس المجهود الذي فرضته مارين على خدماتها، فإنها لم تعلق. دخلت بخطى ناعمة، بوقار مثالي الآن، وقد زالت عنها تماماً كل الآثار الصبغانية التي كانت في الكنيسة. تبادلتا التحية بثني الركبتين، ولم يكسر صمتهما سوى ارتطام تنورتيهما الواسعتين بالأرض. تقدم فرانس، وفي عينيه إجهاد واضح. رفعت مارين يدها فتناولها، ولون دبلته الذهبي فاقع فوق بشرته الشاحبة. بدا الوقت بطيئاً، وبتلاً لأ الأضواء في الجو من حولهم.

قالت مارين:

- سنيور.

- مدام.

- تفضلاً رجاءً. حررت يدها، وقادتها إلى غرفة الصالون.

نادت آغنس:

- هل عبدك هنا؟ لكن مارين تظاهرت أنها لم تسمع.

استغرقت النسوة الثلاث بضع دقائق لترتيب وضعهن على الكراسي حول المدفأة، بسبب طبقات القماش التي تلفهن. وقفت ميرمانز عند إحدى النوافذ، ونظرت إلى الخارج. بينما نهلاً أخذت تتأمل المقاعد القטיפيّة الخضراء، مساميرها النحاس وأسودها الخشبية المنقوشة، وتفكر في أشباهها المُصغرة في الأعلى في بيت الدمى. كيف توصلت صانعة الدُمى بحق السماء إلى إرسال تلك الكراسي؟ هكذا تتساءل، والرغبة تقتلها في المعرفة.

لكن نبضة خوف خفقت في داخلها. لقد اختارتني، ولكن من أجل ماذا؟ من هذه المرأة، التي تراقبني من بعيد، وتعلق على حياتي؟ تستدير غريزياً نحو النافذة، متخيّلة أنها قد ترى وجهاً خلفها، يحدّق من الشارع. لكن الضوء في الخارج كان قد ازداد خفوتاً، وجسد ميرمانز سيخيف أي إنسان.

تقول مارين:

- يجدر بكورنيليا أن تسدل الستائر.

قالت نهلاً:

- لا.

التفتت إليها مارين:

- الجو بارد، يا بترونيليا. هذا أفضل.

تقول آغنس، مقاطعة: "اجلسي بقربي".

أطاعت نيلاً، ودلفت نحوها بثوبها الذهبي. تهتف آغنس
بدهشة:

- تبدين مثل قطعة نقدية! سقط التعليق السخيف الملقى بقوة
وابتهاج في الجو، على الأرض مكتوماً.

سأل ميرمانز:

- أين يوهانس؟

قالت مارين:

- في الطريق، يا سينور. أخره عمل مفاجئ.

اختلست آغنس نظرة إلى زوجها، وقالت:

- نحن متعبان بعض الشيء.

ردت مارين:

- آه؟ ما السبب، يا مدام؟

- آغنس، نادني آغنس. مارين، لا أعرف لماذا، بعد اثني
عشر عاماً، لا يمكنكِ ذلك. ضحكت آغنس، ضحكة أجفلت
نيلاً.

تقول مارين بهدوء: "آغنس."

استأنفت آغنس، وفي صوتها تواطؤ:

- الولاثم عامة. حفلات زفاف كثيرة قبل الشتاء. هل علمتِ
أن كورنيليس دي بوير قد تزوج من أيتجي ديركانز؟

فقال مارين:

- لا أعرف الاسم.

اعترضت أغنس، بإبراز شفرتها السفلى. وقالت لنيلا:

- إنها لا تتغير أبداً، بدت نبرتها مزيجاً من التوبيخ الهزلي
والتهكم المتعمد. وتابعت: أحب حفلات الزفاف. ألا تحبانها؟

لم تقل مارين أو نيلا شيئاً، فقالت أغنس:

الزواج هو... وتوقفت عمداً، آخذة مُستمعتها بعين النظر.

كانت يدا مارين ساكنتين جداً في حجرها، حتى ليتصورهما
المرء منقوشتين على قبر. شعرت نيلا بالتوتر في هذه المحادثة،
فالنهايات المسدودة والكلمات المتروكة يصنعن عقدة في
دماغها. لا يكسر الصمت سوى قطعة النار في المدفأة
وصرير حذاء ميرمانز الجلدي وهو ينقل ثقله بين قدميه عند
النافذة. تنبعث من مطبخ الخدمة نفحات طهي كورنيليا،
لحم ديك في جوزة الطيب والروزماري، حمام بالبقدونس
والزنجبيل.

قالت أغنس: “

- لا بد أن أعرف، التفتت مارين إليها، وفي عينيها حذر،
ولكنها تابعت: ماذا قَدِّم لكِ براندت هدية زفاف، يا نيلا؟

التقت عينا نيلا بعيني مارين. وقالت:

- بيت.

- يا لروعتة! هل هو كوخ صيد؟ سوف نشترى كوخاً في
بلومندال.

- يبقي مطلي بألوان مزخرفة، قالتها نيلا، وقد بدأت تملذذ
بالأمر، بينما عينا أغنس تسعان في محجريهما، وهي تسأل:

- وهو لا يصلح... للسكن فيه.

علت الحيرة وجه آغنس:

- لماذا؟

قالت مارين:

- إنه منزل مُقلَّص إلى حجم خزانة.

التفت ميرمانز من أمام النافذة.

- آه، واحد من أولئك، يتأفف آغنس. حسبتك تقصدين منزلاً حقيقياً.

قالت مارين:

- هل تملكين واحداً، يا آغنس؟ بيت بترونيلا مزخرف بالبيوتر.

عادت صبيانية آغنس للظهور، في رفرقة خاطفة من التحدي على وجهها. وأجابت:

- طبعاً، أملك واحداً. إنه مكسو بالفضة.

تحول تفاخرها العنيف إلى كذبة صريحة، مكوّناً بركة بين النسوة الصامتات. كل منهن عيناها على فستانها، عاجزة عن رفعهما. وأخيراً سألت آغنس:

- من استأجره لتأثيث منزلك؟

تلعثت نيلا. إنها لا تطيق تخيل آغنس تذهب إلى الكالفرسترات، وتتواصل مع تلك المرأة، أن تعرف بوجودها أصلاً. وكان ما خصّصت بمعرفته يُنتزع منها، ويُقتص منه ألد أجزاءه.

وكن استشعرت نقطة ضعف، مالت آغنس إلى الأمام:

- حسناً؟

- أنا...

قالت مارين:

- تركت لي أمي بعض الدمى من الطفولة. وبترونيلا
تستخدمها.

ردت آغنس:

- ماذا، يا مارين؟ كان لديكِ طفولة؟

- عليّ إحضار نبيل الريبيش. هكذا أضافت مارين، مُتجاهلة
ما قالت آغنس والامتنان الذي يشع من وجه نيلا: لقد أغفل
أوتو تقديمه.

غابت مارين خارج الغرفة، وهي تنادي أوتو. راقبت آغنس
انصرافها، مُراجعةً في كرسيها، وهمست: "مسكينة. مسكينة."
ثم التفتت إلى نيلا، وجهها محفور بالقلق، وقالت:

- لا أعرف لماذا هي تعيسة هكذا. ثم مالت أكثر، وتناولت
يدي نيلا في يديها. أصابعها رطبة، مثل ضفدع نُحِب من بركة.
كان زوجانا، يا نيلا، صديقين حميمين فيما مضى: عصرت يديها
بقوة، أحجار خواتمها التي ترحزرت من مكانها تحز في راحتي
نيلا: لقد تجاوزا بعض أسوأ العواصف التي شهدتها بحر الشمال
على الإطلاق."

نادى زوجها من أمام النافذة:

- إنكِ تبالغين في الاهتمام بالماضي، يا عزيزتي. أليس الحاضر
أكثر إثارة للاهتمام؟

ضضكت آغنس:

- آه، يا فرانس. نيلا، لا بد أن زوجك أخبرك، أنهما التقيا في الثانية والعشرين من عمرهما، في أثناء العمل على سفن الفوك؟ عبر خط الاستواء، متجاوزين العواصف الكاريبية؛ لأن الرياح التجارية في الاتجاه الشمالي الشرقي كانت تدفعهم قدماً. بدا كلام آغنس وكأنه حكاية أطفال، حفظتها إثر سنوات من التكرار.

- عزيزتي...

- كانا موهوبين جداً، ويعملان لرفعة البلاد! طبعاً، وجد فرانس مكانه في الستدهاوس، لكن جدران أمستردام الحجرية لم تكن لتسع براندت قط.

عندما توقف زوجها عند الباب، تبعته نظرة آغنس كالصقر، وسألت نيلا:

- هل أخبرك برانت عن حكاياته في باتافيا؟

- لا.

- لقد باع أسهمه بأربعة أضعاف المبلغ الذي اشتراه به. لقد استمال النقود حرفياً إلى جيبه وعاد بطاقه الخاص.

إعجاب آغنس، الذي يداخله ازدراء مبهم، هو بمنزلة مخدر. ومع أن ميرمانز بدا متزعجاً بسبب هذه المعلومات، إلا أن نيلا تلهف إلى المزيد.

قال ميرمانز، ببرة تحمل حرارة مصطنعة:

- كان ذلك قبل سبعة عشر عاماً، يا آغنس. إنه أكثر سعادة هذه الأيام بوجوده في الجزر الشرقية والتهامه البطاطا.

كان محقاً في أمر واحد، وهو أن آغنس هي الوحيدة التي

تحب تذكر الماضي من قلوبهم نيلاً. كان الماضي يؤلم والدتها، ويشير الدموع في عيني والدها. أما بقية سكان أمستردام فيبدو أنهم يحبون الماضي قدماً، فيرتفعون بأبنيتهم رغماً عن الأرض السبخة التي قد تفرقهم جميعاً.

تبدو آغنس مُفعلة، وجامعة قليلاً. تفتح يديها وتهز كتفيها، وتتفرض بشرود ذرة غبار وهمية عن تنورتها. وتقول، وقد عادت إلى غموضها ورسالتها:

- الرجال هم الرجال.

أجابت نيلاً:

- طبعاً. وهي تفكر أنه لا يوجد رجلان أكثر اختلافاً من فرانس ميرمانز ويوهانس براندت.

قالت آغنس:

- لقد سلّمتُ خادمتم مخروط سكر من محصولنا.

قال فرانس:

- إننا سنجره بعد العشاء. هل ستدوقه مارين برأيك؟" تسبل جفنيها. كل تلك المخاريط المثالية! كان فرانس، رائعاً. جرت عملية التكرير بكل سلاسة.

- كان ميرالك الوحيد، هل أصبت؟

طرفت عينا آغنس. وتمتمت: "عندما يخضع المرء، يا مدام براندت، فهو يجني دائماً أكثر بكثير."

رفضت نيلاً غريزياً هذه الثقة البادية. وآغنس، التي خاب أملها إثر الصمت الثقيل بينهما، اعتدلت في جلستها. وقالت:

- على الرغم من إمكانية أن نتجج المزيد من السكر في المستقبل، إلا أنه يجب على زوجك أن يحسن معاملتنا. فليس الطقس دائم اللطف نحو سورينام، والأجانب لا ينفكون يهاجمون أرض أبي - والتي هي أرضنا. هذا المحصول قد يكون كل ثروتنا لأعوام عديدة.

طبعاً، يا مدام. نحن نفورون جداً باختيارك لنا.

لانت آغنس قليلاً على نحو ظاهر. وتساءل: -

- هل ذهبتِ إلى مكتبِ زوجكِ من قبل؟

- لم أفعل قط، يا مدام.

- إنني أذهب بصفة دورية إلى الستدهاوس. ينتج فرانس عندما أزوره. أتمس كثيراً لرؤية إنجازاته في ضبط هذه البلاد. إنه رجل استثنائي. ولكن أخبريني: هل أجبرتكِ مارين على أكل عشاء الزنكة الخاص بها، تلك الأكلات التعديبية للارتقاء بالذات؟

- نحن...

- عشاء برنكة واحدة وفساتين سوداء بسيطة! وضعت آغنس يداً على قلبها، وأسبلت جفניה مرة أخرى، قائلة: لكن هنا، يا مدام، يرى الرب أصدق أعمالنا هنا.

- أنا...

- هل تبدو مارين مريضة برأيك؟ فتحت آغنس عينها بحركة مفاجئة، واتخذ وجهها تعبير القلق السابق.

احتارت نهلاً ماذا تقول، وقد أنهكها تقلب المرأة في الحديث. يظهر أن التعاسة تنبعث من آغنس في موجات

متضاربة، إلا أنها تستطيع أن تبدي من الثقة المُنقعة بالنفس ما يعرض عن ذلك الإرباك. إنها تشتهي شيئاً ما، ونهلا عاجزة عن إشباعه.

علقت آغنس، بمسحة غيظ خافتة:

- اعتادت مارين دائماً أن تكون هي الأقوى.

وينقد نهلا من الرد صوت نباح رزيكي.

- آه! قالت الضيفة، وهي تسوي فستانها. "لقد عاد زوجك أخيراً."

مقايضات



على الرغم من كل جوع نيلًا، وموهبة كورنيليا في الطهي، يتحول العشاء إلى تعذيب مبرح. على المفرش الممتد بلونه الأبيض الناعم، تحتسي آغنس ثلاثة كؤوس من الريبيش وتحدث عن المواعظ البديعة للقس بيليكورني وتقواه، وعن أهمية أن يكون الإنسان دائم الامتنان، وماذا عن أولئك اللصوص الحقرء بأيديهم المبتورة الذين رأتهم عندما أُطلق سراحهم من الرُسبهاوس؟

سألها نيلًا:

- ما هو الرُسبهاوس؟

قالت آغنس:

- سجن الرجال. السبينهاوس هو حيث يرسلون النساء الشقيّات، والرُسبهاوس هو حيث يُروض الرجال الجامحون. هناك يعيش المجاذيب، "أردفت، وهي تمدُّ عنقها وتدير مقلتها تقليداً للجنون. إنه مشهد صادم وعندما تطيل فيه آغنس، يخفض فرانس عينيه إلى مفرش المائدة. "سَلِّتْهم عوائلهم إلى السجن مقابل أجر لحفظ سلامتهم." وتوجه إصبعاً مزياً بخاتم إلى نيلًا. "لكن الجامحين بحق يُرسلون إلى حجرة التعذيب في قبو الستدهاوس، المجاورة لمخازن ذهب المدينة.

شاركت مارين بكلمات قليلة، وهي تختلس النظرات إلى شقيقها، الذي يباري آغنس كأساً بكأس ويزيد عليها عندما ترفع كورنيليا أطباق الجزء الأول من العشاء.

تماسك يوهانس، لكن عينيه ظلتا جامدتين، ولحيته الخفيفة
تضفي لوناً فضياً على وجهه المسمرة. تأمل صحنه بتركيز إضافي،
وهو يغرز شوكته في قطع الحمام المدهونة بصلصة الزنجبيل.
عندما أوغلت آغنس في الحماقة، وتولّى ميرمانز زمام الحديث،
مُحاولاً إثارة الإعجاب بأحاديثه التجارية. يريد أن يناقش عصير
القصب ومعدات النحاس، ومخاريط السكر، وحدود معاينة
العبيد. مضغ يوهانس جزره بضراوة لا يكاد يكتمها.

وأخيراً، انتهت الشوكات من تلاحمها مع فطيرة البرقوق
والقشدة الدسمة وابتلعها الأفواه، بلغت الوليمة نهايتها، ولم يعد
من الممكن تجنب السبب الحقيقي لوجودهما هناك. بإيماءة من
مارين، تأتي كورنيليا بمخروط السكر على طبق صيني، تحمله بحذر
كمن تحمل مولوداً جديداً. وخلفها، يدخل أوتو بصينية عليها
ملاعق.

تعاين نيليا مخروط السكر، بناءً مخروطياً متلاًثماً بطول ساعدها،
رُصت بلوراته بإحكام.

قال ميرمانز:

- لقد خُرِّط نصف المحصول قبل شحنه. وتم تكرير النصف
الآخر في أمستردام.

- ملاعق؟ قال يوهانس، وهو يوزعها. ويتناول أدواته،
وأردف: كورنيليا، أوتو، فلتتدوقا. أنتما أكثرنا خبرة.

اتسع منخارا آغنس وزمت شفيتها. بحذر شديد، أخذت
كورنيليا ملعقة وناولت واحدة لأوتو. وأخرج يوهانس سكين
جيب صغيرة لكشط أول شريحة، فنهض ميرمانز من كرسيه
وسهب خنجراً من حزامه، وقال، مُلوّحاً بالنصل: "اسمح لي".

فابتسم يوهانس وعاد إلى الجلوس. وظلت مارين جامدة، وكلتا يديها على المفروش الدَّمَقَس.

هبطت أول شريحة بيضاء في تموج عند قاعدة المخروط، فقال ميرمانز، وهو يناولها بحركة مسرحية إلى زوجه:

- من أجلك. فتهلل وجه آغنس. وأخذ يوزع المزيد من الشرائح، تاركاً يوهانس وأوتو إلى الأخير. "مدهل،" قالها بالفرنسية، وهو يقرمش شريحته في فمه. "ربما لم يُرزق والدك بالذكر، يا عزيزتي، لكنه حصل على جائزته في هذا السكر."

شعرت نيلا بالشريحة تذوب في فمها، حلوة وحبيبية، مُتلاشية في لحظة. إنها تترك في الفم مذاقاً مميزاً للفانيليا، أمسكت مارين بملعقتها، وعيناها تتجنبان الحلاوة المترقبة. عينا آغنس لا تفارقانها وأصابعها تنقبض على يد الملعقة، وفمها لا يفتح إلا قليلاً وهي تزدرده بسرعة.

قالت مارين بابتسامة باهتة:

- طيب المذاق بصورة مذهلة.

قال آغنس:

- ملعقة أخرى، يا مدام؟

سأل يوهانس:

- كورنيليا، ما رأيك فيه؟" فأرسلت مارين نظرة تحذير للخادم.

- جيد جداً، يا سنيور. لذيذ. كان في صوت كورنيليا نجل لم تسمعه نيلا من قبل.

يسأل يوهانس:

- أوتو، ما رأيك؟

قاطعته آغنس:

- الشكر لله، طبعاً، لكنك ستصنع ثروتنا، يا براندا! ابتسم يوهانس، وهو يقبل شريحة بيضاء أخرى من المخروط المتلألئ. شاهدت نهلاً أوتو يمسح فمه بعناية، كل حركة محسوبة.

سأل ميرمانز:

- متى ستذهب إلى فينيسيا؟ كل تلك القصور والجناديل، وكأنك في الوطن.

وضعت مارين، التي كانت تجرب شريحة أخرى، ملعقتها. و قالت:

- فينيسيا؟

وسألت آغنس زوجها:

- ما هو الجندول، يا عزيزي؟ كان صوتها مزعجاً، وعيناها تلمعان بنبيد الرييش والرغبة في أن تكون محبوبة.

- إنه قارب. أجابها بالفرنسية.

فقالت آغنس:

- آه.

قال يوهانس:

- سأرحل خلال هذا الشهر. ربما تود مرافقتي، يا فرانس؟ آه، أردف رافعاً إصبعه: نسيتُ كيف يشق عليك ركوب البحر.

أطلق ميرمانز صوت ازدراء:

- قليل منهم يتحمل الأمواج الهائجة.

- صدقت. أفرغ يوهانس ما تبقى من كأسه، وتابع: ولكن يوجد دائماً من يستطيعون.

نهضت مارين من أمام المائدة، وقالت:

- "بترونيليا، هلا عزفتِ على العود؟"

- العودا عجزت نيليا عن إخفاء دهشتها، وهي تذكر تحذير مارين من نقر أوتار عود شقيقها.

التقت أعينهما للمرة الثالثة في ذلك المساء. ونيليا التي ترى الإرهاق في وجه مارين، تتجنب أي اعتراض. وتقول:

- طبعاً، سأفعل، يا مارين.

إنها لبهجة أن تعزف على العود، لكن رؤية وجوه جمهورها وخضوع الأوتار المضبوطة على عجالة، هي بهجة أكبر. وأصبحت نيليا، من باب التغيير، موضع اهتمام مُعجَب، فتعزف لأربعين دقيقة وقد التفت حولها كراسي مستمعها على هيئة حدوة حصان. حتى أوتو وكورنيليا جاءا للاستماع.

كان المخروط المثير للخلاف مُتقلِّص الحجم الآن قد عاد إلى حقيبة آغنس، وخيم هدوء، مرصوص لحظة بلحظة عن طريق نغمات بسيطة وأغنية متحشجة عن حب ضائع. يراقب يوهانس عروسه بشيء يشبه الفخر. حدثت مارين في النار، مُستمعة، بينما آغنس تهز رأسها بغير تزامن، وزوجها يتلملج في مقعده.

لم يلبث آل ميرمانز أن غادرا، مع وعد بمتابعة يوهانس حول

التطورات خلال تشرين الثاني. أغلقت مارين الباب. وهمست:

- شكراً للرب أنهما رحلا. ثم قالت لكورنيليا: "نظفنا كل شيء في الصباح.

عجزت كورنيليا عن إخفاء صدمتها لإعفائها من غسيل أطباق سيكلفها ليلة كاملة.

احتضنت نولا العود بيديها، مبتهجة بانتصارها واستندت إلى نافذة الدهليز. بينما آغنس وفرانس يشقان طريقهما أسفل درجات المدخل.

- ألوان مزخرفة، يا فرانس. " قالت آغنس، وهي تعجز بعد كل هذا النبيل، عن خفض صوتها. "بالببوتر."
- آغنس، أخفضي صوتك.

- يا لها من هدية زفاف غريبة، إنني لأعجب كيف تعمل تلك العقول العظيمة! سوف أحصل على بيت دمي خاص بي، يا فرانس. في وسعنا تحمل تكلفته قريباً. وأريده أن يكون أفضل من بيتها.

- لم أكن لأصف عقله بأنه عظيم...

- والشكر لله، هل رأيت وجه مارين عندما ذاقت سكرنا؟ كنت أنتظر ذلك لأسابيع. فرانسي، كان الرب رحيماً...

- آه، أخربي فقط لسانك الذي لا يطاق.

وفيما يتعدان، تفرق مدام ميرمانز في صمت لا ينكسر مرة أخرى.

الفتاة المهجورة



كانت كورنيليا قد أشعلت ناراً في المدفأة عندما أفاقت نيلاً صباح اليوم التالي، وارتدت نيلاً ثيابها بنفسها، لكيلا تزج نفسها بوضع مشد، مُفضِّلة قيصاً وصدريه على عظم الحوت التي كانت كورنيليا ستفرضه عليها.

سألت أوتو وهي تنزل الدرج:

- هل وصلتني أية رسائل؟

- لا، يا مدام.

ظل تعليق آغنس يتردد في رأس نيلاً. إن فرانس يبتهج عندما أزوره. وعلى الرغم من شعور نيلاً بارتضاع معنوياتها، لأنها عزفت على العود، إلا أن الأمسية عموماً تركت آثاراً من عدم الرضا.

إن نيلاً لا ترغب في تقليد آغنس ميرمانز في أي شيء، لكنها تعرف عن الزواج أكثر من أي شخص في هذا البيت. فكرت نيلاً، يجب أن أظهر لأشجع يوهانس، لأشيد به في مهامه. وربما لن يلبث في المقابل، أن يشيد بي. إن خطتها هي مفاجأة يوهانس في محل عمله، ثم العودة إلى علامة الشمس. ربما لن تمنع صانعة الدمى في الحديث، في غياب وجه الحفرة في الجوار.

أصبحت جميع الغرف الآن نظيفة من جديد، إلا أن المنزل يغلفه شعور مكتوم، وجو من الإرهاق بعد معركة. كان باب مكتب يوهانس مفتوحاً، وتراءت لنيلاً خرائطه وأوراقه المبعثرة

على الأرض.

تجولت في حجرة المائدة، وتوقفت حينما رأيت مارين، التي لم تكن متأنقة، بل اكتفت برداء بسيط فوق قيص وتورة، كان شعرها البني الفاتح منسدلاً فوق كتفيها، مُرسلاً رائحة خفيفة من جوزة الطيب. إنه مثل رؤية مارين، ولكن من خلال عدسة أكثر نعومة وغنى.

سألته نيلاً:

- هل ذهب يوهانس بالفعل إلى الهوغسترات؟

صَبَّ أوتو فنجانين من القهوة، التي شحلت رايحتها المرة حواسها. وسقطت بضع قطرات من فوهة الإبريق، انتشرت على المفروش مثل جزر جديدة على خريطة.

سألته مارين:

- لماذا؟

- أردتُ سؤاله عن مكان بيرغن.

- إنها في النرويج، يا بترونيلا، لا تزججيه.

- ولكن...

- ولماذا تريدان أن تعرفني عن بيرغن، من بين كل الأماكن؟

كل ما يفعلونه هناك هو تجارة السمك.

في الدهليز، كانت كورنيلا تنظف البلاطات البيضاء والسوداء حول الباب الأمامي، مطاطة الرأس في تركيز. وأوتو يمضي في طريقه إلى المطبخ، وفي أثره نفحة من إبريق القهوة. أرسلت شمس تشرين الأول أشعة واهنة عبر النوافذ، و أعدت شموع الشحم إلى مخابها،

حينما فتحت نيليا الباب، توقفت كورنيليا و اعتدلت،
فدخل الهواء من الخارج، قالت ورأسها منتصب، ويدها
تقبضان على المكنسة مثل رمح:

- مدام، إنها الساعة الثامنة. إلى أين تذهبن في هذه الساعة
المبكرة؟

- مشاوير للمنزل. قالت، وهي تشتعل غضباً أمام نظرة الشك
في عيني كورنيليا. ويعاودها الشعور أنها مسجونة، وكان
الإحساس الغر بالقوة الذي منحها إياه عزفها على العود قد
خبأ فعلاً.

قالت كورنيليا:

- لا تقوم السيدات بالمشاوير، يا مدام. عليهن أن يعرفن
مقاهن.

وكانها تلتقت صفعمة، إساءة لا يجروؤ أي خادم على ارتكابها في
أسدلفت.

أصرت كورنيليا، وهي تبدو أقرب إلى البؤس:

- يجدر بك البقاء في المنزل. استدارت نيليا لتستنشق الهواء
الطلق، بعيداً عن دخان الشموع، ووجه كورنيليا الحارس.
تمتتم الخادم، بلطف أكثر هذه المرة، وهي تضع يداً على
ذراع نيليا:

- حيثما تذهبن، لا يجدر أن تذهبي بمفردك. أنا فقط...

- "خلافاً لك، يا كورنيليا، أستطيع الذهاب حيثما أريد."

سيكون شيئاً أن تشاهد زوجها في مكان عمله، أن تشهد
جهوده في توطيد ثروته. إنها طريقة لفهمه. انعطفت نهلاً إلى
الكلوڤينيرشبورخوال، قريباً من رائحة البحر، وصواري السفن
العالية في الأفق المتوسط. وبينما تسير حدو القناة، حتى أنها
فكرت في أن تُري يوهانس مُصغرتي كلبتيه الغاليتين. سيسعده
ذلك بلا شك.

عبرت القوس الرئيس لمدخل الهوغسترات إلى مبنى الفوك،
قرب مستودع الأسلحة، حيث قعقة الدروع والتروس وفرزها
حسب حجمها. هذا المكان هو خزنة المدينة كلها، بل خزنة
البلاد كما قد يقول بعض منهم. أخبرها والدها ذات مرة أن
أمستردام قد شاركت بأكثر من النصف في صندوق تمويل
الحرب. كان يتكلم بلهجة مشككة حول ثروة المدينة وقوتها،
لكن امتزاجها بهذا الاحتراز كان إجلالاً مُتَحَسِّراً.

قطعت نهلاً محيط الفناء الأول، دائخة بسبب مباني القرميد
المتكررة. في الركن البعيد رجلان يتحدثان، وعندما مرت بهما،
قاما بانحناء كبيرة. فأنثت ركبتهما تحية و هما يرمقانهما بفضول.

قال الرجل الأول:

- لا نرى نساءً أبداً في الفوك.

أضاف صديقه:

- إلا في الليل. برائحة مسك الفانيليا.

أجابت:

- أبحث عن يوهانس براندت، صوتها متوتر و لهجتها مليئة
بالتلميحات. هالة من البثور الحمراء تغطي جبين الرجل الثاني.
إنه يزيد عن الصبي قليلاً. لقد كان الرب قاسياً في رسمه.

تبادل الرجلان نظرة. وقال الأول:

- اعبري ذلك القوس، إلى الفناء الثاني، وهناك باب أقصى يسارك." ثم أردف: إنها منطقة خاصة هناك. لا يُسمح للنساء بدخولها.

شعرت نيلا بأعينهما على ظهرها، وهي تعبر القوس الثاني. لا أحد يجيب عندما تقرع الباب أقصى اليسار، وبفاد صبر فتحته. كان الملح قد تغلغل في قطع الأثاث المتفرقة والجدران، ما أضفى رطوبة على الغرفة. في المؤخرة درج حلزوني شرعت نيلا في صعوده، درجة درجة، إلى أن تصل إلى طابق أفسح، ممر طويل في نهايته باب خشبي كبير آخر.

نادت:

- يوهانس؟

فكرت، دائماً أنادي عليه. دائماً أنتظر أمام بابه. ركضت نحو مكتبه، سريعة كهرة، وحماسها تزيد مع التفكير في مفاجأته.

وجدت مقبض الباب في نهاية الممر جامداً، فدفعته نيلا بقوة وفتحت الباب فجأة، يتفسخ اسم زوجها في حلقها. كان زوجها وجاك فيليبس هنا، في مشهد لن يمحي أبداً

- نيلا، قال زوجها، لكن رأسها يدور ولا تكاد تسمعه: لا يفترض بك. لا يفترض...

وبسرعة رمى جاك ليوهانس قبضه. وراحا يتخبطان -أذرعاً وأصابع وركباً- بصورة خرقاء كلاهما، وكلاهما فزع، وبينما تشاهد رقصتهما العجولة، تفقد ركبتا نيلا توازنهما. وسقطت على الأرض، رفعت عينيها، ورأت زوجها قد تمكن من

النهوض. إنه يمد يده -إليها، إلى جاك، إلى الملابس، لا تعرف- يبدو كما لو أنه يتشبث بحبال وهمية في الهواء. وهناك جاك البيرموندزي، عاري الصدر، يمرر أصابعه خلال تموجات شعره. هل هو يتسمم أم يتجهم أم كلاهما في وقت واحد؟ تخذ الفكرة وسط الهدير في رأسها وتطير يداها إلى عينيها.

جار الصمت في أذني نيلا، وانفجر الألم في قلبها. انقلبت المهانة من بذرة سوداء واحدة إلى آلاف، والجرح الذي كان خامداً وجد صوتاً أخيراً.

لا تعرف إن كان يستطيع سماعها، إن كانت الكلمات تخرج. "غبية، غبية، غبية"، هكذا تهمس وعيناها مغلقتان بقوة. ساقاها متيبستان، وجلدها ساخن، وجسدها ثقيل كحجر الطاحون. شعرت بيدي رجل عليها، ترفعها، وبرأسها المتدلي، ترى الأصابع البيضاء لواحدة من قدمي يوهانس. إنها أول مرة يلبسها فيها أحد منذ قرصة مارين.

- نيلا، قالها صوت مألوف.

إنها كورنيليا. لقد جاءت كورنيليا. تركت نيلا نفسها تُجر من الغرفة، في تخطيط متعجل داخل الممر الذي لا ينتهي، وكأبما كلتاهما تركضان هرباً من موجة.

نادى يوهانس باسمها. استطاعت سماعه، لكنها لا تستطيع الإجابة، وهل كانت سترغب في ذلك حتى لو استطاعت؟ فقد فيها قدرته على النطق. واختنقت الكلمات على لسانها.

نزلت كورنيليا معها آخر درجات السلم، تأمرها أن تحرك قدماً أمام الأخرى:

- يا يسوع المسيح، مدام، سيري فقط، رجاء سيري فقط

حتى نصل بكِ إلى المنزل.

كان الرجلان ما يزالان واقفين في الفناء. اضطرت كورنيليا إلى جرّها، حاجبة رأس نيليا حتى لا يرى أحد الخراب وقد صفع وجه سيدتها.

صعدتا الكلوفينيرشبورخوال، تملك الضيق داخل نيليا وحاولت التقيؤ، فوضعت كورنيليا يداً حازمة على فمها، إذ إن الصراخ سيلفت الكثير من الانتباه غير المستحب في هذه الشوارع اليقظة والضيقة.

وصلتا إلى المنزل. وفتح الباب كأنما من تلقاء نفسه، إلا أن نيليا رأت مارين وأوتو ينتظران في الظل. اتكأت على كورنيليا، وصعدت معها الدرج. تمددت في فراشها، وشدت إليها شراشف الزفاف، وهي تحاول التنفس، وغصت بدموعها. ثم، من أعماق أعماقها، خرجت صرخة تمزق الهواء.

شعرت نيليا بشخص يمسّد جبينها، مرة تلو مرة، يرفعها، ويدفع بشراب في حلقها. وأخذ عويلها يخفت تدريجياً، وآخر صوت يحمده. وفوقها يميل أوتو ومارين وكورنيليا كالحكام الثلاثة على مهد المسيح، ووجوههم شاحبة بالقلق.

فكرت نيليا، أنا المخطئة. غبية. لم يكن يفترض بي...

اختفت الوجوه وتسقط نيليا، وتلاشت صورة زوجها العاري تحت بركة مظلمة.

الجزء الثاني

تشرين الثاني، ١٦٨٦ م

أَلَلَّ يَنْبُوعًا يَنْبِعُ مِنْ نَفْسِ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ الْعَذْبَ وَالْمُرَّ؟

رسالة يعقوب ٣: ١١

باطن الأشياء



أيقظتها رائحة حلوة بصورة لا تقاوم. فتحت عينيها، ورأت مارين عند نهاية سريرها، مُستغرقة في التفكير، وطبق من الرقائق على حجرها. بدت مارين فجأة أكثر نعومة، عيناها الرماديتان خفيضتان، وفها خط بائس. لسبعة أيام، تأتي وتجلس عند نهاية فراش نيل، وفي كل يوم تتظاهر نيل بالنوم.

ظلت صورة يوهانس وجاك فيليبس تطن لأيام داخل جمجمة نيل، كعثة ما فتأت ترفرف بجناحيها. وبقوة إرادتها الخاصة أعجزتها نيل عن الطيران. خدرتها ونزعت جناحيها. لكنها لم تختف.

ماذا فعل الرجلان أيضاً قبل وصولها إلى ذلك المكتب - فراشهما كتاب خرائط مفتوح، إلهان فوق عالمهما الورقي؟ "لست مؤهلة لهذه الحياة في أمستردام" هكذا فكرت نيل، وهي تتمنى لو أنها بعيدة كل البعد. أشعر بي أصغر من ثمانية عشر لكنني مهمومة كامرأة في الثمانين. إنه شبيه بمرور حياتها أمام عينيها دفعة واحدة، وهي تخوض في بحر من الفرضيات بلا سبيل للانسحاب. يا لي من حماة، حتى أتصور قدرتي على امتلاك أمستردام، قدرتي أن أكون كفوفاً ليوهانس براندت! لقد انتزعتُ جناحي بنفسي. لا كرامة لي.

لا بيت الدمى، غير المسكون، في الزاوية. كان أحدهم قد فتح ستائره، وبدا أكبر وأشعة الشمس تضيء إبطاره. إنه يشد انتباه مارين أيضاً - فتضع حصن الرقائق على الأرض وتسير ببطء نحوه، فتدخل يدها في الصالون المصفر. وتُخرج المهذ،

وتؤرجحه فوق راحتها.

- لا تلهسيه، انفجرت نيلا، بأولى كلمات تنطقها في أسبوع:
تلك الأشياء لا تخصك.

جفلت مارين وأعدت المهد إلى مكانه. وقالت:

- هناك رقائق بماء الورد لأجلك. مع القرفة والزنجبيل.
حصلت كورنيليا على صينية خبز جديدة.

تساءل نيلا ماذا فعلت كورنيليا لتستحق صينية جديدة.
كانت النار قد أضرمت، مشرقة وبهيجة في المدفأة. وفي
الخارج، كان الشتاء قد أعلن قدومه الفعلي، وتشعر نيلا بنفحة
برد داخل الغرفة.

- حسبتكِ قلتِ إن خواء البطن نقاء للروح؟ قالتها على الرغم
من أنها كانت تقبل أطباق الهوتسبوت وشراخ جنن الجودا التي
كانت كورنيليا تتركها خارج الباب. شعرت بالاتهامات تغلي
في داخلها، وبدأت متأهبة للانفجار.

قالت مارين:

- تناولي قليلاً من الطعام رجاءً. ثم نتحدث.

تناولت نيلا الطبق، الذي زين بتصميمٍ دلّفتي من زهور
وأوراق متعانقة. نفضت مارين وسائدها، مستأنفة جلوسها في
نهاية السرير. الرقائق ذهبية مقرمشة إلى حد الكمال وماء الورد
يتناغم مع الزنجبيل المدفأ. يزعق بيبو داخل قفصه في الركن،
وكأنه يستشعر بهجة نيلا المكبوتة.

تساءلت: "ماذا تراها ستقول مارين عندما أخبرها بما رأيت؟"

- ربما تحبين النهوض من الفراش؟ نبرة صوت مارين تشبه

ملكة تحاول التودد إلى فلاحه.

أشارت نيلا بإصبعها إلى بيت الدمى:

- أقرض أنك ستسعدين أكثر برؤيتي هناك.

- ماذا تعنين؟

- لقد انتهت حياتي هنا.

انقبض وجه مارين أمام قولها، ودفعت نيلا طبق الرقائق المتبقية نحوها، وقالت:

- لا مزيد من أوامرك، يا مارين. إنني أفهم كل شيء.

- ولكن هل تفهمين حقاً؟

- أجل. تأخذ نيلا نفساً عميقاً، وتابعت القول: ثمّة شيء يجب أن تعرفيه.

تدفق الدم إلى وجه مارين الشاحب. وقالت: - ماذا؟ ما هو؟

نيلا، التي أمدتها معرفتها الخفية بقوة لحظية، وضعت يداً على الأخرى فوق الشراشف وحدّقت في عيني مارين الجادّتين. شعرت بجسدها ثقيلًا، مثبتًا إلى الفراش.

- يوجد سبب لالتزامي فراشي طوال أسبوع، يا مدام. إن يوهانس، شقيقك، لا، لا أجدني قادرة على قولها.

- قولي، ماذا؟

- إن يوهانس... إن شقيقك... لوطي.

طرفت عينا مارين. وداخل عقل نيلا تعود الحياة وبتفجر في الصورة الجامدة ليوهانس وجاك. تلتصق قطعة من العجين في حلقها. لكن مارين لا تتكلم، بل هي تتأمل التطريز على غطاء

السريـر، حيث تلتفُ حروف الباء بين التوريقات وطيور الغابة.
ثم تقول مارين بصوت هادئ:

- أنا آسفة جداً على ضيقك، يا نيلا. أعتـرف أن يوهانس لا يشبه معظم الأزواج.

في البداية، لا تفهم نيلا. ثم يفتح أمامها وجه مارين، كـماب يُظهر صفحاته. يكتسحها إحساس بالوخز. يورد خديها، ويجري مندفعاً عبر دماها.

- كنتِ تعرفين؟ كنتِ تعرفين؟

تـشعر باقتراب النحيب، إن هذا أسوأ من رؤية زوجها عارياً على أريكة حجرة مكتبه مع جاك. - يا إلهي. إنني أضحـوكتكم، كنتُ أضحـوكتكم منذ بداية وصولي.

- لم نضحك عليكِ، يا بترونيلا. قطع. لستِ أضحـوكة أحد.

"لقد انتقصتم من قدري. وقد رأيت ذلك بأم عيني الآن. الشيء المقرف، الذي فعله مع ذلك الصبي..."

نهضت مارين، وسارت إلى النافذة:

- هل يُقرفك يوهانس كله؟

- ماذا؟ نعم. اللوطيون، احذروا منهم، كما قال بيليكورني. غضب الرب سيتغلغل في الأرض. إنني زوجه، يا مارين! تخرج منها الكلمات دفعة واحدة، كلمات لم يخطر لها قط أنها ستقولها. ومع كل حرف، تشعر بأنها أخف وزناً، وكأنها تطير.

بسطت مارين أصابعها على زجاج النافذة إلى أن ابهضت أناملها:

- مَذْهَلِ تَذَكْرِكِ لَتَلِكِ الْعِظَلَة .”

- كُنْتِ تَعْلَمِينَ أَنْ يَوْهَانَسَ لَنْ يَحْبِبْنِي أ

عندما يُكَلِّمُ مَارِين، يَخْرُجُ صَوْتُهَا مَتَحَشْرَجاً . - عَجِبْتُ كَيْفَ لَا يَسْتَطِيعُ . أَنَا لَا أَفْهَمُ دَائِماً . سَكَّتْ بَرَهَةً قَصِيرَةً، وَتَابَعَتْ: إِنَّكَ تَعْجِبِينِي .

- مِثْلَ حَيَوَانَ أَلَيْفِ . وَرِيزِكِي تَعْجِبُهُ أَكْثَرَ . لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَغْفِرَ هَذِهِ الْخَدْعَةَ، هَذَا الْعَارَ، كُنْتِ تَعْرِفِينَ مَاذَا سَأَوَاجُهُ . اللَّيَالِي الَّتِي انْتظَرْتُ فِيهَا...

- لَمْ أَعِدْهَا خَدْعَةً، يَا نَهْلَا لَقَدْ كَانَتْ فُرْصَةً . لِلْجَمِيعِ .

- أَنْتِ؟ هَلِ اخْتَارَنِي يَوْهَانَسَ بِنَفْسِهِ؟

تَرَدَّدَتْ مَارِين:

- كَانَ يَوْهَانَسُ مُنَاعِماً . لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ، لَكِنِّي، اسْتَعَلْتُ عَنْكُمْ . أَحَدَ أَصْدِقَاءِ وَالِدِكِ فِي الْمَدِينَةِ ذَكَرَ الْمَازِقَ الْمَالِيَّ الَّذِي تَرَكَمُ فِيهِ . كَانَتْ وَالِدَتُكَ أَكْثَرَ مِنْ مُتَحَمِّسَةٍ . فَكَّرْتُ أَنَّهُ سِيرْضِي الْجَمِيعِ .

قَذَفَتْ نَهْلَا بِالطَّبَقِ عَلَى أَلْوَاحِ الْأَرْضِيَّةِ فَهَشَّمَتْ إِلَى ثَلَاثِ قِطَعٍ، وَصَرَخَتْ:

- وَأَيُّ فُرْصَةٍ نَلْتُ أَنَا، يَا مَارِين؟ لَقَدْ تَحَكَّمْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ . . . اشْتَرَيْتِ لِي مَلَابِسِي، وَتَمَسَكِينَ دَقَقْرَ الْحِسَابَاتِ، وَتَجَرَّبْتِنِي إِلَى الْكَنِيسَةِ، وَتَرْجَمِينَ بِي إِلَى وَلائِمِ النِّقَابَاتِ حَيْثُ يَحْدِيقُ بِي الْجَمِيعُ . كُنْتُ مُمْتَنَّةً جِداً عِنْدَمَا سَمَحْتَ لِي بِعِزْفِ الْعُودِ . بِأَسَةِ . أَنَا مِنْ يَفْتَرِضُ بِهَا أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَ فِي هَذَا الْمَنْزَلِ وَلَكِنِّي مِثْلَ كُورْنَهَلِيَا .

غطت مارين وجهها بيديها، إذ شعرت بثقل الجو بينهما. أما نايلا فشعرت بحيويتها ترتفع لجأة وهي تشاهد معاناة مارين في الاحتفاظ بتماسكها.

- مارين، كفى ادعاءً للهدوء إن هذه كارثة. تفرقت الدموع في عينيها، حاولت نايلا أن توقفها، لكنها انهمرت على خديها رغماً عنها: كيف في وسعي أن أكون سعيدة مع رجل مصيره جهنم؟

تحول وجه مارين إلى قناع من الغضب. - صمتا. صمتا. لم تكن عائلتك تملك سوى لقبها. ترككم والدم فقراء. كان الأمر سينتهي بكِ زوج فلاح.

- لا عيب في ذلك.

- فلتقولي ذلك بعد مرور عشرة أعوام عندما تنكسر السدود، عندما تصبح يداك مسحوجتين ويركض عشرة أطفال حول قدميك، مطالبين بالطعام. كنتِ في حاجة إلى الأمان، أردتِ أن تكوني زوج تاجر، ظلت نايلا صامتة: بترونيلا؟ ماذا ستفعلين؟

ازدادت حدة الهلع في لهجة مارين، وبدأت نايلا تدرك أن شيئاً من النفوذ الحقيقي قد صار ملكاً لها أخيراً. هل تظن مارين أنني سأذهب إلى رؤساء البلدية؟ حدقت بتعجب في قسماط مارين المتلوية والشاحبة، شاعرة بالحماسة لأنها - ذات الثمانية عشر عاماً من أسدلفت - تستطيع الذهاب وإخبار آباء أمستردام أن زوجها التاجر المحترم قد مسه الشيطان.

قالت نايلا لنفسها، آه، تستطيعين فعل ذلك. إنها في هذه اللحظة، تشعر بميلها إلى فعل ذلك. تستطيعين تسليم جاك

فيليبس أيضاً. مَنْ في وسعه منعكِ إن أردتِ الذهاب؟
تستطيعين تحطيم حياة هذه المرأة بجملة واحدة وردَّ اعتبارك
كاملاً.

وَكأَما قرأتِ أفكارها، عادتِ مارين إلى التحدث:

- أنتِ جزء من هذه العائلة، يا بترونيا براندت. حقيقتها
تلتصق بك كالزيت على الطائر. ماذا تريدن، العودة إلى حياة
الفقر؟ وماذا سيحدث لأوتو وكورنيليا إن أفسيتِ سرنا؟

تفردُ ذراعها كجناحين، وشعرت نيلاً أن جسدها ينكمش في
الفرش.

أردفت مارين:

- نحن لا نملك أن نفعل شيئاً، يا بترونيا - نحن النساء.
أي شيء. تشتعل عيناها بسورة لم ترها نيلاً فيها من قبل. كل
ما نملك فعله إن حالقنا الحظ هو رتق الأخطاء التي يرتكبها
الآخرون.

- آغنس سعيدة بما يكفي.

- آغنس؟ آه، إن آغنس تلعب دورها، لكن ماذا سيحدث
عندما يقطع إنتاجها؟ كانت تلك المزرعة ملكاً لوالدها وقد
سلبتها الآن إلى زوجها. يذهلني كيف بوسعها أن ترى في ذلك
قمة الذكاء. وبعضنا يمكنهن العمل،" صرخت مارين، "عمل
يقصم الظهر، ولن يأجرونا حتى نصف ما يجنيه الرجل. لكننا
لا نستطيع تملك العقارات، لا يمكننا أن نقيم دعوى قضائية.
الشيء الوحيد الذي يرون أننا نستطيع القيام به هو إنجاب
الأطفال الذين يصبحون بعدها ملكاً لأزواجنا."

- لكنكِ لم تزوجي، أنتِ لا...

“وهناك أزواج لا يتركون نساءهن وشأنهن، طفل تلو الآخر حتى يصبح جسمها شِوَالاً مُجْعَداً.

- لا أمانع أن أصبح شِوَالاً مُجْعَداً ما دمتُ لن أكون وحدي! الزوج الاجتماعية، زوج وحيدة، أليس هذا ما يقوله الناس؟

- وكم امرأة تموت في المخاض، يا بترونيا؟ كم فتاة تصبح ربة منزل بلا روح؟

- كفاك صراخاً في وجهي! كانت هناك جنازات في أسدلفت أيضاً، إنني أدرك الخطر.

- بترونيا...

- هل كانت أمي تعرف ما هو؟ هل كانت تعرف؟

توقف مارين، مُنْقَطَعَةً الأَنْفَاس:

- لا أظن ذلك. لكنها أخبرتني أنك فتاة ذات خيال، قوية ومؤهلة، وأنت ستزهرين في المدينة. سوف تجد نيلا سبيلاً، هكذا كتبت - أسدلفت أصغر من أن تتسع لعقل مثل عقلها. كنتُ مسرورة بتصديق ذلك.

قالت نيلا:

- ربما أكون كذلك. ولكن، ألا أحيا كامرأة لائقة لم يكن قراراً تملكين اتخاذه.

ملاح مارين الهازئة كخالب تجرح جلد نيلا. - ماذا تعنين، بامرأة لائقة؟

- المرأة اللائقة تزوج، تنجب الأطفال...

- وماذا يجعلني هذا إذن؟ امرأة غير لائقة؟ في آخر مرة

نظرتُ في المرآة كنتُ لائقة بلا شك.

- لا أنا، ولا أنتِ كذلك.

تنهد مارين، مُدليكة جبينها:

- يا إلهي. لا أريد أن أفقد أعصابي. إنها تفلتُ مني فأعجز عن إمساكها. أعتذر.

صدق الاعتذار يخلق لحظة سلام. مُرهقة، تعود نيلا للاستلقاء على فراشها وتنفس مارين عميقاً. وتقول:

- الكلمات تسري كالماء في هذه المدينة، يا نيلا. قطرة واحدة قد تفرقنا.

قالت نيلا:

- هل ضحيتما أنتِ ويوهانس بمستقبلي، حتى تجنبا مستقبلكما مثل هذا الخطر؟

أغمضت مارين عينيها:

- لقد استفدت من هذا الزواج، أليس صحيحاً؟

- حسناً، لم أكن لأغرق في أسدلفت.

- لكن حياتك هناك لم تختلف عن الحياة تحت الماء. بضع بقرات، ومنزل رث، وملل. فكرتُ في أن هذا الزواج قد يمنحك مغامرة.

انفجرت نيلا:

- حسبتكِ قلتِ إن النساء لا يملكن المغامرة. "ولكن حتى مع قولها، فكرت في صانعة الدُمي بشارع الكالفرسترات: هل نحن في خطر، يا مارين؟ لماذا نحتاج إلى أموال السكر؟ لم يكن

يوهانس لبيعه إلا مضطراً.

- قرب منك أعداءك.

- ظننتُ آغنس ميرمانز صديقتك.

أجابت مارين، وهي تنظر من النافذة:

- أرباح السكر ستحمينا. في أمستردام، لا يستطيع الرب، مع

كل مجده، أن يفعل كل شيء..

- كيف لك أن تهولي هذا؟ أنتِ، بكل تهواكِ...

- ما أو من به لا علاقة له بما أملك السيطرة عليه. لسنا فقراء،

لكن السكر بمنزلة سد أمام الأمواج العالية. وأنتِ أيضاً تهميننا،

يا بترونيلا.

- "أنا أحميكم!

- طبعاً، وصدقيني، نحن ممتنون لذلك.

هذا الامتنان الغريب يزدهر في دم نيلا، فيزيدها إحساساً

بأهميتها. حاولت إخفاء سرورها، بتأمل التصميم الدوامي

للشراشف.

- مارين، أخبريني، ماذا سيحدث إذا اكتشفت آغنس

وفرانس أمر يوهانس؟

- أرجو أن تأخذهما الرحمة. سكتت مارين برهة قصيرة، وهي

تبحث عن كرسي: لكنني أشك في أن يفعلوا.

في الصمت الثقيل، تنداعى مارين ببطء مثل دمية، ساقاها

تنثنيان تحتها، ذراعاها ورقبتها يتراخون، ذقنها يميل على صدرها.

قالت:

- هل تعرفين ماذا يفعلون برجال مثل أخي؟ يفرقونهم. يضع
القضاة الربانئون أثقالاً على أعناقهم ويدفعون بهم إلى الماء.
غمرت موجة من الكآبة جسد مارين. وقالت: ولكن حتى لو
عادوا وأخرجوا يوهانس وشقوا جسده، فلن يجدوا ما يريدون.

- لماذا؟

انهمرت دموع مارين على خديها الشاحبين. وضغطت بيدها
على صدرها كأنما تريد دفع حزنها:

- لأنه، يا برونيللا، شيء في روحه. إنه شيء في روحه ولا
يمكنك استئصاله.

قرارات



بعد ساعة، فتحت نهلا باب غرفتها، حاملة بيبو في قفصه. كانت الشمس ترسل شعاعاً ضعيفاً من نافذة الدرج، مُحيلة لون الجدار الذي يقابلها إلى ليموني باهت. تناهى إلى سمعها صوت يوهانس في غرفة مارين الصغيرة، والتدبذب الخفيض في صوتيهما المكتومين. وضعت قفص بيبو على مقدمة الدرج، وقطعت المرر بخطى مُتسَلِّلة.

- لماذا لا يمكنك تجنب ذلك الرجل؟ أتخيل كيف قد ينتهي هذا فلا أتحمّل.

- لا أحد لديه، يا مارين.

- أنت تستهين به. بدا صوت مارين منهكاً: إنه لا ولاء لديه.

- تظنين السوء في الجميع.

- إنني أرى حقيقته، يا يوهانس. سوف يستنزفنا حتى آخر قطرة. كم من النقود منحته حتى الآن؟

- إنه يساعد في حراسة السكر. المال حقه. وهو يمنعه على الأقل من توصيل الطلبيات والمجبيء إلى هنا.

- بأي عينين عمياوين ترى العالم، لماذا قد يكون مخزنك آمن من هذا المنزل؟ ينبغي إبعاده بمقدار ما تستطيع عن أي شيء له علاقة بنا. ماذا لو أن بترونها أخبرت والدتها، أو رؤساء البلدية؟

- إن نهلا تملك قلباً...

- والذي لم أكد اعترفت بوجوده.

- غير صحيح. هذا ظلم. لقد ابتعتُ تلك الخزانة، تلك الفساتين، اصطحبتها إلى الولاية. ماذا أيضاً عليّ أن أفعل؟

- تعرف ماذا أيضاً.

حلّ صمت طويل، ثم قال يوهانس:

- أعتقد أنها القطعة الناقصة في أجميتنا.

- والذي تواجهه خطر فقدانها. الضرر الذي أحدثته، بإهمالك الشديد لاحتياجات الآخرين...

- أنا؟ كم يذهلني نفاقك، يا مارين. حذرتك في آب الماضي أنني لا أستطيع...

- وأنا حذرتك، أنك إذا لم تقطع علاقتك مع جاك فإن شيئاً رهيباً سيحدث.

لا تطيق نيلا سماع المزيد. فتعود إلى الدرج وتحمل قفص بيبو. وبينما تنزل الدرجات، تدرك أنها لم تشعر في حياتها بهكذا نفوذ أو خوف. تتخيل يوهانس وهو يختفي تحت الماء، وجه ممتعج، وشعر يتلوى كأعشاب البحر الرمادية. قد يكون هذا من صنيعها. لقد عاشوا لأعوام محتمين بهذه الجدران وهذا الباب الثقيل، لكنهم فتحوه وسمحوا لنيلا بالدخول، وانظروا ماذا حدث الآن. نحن لا نحب الخونة - كلمات مارين تعود إليها، تذكير بالاتحاد الغريب بين هؤلاء الأشخاص الذين تنتمي إليهم نيلا جزئياً، في انتظار أن يرى أين تضع ولاءها.

جلست على آخر درجة في السلم، ووضعت القفص إلى جوارها. كان بيبو على مجتمه، قابضاً عليه في إذعان. لمحت

نيلا في شد باب القفص بقوة، ففتح، وقفز طائرهما الصغير،
ورأسه يتحرك يمينا ويسارا في فضول، وهو ينظر إليها بعينه
الخرزيتين في ذهول.

كان متردداً في البداية، لكنه انتهر فرصته، فطار. وراح يدور
ويدور حول البهو العملاق، يخلق أعلى وأعلى، مُطلقاً ومُرفراً
في الفضاء الكبير، وفضلاته تتساقط بوفرة على بلاطات
الأرضية. ففكرت نيلا، لتساقط. ليغطي بيبو هذه البلاطات
اللينة بالقدارة.

تراجعت في جلستها، وأخذت تراقب تحليق بيبو في دوامة
صاعدة، وترتجف بسبب النافذة الأمامية المواربة. حلق الطائر
من أحد جانبي البهو إلى الآخر. وشعرت نيلا بالرياح التي
تحدها رفرقات جناحيه - جُنَيْحان دقيقان من عظم وريش،
وحفيف ريشاته عندما يجد مجثماً في الروافد التي لا تصل إليها
عيننا سيدته.

وعلى الرغم من كل تحذيرات والدتها، النساء اللاتي يُدفن
بسنٍ صغيرة في فناء كنيسة أسدلقت - إلا أن نيلا لطالما
اقتضت أنها يوماً ما ستعجب مولوداً. تلمس بطنها، وهي تتخيل
تكوراً هناك، بالوناً من الجلد يخفي طفلاً. إن الحياة في هذا
المنزل لا تنافي العقل فحسب، بل هي لعبة، تمرين في التزييف.
من هي الآن؟ ماذا يُفترض بها أن تفعل؟

يسألها صوت:

- جائعة؟

جفلت نيلا عندما ظهرت كورنيليا من خلف الدرج، بادية
الشحوب والقلق. لم تسأل الخادم لماذا تقهول. لا أحد ينفرد

بنفسه حقاً في هذا المنزل؛ فهناك دائماً من يراقب أو يتنصت.
أليست هي نفسها تنصت إلى خطى الأقدام، وغللق الأبواب،
إلى تلك الهمسات العجولة؟

أجابت: "لا،" لكنها جائعة. بوسعها أن تأكل عشاء نقابة
الصباغة كله الآن، ولا يتوقف أبداً - ملتهمة كل لقمة علها
تشعر بامتلاكها لكي تبتلعها.

تسألها كورنيليا:

- هل ستركيه طليقاً؟ مشيرة بإصبعها إلى اللبحة الخاطفة من
الريش الأخضر عندما يطير بيبو على ارتفاع منخفض ثم يختفي
في الظل من جديد.

- سأفعل. إنه ينتظر هذه اللحظة منذ يوم وصوله.

أحنت كتفها، وجثت، وهي تضع يديها على ركبتي نيليا:

- إن هذا بيتك الآن، يا مدام.

- كيف يُطلق على هذا المنزل الميء بالأسرار بيتاً؟

قالت كورنيليا:

- لا يوجد إلا سر واحد في هذا المنزل. إلا إن كنتِ تملكين
واحداً أيضاً؟

قالت نيليا:

- لا.

- ماذا لك في أسدلفت، يا مدام؟ أنتِ لا تتحدثين عنها أبداً،
أراك لا تشتاقين إليها.

- لا أحد يسألني عنها أبداً، فيما عدا آغنس.

- حسناً، حسبما سمعتُ، فإن فيها من الأبقار ما يتجاوز البشر.
- كورنيليا.

لكن نيليا استدركت بضحكة مضطربة، مُتفكرة في البعد الذي تشعر به الآن عن ذلك المنزل المتداعي، عن تلك البحيرة، عن تلك الذكريات حول الطفولة. ولكن ليت الناس لا يكونون بكل هذه الفظاظة عند الحديث عن الأمر. فكرت، بإمكانني أن أعود، ستسامحني ماما في النهاية، خاصة عندما أخبرها بالحقيقة. وإذا بقيت، فإن يوهانس سيظل يحظى بمغامراته، مُحاطراً مع القساوسة والقضاة، وفكرة الخلود في جهنم يتقلص أمام رغباته. في حين أنني لن أحظى بأي شيء تقريباً. لا أمومة، لا أسراراً مُتقاسمة في جوف الليل، لا منزل أديره - عدا الموجود داخل خزانة حيث لا روح إنسان ستزدهر.

ناجت نيليا نفسها، ولكن، إنني أكافح لأظهر، هي رسالة صانعة الدُمي لي. إن أسدلفت صغيرة، رفقتها محدودة، وعالقة في الماضي. أما هنا، في أمستردام، فقد فتحت ستائر الخزانة عالماً جديداً، عالماً غريباً، أجمية ترغب في حلها. والأهم من ذلك كله، أنه لا صانعة دُمي في أسدلفت.

المرأة التي تعيش في الكالفرسترات سديمية وغامضة. يُحتمل أيضاً أن تكون خطيرة، لكنها الآن الشيء الوحيد الذي يمكن لنيليا أن تدعي امتلاكها له. إن عادت إلى الريف، فلن تعرف أبداً لماذا اختارتها صانعة الدُمي لإرسالها تلك المنحوتات غير المتوقعة، ولن تكتشف أبداً الحقيقة خلف عملها. إنها أكيدة من رغبتها في استمرار وصول تلك الطلبات أكثر من توقفها. وفي لحظة تخيلية، يطرأ لها أن وجود تلك الطلبات في ذاته

لربما يبقيا على قيد الحياة.

- كورنيليا، لقد تعقبتني في ذلك اليوم. إلى مكتب يوهانس.

- لقد فعلت، يا مدام.

- لا يعجبني أن يتعقبني أحد. لكنني مسرورة أنك فعلت.

حكايات



في مطبخ الخدمة، ناولت الخادم نيلا كأساً من نبيد الكانديل الحار المتبل، وسكبت لنفسها واحداً، وقالت:
- السلام أخيراً.

- لا أريد سلاماً، يا كورنيليا. أفضل أن أحظى بزوج.

- لا بد أن فطائر اللحم التي أعدتها قد أصبحت جاهزة.
قالت الخادم، وهي تمسح يديها في مئزرها بينما يفتق جلدع في النار مع وابل من الشرارات المتوهجة. تضع نيلا كأس الكانديل على السطح الملطخ بالزيت لطاولة القرم الصغيرة قرب ركبته. لن أوذيك، يا بترونيلا، كان وعد يوهانس، الذي قطعه لها في العبارة في أثناء ذهابهما إلى نقابة الصاغة. كانت دائماً تعد اللطف يأتي من الأفعال. لكن عدم الفعل، كبح النفس - هل يعد ذلك أيضاً من اللطف؟

لقد علموها أن اللواط جريمة ضد الطبيعة. ومن هذه الناحية، لا فرق كبير بين عقيدة واعظ من أمستردام وقس من أيام طفولتها في أسدلفت. ولكن ما الصواب في قتل الرجل بسبب شيء موجود في روحه؟ لو أن مارين مُحقة، في أنه شيء لا يمكن استئصاله، فما الفائدة من كل ذلك الألم؟ ارتشفت نيلا من الكانديل، وتركت مذاق التوابل الحارة يجمّلها بعيداً عن الصورة المروعة ليوهانس تحت بحر أسود بارد.

- أضيف إليها بازلاء جافة أيضاً. فكرة جديدة. قالت كورنيليا والحرارة تندفع من باب الموقد، وتملأ المكان. تضع الفطائر على

طبق، وتقطرها بعصير عنب، ومرق لحم ضأن، وزبدة قبل أن تقدمها إلى نيلا.

- كورنيليا، هل كان في حياة مارين شخص أحبته؟

- أحبته؟

- هكذا قلت.

انقبضت أصابع كورنيليا على الطبق، وقالت:

- تقول المدام إن الحب كوهيم أفضل منه حقيقة، السعي إليه أفضل من الحصول عليه.

- ربما تقول ذلك، يا كورنيليا. لكنني، وجدتُ شيئاً. رسالة. رسالة حب، مخبأة في غرفتها.

امتقع وجه كورنيليا. ونيلا تردد، ثم تجاوزت هامسة:

- هل كتبها فرانس ميرمانز؟

همست كورنيليا:

- آه، بحق الملائكة. غير معقول، لم يحدث قط أنهما...

- كورنيليا - تريدان أن أبقى، أليس كذلك؟ لا تريدان أن أصنع مشكلة؟

رفعت الخادم ذقنها، ورمقت نيلا بكبرياء، وقالت:

- هل تساوميني، يا مدام؟

- ربما أفعل.

ترددت كورنيليا، ثم قربت مقعداً، ووضعت يدها على قلب

نيلا.

- هل تقسمين، يا مدام؟ هل تقسمين ألا تحبني مخلوقاً بهذا؟
- أقسم.

- سأخبرك الآن إذن. قالت الخادم، بصوت خفيض:

- كانت آغنس ميرمانز دائماً قطة تخفي مخالبتها. كل تلك الهالة والسمو، ولكن أمعني النظر، يا مدام. انظري إلى القلق في عينيها. إنها تعجز تماماً عن إخفاء مشاعرها نحو مارين، لأن مارين سرقت قلب زوجها.

- ماذا؟

نهضت كورنيليا، قائلة:

- لا يمكنني إخبارك بكل هذا من دون شيء يشغل يدي. سأصنع بعضاً من الأولي-كوكي." خلطت في زبدية، لوزاً وحفنة قرنفل و قرفة. وحينما شرعت في طحن المكسرات والقرنفل، أصبحت همسات الخادم، وجو السرية والإدانة أطيّب مذاقاً لنيلا من الفطيرة في طبقها.

تفقدت كورنيليا السلم للتأكد من عدم مجيء أحد. ثم قالت:

- كانت مدام مارين أصغر منك كثيراً عندما قابلت ميرمانز لأول مرة. كان صديق السنيور في أثناء عملهما موظفين في بيت المال. كان السنيور في الثامنة عشرة، ولا بد أن مدام مارين كانت في الحادية عشرة.

حاولت نيلا تخيّل مارين طفلة، لكن آغنس مُحقّقة، إنه مستحيل. مارين هي مارين منذ البداية. طفا شيء في ذاكرة نيلا، ملاحظة متضاربة:

- لكن آغنس قالت إن فرانس ويوهانس التقيا في الفوك

عندما كانا في الثانية والعشرين.

- حسناً، لقد اختلقت ذلك، هذا أو أن ميرمانز كذب عليها. إنه لم يعمل قط في الفوك. بل التقى السنيور في بيت مال أمستردام وانتهى به الأمر إلى ترسيم القوانين في الستدهاوس. ليس مُبرراً كثيراً، أليس كذلك - أن يجلس المرء إلى مكتب بينما صديقه في البحر مع أكبر شركات البلاد. إنه يصاب بدوار البحر، يا مدام. هل تتخيلين هولندياً يدوّخه البحر؟

قالت نيلا:

- حسناً، إنني أفضل الخيول على السفن.

هزت كورنيليا منكبها:

- وكلاهما قد يطرحك من فوق سرجه. على أية حال، كان أول لقاء لميرمانز بدمام مارين في عيد القديس نيكولاس. امتلاً المكان بالموسيقى، قيثارات وأبواق وكان، ورقصت مدام مارين مع ميرمانز أكثر من مرة. ظنت أنه أمير، بوسامته البالغة. إنه يأكل كثيراً الآن، لكنه كان مثار إعجاب الجميع في ذلك الحين.

- ولكن كيف تعرفين هذا، يا كورنيليا؟ هل كنتِ حقاً قد وُلدتِ في ذلك الوقت؟

قطبت كورنيليا جبينها، وهي تضيف دقيق القمح والزنجبيل، وتقلب خليطها بخفاقة. نُثبتت عينيها الزرقاوين على نيلا بنظرة العارف، وهمست:

- كنت رضية في دار الأيتام حينها. لكنني استنتجتُ كل شيء، حسناً؟ ثقب الأبواب. لقد عرفتُ ماهيتها، أخذت وعاء تفاح صغير، وراحت تقشر كل واحدة بلفة واحدة من

سكينها:

مدام مارين تخفي شيئاً. إنها عقدة جميعنا يريد حلها.

لكن نيلا تتساءل هل توجد يا ترى أصابع حاذقة أو بارعة بما يكفي لفك خيوط مدام مارين. إن مارين بتقلبات مزاجها، ولحظات سماحتها المنجول التي ييدها تعليق مؤذ، هي العقدة الأكثر إحكاماً بينهم جميعاً.

وبينما تستأنف كورنيليا خفقها، شعرت نيلا بقلبا يتقبض بين أضلعها. وفكرت، هذه الفتاة جاءت إلى مكتب يوهانس لتتقلدني. وإن حق ذلك، فهي إذن أول صديقة حقيقية أحظى بها. فاضت نيلا بالمشاعر، قد تنهض في أية لحظة وتلقي بذراعها حول هذه الطفلة الغريبة من الملجأ، التي منحتها موهبتها في الطهي قدرة خارقة على المواسة.

- كان السنيور وميرمانز صديقين حميمين. لذا كان يكثر من زيارته إلى المنزل للعب الفيركيرشپيل. ثم تدخل الحب في الأمر.

- ماذا... كانت مدام مارين تعرف عن الحب، وهي في الحادية عشرة؟

- أنا في التاسعة عشرة تقريباً، ومتزوجة، يا كورنيليا. ومع ذلك، لا يسعني التحدث عن الحب بثقة أكبر مما لو كنت طفلة.

تضرج وجه كورنيليا، وأدركت نيلا أن السن لا يزيد المرء يقيناً كما يبدو. بل هو يمنحه المزيد من أسباب الشك.

واصلت كورنيليا:

- مات والداها عندما كانت مدام مارين في الرابعة عشرة، وغادر السنيور بيت المال لينضم إلى الفوك. وانتقل ميرمانز إلى الستدهاوس.

- كيف مات والداها؟

“كانت والدتهما دائمة التوعك، وقد أوهنها المخاض. نجت بصعوبة بعد ولادة مدام مارين. لقد أنجبت آخرين غير السنيور ومام مارين طبعاً، لكن أحداً منهم لم يبق على قيد الحياة. وبعد عام على موت والدتهما، رحل والدهما بالحمى، وقاد السنيور أول سفينة فوك له إلى باتافيا. بلغت مدام مارين الخامسة عشرة. وكان فرانس ميرمانز يعمل في الستدهاوس، ولكن لم يكن ممكناً أن تقابله، في غياب من يرافقها.”

تتخيل نيلا زوجها تحت سماء زرقاء هاتجة، أو فوق رمال ساخنة تتخللها الأصداف والدماء المسفوكة. قرصنة ومغامرة، بينما فرانس ومارين وسط الأثاث الخشبي والمنسوجات الجدارية الخائفة وقنوات المياه الراكدة وجلجلة الأجراس الداعية إلى العبادة.

“حاول السنيور ضمه إلى الفوك. نصحه باغتنام الفرصة. وكانت مدام مارين تقول له: “لا تنتقد فرانس. لا يمتلك الجميع إمكاناتك، يا يوهانس، وأنت تحب ما تعمل.”

قلبت كورنيليا وعاء من الزبيب المنقوع بطرف ملعقتها الخشبية:

- كانت المشكلة، أن ميرمانز لم يستطع مضاهاة السنيور. لم يستطع فتح الأبواب المناسبة، لم يكن ملهماً للرجال، لم يحفظ سوى بنجاح متواضع، بينما أثرى السنيور ثراءً فاحشاً. ثم بعد

خمسة أعوام، عندما صارت مارين في العشرين، زار ميرمانز المنزل من دون عليها. كان قد ادخر مالا وطلب يدها للزواج من السنيور.

- انتظر خمسة أعوام؟ وماذا قال يوهانس؟

- لقد رفض.

- ماذا؟ خمسة أعوام من الانتظار ليكون الجواب بالرفض، ولكن لماذا؟ لم يكن ميرمانز سيئ السمعة، أليس كذلك؟ ولا بد أنه أحبها حقاً.

- إن السنيور لا يفعل شيئاً قط من دون سبب وجيه، قالت كورنيليا بلهجة دفاعية، مُلقية أول شرائطها من الخليط في مقلاة بها زيت ساخن.

- أجل، ولكن...

- كان ميرمانز وسيماً، لو كانت الوسامة طلبك. لكن سمعته لم تكن أفضل ما قد يحظى به المرء، سكتت برهة قصيرة، وتابعت: كان يمتلك نزعة ما، كان يطمع دائماً فيما هو أفضل مما لديه. وبعد تلك الإهانة، لم يعد قط. عدا الآن.

أخرجت الكعكة المبرومة التي نضجت، ووضعتها برفق على صينية السكر الجاهزة. وأضافت، في شيء من المكر: لقد كَشَطْتُ رأس مخروط آغنس.

قالت نهلاً:

- ربما أراد يوهانس إبقاء مارين حيث يحتاجها. زوج دمية، وانظري! صار الآن يمتلك اثنتين، تفضن وجه كورنيليا، آه، يا كورنيليا. مازالت هي سيّدة المنزل. ترين بنفسك كم هي

صارمة، وتفرض النظام على الجميع. أنا من يفترض بها أن تقوم بهذا. ولكن، هل لاحظت كيف أنها أحياناً تبدو مشتتة؟

صمتت كورنيليا لوهلة. ثم قالت:

- لم ألاحظ أي فرق، يا مدام.

- هل عرفتَ مارين بما فعله يوهانس؟

- عرفتُ في النهاية، ولكن ميرمانز كان قد ذهب وتزوج إحدى صديقات مدام مارين. آغنس فينك. "نطقت كورنيليا الاسم وكأنه لعضو في جسد دبور: عمل والد آغنس مع شركة الهند الغربية وأثرى في «العالم الجديد». وكان قد حرّمها الزواج من أي رجل لا يمتلك ثروة معتبرة. كان السنيور فينك وحشاً، بمحاولاته إنجاب الذكور وهو في الثمانين حتى لا ترثه! كان زواج آغنس من ميرمانز هو تمرداها الأول والأخير. إنها تعشق فرانس كالمرض. جعلت زوجات النقابة الأخريات يقلبن ضد مدام مارين، لمجرد أن تطمئن إلى انتهاء ذلك الفصل من حياتها. أرادت آغنس نذراً من النفوذ، ثم إذ بوالدها يموت ويترك لها كل تلك الحقول.

تذكرت نيللا السيدات اللاتي وصفتن كورنيليا، وهن يزرن المنزل، ويضعن عصافيرهن في شعر أوتو، هل كانت آغنس فينك إحداهن يا ترى، ومثلهن تلتقت من مارين أمراً بعدم العودة؟

واصلت كورنيليا:

- كان عرساً ضخماً، كلّف فرانس كل النقود التي اقترضها، استمر الحفل لثلاثة أيام. لكنك تعرفين ما يقولون عن الأعراس الضخمة. إنها تخفي نقصاً في الشهية.

تصرخ نيلاً، لو عكسنا الأمر، فكان يفترض بها ويوهانس،
بعد حفلهما الوضيع، ألا يغادرا مخدعهما أبداً.

قالت كورنيليا:

- فرانس وآغنس متزوجان منذ اثني عشر عاماً، ولم ينجبا بعد.
ثم تأتيه مزرعة آغنس للسكر، مباشرة في حجره! إن هذا أفضل
من وريث بالنسبة إليه. ربما هو يعول على هذا السكر في صنع
تركة، لكن هذا لا يغير حبه لمدام مارين.

تناولت نيلاً أول كعكة أولي-كوكي. ما تزال دافئة، والطبقة
المقلية يتكسر تحت أسنان نيلاً، مُطلقة المزيج الرائع من اللوز
والزنجبيل والقرنفل والتفاح. تسألها نيلاً:

- ومارين ما زالت تحبه؟

- لا أشك في ذلك. إنه يرسل لها هدية كل عام. خنازير
وطيور مجل، وورك غزال ذات مرة. ولم تكن مدام مارين
تعيدهم. إنها مثل محادثة صامته لا يريدان انقطاعها. أنا طبعاً،
من يضطر إلى تدبير كل ذلك. من تتف، وتقطع، وحشو،
وقلي، وسلق. كانت قلادة لتصبح أسهل. "تمسح كورنيليا
زبدية العجين بخرقه مبللة. "عن طريق تلك الهدايا اكتشفت
مدام مارين أن السنيور رفض طلب فرانس يدها للزواج.
حدث ذلك بعد عرس آغنس بفترة قصيرة عندما جاءت أول
هدية.

- ماذا كانت؟

- كنت قد وصلت للتو. أتذكر مدام مارين بوضوح تام، وهي
تحمل خنزيراً صغيراً مملحاً في الدهليز. بدت في غاية التعاسة.
وسألت:

- لماذا يرسل لي هدية، يا يوهانس' وأخذها السنيور إلى حجرة المكتب، حيث أقترض أنه اضطر إلى الشرح.
- رباه.

بدأت الكتابة على كورنيليا:

- ومنذ ذلك الحين وميرمانز يرسل شيئاً على الرغم من أنه لا يضع اسمه أبداً، إلا أن جميعنا يعرف أنه هو. ثم تدلك جبينها. وتقول: "لكن رسالة الحب شيء مختلف. رسالة الحب شيء خطير. آه، تغاضي عنها، يا مدام نيلا، وتظاهري أنك لم ترها قط.

صعدت نيلا السلام لتمنح بيوفات "الأولي-كوكي" ورأسها بعج بصور مارين وهي شابة ترسل نظرات نجولة نحو ميرمانز الشبيه بالأمرء. إنه مثل محاولة تخيل والديها وهما شابان يقعان في الحب. تُفكر، أفضل أن أسمو في الحب، أن يرفعني وسط السحاب، لا أن يسقطني إلى الأرض. تخيل نفسها، خفيفة ومعشوقة، وهائمة في النشوة.

كانت الروافد خالية. جابت حجرات الطابق الأرضي، وهي تنادي اسم بيو، وتمد ذراعها، متوقعة أن يشق الهواء ويحط عليه، بجسده المألوف، وعينه الخرزيتين. صعدت إلى الطابق الأول، تتحقق من أنه لم يحتم داخل بيت الدمى. تنادي: "بيو؟" غرفة مارين مغلقة، إذ تحاول النوم. يعبر عقل نيلا كابوس مفاجئ لجثة مقتنصة، وريش يتدلى.

غرفة يوهانس قليلة الأثاث، خالية أيضاً. نادى نيلا مرة أخرى: "بيو؟" انتصبت دانه، مستشعرة في صوتها وجود

مشكلة تحتاج إلى مطاردتها. تخيلت نهلا البيغاء وأسنان الكلبة
تنقض عليه، الطبيعة وهي تأخذ مجراها بأقصى طريقة. اخترق
معدتها شعور بالخوف، ونزلت الدرج ركضاً تنادي:

- كورنيليا؟ هل تعرفين أين...

ثم رأت نافذة البهو، التي ما عادت مواربة بل مفتوحة
بتأرجح، والهواء البارد يندفع منها.

ثمانى دى



مضى العصر وحل المساء، وكورنيليا ونيلا تباديان على البيغاء على طول القناة من دون طائل. وداخل المنزل، كانت الروافد خالية، لا حفيف أجنحة. مُحال أن يصمد بيبو طويلاً مع البرد القارس المُضَيِّع للاتجاهات. كانت درجة الحرارة قد انخفضت بين عشية وضحاها، وبدأ الجليد في تكوين قشرة رقيقة على مياه قناة هيرين، وها هو آخر خيط يربطها بحياتها القديمة قد انقطع هائماً في السماء. تهمس نيلا: "أنا آسفة. آسفة جداً."

في صباح اليوم التالي، كانت مُرهقة من القلق والأرق جرّاء اختفاء بيبو، وجدت نيلا باقة صغيرة من زهور حمراء وزرقاء زاهية مرفقة برسالة، قد تُركت أمام بابها. أخذها الأمل في أنها من صانعة الدُمي، ولكن لدهشتها، يدشن الرسالة أول حروف اسمها بخط كبير، مُندفعاً للأمام، مع ميلان نشيط نحو نقطة الختام.

نيلا:

زهرة العناقية الزرقاء رمز الصداقة القديمة، والأنارفية رمز الترميم - كنتُ لأشتري لكِ طائراً جديداً، لكنه لن يزيد عن صورة باهتة.

يوهانس

استنشقت نيلا رائحة الزهور في عتمة غرفتها، رائحتها اللطيفة التي تصطدم بحزنها وتبعث من جديد مشاعر الإذلال.

ماذا سيعني، أن تمضي بقية حياتها متزوجة من هذا الرجل

المعقد والمحب للمتعة، ولكن من دون فراش زوجية سوف يُشركها يوهانس في لقاءاته الاجتماعية وحفلات النقابة وولائمها. كما أنه يرغب في صداقتها. لكنها ستواجه ليالي لا تنتهي من الوحدة، ونهارات يملؤها الشوق، إذ أُغلق باب الحب إلى الأبد. تتمنى لو أن صانعة الدُمي ترسل إليها أي طرد قريباً. الخوف من محتواه فقط يستحق التشتيت.

تجدل نيلا زهرتين من العناقية خلف أذنها. لم تتصور قط أن تمضي حياة كاملة من دون أن تُمسّ، إلا أن صوتاً ضعيفاً في أعماق أعماقها، يعلو لتسمعه. إنك تشعرين بالارتياح لأنه لن يفعلها. تقرُّ بصدمتها من مشاهدة يوهانس عارياً. كان جزء كبير منها مند وصولها، قد حث، بل سعى إلى تحويل نفسها إلى ما اقترضت طويلاً أنها الزوج الحقيقية، المرأة اللائقة. أمضت وقتاً طويلاً يتوق إلى هذا التحول، وتربّخه في عقلها، حتى صارت غافلة عن غموضه. اليوم، تفقد المرأة اللائقة كل معانيها. رغبة نيلا المتينة تتداعى، لتصبح ضباباً في داخل رأسها. ماذا يعني حتى أن تكون المرأة زوجاً حقيقية؟

أفاقت من دائرة أفكارها الهائمة على طرق الباب. قالت كورنيليا وهي تُدخل رأسها من فرجة الباب، وتتردد أمام منظر عيني نيلا المتورمتين:

- لقد سألتُ أوتو، إنه لم يترك النافذة مفتوحة، ولا أنا

- إنني لا ألوم أحداً، يا كورنيليا.

- قد يطير عائداً إلى هنا.

- لن يفعل. كنتُ حمقاء.

- هاك، قالت كورنيليا، وهي تمدُّ لها طرداً يحمل بالحبر علامة

الشمس: ترك لك أمام باب المنزل.

ثارت الدماء في عروق نيللا. وفكرت وكأنها تسمعني، حتى من دون أن أتكلم. ما الذي تحاول قوله؟

سألت، وأصابعها ترتجف خفيفاً حول العلبة، برغبة مستميتة في فتحها:

- هل كان، جاك هو من سلم هذا الطرد؟

جفلت كورنيليا عند ذكر الاسم، وعيناها على يدي سيدتها المرتعشتين. قالت:

- كان الطرد هناك عندما ذهبتُ إلى مسح العتبة الأمامية. أظن الإنكليزي يبقي نفسه بعيداً. مدام، ماذا يوجد في هذه الطرود؟

كانت نيللا تدرك أنها ليست مستعدة لمشاركة امرأة الكالفرسترات مع أحد. صارت الآن تُتوق إلى الخصوصية، بعد أن كانت ترفضها في البداية، مُتلهفة للانفراد بنفسها مع ما تريد صانعة الدُمي أن تريه لها.

- لا شيء. قطع طلبتها لبيت الدمي.

- قطع؟

- يمكنك الانصراف.

وما إن غادرت كورنيليا مع نظرة أخيرة من فوق كتفها، قلبت نيللا العلبة فوق فراشها. وأذهلها ما تراه.

فوق شريط من القطيفة الزرقاء، اصطففت ثماني دمي. هي من الواقعية والدقة، حتى لتبلغ من الكمال ما يتجاوز قدرات البشر. شعرت نيللا مثل عملاق، وهي ترفع إحدى الدمي

وكانها قد تنكسر. كان يوهانس يرقد في راحتها، تبدل من كتفيه العريضين عباءة بلون نيلي غامق، وإحدى يديه مضمومة. والأخرى مفتوحة، باطنها ظاهر، شعره أطول من أي مرة رآه فيها نيلا يتجاوز كتفيه. داكن العينين، وتبينه الظلال على وجهه أضعف من الحقيقة. عند خصره صرة نقود ثقيلة، تصل إلى ساقه، كما أنه أكثر نحافة. تُثقل الصرة على مفاصل وركبيه، فتجعله يميل على جانب واحد.

أما دمىة نيلا نفسها فشعرها يفلت من القلنسوة، كما يفعل عادة في الحقيقة. بفستان رمادي أنيق، تحديق دميتها إلى الأمام، وعلى وجهها الجامد تعبير دهشة خفيف. في إحدى يديها الصغيرتين قفص عصافير فارغ، يتأرجح بابه مفتوحاً على مصراعيه. شعرت نيلا بإحساس غريب في جسدها، وكأن دبايس تخز جلدتها من الداخل.

في اليد الأخرى للدمية، رسالة منمنمة مكتوبة بحروف سوداء أنيقة:

لا شيء يبقى على حاله

لم تعد قادرة على النظر إلى صورتها المصغرة، انتقلت إلى كورنيليا، فنتتها عينا الخادم الزرقاوين، اللتان ترمقانها بقليل من المرح. يد كورنيليا مرفوعة إلى وجهها، وبنظرة أقرب، تبدو وكأنها تضع إصبعاً على شفيتها.

بعدها أوتو، شعره مصنوع من صوف حمل مصبوغ. ويبدو رشيماً أكثر من يوهانس، هو أيضاً أكثر نحافة من الحقيقة. لمست نيلا ذراعيه. زيه البسيط لا يظهر العضلات المنحوتة أسفلها. جفلت أصابعها مُبتعدة. "أوتو؟" قالتها جهراً، شاعرة بالحماقة عندما لا تجيب الدمىة.

ثم تأتي مارين، عيناها الرماديتان شاخصتان في أفق وهمي. إنها هي بلا شك، الوجه النحيف، والقم المهيب حاملاً فكرة تلهف للخروج. ملابسها كثيبة مثلها في الحقيقة؛ مكونة من قطيفة سوداء، وياقة عريضة من دانثيل بسيط. تمرر نيلاً أصابعها مأخوذة على معصمي مارين النحيفين، وذراعيها المشوكتين، وجبينها الشاخص، وعنقها المتيبس. وإذا تذكر السر الذي أفضته لها كورنيليا، عن البطانة الناعمة أسفل ملابس مارين الزاهدة، تتحسس نيلاً باطن الصدرية. فتلمس أصابعها جلد سمور فاخر.

فكرت، يا إله السموات. ماذا يجري هنا؟ لأن هذا يتجاوز كل التجليات السابقة لصانعة الدمى. المفتاح الذهبي، والمهد الهزاز، والكلبان - كلها من دون شك أشياء قد تشكّل الجوانب الترفيهية للحياة في منزل أي تاجر. لكن هذه الدمى مختلفة. كيف تعرف صانعة الدمى ما ترتديه مارين أسفل ثيابها، أو أن يبيو قد طار بعيداً؟

قالت نيلاً لنفسها: "كنتِ تظنين أنك صندوق مُقفل داخل صندوق مُقفل. لكن صانعة الدمى تراك - ترانا!" مررت نيلاً إصبعاً مُرتجفاً فوق تنورة مارين (التي تبدو مصنوعة من أفضل صوف أسود في السوق)، أخفت نيلاً دمى مارين في أقصى ركن بالصالون المصغر، خلف كرسي حيث لا يراها أحد.

أتى بعد ذلك تمثال ذكر، أقصر قليلاً من يوهانس، يعتمر قبعة عريضة، و يتقلد سيفاً، ويرتدي البزة الرسمية لميليشيا سانت جورج. وجهه كبير، وعلى الرغم من التفاصيل المُقلّصة لجسده الممتلئ، إلا أنه ولا شك فرانس ميرمانز. تعقبه آغنس، بخصرها النحيف وخواتم في أصابعها مصنوعة من شظايا زجاج ملون.

وجهاها أرفع مما تذكره نيلا، لكن اللآئى المألوفة تتناثر بيضاء على عصابة رأسها السوداء. حول عنقها يتدلى صليب كبير، وتمسك في إحدى يديها مخروطاً من السكر، لا يتجاوز طوله ثلثة.

سقطت الدمية الثامنة والأخيرة من الشريط المخملي، لتطلق نيلا معها صرخة. وإذ ترفعه عن الأرض، ترى جلياً أنه جاك فيليبس، بسترته الجلدية وقيصه الأبيض ذي الكمين المتهدلين، ويكسو ساقيه زوج من الأحذية الجلدية. الشعر جاح، والقم أحمر كرزي. تتساءل نيلا، لماذا تريد صناعة الدمى تذكيري بهذا الصبي الفظيع؟ لماذا عليّ أن أضعه في منزلي؟

لا يأتيها جواب من الدمى، التي تحقق فيها، في نفوذ مصفر لا مثيل له. تحاول نيلا جاهدة أن تنظر بهدوء إلى هذه الشخصيات، راقدة على غلافها المخملي، ومصنوعة بعناية وانتباه. تضعها واحدة تلو الأخرى في زوايا مظلمة داخل المنزل المصفر.

مؤكد أنها لا تحمل شراً في داخلها؟ حاولت جاهدة إقناع نفسها، لكن ما يحدث يبدو خارقاً للطبيعة، يوجد هنا تفسير تعجز عن استنباطه. إن هذا أكثر من مجرد محاكاة.

تبقت رزمة واحدة غلافها من قماش أسود، أصغر من البقية. لم تجد نيلا جرأة كافية لفتحها، لكن الرغبة أقوى منها. عندما فضت الغلاف، خُيل إليها أنها قد بُقيتاً. فهناك يرقد طائر أخضر مصفر، ينظر إليها بعينين سوداوين براقتين، ريشه حقيقي، مختلس من مخلوق أقل حظاً. مخالفه الصغيرة مصنوعة من السلك ومكسوة بالشمع، ويمكن تطويعها لإجلاله في أي مكان.

انكش عالمها، ومع ذلك يبدو أصعب تطويعاً من أي وقت

دارت حول نفسها، هل صانعة الدُّمى هنا في الغرفة، محتبئة تحت السرير؟ نظرت نيلا تحت السرير، وشدت الستائر بعيداً عن الحائط في حركة سريعة وكأنما لتباغتها، وتنظر حتى خلف الستائر في بيت الدمى. كل ما وجدته هو فضاءات تسخر من رغبتها في التصديق. أنتِ نيلا الهائمة في الخيال، هكذا توبخ نفسها، أنتِ وأوهامكِ وخيالكِ الجامع. كان يُفترض بكِ أن تنبذي تلك الفتاة الأسدلفتية.

خلف النافذة، أناس يسرون على طول الطريق، و الهيرغراخت مزدحم اليوم، لأن الجليد منع سهولة الحركة في القناة. تُبدل بائعة الرنكة بين قدميها في الركن طلباً للدفء، ويمشي رجال ونساء برفقة خدمهم، جميعهم متدثرون اتقاء للبرد القارس. رفع بضعة أنظارهم إلى نيلا في أثناء مرورهم، وجوه تتحول كزهور اللبن الثلجية نحو سماء الشتاء.

انتظرت نيلا بعيداً نحو الجسر. لمحت شعراً أشقر، إنها واقفة من ذلك. ينتشر الوخز في جلدها من جديد، وتشعر بأمعائها تهوي. هل تلك هي؟ الزحام كبير في هذا الجانب من الهيرغراخت، والمتقاطع مع الجسر. مالت نيلا أكثر خارج النافذة. إنها هي فعلاً، ذلك الرأس اللامع، المحجوب بسرب من رؤوس أغمق، يتحرك سريعاً في وجه البرد.

صرخت نيلا من النافذة:

- انتظري! لماذا تفعلين هذا بي؟

كبت أحدهم ضحكة في الطريق. وسألت امرأة: "هل هي مجنونة؟" شعرت نيلا بالحرقة من ذلك التدخل الكريه والجائر.

لكن الشعر الأشقر كان قد اختفى، تاركاً السؤالين المفتوحين
بترددان في الهواء.

وعود كاذبة



أسرعت نيلاً تنزل الدَّرَج الرئيس، ويبدو الجديد في صورته المصغرة مدفون عميقاً في جيبتها. كان قبقابها المنزلي ما يزال في قدميها، قصدت الباب الأمامي، لكن صوتي مارين ويوهانس المرثعين في حجرة المائدة جعلها تتجمد في مكانها. وتردد، حائرة بين اللحاق بصانعة الدُّمى، أم التنصت على زوبعة الشقيقتين.

- قلتَ إنك ستذهب، يا يوهانس، وعليك أن تفعل.

كان صوت مارين خفيضاً وفضفاً، "لقد طلبتُ عبارةً توصلك إلى الميناء. وحزمت كورنيليا صندوق متاعك.

أجاب يوهانس:

- ماذا؟ سأذهب خلال بضعة أسابيع. هناك متسع من الوقت.

- إننا في تشرين الثاني، يا يوهانس! فكر في كل الحلويات والحفلات التي تحتاج إلى سكر في هذا الفصل. فإن ذهبت في كانون الأول سيكون الوقت قد فات، ورطوبة المستودع أضرت بهذا السكر...

- وماذا عن الرطوبة في عظامي، وأنا أنتقل من مركب إلى مركب في هذا الجو؟ إنك لا تعرفين شيئاً عن رتابة الأكف المتعرقّة، ومجهود التحدث بالإيطالية، والعشاء مع الكرادلة الذين لا يسمعون الحديث سوى عن حجم قصورهم التوسكانية. أطلقت مارين صوت ازدراء: صدقت، أنا لا أعرف فعلاً.

ولكن نظراً إلى جميع الظروف، سيكون، من الأسلم بالنسبة إليك، أن تتعد.

- أسلم، لماذا؟ بدا صوت يوهانس مماًزحاً: إلام تخططين في غيابي؟

- لا خطط، يا يوهانس. سأستجمع شتات أفكارى. وكذلك برونهلا.

- أنا متعب، يا مارين. قاربتُ الأربعين.

- أنت من أراد بيعه في الخارج. وإن كلفت نفسك زيارة فراش زوجك، ربما في وسعك بعد خمسة أو ستة عشر عاماً، أن تولي ابنك كل هذا. ولا يهمني عندها حتى أن تمضي شيخوختك في حانة.

- ماذا قلتِ؟ ابني؟

شعرت نيهلا بالصمت الذي أعقب ذلك. يطبق عليهم جميعاً، يوهانس ومارين في الغرفة وهي خارجها، مثل لحاف ثقيل من الثلج قد ينزلق المرء في داخله ويختفي. ألصقت خدها بالخشب في ترقب. هل كان شوقاً هو ما سمعته في صوت زوجها أم هو مجرد اندهاش؟ إلى أي مدى أصابت آغنس في تلك الليلة بنقابة الصاغة؟ كان رأي يوهانس المزعوم في الورثة، أنهم ليسوا رهاناً مضموناً. لو كانت الأشياء تُتغير، هكذا فكرت نيهلا، وهي تمر أصابعها على الطائر المصغر في جيبها، فربما ذلك يشمل الناس أيضاً.

- مارين، همس يوهانس، مقاطعاً أفكار نيهلا، ومُدوّباً لئج التخيلات: حياة مثالية تلك التي تريدان أن تعيشها، مرسومة على خرائط لن تعودنا إلى أي مكانا بعد خمسة عشر عاماً

سأكون قد متُّ على الأرجح.

- آه، بل إنني أرى وجهتنا بوضوح، يا أخي. وهذا ما يؤلمني.

- إن ذهبتُ فعلياً اصطحاب أوتو.

- نحن في حاجة إلى أوتو هنا. ثلاث نساء وحدثهن، ولا رجل يحمل الحطب؟ الجليد قادم.

- تريدان إدارة عملي، لكنك لا تقدرين على رفع حطبة؟ في هذه الحالة، يقولها يوهانس باستخفاف، عندما لا تقدّم مارين رداً، لا يتبقّى سوى مساعد واحد يمكنني اصطحابه.

- إن كنتَ حتى تفكر في...

اندفعت نيلّا إلى الغرفة. إنها أول مرة ترى فيها زوجها منذ تلك اللحظة في عمله. اختلج وجه يوهانس بتعبير مؤلم، وهو ينهض من كرسيه، ويضرب بالأرضية رجله في ارتباك:

- نيلّا، هل كنتِ...

- ما هذا؟ قاطعته نيلّا، مشيرة بإصبعها إلى حيث تعكف مارين على خريطة.

تقول مارين، وهي ترمق بتلات العنقاية التي تستكين عند أذن نيلّا:

- إنها خريطة دي بارباري لمدينة فينيسيا.

يسأل يوهانس:

- هل حالفك الحظ مع بيغائك؟

أدخلت نيلّا يدها في جيبتها:

- لا. لم يحدث.

- آه... ثم سكت برهة قصيرة، وراح يفرك ذقنه في تأمل،
وينظر إليها بحذر، ويختلس نظرة إلى مارين:

- - لقد قررتُ وجوب ذهابي إلى فينيسيا، لبدء مفاوضات
حول سكر آغنس.

- فينيسيا! أأن تكون هنا في أعياد الميلاد؟

- لا أضمن ذلك.

- آه. استغربت نيلا من سماع لمسة الإحباط في صوتها.
ورفعت مارين عينيها.

قال يوهانس:

- رأينا أن هذا هو الأفضل.

- لمن؟

- للسكر...

قاطعته مارين:

- للجميع.

وكما أرادت مارين، صعد يوهانس عبّارة الفوك من خارج
المنزل. والتي ستأخذه إلى الأرصفة، حيث يركب سفينته.

وقفت نيلا على عتبة المنزل، ترتجف، وهو يرفع إليها يداً
مترددة. حلت حدوه، كفها تواجه الهواء البارد، لا تلوح،
وإنما مرفوعة في تحية.

قال:

- وضعتِ الزهور في شعرك.

- فعلت.

تأملت بشرته التي لوحتها الشمس، والتجاعيد حول عينيه،
واجتياح لحيته الفضية. "لإصلاح ما فسد."

وأمام كلماتها، بدا يوهانس عاجزاً عن التعبير، وفي تلك اللحظة
المعلقة القصيرة بينهما، شعرت نيلا وكأنها ارتفعت قامة، وكان
الكرامة شيء في وسعها أن تمسكه في يدها.

خرجت ريزيكي متوتبة من المنزل، مُعربة عن استيائها بالنباح
لأنه لم يأخذها معه.

سأله مارين:

- هل معك عينة المخاريط؟

يجيب يوهانس:

- كلمتي تكفي، يا مارين.

كانت كلماته تختنق بالعاطفة.

تساءلت نيلا، من هذا الرجل، بالغ التأثر بكلمات وداعي؟

قالت مارين:

- لماذا لا تصحبها معك؟

- ستصير عائقاً. اعتني بها وحسب.

أملت نيلا أنهما يقصدان الكلبة. كانت نبرة مارين مع
شقيقها جليدية جداً، حتى ليصعب استيعاب ما يحدث. إنه
ذاهب أليس كذلك - أليس هذا ما تريده؟ تتساءل نيلا، ربما
ترسل لي صانعة الدُمى قريباً شيئاً يفسر هذه المرأة الغريبة. دمىة
مارين لا تحمل أية مفاتيح. تقول لنفسها، الليلة. الليلة أذهب
إلى يافطة الشمس.

عادت مارين إلى الداخل بحركة بطيئة، وكأنما البرد آلم مفاصلها. تمنعت كورنيليا سير سيدتها المتعرج. وإذ هي واقفة جوار أوتو، تشاهد نيلا قامة زوجها تتقلص شيئاً فشيئاً وعبارته تعبر الجودين بوخت. سألته:

- ألم تكن راغباً في الذهاب إلى فينيسيا؟

أجاب أوتو، وعيناه على أثر الماء:

- ذهبتُ فعلاً، يا مدام. زيارة واحدة تكفي إلى قصر دوجي.

تقول نيلا:

- وددتُ لو أراه. كان في وسعه أن يصحبني.

لمحت كورنيليا وأوتو يتبادلان نظرة، وحينما عادوا إلى المنزل، رأى ثلاثهم جاك فيليبس واقفاً عند عطفة أعلى من القناة. فشعرت نيلا أن معدتها تتلوى. يدا جاك في جيبه، وشعره جامع كعادته، وهو ينظر متجهماً إلى عبارة يوهانس المتبتدة. حث أوتو نيلا حتى تصعد سلم المدخل، انفارت قواها أمام لمستة، وأذعنت إلى طلبه، وأغلقت كورنيليا بلطف.

في الخارج، كان ليل الشتاء قد حلّ. السماء نهر عميق من اللون النيلي، والنجوم متناثرة كصايح في تياره المتدفق. جلست نيلا عند نافلتها، وتمثال بيبو في حجرها. كان جاك قد غادر موضعه منذ وقت طويل. أين يوهانس الآن، هل سيستقل واحداً من تلك الجناديل الغامضة، هل سيعود إلى قصر دوجي؟ تفكر نيلا، طبعاً سيفعل. إنه يوهانس. التفتت إلى بيت الدمى، ووضعت بيبو برفق على واحد من الكراسي المخملية. لا شيء يبقى على حاله. حاولت ألا تضليل طاثرها

الحقيقي في الخارج في ليلة كهذه، فريسة للصقور والبوم. ربما حمته صانعة الدُّمى؟ وإن كانت تتساءل من أين لها إذن بهذه الريشات الصغيرة؟ لم تحتمل فكرة أن المرأة قد تقنصه وتؤذيه.

حان وقت أن تعرف. سيكون الكالفرسترات شديد البرودة في هذه الساعة، هكذا تفكر نيلًا، وهي تشد عليها عباءة الخروج. ومن يدري كم سيستغرق إقناع صانعة الدُّمى بالخروج؟

علقت المفتاح الذهبي الصغير الذي أرسلته صانعة الدُّمى حول عنق دميته، ثم وضعت نفسها الصغيرة برقة على الشرف الحقيقي. "أنا لستُ خائفة"، قالتها جهراً، وهي تلتفتُ لترى بريقاً وجيزاً على نحر الدمية المنمنمة. إلا أنها لم تستطع التخلص من فكرة أن هذه اللقطة نحو دميته هي الشيء الوحيد الذي يضمن عودتها آمنة.

لم يسبق لنيلًا قط أن خرجت من المنزل بعد حلول الظلام. حدث في أسدلفت، أن واجهت ثعلبا ضالاً يقتحم حظيرة دجاج. قد تتخذ الثعالب في أمستردام أشكالاً مختلفة جداً. وبينما تفتح باب غرفتها بهدوء، تشم رائحة خزامى جميلة، تنتشر في المر والبخار يرطب الهواء. عمّ الصمت بقية المنزل فيما عدا صوت سكب ماء يأتي من نهاية الممر. يبدو أن مارين، التي تحتفظ بأسرارها كأسلحة، وترتدي ثياب السمور وتأكل الرنكة المقددة، تنعم بجمام متأخر.

الاستحمام في أي وقت من اليوم هو فعل باذخ، ونيلًا تعجب من مثل هذا الإفراط اللطيف. وعاجزة عن كبح نفسها، قطعت الممر بخطى غير مسموعة، ووضعت عينها على ثقب المفتاح.

كانت مارين توليها ظهرها، حاجبة نظر نيلًا عن حوض

الاستحمام، الذي يشغل معظم المساحة المتبقية في غرفتها الصغيرة. من الذي وضعه هناك، وملاه إلى حافته بالماء الساخن، ليست مارين نفسها بكل تأكيد؟ لم تكن مارين نحيلة كما ظنّت نيلا. يوجد امتلاء من الخلف في نخلديها وردفيها، يتوارى كله في العادة خلف تنورتها. ملابس مارين تسبقها، فتخبر العالم من تريد أن تكون.

لكن مارين من دون ملابسها هي مخلوق مختلف، بشرتها شاحبة، وأطرافها طويلة. وإذ تخفي لجسّ حرارة الماء، ترى نيلا أن ثديها ليسا صغيرين. من الواضح أن مارين تضع حولهما أكثر المشدّات قسوة. إنهما أكثر امتلاءً واستدارة، وكأنما يجب أن ينتميا إلى امرأة أخرى. أن يكون هذا هو جسد مارين، يبلبل ذهنها بصورة غريبة.

رفعت مارين ساقاً إلى الحوض النحاسي، ثم تتبعها بالأخرى، ثم تنزل ببطء كمن يتألم. يتراجع رأسها للخلف، تغلق عينيها، ويغطيها الماء. تبقى في الأسفل لعدة ثوانٍ، وهي تركل بساقها جدار الحوض فيما يبدو قبل أن تصعد لاستنشاق الهواء. وإذ تنساب براعم الخزامى الجافة على سطح الماء وترسل رائحتها، تدلك مارين جلدها إلى أن يصبح لونه وردياً.

خصلات الشعر المبللة على مؤخرة عنقها تبدو صبيانية، وهشة بصورة لا تُحتمل. أمامها على الرف إلى جوار الكتب وجماجم الحيوانات، وقع نظر نيلا على وعاء صغير من ملبس الجوز، يتلألأ كالجواهر في ضوء الشموع. إنها لا تتذكر مرة واحدة تناولت فيها مارين علانية فطيرة مقلية أو وافل أو كعكة، لا شيء عدا سكر آغنس الذي ابتلعه بصعوبة. هل اختلست مارين هذا الملبس من المطبخ، هل لكورنيليا دور في الشهوات

السرية لسيدتها؟

فكرت نيلا، يناسبك هذا تماماً - تخفين ملابس الجوز في غرفتك ثم تنتقدين وليي بالمرزبانية. السكر والزنكة، إن سلع مارين تعرفُ بجمال تناقضاتها المسببة للغيظ.

ولجأة تسأل مارين الهواء:

- ماذا فعلت؟ ما هذا الذي فعلت؟

يظهر على مارين أنها تنتظر، ناظرة في الفراغ حيث لا جواب يأتي. تُبقي نيلا عينيها على ثقب المفتاح، خشية أن يصدر صوت من تحرك طيات عباءتها. بعد قليل، خرجت مارين من حوض الاستحمام بصعوبة، جففت كل ساق وذراع ببطء. إنها تبدو ممتلئة الجسد مقارنة بامرأة تأكل كالعصافير، امرأة تخبر العالم أنها تحرم نفسها من ملذات الحلوى. ترتدي مارين رداءً طويلاً من الكنان، ثم تجلس على فراشها يسار الحوض مجيلة النظر في كعوب كتبها.

عجزت نيلا عن رفع عينيها عن مارين، و تنورتها المتكاملة، حزامها الأسود، عصابة رأسها بأكاليلها البيضاء. صارت نيلا تعرف ما يمكن تحت كل ذلك؛ ترى اللحم بعينيها. تمد مارين يدها، فتسحب ورقة من أحد الكتب. إنها رسالة الحب، لا شك عند نيلا - ومارين تمزقها الآن إلى قطع صغيرة حتى لا يتبقى منها سوى بتلات بيضاء تتساقط على سطح ماء الاستحمام. ثم تضع رأسها بين يديها وتبدأ في النحيب.

وصوت بكاء مارين يتدفق في أذنيها، نحمت نيلا، أن رؤيتها في هذه الحالة، ستشعرها بالقوة. لكنها حتى في هذه اللحظة احتارت. إن مارين تشبه فكرتها عن الحب، يحسن بالمرء أن

براها من بعيد، لأنها من هذه المسافة القريبة، أكثر إلغازاً.
تساءل نيلاً، كيف الشعور يا ترى، بحيازة ثقة مارين، بتخليصها
من هذا الألم والمساعدة في محوه؟

أصاب نيلاً الحزن فجأة، فأدارت وجهها. لن يحدث هذا
أبداً. حميمية هذه اللحظة تسري بتجرد في داخلها، فتقمع الرغبة
في مواجهة ظلام الخارج وبرده. تريد أن تنام. غداً، تقولها نيلاً
لنفسها. أما الآن، سترفع نفسها الصغيرة من على الشرفف،
مكللة بالمفتاح الذهبي، وتعيدها إلى بيت الدمى.

وفيما تحكم نيلاً عباؤها حولها وتوجهه إلى غرفتها، يتحرك ظل
عند قمة الدرج. مؤخرة قدم، كعب مرفوع، غائصاً من جديد
في الظلام.

من كتبت ياسمين

t.me/yasmeenbook

الصبي فوق الجليد



كانت جثة قد طفت على سطح الهيرغراخت، رجل مبتور الذراعين والساقين، بجذع ورأس فقط. اخترق الرجال الجليد لرفعه فيما مارين تشاهد، متوارية خلف الباب الأمامي. كانت القناة أرض نفايات لمدة عام، وإذ يجدها البرد الآن، تطفو المخلفات القديمة لتصبح مشهداً لبقية المدينة. مضى على غياب يوهانس أسبوع ثان، وبرز المزيد من القطع غير الجلابة كلما ازداد الماء تجهداً، أثاث محطم، مبال، وعشر قطع في مجموعة مثيرة للشفقة. فكرت نيل في تدفقتهم، ورؤيتهم يعودون إلى الحياة أصبح العذاب الذي كابده حلاً. عندما حملت السلطات جثة الرجل بعيداً وكأنه نخذ حيوان مقطوع، وتنبأت مارين أن ملابس قتلته ستظل مجهولة.

علقت:

- لقد ارتكبت هذه الأفعال في الظلام حتى تظل في الظلام. كادت نيل تشم من جديد رائحة الخزامى من حمام مارين. أما مارين نفسها، فقد بدت مشتتة الفكر، تنظر من النوافذ، وتجول بين الغرف.

وحينما أصبحت وحيدة في غرفتها، التفعت بشالين، وحملت دمية جاك فيليبس بين يديها. إن فعل هذا يبدو أسهل، الآن وقد صار يوهانس بعيداً. يتمتع جاك بليون في جسده ومعطفه الجلدي قد صنع بإتقان. شدت نيل شعره برفق، وهي تساءل إن كان جاك، حيثما هو، يستطيع أن يشعر بالألم في فروة رأسه. يبدو ممكناً. أرجو أن يشعر، هكذا فكرت نيل. وقد

راودها شعور بالقوة، رغبة في التدمير. وإذ هي تقاومها، لكنها سعيدة بها، تعيده، إلى أعلى بيت الدمى حيث يرقد على جنب واحد.

في الخارج، بدأ أطفال الشوارع يغامرون بالترحلق على القناة المتجمدة، أجسامهم الخفيفة لا تمثل تهديداً على القشرة الجليدية الحديثة. إنهم يُدكِّرون نيلا بكاريل، بانزلاقهم وترحلقهم، صارخين في فرح. فتحت الباب الأمامي، فسمعت نداءاتهم المتبادلة، كريستوفل! دانيال! بيتر! خرجت نيلا، ورفعت عينيها تلقائياً إلى السماء بحثاً عن لمحة عزيزة من الأخضر، لكنها لم تجد شيئاً.

أحد المتزحلقيين هو الولد الكفيف الذي سرق من بائعة الرنكة في أول يوم لوصول نيلا. يناديه الآخرون بيرت. يبدو بيرت ضعيف البنية، إلا أنه على الأقل يستمتع فيما يظهر بالتنفيس الذي يمنحه إياه الترحلق، مُطلقاً في كل اتجاه مع أصدقائه. عجت نيلا من سرعة ترحلقه التي تضاهي البقية، وهو يمد ذراعاً واحدة، تحسباً لأية وقعة. وتكون زلافة الأرض عامل مساواة رائعاً. يتعد متزحلِقاً، نحو شعاع الضوء المتجمد واللانهائي.

في كل مرة تعزم نيلا على الذهاب إلى الكالفرسترات، تجد لها مارين شيئاً تفعله. لم تصلها أية طرود منذ الدمى وتمثال بيبو، وجدت نيلا أن صبرها ينفد. كان يوهانس قد غاب أسبوعين عندما حلَّ كانون الثاني، فقررت أن عليها الخروج وشراء هدايا العيد لعائلتها. تسوق عبر شوارع أمستردام، فتختار سوطاً من ميلانو لكاريل ومزهرية توليب خزفية لوالدتها، أشياء تشهد على زوج تاجر ناجح. لكنها في شارع بونس مع كورنيليا، بحثاً عن أذخيز زلجيبيل لشقيقتها، لا تفك تنظر حولها التماساً لرأس

يملك شعراً أشقر شاحباً، تلك العينين المتيقظتين والهادئتين.
كادت نهلاً ترغب في أن يُحمس عليها. لعل ذلك يجعلها تشعر
بالحياة.

إنها ترغب في الذهاب إلى الكالفرسترات، لكن كورنيليا تدبر
لانتهاه مطافهما في متجر أرنود ماكفريد، قائلة:

- إن أرابيلا تستحق أفضل مخبوزات أمستردام.

- لقد منعوا خبز الزنجبيل، قالت هانا بوجه متجهم: تحديداً،
تلك التي علي أشكال بشر. ظننتُ أرنود سيبيض من شدة
الغضب. توجب علينا أن نطحن عائلات بأكلها ونبيعها فتاتاً.

- ماذا؟ ما السبب؟

- رؤساء البلدية. قالتها، وكأن هذا يفسر كل شيء. وارتعدت
كورنيليا.

أكد أرنود أنهم قد حظروا فعلاً الخبز المُشكّل على هيئة
رجال ونساء، صبيان وبنات، وكذلك أكشاك بيع الدمى في
فيزلدام. يتعلق السبب بالكاثوليك، كما يقول. الأصنام، تفوق
الروحاني على المحسوس. تقول كورنيليا بازدراء:

- إن الدمى أشياء مُسلية.

قال أرنود:

- إن هذا لا يجعل الكنيسة على صواب. فكّرني في الثمن.

- سيكون علينا فقط أن نشكلها على هيئة كلاب. قالت هانا
المغامرة دوماً.

عوضاً عن خبز الزنجبيل، تبتاع نهلاً لأرابيلا كتاباً يحوي صوراً
للحشرات. تفترض أن أختها كانت لتفضل بسكويت أرنود

الفاخر، لكنها تفكر أن أرابيلا يحسن بها أن تحظى بكتاب
ويتعلم قليلاً. لم تكوني لتفكري هكذا في آب الماضي، تقولها نيلا
لنفسها. إنها تشعر بالاختلاف، كأنما شيء يُحرِّكها والتقطت
هي الطعم.

في المنزل، قومت مارين السوط:

- بكم اشتريتِ هذا؟ إنه مجرد طفل.

كانت فرحةً بمشترياتها، وتشعر بالقوة والثراء، علقت نيلا:

- هذا ما فعله يوهانس مع بيت دماي، إنني أحذو حدوه
لحسب.

مع حلول الأسبوع الثالث من غياب يوهانس، كانت رقاكات
الثلج قد تدلّت من كل باب، ونافذة، وحتى بيوت العنكبوت
في الحديقة، شبيهة بإبر بلورية صغيرة. استيقظ أربعتهم وهم
يشعرون بالبرد، احتموا بفرشهم مُتجفنين. تاقت نيلا إلى الربيع،
والزهور، ورائحة الأرض المحروثة، والحيوانات الجديدة،
والرائحة الدهنية النفاذة في منابت صوف الحمل. تنتظر عند
الباب ترقباً لأي شيء يصل من صانعة الدُمى، لكن شيئاً لم
يأت. وإذ يتذكر تعليق هانا عن رؤساء البلدية، وحظر الدمى في
أعياد الميلاد، تشك في أن صانعة الدُمى سترسل أي شيء مرة
أخرى.

عندما عادت إلى غرفتها، وجدت مارين مُقحمة يديها في
بيت الدمى. كانت رؤيتها هناك صادمة، فهرعت نيلا نحوها،
محاولةً لإغلاق الستار.

- لم تستأذني في الدخول!

أجابت مارين:

- لا، لم أفعل. أتساءل كيف الشعور بذلك. كانت تمسك شيئاً في يدها، وبدت مضطربة:

- بترونهلا، هل أخبرت أحداً عنا؟

فكرت نيهلا، أرجوك، يا رب، ألا تكون قد وجدت دميتها. فتحت مارين كفها وعليها يكون جاك فيليبس، جميلاً كما هو في الحقيقة: ما الذي تحاولين فعله بنا؟

- مارين...

- في وسعي تماماً أن أفهم الطلبات المحدودة للأثاث والكلاب. لكن دمية لجاك فيليبس؟

وأمام زهول نيهلا، جذبت مارين النافذة بعنف ورمت جاك منها. فركضت إلى النافذة البائية لتشهد رحلته المتخبطة، التي تنتهي به في منتصف القناة المتجمدة تماماً، جامداً ومنفياً في مساحة شاسعة من الأبيض. يهيج في داخلها خوف. وقلت:

- ما كان يجدر بك أن تفعل ذلك، يا مارين. ما كان جديراً حقاً.

انفجرت مارين قائلة:

- لا تلعب بالنار، يا بترونهلا.

"في وسعي أن أقول لك الشيء ذاته"، هكذا فكرت نيهلا، وهي تنظر بأثمة إلى الدمية المهجورة. هتفت، بينما مارين تغلق باب الغرفة:

- إنه بيت دماي، وليس بيتك.

ظل جاك في الخارج على الجليد. وحاولت نيهلا إقناع ريزيكي

بإحضار الدمية بين فكئها، لكن الكلبة تدمدم أمام المنظر، وهي تركض مُتصباً شعرُ عنقها. أرادت نيلا أن تعبر القناة المتجمدة بنفسها، لكنها ليست بخفة بيرت وبقية الأطفال، وهم ما عادوا هنا لتطلب منهم. تصورت نفسها تسقط في القناة وتغرق، وكل ذلك لإنقاذ دمية، مدفوعة لهمايتها وإن كانت لا تعرف السبب. وكان إبقاء جاك في بيت الدمى هو آمن شيء، إذ في وسعها مراقبته. وعلى مريض تعود نيلا، وهي تلعن مارين في سرّها.

في تلك الليلة، غطت نيلا في نوم مضطرب، كلمات رسالة الحب التي مزقتها مارين تطفو على سطح ذاكرتها. ينطق بها جاك، لهجته الإنكليزية ترتطم بالكلمات كما يفعل مركب شراعي صغير مع أمواج هائجة. أنتِ نور الشمس في النافذة التي أقف أمامها، مستدفئا... شِيراً شِيراً منك، أحبك... ألف ساعة. يركض جاك عبر أروقة عقل نيلا، مبتلاً من الجليد، ويعتمر فوق شعره المجدد واحدة من جماجم حيوانات مارين. استيقظت نيلا مجفلة، حلها حي حتى أنها كانت مُقتنعة بوجود جاك في ركن الغرفة.

كان صباح اليوم التالي هو عيد القديس نيكولاس، السادس من كانون الأول. عندما فتحت نيلا ستاؤها ونظرت إلى الأسفل، حبست أنفاسها في حلقها. لأن دمية جاك تجلس متكئة على قائمة بابهم، مُستمتعة بالضوء الجليدي.

المتعمّدة



حينما خرجت نهلاً مُتسللة لأخذ الدمية المتجمّدة من على عتبة المدخل، كان الشارع خالياً. والضباب يعلو كأنفاسٍ دوّامة فوق الجليد.

- أين الجميع؟ هكذا سألت على مائدة الفطور، بينما جاك مُخبأً في جيبيها. لم تقل مارين شيئاً، وهي تفضص بأناقة سمكة رنكة.

- لقد نجح رؤساء البلدية مرة أخرى. قالها أوتو بلهجة ثقيلة، وهو يدخل حاملاً لوحاً عامراً بالهيريبرود، وقرصاً طويلاً من جنب الجوده الأصفر لنيلا. تبرمه من بيروقراطية الدولة يكاد يبدو متأصلاً، إنه يشبه يوهانس.

تركت مارين الرنكة وقلّبت زبديّة من منقوع الفواكه، أناملها زرق على الملعقة. تقلّب وتقلّب، مُحدّقة في منقوع البرقوق المتلائي. وتقول: - "لقد أعلنوا تحريم الدمى والعرائس،" شعرت نهلاً بدمية جاك المتجمّدة والملامسة لساقها، تلك القطعة المحرّمة تكوّن دائرة بلل غامقة على الصوف. أردفت مارين: "الكاثوليكية. الوثنية. محاولة شنيعة لاستملاك الروح."

قالت نهلاً:

- تتحدّين وكأنك تخافينها. وكأنك تخالين أنها ستبعث إلى الحياة.

علقت كورنيليا:

- حسناً، لا أحد يعرف. ومثل المرأتين الأخريين، كانت متلحفة بطبقات من الثياب، متدثرة جيداً بشالها الهارلمبي.

ثارت مارين:

- لا تكوني مضيضة. تخيلت نيلا ذرات سكر صغيرة مُتجمعة كنتف فلعج في زاوية فم مارين الرصين وهي تنتحب في حوض الاستحمام القادم. إن مارين إذ ترتدي فروها السري، وتأكل خبيثتها من ملبس الجوز، وتمحي شقيقها الآثم، فهي تعيش في عالمين. هل استقامتها العننية الثابتة هي حقاً خوف من الرب، أم خوف من نفسها؟ ما الذي يكمن نابضاً داخل ذلك القلب الحصين؟

كان الهواء المتجمد يصفر من خلال شقوق الجدران في حجرة المائدة. ويمنح المنزل شعوراً أكثر برودة مما هو فعلاً، وكأن هواء الليل قد تسرب إلى الداخل وظل هناك. تقول نيلا:

- المدافئ مُضَرمة، لكنها لا تحدث أدنى فرق. هل لاحظتم ذلك؟

قال أوتو:

- السبب هو قلة مخزوننا من الخشب.

ردت مارين:

- لن يضيرنا أن نجرب البرد.

سألها نيلا:

- ولكن، هل لا بد لجميع التجارب أن تكون شاقة، يا مارين؟

التفتوا جميعاً إلى مارين، التي قالت:

- في المعاناة نجد ذواتنا الحقيقية.

نزلت نيلا وراء كورنيليا تلوذ بدفء مطبخ الخدمة، وجاك ما يزال في جيبتها. وضعت كورنيليا وعاء مربى الخوخ بقعقة ولوجت بشوبكٍ للانقضاض على عجين تصنع منه فطيرة. لحق بهما أوتو، وتناول خرقة لتلميع طابور من أحذية يوهانس قصيرة العنق والمصطفة على طول باب المطبخ:

- أوتو، هلا اختلست بعض الخث من العلية؟ لن تلاحظ مدام مارين. "أوما برأسه في شرود. علقت كورنيليا: إنها تحب الحرمان، لكننا نحب المتع حتى النخاع. أراهنك بكل المقالي التي أملكها أن خلف الأبواب المغلقة، تبتلع بطون النساء بسكوت الزنجبيل الذي على هيئة بشر، مهما يقل رؤساء البلدية. أضافت نيلا:

- أويقضم الأزواج أشكلاً على هيئة زوجاتهم،" نكتتها ثقيلة، علقت غير مفهومة في الهواء؛ هذا الحديث عن الزوجات، عن الرجال في هيئة طعام تمسك به الأيدي. نيلا التي لن يقضمها أحد، يتضرج وجهها من الحياء. وحتى تصرف عنها الفكرة، تخيل مشاهد أكثر بهجة خلف أبواب غير بابهم. احتفالات منزلية، بيوت مزينة بسلاسل ورقية وفروع تنوب، كعكات طازجة من الفرن، ضحكات ونبذ قرفة ساخن. إن هذا يحدث في كل أرجاء المدينة اليوم، عيد القديس نيكولاس، شفيع الأطفال والبحارة يُحتفل به في كرنفال من التحدي الخفي. القديس نيكولاس يخصصهم. كما شهوات البطون، كما الذنوب.

يصعب الآن تخيل الجوس الثلاثة يقطعون الصحراء الحامية ليسجدوا للسيح المرتقب. تريد نيلا أن تفتح الأبواب والنوافذ، حتى تدخل روح التجلي. نافذة مفتوحة قد تحافظ على العقل

مفتوحاً. قالت كورنيليا:

- اقتربت أعياد الميلاد، وبعدها عيد الغطاس. كان في صوتها سعادة خاصة.

- وماذا في عيد الغطاس؟

- يسمح لنا السنيور، أنا وتوت بارتداء ملابس النبلاء، وتناول الطعام على مائدته. لا أعمال منزلية طوال اليوم. ثم تُردف: ولكن، يظل عليّ أن أصنع الطعام. مدام مارين لا تقبل أن يتعدى الأمر هذا الحد.

- بالطبع لا.

قالت كورنيليا:

- سأصنع كعكة الملك أيضاً. سأخفي قطعة نقدية في العجين. ومن تقع تحت أسنانه يصبح ملكاً ليوم واحد.

ضحك أوتو، في صوته أثر مرارة. يجعل رأس نيليا يلتفت، هذا الصوت لا يشبهه أبداً. وعندما تنظر إليه، يتجنب النظر إليها.

قالت مارين، وهي تنزل سلم المطبخ:

- وصل هذا من أجلك.

يهفو قلب نيليا بوصول شيء جديد من صانعة الدُمى، لكن الكتابة على الوجه تهيل عليها كآبة حتى قبل أن يُفتح الخطاب. إنه خط والدتها الرفيع، تدعو ابنتها وزوجها لقضاء بعض أيام العيد في أسدلفت. كاريل يشتاقي إليك. الخطوط والالحناءات تذكير مؤلم بحياة لم يعد لها وجود عند نيليا.

سألتها مارين:

- هل ستذهبن؟

جاءت نبرة التوسل في سؤالها بمنزلة مفاجأة. شيء ما تسرب في مارين خلال هذه الأسابيع الثلاثة، وصار لها وسط نوبات المزاج الحاد هشاشة جديدة. فكرت نهلاً، إنها حقاً تريدني أن أبقى - وهل سأطيع حتى أن أعود، بطني المسطحة محاطة بثوب من الحرير البنغالي، لا طفل كبير أتباهى به، وزواجي نصر أجوف؟ يستطيع يوهانس أن يؤدي دور الزوج المحب من دون كثير جلبة. إنه يكون واثقاً من نفسه عندما يتعلق الأمر بإظهار حصافته، أما أنا فتهرب مني - تتساقط من بين كفيّ حالما أرى وجه أمي المتفائل.

أجابت نهلاً:

- كلا. أظن من الأفضل أن أبقى هنا. سوف أرسل الهدايا التي ابتعتها. ونذهب في العام المقبل.

قالت مارين:

- سنقيم ما يشبه الوليمة.

- لا رنكة؟

- أبدأ.

حلق الوجدان بين المرأيتين كزوج من فراشات الليل، شاحناً الجو بنوع جديد من الطاقة.

أعادت نهلاً جاك إلى مكانه في بيت الدمى بمشاعر مختلطة. مازال يبدو لها من الأفضل أن تبقى حيث يمكنها مراقبته، مع أن وجوده يجعلها تشعر بالتوتر لاحقاً في المساء، يأتي عازفون محظورون ويمجازفون بالغناء أمام منزلهم طلباً للمال، واقتربت

نيلا من نافذة الدهليز للاستماع إلى غنائهم المنخفض. تردد أوتو وكورنيليا، يتقاسمهما التوق لمشاهدة العازفين، والخوف مما قد تقول مارين. قالت كورنيليا:

- قد تأتي ميليشيا سانت جورج. يجدر بك رؤية سيوفهم. إنهم يسعون لحفظ السلام لكن الأمر قد لا يخلو من الدماء.

قالت نيلا بجفاف:

- كمانات محطمة؟ أطلع إلى رؤية ذلك.

ضحكت كورنيليا، وقالت:

- يتكلمين مثل السنيور.

تُحذّر مارين نيلا من أن عليها إغلاق النافذة وإسدال الستائر:
- سوف يراك الناس، يتدلين من النافذة كغسّالة ملابس -
أو أسوأ،" تقولها بهسيس بينما تهول كورنيليا مُبتعدة. تدرع المكان خلف نيلا في ظلام البهو غير المضاء، ولكن فيما تواصل نيلا الاستماع إلى العازفين، كذلك يفعل أوتو، وهو يقف أبعد قليلاً.

مع تسارع وثيرة المزمار، ضرب الطّبّال جلد الخنزير المشدود بإيقاع مُبهج ولجوج، تماشياً مع دقات قلب نيلا. كان أوتو قد قال إنه لا يجدر بها أن تستفز خلية النحل، لكن جزءاً منها سيظل دائماً تلك الفتاة الريفية. تفكر في جاك في الأعلى، في جميعهم، مُثبتين في تلك الغرف المنمنمة، ترقباً لحدوث شيء..
قررت نيلا: " لا. لن أخاف شيئاً قد يصيبني بلذعة".

الثعلب مسعور



صباح اليوم التالي، كانت مُنتعشة جرّاء تمردّها بالاستماع إلى العازفين وقرارها البقاء في أعياد الميلاد، خططت نيلاً للذهاب إلى الكالفرسترات مع أطول خطاب كتبته حتى الآن إلى صانعة الدُمى.

المدام العزيزة (وأعلم أنكِ مدام - لديكِ جيران مُستعدون للتكلم)،

أشكركِ على الدُمى الثمانية، وعلى نموذج بينغايّ المصغّر. إنني واثقة أنها أنتِ من كانت على جسر الهيرغراخت، تراقب بؤسي وأنا أدرك خسارتي لآخر صلة مُتبقية لي من طفولتي. هل ظهور طائري الصغير من جديد تقديم للوإساة أم درس قاسٍ؟

هل تعرفين ما فعله مندوب توصيلك، ما سببه من تعاسة؟ أقرض أنها أنتِ من أعاد دمية الإنجليزي إلى عتبة منزلنا - أكان ذلك من باب اعتزازك بعملكِ أم انزعاجك، لا أعرف بالتحديد. أنا آسفة لإلقاء تحفك الفنية على الجليد، لكن نواياكِ تظل لغزاً، وهذا يثير توتر بعض الأشخاص.

يقولون إن رؤساء البلدية قد حظروا تصوير البشر بكل أشكاله. أتساءل هل تراكِ تحشين غضبهم - العوالم التي تصنعونها، أصنامكِ الصغيرة التي تسلت إلى عقلي ولا تنوي الرحيل. لم ترسلي لي شيئاً منذ فترة، ورغم حقيقة تخوفي مما قد ترسلينه، إلا أن ما يقلقني أكثر هو أن يتوقفني تماماً.

أظنه مازال في مقدوري أن أطلب الدُمى، أليس كذلك؟
وعليه، تكلمي بصنع لوح فيركيرشيبيل، لعبتي المفضلة في
التخطيط والحظ. لن أعود إلى منزل أهلي في أعياد الميلاد،
وحياتي يعوزها تسلية كهذه. لذلك، أسعديني بنسخة مصغرة.

يوماً ما، سنلتقي، أنا وأنت. أصر على ذلك. أنا واقفة من أنه
سيحدث. أشعر أنكِ ترشدينني، لنجمة ساطعة، لكن أملي يشوبه
هلع من ألا يكون نوركِ طيباً. لن يهدأ لي بال حتى أعرف
عناكِ أكثر، ولكن إلى ذلك الحين، فلتكن الرسائل الخاطبة
وسيلتنا لفهم أفضل.

مرفق بالخطاب إذن صرف آخر بنخسمائة جلد. اعتبره
الزيت الذي سيلين المفاصل العنيدة لباب منزلك.

مع شكري وانتظاري،

توقع نيلا الخطاب باسم: برونيل براندت.

نظرت من نافذتها لتستمع بالبساط الأبيض الذي صنعه
الجليد. تكون المدينة جميلة وهي مُترعة بالصقيع هكذا، الهواء
رقيق، والطوب أشد حمرة، وأطر النوافذ المطلية تشبه أعيناً
صافية. وأمام دهشتها، رأت أوتو يمشي على عجل حدو القناة.
أثار ذلك فضول نيلا، فوضعت الخطاب في جيبها وتبعته
بسرعة، مُهملة الفطور أو ارتداء معطف، ومُتسللة من المنزل في
خفية عن الأعين.

عبر أوتو ميدان دام، متجاوزاً مبنى الستدهاوس الجديد
الشاخص في الأفق، حيث يمتلك فرانس ميرمانز منصباً، وربما
أنه حتى يعمل هذه الساعة. "بغ سكر زوجته، يا يوهانس". هكذا
فكرت نيلا، مُرسلة إليه برسالة صامتة وهي تتجاوز الرمال التي

ثُرت لتسهيل السير فوق الحصى. عادت إليها ذكرى مارين في حوض استحمامها، سائلة الهواء: "ماذا فعلت؟" كان الأفضل لو أن آل ميرمانز لم يظهروا في حياتهم قط.

يبدو أن سكان أمستردام يستغلون الوضع بصورة كاملة، بعد القمع في عيد القديس نيكولاس. الشمس قوية، ودقات أجراس الكنيسة القديمة تصل إلى سطوح المنازل المتلاثلة، والصوت خلاب. أربعة أجراس عالية تجلجل في السماء، مُعلنة الولادة المرتقبة للطفل المقدس، وتحت صخبها يدق جرس واحد أكثر خفوتاً - صوت الرب، عميق وحقيقي وممتد. يبدو أن الموسيقى يمكنها أن تصدح عالياً، باسم الطاعة الجمعاء.

تملاً الهواء رائحة طهو اللحم، و سار أوتو إلى جوار كشكٍ للنبيذ الحار شيدٍ بسفور قبالة مدخل الكنيسة الأمامي. ينهر القس بيليكورني الخمارة، بينما ينظر الأمسترداميون بلهفٍ إلى المسند الذي يتقوس أسفل زبدية النبيذ.

تمم رجل:

- إنه أضيّق من مؤخرة خنوص. النقابة جهزته، ووافق عليه رؤساء البلدية!

أجاب صديقه مضافاً غطرسة على صوته:

- الرب فوق النقابات، يا صديقي.

- هكذا يريدنا بيليكورني أن نفكر.

- هوّن عليك. انظر. قالها الرجل الثاني، وهو يكشف خلف

معطفه عن قنيتين صغيرتين تحويان سائلاً أحمر يرسل بخاراً:

- حقّ أني طلبتُ إضافة فص برتقالة إليه.

هرعا بعيداً إلى أجواء أقل صحة، كانت نيلا مسرورة لأنهما أقلتا، وسُرت أكثر لأنهما لم يتوقفا للتحديق بقم فاغر في أوتو. استقرت نظرة بليكورني عليها، لكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ. دخل أوتو إلى الكنيسة القديمة، خافضاً رأسه. بدت نيلا مرتجفة، وهي تخطو إلى الداخل، إذ تبدو الكنيسة أبرد من الهواء. وعلى الرغم من أنها تتبع أوتو كما يفترض، إلا أنها وجدت نفسها تجيل ناظريها، بحثاً عن رأس أشقر فاتح، منارة ذهبية وسط الألوان البنية والبيضاء الباهتة داخل الكنيسة. ربتت على الخطاب في جيبها. ألا تقوم صانعة الدُمى في موسم الأعياد هذا، بزيارة أخرى - لتذكر عائلتها في النرويج، لتصلي طلباً لرحمة رؤساء البلدية؟ بدأت خيوط الخيال في عقل نيلا تغزل، وتطرز محادثات، رُقِعَ تخطيطها معاً غرز فضفاضة. من أنت، لماذا أنت، ماذا تريدن؟ المشكلة هي أن التوجه مباشرة إلى صانعة الدُمى، بدا وكأنه يدفعها إلى الاختفاء. ومع ذلك، فهي موجودة أغلب الوقت، تراقب وتنتظر. تتساءل نيلا أيهما الصياد، وأيها الفريسة.

أبقت عينيها على أوتو. المقاعد التي تلتف حول المنبر شاغرة، خلا شخص وحيد هنا أو هناك ممن لا يملكون على الأرحم مكاناً آخر يذهبون إليه. عادةً، ما تُقام العبادة في جماعة، بأفراد حريصين على أن يراهم الجميع يصلُّون وكأن هذا سيضفي نقاء أكثر على صلاتهم. اتخذ أوتو مجلساً، وفي غفلة من عينيه، لفت نيلا من حوله لتراقبه من خلف عمود.

تحركت شفتاه في لهج. ليست هذه صلاة ساكنة، بل هي أقرب إلى الاضطراب. إن وجود أوتو هنا، بمفرده ما الذي دفعه إلى ضرورة أن يشاهده الناس في بيت الرب، خاصة

وهو من هو، والأشياء التي قد تحدث؟ رأت نيلا تشابك يدي أوتو والذعر في جسده. شيء ما يمنعها من الاقتراب نحوه. لن يكون من الصواب مقاطعة شخص في تلك الحالة.

ترتعش نيلا، وعيناها تحيدان إلى الكرسي، تتسلقان الجدران البيضاء، إلى السقف المغطى بالتصاوير الكاثوليكية القديمة. ترغب جداً في أن تكشف صانعة الدُمي عن نفسها. ربما هي تختبئ هنا الآن، تراقب كلاً منهما؟

من خلفها يطلق الأرغن بالعزف، مدوياً يريج نيلا حتى النخاع. إنها لا تحب صوت الأرغن الصاخب، وتفضّل عليه دقّ العود الناعم، وانسيابية المزمارة المبحوحة. تسللت قطة كانت قد دخلت للاحتماء من البرد، بين القبور، وقد انتصب شعرها. رفع أوتو عينيه، وتوارت نيلا خلف العمود. تغطي أذنيها أمام دوي الأرغن وأغلقت عينيها، والدوار يسيطر عليها. لمست يدك كم ثوبها. أغلقت نيلا عينيها أكثر، لا تجرؤ على النظر. حانت اللحظة - إنها المرأة، لقد أتت.

قال صوت:

- مدام براندت؟

فتحت نيلا عينيها. كانت آغنس ميرمانز تقف أمامها، أنحف من آخر مرة رأتها، وجهها العادي قد تقلص، وشع بياضاً وسط لفاع من أرانب ووعالب. ظلت قبضتها على كمّ نيلا. وقررت: - مدام براندت؟ هل أنتِ على ما يرام؟ إنكِ حتى لا ترتدين معطفاً. ظننتُ لوهلة أن الروح القدس قد هبطت عليك!

- مدام ميرمانز. لقد جئتُ - لأصلي.

تأبعت آغنس ذراع نيلا. وهمست، وهي تومئ خلف العمود
حيث يجلس أوتو:

- هل تراقبين وحشك؟ أحسنت. لا ضير في المبالغة بالحدر،
يا نيلا. ما الذي حدث وجعله بهذا التشتت؟ وأطلقت آغنس
ضحكتها الجافة. "تعالى،" قالتها، وهي تلف أحد ثعالبها حول
نيلا، وتضمها إليها. تشم نيلا رائحة دهن الفواكه مرة أخرى.
الفراء بارد برودة رطوبة.

علقت آغنس وهي تمسّد الفراء حول عنق نيلا:

- لم نعد نرى مارين كثيراً في الكنيسة. بدت عاجزة عن
إبقاء أصابعها بلا حركة، وتلاحظ نيلا كم هي جرداء، بخلوها
من الخواتم. بدت آغنس من دون خواتمها شبه عارية. توقف
الأرغن فجأة، كانت آغنس متقلقلة، وكأن شيئاً يتصدع عميقاً
تحت مظهرها المصقول بإتقان. تستطرد: - ولا رأينا براندت.
ولا رأيناك.

- إن زوجي مُسافر.

اتسع منخارا آغنس، وقالت بدهشة:

- مُسافر؟ لم يخبرني فرانس.

- ربما لا يعلم. أعتقد أنه يياشر مصالحك، يا مدام. لقد ذهب
إلى فينيسيا. حاولت سحب نفسها: عليّ العودة، يا مدام ميرمانز.
إن مارين ليست على ما يرام.

مع أنها ترغب في الهروب، إلا أن نيلا ندمت فوراً على حجتها.
اتسعت عينا آغنس. وقالت:

- لماذا؟ ما خطبها؟

- داء شتوي.

قالت آغنس:

- لكن مارين لا تمرض أبداً. في وسعي إرسال حكيمي، وإن كانت مارين لا تثق بهم أبداً."

انطلقت أنغام الأرعن من جديد، مُتساقطة الواحدة تلو الأخرى، على آذان نيلا في نشاز ساحق. "سوف تُعافي، يا مدام. إنه موسم نزلات البرد."

وضعت آغنس يدها على ذراع نيلا مرة أخرى، وقالت:

- ما سأقوله قد يدفع مارين إلى القفز من فراش مرضها. بلغها هذا: إن ميراثي كله ما يزال في مستودعائه بالجزر الشرقية." صوتها أقرب إلى فحيح. "حقول القصب تلك غير مضمونة، يا مدام - من يدري متى يأتي المحصول القادم؟ لم يبع زوجك مخروطاً واحداً مما نجحنا في تكريره. ويظهر الآن أنه ذهب إلى فينيسيا خالي الوفاض؟ نحن في حاجة إلى هذا المال."

- سيقوم بشحنه، أنا واثقة أن كلمته كافية...

- لقد ذهب فرانس إلى المستودع. رأى بعينه. كدتُ لا أصدقه عندما أخبرني. مكّسة حتى السقف! قال، لن تعيش طويلاً، يا آغنس. ستتعفن قبل حتى أن نحصدها."

طرقت أنغام الأرعن صدر نيلا وهي تُلقى انفعال آغنس المتصاعد. نظرت خلف العمود إلى جهة أوتو، لكنه كان بلا أثر.

- اطمئني، يا مدام...

فثارت آغنس:

- لن أسمح لأحد باستغلال زوجي! لم يكن واقعاً في أن يوهانس براندت هو أفضل رجل لهذه المهمة، لكنه إصراري. أنا. يظن آل براندت أن في إمكانهم الحصول على كل شيء، لكنه ليس كذلك. لا تسخروا منه، يا مدام. ولا مني. وانسحبت بالسرعة نفسها التي اقتربت بها. شاهدتها نيلا تهرع في ممرات الكنيسة، محدودة وحركاتها خرقاء على غير العادة. ثم فتحت الباب الجانبي الصغير، واختفت.

قررت نيلا أن أفضل ما تفعله هو العودة إلى المنزل وإخبار مارين بهذا الحديث المقلق. إلا أنها ستكون المرة الثانية التي تبقى فيها صانعة الدُمي من دون زيارة. سأرسل كورنيليا بخطابي، هكذا فكرت، ورأسها يدور من أثر غضب آغنس. غادرت الكنيسة متوجهة صوب الهيرغراخت.

وبينما هي تقترب من المنزل متعجّلة لإخبار مارين، أدركت أن هناك خطباً ما. الباب الأمامي مفتوح على مصراعيه، فم فاغر على البهو غير المضاء. تنأى إلى سمعها صوت الكلبتين تنبحان، ولكن لا أصوات بشرية. تردد، ثم صعدت سلم المدخل بخطى غير مسموعة ووقفت إلى جانب الباب.

رأت حذاءه أولاً. جلد عجّل بالغ النعومة، لكنه مكشوط الآن. رؤيته أصابت معدتها بالتقلص. كان جاك فيليبس، مسعوراً، والشر مكتوب على وجهه، يذرع بلاط الدهليز.

تصدّعات



وقفنا وجهاً لوجه الآن. كان جاك طليق اللحية، ضعيف البنية، بشرته باهتة بعد أن كانت مشرقة ذات يوم. في أسفل عينيه المُحدّقتين بقع أرجوانية. لكنه ظلّ محتفظاً بحضوره، بمعطفه الجلدي، وذلك البوط الذي دخل الآن مُتحمماً. كان جاك في آخر مرة رأته فيها نيلا من هذه المسافة القريبة، عاري الصدر، ويلبع بعرق زوجها، تلك الذكرى جعلت أنفاسها تُتقطع.

أسرعت كورنيليا من سلم المطبخ، وحاولت دفعه من الباب الأمامي.

هتف جاك، رافعاً يديه، بريئاً:

- مهلاً، أحمل شيئاً من أجلك، يا مدام. "تذكرت نيلا لهجته الإنجليزية الغربية، وعجزه عن الالتزام بتموجات اللغة الهولندية وتهاديها. مدّ يده داخل سترته فتشجعت كورنيليا مثل قطة. وقالت:

- لقد عدتُ إلى توصيل الطرود.

قالت نيلا:

- ماذا؟ يُفترض أن تحرس سكرنا. قال يوهانس...

- أوه، إنك تزعقين مثل فأرة.

وقف ماداً يده، وكأن الطرد الذي يقدمه سيخفف من وقع إهائته. الرزمة أصغر من آخر مرة، لكنها هناك، رمز الشمس

الجليّ بالحبر الأسود. انتزعتها نيلا منه، من غير أن تدع أصابعه تلمسها.

هرولت كورنيليا إلى الطابق العلوي ووجهها ممتنع من الخوف. قال جاك:

- أحتاج إلى رؤيته. هل عاد؟ ثم نادى في الممر المؤدي إلى حجرة المكتب: يوهانس، هل أنت هنا؟

في الطابق العلوي، فتح باب وسمعت نيلا هسيس كورنيليا. قال جاك:

- هل حقاً ذهب إلى فينيسيا؟ هي عادته.

تضرج وجه نيلا، وهي تستشعر العلاقة الحميمة بين الرجلين، شيء كانت قد أنكرته.

- إنه يستبدل ميدان دام بريالتو، ابتسم جاك مُظهراً أسنانه، سمك طازج أكثر، اقترب منها، وفي صوته إصرار مُهدئ: هل صدقته، عندما قال إنه ذاهب إلى هناك للعمل؟

- كيف تجرؤ على المجيء...

- إنني أعرف عنه أكثر مما قد تعرفينه أبداً، يا مدام. لا أحد يعمل في فينيسيا. ميلان، ربما. لكن فينيسيا ليست إلا قنوات مائية مظلمة ومومسات، وفتيان كالعث، يطيرون إلى أكثر الآلهة إضاءة.

شعرت نيلا بجسدها خفيفاً، مفتوناً بصوت جاك. ربما كان فيما مضى ممثلاً بارعاً، بلغته الأم. شعرت بقلبها في حجم حبة بازلاء يقفز داخل ضلوعها.

- ما الذي يحدث هنا؟ رن صوت مارين من أعلى الدرج،

لماذا ما يزال باب المنزل مفتوحاً؟

خطا جاك إلى دائرة الضوء عند سماع صوتها، باسماً ذراعيه. فكرت نيلا، إنه حقاً جميل جداً، وجامع جداً. لا تستطيع إزاحة عينها عنه. أمرها مارين:

- بترونيلا، أغلقي الباب.

- لا أريد أن أحبس مع...

- أغلقيه وحسب، يا بترونيلا. الآن.

بيدين مرتجتين، أغلقت نيلا الباب الأمامي. وأصبح الدهليز حلبة نصف مضاءة، حلبة ماذا بالضبط، لا تحمل التفكير في الإجابة. أخذت تتساءل هل يوهانس مسرور يا ترى بابتعاده عن هذا الفتى الخشن، أم هو يشترق إلى حضوره الساحر، ذلك الصوت المتوثب. صوت شيء يُنتزع من مكانه، يجعل نيلا تستدير.

كان جاك قد غرز خنجراً رفيعاً وطويلاً في لوحة لطبيعة صامتة. فانشقت زهورها وحشرات الوفيرة مثل جرح، بتلاتها تبدل بصورة خرقاء. أطلقت كورنيليا، التي تقف على الدرج خلف مارين، أنين من يشعر بالغثيان.

صرخت نيلا في صوت حاد:

- توقف عن هذا! ثم تفكر، تحكمني في صوتك، إنه مُحق، أنتِ فأرة. لست سيّدة هذا المنزل. معدتها تميع وفها يحف. "أوتو"، حاولت أن تتاديه، لكن صوتها لا يتجاوز الهمس.

- سيد فيليبس!

هذا البرود في صوت مارين يقطع الدرج بطوله، في المقابل

يجبر جاك على التوقف. من الواضح أن جاك ليس الممثل الوحيد في المكان. تبدّل مارين، مُسلطة كل تركيزها على الفق ذي الشعر الداكن الذي اقتحم مملكتها.

سألته:

- كم مرة أمرتك ألا تقترب من هنا؟ وتردد صدى كلماتها، مُضاعفاً التهديد المُنبعث من حضورها.

تراجع جاك إلى منتصف البهو، ونزلت مارين وقفت في نهاية السلم متجاهلة اللوحة بالكامل. أرخى ذراعه التي تحمل الخنجر بمخول، وبصق على الأرض.

قالت بغضب:

- امسحها.

لوح جاك بالخنجر أمام جسدها:

- إن أخاك لن يمانع في مضاجعة كلب، طالما أن الثمن مناسب."

- سيد فيليبس...

- يقولون إنه يجامعك أيضاً، وإنه الوحيد الذي سيفعل.

رفعت مارين يدها. وقربت كفها المفتوح رويداً من رأس خنجره، وقالت:

- يا لها من إهانة قديمة مُبتدلة. تراجع جاك قليلاً، لكن المسافة بين طرف سلاحه الحاد وجلد مارين لا تزيد على بوصة واحدة: إلى أي حد أنت شجاع، حقيقة، يا جاك؟ هل تجرؤ على إراقة دمي؟ هل هذا ما تريد أن تفعله؟

أحكم جاك قبضته على الخنجر، وعندما وضعت مارين باطن كَفِّها على حافته مباشرة، لوح بالنصل بعيداً، وقال:

- عاهرة. لقد أخبرني أنه لم يعد في وسعي العمل لحسابه. من كان صاحب هذا القرار؟

- تعال، يا جاك، قالت مارين، بصوت هادئ ومُتَعَقِّل:

- - لقد مررنا بهذا من قبل. كفاك صبيانية، وأخبرني كم سيكون ثمن رحيلك.

- أوه، أنا لا أريد أموالك. جئتُ لأريكِ ما الذي يحدث عندما يتدخلين. صرخ، ورفع الخنجر إلى نفسه، وقبل أن تتمكن نيلا من استيعاب الأمر، صفعته مارين بقوة على خده، فأسقط ذراعيه، وحدق فيها مدهولاً.

- لماذا أنت بهذا الضعف؟ تقولها مارين بهسيس، وإن كان في وسع نيلا أن تراها هي أيضاً ترتجف: لا يمكن الوثوق بك لساعة واحدة.

فرك جاك وجهه، مُستجعماً نفسه، لقد دفعته للتخلص مني.
تقول مارين:

- لم أفعل قط. إن يوهانس رجل حر وأنت من اختار أن يصدّق ما يقول. ثم تضيف مشيرة إلى الخنجر: كان هذا ملكاً لأبي.

- حسناً، أعطاني إياه يوهانس.

من جيبتها، تُخرج مارين رزمة مجمدة من أوراق الجلودر. تضعها في يده، فتلمس أصابعها راحته. وتقول: لا شيء لك في هذا المكان.

مسد جاك الجلدرات بتفكر. وعلى حين غرة، يسحب مارين
إليه ويقبلها بقوة على لها.

همست نيللا:

- رباه.

تحركت كورنيليا ونيللا في وقت واحد نحو مارين، بفكرة
واحدة هي التفريق بينهما - لكن مارين ترفع يدها كمن تقول،
لا تقتربا - هذه المقايضة يجب أن تتم.

توقفت كورنيليا في ذهول مرعوب. ومارين، متييسة، لا
تضع ذراعيها حول الفتى، لكن القبلة تبدو كأنها ستدوم إلى
الأبد. لماذا يفعل هذا؟ ولماذا لا تصدّه مارين؟ هكذا فكرت
نيللا، إلا أن جزءاً صغيراً منها يتساءل رغماً عنها كيف تراها
تشعر مارين في هذه اللحظة، وهي تلمس فأجماً كهذا.

ثم يفتح الباب الأمامي. وعلى عتبه يتوقف أوتو، العائد من
الكنيسة، وقد شلّ جسده كله أمام الجسدين المتشابهين لمارين
وجاك. وكأن شيئاً في داخله يثور، فاندفع نحوهما، صرخت
نيللا:

- إنه يحمل سكيناً لكن أوتو لا يتوقف.

مع صرخة نيللا، يفصل جاك عن مارين، التي تعود مترنحة
إلى الدرج الرئيس

- مذاق عجوز شمطاء. قالها ساخراً في وجه أوتو.

قال أوتو بفحيح:

- اذهب. قبل أن أقتلك.

ارتد جاك بقفزة واحدة إلى الباب الأمامي. وقال:

- ربما ترتدي ملابس النبلاء، لكنك لست أكثر من وحش.

- قدر. يدوي صوت أوتو مثل القس بليكورني.
تجد جاك:

- ماذا، يا فتى؟ ماذا قلت لي؟

يتقدم أوتو نحو جاك. وصرخت مارين:
- أوتو.

قال جاك:

- سوف يتخلص منك، أيها الوحش. إنه يعلم أنك فعلت شيئاً،
وسوف...

- توت! لا تقترب منه! لا تكن أحمق.

- فليخلق أحدكم الباب!

- يقول إن الزوج ليسوا محل ثقة.

رفع أوتو قبضته، فصرخت كورنيليا: لا، بينما ينكمش جاك
مبتعداً.

لكن أوتو لم يزد عن وضع راحته برفق على صدر جاك.
كرشة معدنية مشبوكة في ياقة، ترتفع يده وتهبط مع أنفاس
الإنجليزي. تتم أوتو:

- أنت لا شيء بالنسبة إليه، يا فتى. والآن اذهب.

أبعد أوتو يده في اللحظة نفسها، التي وثبت فيها ريزيكي عائدة
إلى البهو، وعمود ضوء ضعيف يأتي من الخارج يحولها إلى لون
مشروم باهت. زجرت في وجه جاك، مرجعة أذنيها

إلى الخلف. وربضت على بلاط الأرضية، مُحذرة إياه من
الاقتراب. ناداها أوتو:

- ريزيكي! ابتعدي!

نظرة الذعر في عيني جاك أخضعت نيلا. قالت:

- جاك. جاك، أعدك. سوف أخبر يوهانس أنك كنت...

لكن جاك كان قد دفع خنجره في جمجمة ريزيكي.

أصبح الجميع كما لو أنهم تحت الماء، لا أحد فيهم يمكنه
التنفس. اخترق النصل بصيرير مُغثِ الفراء واللحم. وانهار جسد
ريزيكي على الأرض.

انطلق عويل خفيض، يعلو رويداً، وعرفت نيلا أن مصدره
كورنيليا، التي تترجّح عبر البلاط نحو جسد ريزيكي.

بدأت ريزيكي في الاختناق. كان جاك قد غرز الخنجر بقوة
حتى لتعجز أصابع كورنيليا عن نزعه. وانتشر دم قانٍ في دوائر
قرمزية. يدين حنوتين ومرتجتين، احتضنت كورنيليا رأس
الكلبة. أنفاس ريزيكي تتحسرج، ويتدلى لسانها من فمها الفاجر.
انتفضت ساقا الكلبة انتفاضتهما الأخيرة، ضممتا كورنيليا بقوة،
في تشبث يأس بدفئها المنحسر. همست كورنيليا:

"لقد رحلت. فتاته ماتت."

يغلق أوتو الباب ويقف بين جاك والعالم الخارجي، وقد شغل
جسده مساحة المدخل. انتزع جاك خنجره من رأس ريزيكي،
فتدفق مزيد من الدماء على البلاط. وصرخ:

- "ابتعدا" وبرأسه نطح صدر أوتو، ونصله مرفوع. يتعاركان،
حدثت معمة - للحظة - ثم تراجع جاك مترلحاً. يخفض عينيه

إلى جسده بنظرة رعب.

استدار جاك إلى نيللا. كان خنجره مفروزاً في الجزء العلوي من بداية صدره، أسفل عظمة الترقوة ولكنه قريب من القلب بما يكفي ليمثل خطراً. يدها ترتجفان حول مقبض الخنجر. ربّاه، هكذا تهتف مارين، من بعيد. لا، أرجوك يا رب!

ترنّح جاك مثل مهر، ذراعه ممدوتان، وركبته تتخبّطان، وبينما يتداعى إلى الأرض، تشبث بتنورة نيللا. فنزلاً معاً إلى البلاطات ذات اللونين الأسود والأبيض، وأخذت بقعة حمراء زاهية تفتتح في قيصه، وتعجز حتى الرائحة الترايبية للدم الممتزج عن إخفاء رائحة بوله الحادة.

- أوتو... قالت نيللا، لكن صوتها خرج همسة متحشجة: ماذا فعلت؟

يجذب جاك نيللا إليه فتشعر بالحرارة الصلبة لمقبض السكين المحشور بين جسديهما. وانتحب ألماً في أذنها. متوسلاً:

- إنني أنزف. لا أريد أن أموت.

- جاك، انهض. انهض!

- مارين، إنه يحتضر...

زاد جاك من تشبثه بها، وكأنما هو يتشبث بالحياة، ويتمم في أذنها:

- مدام نيللا...

قالت نيللا:

- كل شيء سيصبح على ما يرام. سنحضر لك طبيباً.

صوته مكتوم في قلنسوتها، لكن جاك يبدو كمن يضحك.
ويهمس:

- آه، يا مدام. أيتها الفتاة الصغيرة. ليست إبرة لعينة هي التي
ستقتلني.

لبرهة قصيرة لم تفهم نيلا. نهض جاك ببطء على قدميه. يترشح
نحو الباب الأمامي، والسكين ما تزال في جسده، يتحرك مثل
سكارى الحانة، مُترعاً بتمثيله. لا يمكنها أن تجمع بين القميص
الملطخ بالدماء، والمقبض الناقئ من جسده، وتوسلاته بالنجدة
وبين هذا الغرور، هذا المرح الخفيف في إيهامها بأنه على وشك
أن يلقي خالقه.

همس:

- لقد صدقتك.

تراجع أوتو، مذهولاً. وفتح جاك الباب، وبينما يمضي ببطء
إلى الضوء الضعيف، استدار ليواجههم، انحنى انحناءة كبيرة،
وأصابه تعبث بالمقبض. وبقأة انتفض ساحباً الخنجر من
الجرح، مسروراً بالارتياح المرسم على وجه نيلا: "سوف أحتاج
إلى هذا." قال، وهو يوقف التدفق بإحدى يديه، وبالأخرى
يرفع المعدن الذي يومض بالقرمزي: شروع في قتل. دليل.

قالت نيلا:

- ليت ذلك السكين وجد قلبك.

يقول، وهو يمنحها ابتسامة المنتصر:

- إنني أخفيه جيداً. تلبدت جدائل شعره الجامحة على جبينه،
وظل الخنجر يقطر دماً في يده. واستدار راسماً خطأ متعرجاً

على الدرجات.

مارين، التي كانت شفتا جاك قد تركت على وجهها علامة
حمراء باهتة، انهارت مُستندة إلى ألواح الحائط، وهمست: "يا
يسوع الحبيب، يا يسوع الحبيب، أنقلنا جميعاً."

الجزء الثالث

كانون الأول، ١٦٨٦م

حَلَقَهُ حَلَاوَةً وَكَلَهُ مُشْتَبِهَاتٌ.

هَذَا حَبِيبِي، وَهَذَا خَلِيلِي، يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ.

نشيد الأنشاد ٥: ١٦

لطخة



“عثر السنيور على ريزيكي في جِوال،” قالت كورنيليا في الدهليز، صوتها يخنقه الحزن. شاهدت نيلاً تضع جثة الكلبة المتبيسة في كيس حبوب فارغ. “عند الباحة الخلفية للفوك، منذ ثمانية أعوام. كانوا جميعهم موتى - جميع الجراء، عداها.”

- نحتاج إلى ممسحة، يا كورنيليا. وعصير ليمون وخل.

أومأت كورنيليا. مازالت بقع حمراء من الدم على البلاط الرخامي، لكن الخادم لا تتحرك. إطار اللوحة التي هاجمها جاك أصبح الآن مسنوداً إلى الحائط. وكانت مارين قد أمرت بتفريغها:

- لن يبالي، يا مدام. نصحبها أوتو، لكنها أصرت، قائلة:

- ليس من أجله. لا أطيق رؤيتها نصف مُدمرة. فأتمَّ أوتو صنيع جاك، بيدٍ ترتعش قليلاً وهي تنزع القماش من الخشب.

كان أوتو ومارين يتحدثان في المطبخ، بصوت خفيض. فكرت نيلاً: “إنه خطئي، حملتُ دمية جاك إلى الداخل بعد أن كانت مارين قد رمتها” كان في الصباح التالي، موضوعاً على عتبة المدخل، نذيراً لما سيأتي. لو أنَّ صانعة الدُّمى هي من وضعته هناك، نبوءة فظيعة لما سيحدث في هذا البهو، لماذا قد تفعل ذلك؟ لماذا تصر على ضرورة بقاء هذا المخلوق المؤذي قريباً؟ قالت وهي تنهض:

- كورنيليا. نحتاج إلى تنظيف هذا.

حاولت دفع ساق ريزيكي في كيس الخيش، لكنهما

طويلتان جداً.

حينما نزلت نيهلا وكورنيليا إلى المطبخ، ومخالب ريزيكي تخرج من الكيس، خيم جو التداعيات بين لمعة المقالي. إن قتل كلبة السيد الحبيبة، مع اقتراب أعياد الميلاد يبدو مثل العرض الافتتاحي لكرنفال مخيف. والقاتل طليق في الخارج، يداوي أكثر مما هو مجرد جرح جسدي.

وضع أوتو يديه المرتجفتين على البلوط القديم للطاولة. كانت أفكار نيهلا مُحاصرة. ورغبت في مواساته، لكنه تحاشى حتى النظر إليها. دانه متكومة عند المدفأة، تثنُّ وعيناها على الكيس الذي تحمله نيهلا.

سألت كورنيليا:

- هل يمكننا دفنها الآن، رجاء؟

وبعد سكوت مضطرب. قالت مارين:

- لا.

- لكن راثحتها ستبدأ...

- ضعوها في القبر لحسب.

نيهلا هي من تضع ريزيكي برفق، في الفلام، فوق الطمي الرطب والبطاطا. وتقول بأنفاس مُختنقة:

- فتاة مسكينة، مسكينة. في أمان الله.

وفي المطبخ قال أوتو:

- ماذا لو قام جاك بالتبليغ عني؟ إنه يملك السكين، والجرح لإثبات ما حدث ولسان في رأسه يخلق الحكايات. لقد ذكر

شيئاً عن دليل وشروع في القتل. سوف تعتقني الميليشيا. وماذا لو أنهم سألوه عن سبب وجوده هنا؟”

- تماماً، قالت مارين، وهي تضرب الطاولة بقبضتها: إنني أعرف جاك فيليبس قليلاً. إنه يحب طعم الحياة. جاك يحب التبجح لكنه لن يلجأ إلى السلطات أبداً. لأنه بهذا سيوقع حكم إعدامه وهو يعلم ذلك. إنه إنجليزي، ولوطي، وكان ممثلاً فيما مضى. إنها أكثر ثلاثة أشياء يكرها رؤساء البلدية في مدينتنا. يقول أوتو، بتعابير مكفهرّة:

- إنه مفلس، يا مدام. إن المرء قد يفعل أي شيء عندما يكون يائساً. إن سألوه لماذا أتى إلى هنا، فسوف يتورط السنيور.”

هز رأسه، كانت كورنيليا تروح وتجيء بسلة من الهيربرود، وقطع من الهندباء، ومثلث زاهٍ متناقض من جن الجوده. تقطع نيل الجبن بينما تشغل الخادم نفسها أمام الموقد. سيخلو عشاء الليلة من البطاطا أو عيش الغراب، لأن كورنيليا لا تطيق حتى النظر إلى باب القبو، فضلاً عن ولوج الظلام. تشبثت نيلاً بأصوات انكبابها على أعمال المنزل، قعقة القدور، ذبول البصل في الزبدة، وطققة اللحم. إيقاعهم المتواصل على الرغم من تنافره هو الآن أفضل من الألحان البهيجة التي قد تعزفها أية فرقة جواله.

وضعت كورنيليا شرائح اللحم المقلي أمامهم، ورأت نيلاً مقدار شحوبها بسبب القلق.

قال أوتو:

- لقد أنقذني السنيور. علمني كل شيء. وهكذا أرد له الدين.

بريزيكي....

قالت مارين:

- جاك من فعلها، وليس أنت. ولم يكن هناك دين من البداية. لقد اشترك أخي لمتعته الخاصة.

رمت كورنيليا قِدرًا ثقيلة في الحوض، فأحدث ذلك صوتاً خافتاً.

قال أوتو:

- لقد أعطاني وظيفة، يا مدام.

غمست مارين قطعة خبز في دهن اللحم، لكنها لم تأكل. وحارت نيليا في تحديد مزاجها. بدت عازمة ألا يتأثر بما حدث، لكنها عصبية كعادتها.

قالت مارين بصوت غاضب:

- الفتى حيٌّ يرزق. أنت لم تقتل أحداً. سينشغل يوهانس بـريزيكي أكثر من انشغاله بك.

وكان التصريح لطم أوتو في صدره. يقول:

- لقد عرضتكم إلى الخطر. عرضتكم جميعاً إلى الخطر.

تمد مارين يدها إلى يد أوتو في مشهد استثنائي، أصابعهما، الداكنة والفاتحة معاً، وعجزت كورنيليا عن تحويل عينيها. انسحب أوتو وراح يصعد سلم المطبخ، بينما مارين تلاحقه بوجه ممتقع، وعينين مرهقتين. ثم قالت، بصوت يكاد يصبح همساً:

- بترونيليا، تحتاجين إلى تبديل ملابسك.

- لماذا؟ ما خطبي؟

أشارت مارين إليها، وعندما تحفّض نيلاً عينها، ترى مشدها وقيصها ملطخين بالبقع البنية التي خلفها الدم الإنجليزي.

في الأعلى، جلست نيلاً مُرتجفة في ثيابها الداخلية، بينما كورنيليا تنظفها بالإسفنجة من البقع التي خلفها جاك. وعندما تلبس نيلاً رداءها، تستأذن الخادم في الانصراف، قائلة:

- أشعر بالقلق على أوتو، يا مدام. إنه لا يملك أحداً آخر يتحدث إليه.

- عليك الذهاب إذن.

تشر بالارتياح لأنها صارت بمفردها. جسدها يوجعها من توتر الصباح، من أثر تشبث جاك بذراعيها. تناولت الدمية التي على شكلها من بيت الدمى، التي كانت مستلقية بجهد في المطبخ المُصغّر، وضغطت على جسدها الصغير، وكأنها بذلك ستُبعد الألم. عندما تعصر دميّتها بقوة تشر بألم في ضلوعها، ولوهلة يُخيّل إليها ألا فارق بين نسختها بيد صانعة الدمى وبين ضلوعها الحقيقية. وتساءل، لأني ماذا أكون، سوى صنيع خيالي؟ إلا أن الوجه الذي بحجم حبة فاصولياء ينظر إليها، ولا يفصح عن شيء، بينما تبقى نيلاً في بلبلة وبقايا حزن.

على فراش نيلاً، استقر الطرد الذي أرسلته صانعة الدمى مع جاك منذ بضع ساعات فقط. كادت تتركه تحت الكرسي في الدهليز، غير واثقة من رغبتها في فتحه، والآن، بينما هي تتأمل من جديد، تغلغل في داخلها خوف جعل جسدها يتعرق. ولكن من هناك غيرها ليفتح هذه الطرود؟ لم تتحمل أن يكون

هناك آخر.

لو أن صانعة الدُمي معلمة غربية ترفض أن يتوقف، فإن نيلا تشعر بأنها أكثر التلامذة عزوفاً. لقد أخفقت في فهم ما تعنيه هذه الدروس. إنها يتلهف إلى قطعة واحدة فقط تفسّر ما تريده منها صانعة الدُمي. وإذا فتحت الرزمة، تجد أنها لا تحوي سوى قطعة واحدة.

في راحة يدها يستكين لوح فيركيرشپيل المنمّم. مثلثاته لم ترسم فحسب، بل سُكِّت بالخشب - وهناك قطع لعب أيضاً، في صرّة منمنمة. تكشف راثحتها أنها بذور كزبرة مقسومة، ومطلية بالأسود والأحمر.

ألقت نيلا باللوح، وبحثت في جيبي تنورتها. عن الخطاب الطويل الذي كتبه هذا الصباح فقط، موجهاً إلى صانعة الدُمي، وتطلب فيه لوح فيركيرشپيل، لم يعد هناك. تفكّر، لكنه كان معي. كان معي اليوم. تعقبتُ أوتو إلى الكنيسة، وشعرتُ به في جيبي، وحادثتُ آغنس، وعدتُ راكضة لأجد جاك يزرع البهو. وبعدها، كانت كل فكرة عنه قد نُسيّت.

تلاشي الوقت؛ لا وزن للساعات عندما تنسلُّ من بين يديك. تقلب نيلا العلبة فتقع منها ورقة.

نيلا: إن اللفت لا يمكن أن ينمو

في تربة زرعها التوليب

لقد استخدمت اسمي، هكذا فكرت نيلا، المسرة الشخصية التي يحدثها هذا الأمر تدوب سريعاً في غرابة العبارة التي تليها. شعرتُ بمرح يتسلل إليها، هل تقصد صانعة الدُمي أنني لفتتُ اللفت والتوليب ظاهرتان طبيعيتان مختلفتان تماماً - الأولى

عملية وبسيطة في تصميمها، والأخرى زخرفية يهندسها البشر.
لمست نيلا وجهها لا شعورياً، وكأن الكتابة الأنيقة ستحول
خديها إلى ثمرة جذرية ثخينة ومكتنزة، خضار ممل من
أسدلفت. أما صانعة الدمي فهي الذكية، البهية والزاهية،
نفوذها يسرق العين. تتساءل نيلا، هل هذه طريقتها في نصحي
بالابتعاد، إخباري أنني لن أفهم أبداً؟

وإذ تمدُّ يدها داخل بيت دماها، تأخذ نيلا دمية جاك وتنزع
معطفه الجلدي. ثم تسحب واحدة من سكاكين السمك
المنمنمة بين سبابتها وإبهامها، وتغرزها في مقدمة صدره
كدبوس، قريباً من العنق بدرجة تكفي لاختناقه. دخول
السكين يمنحها شعوراً بالرضى، وهي تنساب في الجسم الطري،
سهماً فضياً ناتئاً.

عندما أعادت جاك إلى بيت الدمي، وقد صارت دميته الآن
تعكس موقفهم الرهيب بصورة أدق، تناولت نيلا الدمية التي
تعيد لها الذكرى المؤلمة لجسد ريزيكي. قالت للدمية الصغيرة:
كان يجدر بيوهانس أن يأخذك معه. كيف تُراه سيكون
إخباره بما حدث لكلبته المقربة؟ سوف أقدم هذه المنمنمة
تذكراً عن حياتها، هكذا تفكر، عندما تطرأ بياها فكرة تستجلب
ذنباً أكبر. هذه الدمية ستذكر زوجي بمن هو جاك حقاً.

مسدت على رأس الكلبة، فتجمدت أصابعها بين الشعيرات
على مؤخرة عنقها. فهناك، على الجسد الصغير، علامة حمراء
غير مستوية تشبه الصليب. انتقلت نيلا إلى النافذة، إنها واضحة،
بلون الصدا. بدأ قلبها في الخفقان، ويحف حلقها. إنها لا يتذكر
إن كانت العلامة هناك من البداية. لم تنفحصها عن قرب.

ربما كانت مصادفة، ربما أوقعت صانعة الدمي لوناً أحمر على

رأس الكلبة في أثناء تحركها بالفرشاة؟ ربما لم تلاحظ غلظتها، فتركت الخطوط الرفيعة تنتشر على منحني الجمجمة. استلقى النموذج ريزيكي في كف نيل، رأسها واضح التفاصيل، والعلامة في مؤخرة عنقها عميد مخيف. الغرفة باردة، لكن جسد ريزيكي الموسوم هو ما يبعث قشعريرة في العمود الفقري لنيل.

حاولت التحكم في مسار أفكارها. لا يبدو أن صانعة الدُمي كانت تعرف بما سيقدم عليه أوتو من دفع ذلك الخنجر في كتف جاك، لأن دمية جاك وصلت من دون علامات. كان عليّ أن أخبرها بتلك القصة. فهل هذه القطع أصداء أم تنبؤات، أم هي ببساطة تخمين موفق؟

قالت لنفسها: "يجب أن تذهبي إلى الكالفرسترات. لا مفرّ هذه المرة، وهذه المرة، لن تغادري حتى تخرج صانعة الدُمي من منزلها. حتى إن اضطررت للوقوف هناك طوال اليوم مع وجه الحفرة.

أعادت نيل الكلبة إلى بيت الدمى، ونقاش كورنيليا ومارين حول الأوثان الكاثوليكية يتردد في عقلها. قالت كورنيليا: "إنه لا أحد يمكنه الجزم بأن هذه الأشياء لن تنبثق فيها الحياة" وها هي دمية ريزيكي تشع بطاقة تعجز نيل عن تحديدها. وبيت الدمى نفسه، الإطار الخشبي وكأنه يتوهج، الزحرفة شديدة الثراء، التصميم الداخلي شديد الفخامة. حدقت نيل في دميّتها المتشبثة بالقفص الصغير، ذلك السجن المذهب الذي لا يحوي شيئاً. وراحت في سرّها يتلو العبارات التي سبق لصانعة الدمى أن أرسلتها " لا شيء يبقى على حاله. كل امرأة هي مهندسة حظها. أحارب لأظهر"

تساءلت نيل، ولكن من الذي يحارب ليظهر هنا؟ ومن

هي المهندسة، صانعة الدُّمى، أم أنا؟ السؤال القديم المفتوح عاد لي طرح نفسه: لماذا تفعل هذه المرأة هذا؟ إن صانعة الدُّمى تعيش، مجهولة الاسم، في عزلة من المجتمع، مُتحررة من قواعده، لكننا جميعاً، لفتاً أم توليباً، مسؤولون أمام شخص ما في النهاية. ريزكي ماتت وبيبو اختفى، وجاك طليق وسُكَّر آغنس مُهمل في الجزر الشرقية، يتناهى لنيلا شعور بفوضى قادمة، وكل ما يتوق إليه هو شيء من التحكم.

على صانعة الدُّمى أن تساعدنا. صانعة الدُّمى هي من تعرف. كل من في هذا المنزل يُعجزه الخوف عن فعل شيء عدا رمي الدُّمى من النوافذ، لكن هذا لا يأتي بفائدة. أحضرت نيلا قلباً وورقة.

وتكتب، المدام العزيزة،

إن اللفت ينمو تحت الأرض، بينما التوليب يزدهر فوقها. الثاني يُمْتَع العين، بينما الأول يغذي الجسد، لكن كلا الخلقين يستفيدان من التربة. كل منهما يمتلك نفعاً بذاته، وليس أحدهما بأمن من الآخر.

تردد نيلا - ثم، عاجزة عن كبح نفسها، تكتب - وبتلات التوليب ستساقط، يا مدام. ستساقط قبل وقت طويل من خروج اللفت من الأرض، ونفناً لكنه منتصر.

تحشى نيلا أنها كانت ولحة أكثر من اللازم، وواضحة أكثر من اللازم. تضيف، أخبريني، ماذا يجب أن أفعل؟

ثم وضعت قلبها، مع شعور طفيف بالسخافة مع كل هذا الحديث عن النباتات، لكنها مصحوبة بذعر من فكرة أن صانعة الدُّمى كانت تعرف منذ البداية ما سيحدث لكلبة يوهانس.

قبل هذه العلامة على رقبة ريزيكي، كانت نيلا تعدّها مُراقِبة، مُعلّية، مُفسّرة، لكن هذا، حسناً، إن هذا أشبه بالتنبؤ. ماذا تعرف أيضاً، ماذا يمكنها أيضاً أن تمنع؟ أو ما هو أسوأ، علام هي مُصمّمة أن يحدث؟

قرب الفجر من صباح اليوم التالي، تتسلل نيلا من غرفتها، وفي جيب عباؤها رسالتها الرابعة لصانعة الدُمي. تفكر، سأحافظ عليها هذه المرة، إلى أن أضعها بنفسني في كفها. إنها أكثر من خائفة أمام ما قد تكتشفه في الكالفرسترات، وجهاً لوجه أخيراً مع المرأة التي لا ترصد فقط عالمها، بل وكأئما هي أيضاً بتبنيه.

وإذ تمسك الشمعدان بيد، تسحب نيلا بالأخرى في بطاء مزلاج الباب الأمامي. عندما تفتح الباب، مسرورة بالضوء الباهت الذي يبرز في أفق السماء، تسمع صوت قعقعة خفيفة من أعماق المنزل. تتجمّد؛ وتستمر القعقعة. وإذ تنظر إلى امتداد شارع القناة ثم تلتفت نحو المطبخ، تشعر نيلا بأنها ممزقة إلى نصفين. تفكر، دائماً، دائماً عندما يحين الوقت لمقابلة صانعة الدُمي، لا يتوانى هذا المنزل عن إعادتي إليه.

تفوز قعقعة المنزل بفضولها الفطري. إنه أكثر إلحاحاً من أن يسمعها تجاهله. لقد طال الوقت وأنا أسمع هذه الهمسات والأصوات، هكذا فكرت، وهي تغلق الباب، وتنزل الدرج على رؤوس أصابعها، وتدخل مطبخ التقديم في محاولة لتعقب الصوت. الأطباق المستديرة، المايوليكا والدلفت والأواني الصينية، تلمع في الصوان الضخم كصفوف من أعين مفتوحة في أثناء مرورها بشمعتها الوحيدة.

يتوقف قليلاً، فتشم الهواء. رائحة معدنية، تربة مبللة؛ صوت

أنفاس ثقيلة. وفوراً، تفكر في ريزيكي. لقد عادت إلى الحياة. صانعة الدُّمى هنا، لقد أعادت ريزيكي إلى الحياة. ببطء، تسير نيلاً في الممر الضيق الذي يفصل بين مطبخي الخدمة والتقديم، نحو الباب الصغير في نهايته حيث تُخزَّن براميل الجعة والمخلل. تزداد حدة الرائحة، مُتخفِّرة على ظهر لسانها. إنها رائحة دم، واضحة الآن. أصبحت الأنفاس أعلى.

توقفت نيلاً، وأصابعها على مقبض الباب، اعتقاد كابوسي أن ريزيكي خلفه، أنها بأرجلها الطويلة قد شقت طريقها خارج الكيس وهي الآن تمخس الباب ليفتح لها أحدهم. ابتلعت نيلاً لعابها وهي تدفع باب القبو، مرتعبة حتى النخاع.

في الداخل تقف مارين، مُشمرة الكمين، وعلي الطاولة إلى جوارها قنديل ضعيف. وإلى جوار القنديل صف من الخرق البيضاء، والتي يبدو أنها تزيل عنها دماً.

- ماذا تفعلين؟ تسألها نيلاً، والارتياح يغمر جسدها على الرغم من الارتباك الذي يصارعه أمام هذا المشهد الجديد الغريب. - ماذا تفعلين بحق السماء؟

- اخرجي، قالت مارين بصوت يشبه الفحيح. هل تسمعينني؟ اخرجي.

تراجعت نيلاً، مأخوذة بالضراوة في صوت مارين، والغضب الذي يلوي وجهها، ولطخة الدم الصادمة على خدها. وإذا تصفق باب القبو، تتخط على سلم المطبخ إلى الدهليز. تمتازج في عين عقلها العلامة الحمراء في دمية ريزيكي بملابس مارين الملطخة بالدماء، بينما ينعثر عبر الباب الأمامي وتنزل السلم إلى أحضان الفجر.

أسلحة حلوة



ما يزال الكالفرسترات، بامتداده الطويل من الباعة والضوضاء، هادئاً نسبياً. بين الحين والآخر يجربُ بائع فواكه عربية يد، ويفتّش قط برتقالي جريء، بين عظام الحيوانات التي لم تتمكن من الوصول إلى القناة في الليلة السابقة. تلمع عيناه الصفراوان في وجه نيلا وهو يحيط جسده السمين الشاهد على مهارة بحثه.

وجدت نيلا لافتة الشمس. وقفت أمامها، تشمُّ الهواء الرطب، وبقايا الضباب، ورائحة النفايات المغطاة في عجالة بالقش. طرقت الباب، طرقاتاً حاداً واثقاً، وانتظرت. لا أحد يأتي. لكنني سأنتظر، يا مدام توليب، هكذا تفكر، وهي تربت على الرسالة في جيبها. سأنتظر وأنتظر إلى أن أحصل على جوابي.

عادت خطوة إلى الوراء، وهي تنظر إلى النوافذ الأربع، الشمس الذهبية والعبارة المحفورة أسفلها. كل شيء يراه الإنسان يظنه لعبة. بدت عبارة ساحرة، وتستنفر نيلا. تفكر، لستُ أنا كذلك. لم أعد أفعل على الأقل. لا شيء يسلي أو يطمئن في المنمنمة التي صنعتها لبيبو، أو ريزيكي وندبتها الدموية.

صرخت على الرغم من الساعة المبكرة: "أعلم أنك هناك. ماذا يجب أن أفعل؟"

وفي الحال، فُتح باب خلفها. استدارت، فرأت رجلاً بدياً يرتدي مئزراً. وجهه مربع، وكرشه يبرز من جسده بمسافة

كبيرة، ويقف ويداه على وركيه. من خلفه، غرفة هادئة صغيرة تظهر منها لقات طويلة معلقة من الصوف غير المصبوغ وعدد من جلود الغنم مثبتة بمسامير إلى الجدران.

- يا فتاة، لا داعي أن يصل صراخك إلى مدينة أنتويرب.

-المعدرة، يا سيدي. جئتُ لمقابلة صانعة الدُمل.

رفع الرجل حاجبيه.

- صانعة ماذا؟

رفعت عينيها إلى المنزل مجدداً، فقال الرجل بصوت ألطف:

- آه. هي. لن تجيئك. لا فائدة من المحاولة.

عادت نيلا لمواجهته:

- هكذا قيل لي. لكنني لا أمانع في الانتظار.

نظر بطرف عينية إلى المنزل:

- حسناً، ستموتين من البرد في أثناء ذلك، لأنه لا يوجد أحد

في هذا المنزل منذ أكثر من أسبوع.

أصاب معدة نيلا أسى صغير. وقالت:

- هذا مستحيل. بالأمس فقط، أرسلت...

- ما اسمك؟ يسألها بائع الصوف.

- لماذا؟

- ربما أحمل لك شيئاً.

- اسمي... سكتت قليلاً... بترونيلا براندت.

-انتظري. عاد للاختفاء في عتمة متجره. ثم خرج ثانية،

حاملًا علبة صغيرة في يده، موسومة بعلامة الشمس، وأردف:
تُركت على عتبة الباب المقابل. فكرتُ أن قطعةً ربما تستولي
عليها. يبدو أن صبيها الإنجليزي قد توقف عن توصيل الطلبات،
لذا احتفظتُ بها عندي.

وضعها في كف نيلا الممدودة، ثم رفع عينيه إلى الشمس
المصقولة التي حُفرت فوق باب صانعة الدمى. وسأل:

- ما الذي يعنيه أصلاً؟ كل شيء يراه الإنسان، فإنه يظنُّه
لعبة؟

- أي أننا نحسب أنفسنا عمالقة، لكننا لسنا كذلك.

رفع حاجبيه:

- فهمت. يجدر بي ألا أبالغ في تقدير نفسي، أليس كذلك؟
- مطلقاً، يا سيدي. الأمر وما فيه أن الأشياء، ليست دائماً
كما تبدو.

- إنني عملاق بما يكفي. ضحك بائع الصوف، ماداً ذراعيه:
والحقاً جداً من ذلك.

ابتسمت نيلا بوهن، ونظرت إلى عتمة متجره، مُحكِمة قبضتها
على الرزمة:

- هل تستأجر رجلاً على وجهه آثار جدري؟

- آه، نعم. نقل الصوف لأسبوعين ثم رحل فجأة.

- لماذا رحل؟

- شيء أخافه.

- أخافه؟

- إلى درجة الرعب. هرب ليلاً. الرب وحده يعلم ما أصابه." من مسافة قريبة، يأتي صوت مسير، طرم-طرم في شارع الكالفرسترات. عاد بائع الصوف إلى داخل محله. يتمم، وهو يُنزل المصراع الأمامي:

- ميليشيا سانت جورج. ابتعدي عن الطريق، يا فتاة، أو يدهسونك.

تقول نيلا، وقد ثار غضبها:

- مهلاً إلى أين ذهبت؟ هل رأيتها تذهب؟

لكن ميليشيا سانت جورج تلوح في الأفق، والققط أصفر العينين يبتعد مهرولاً في الوقت المناسب. كان الحرس جميعهم قد أحاطوا صدورهم العريضة بشرائط حمراء، انعكست عليها أشعة شمس الشتاء فصارت كتياراً من الدم. أحذيتهم المزودة بواق معدني تحك الطريق، وأسلحتهم الهاججة تصعق على جنباتهم طبنجات ذات بريق لؤلؤي وبنادق مُدلاة ليراها الجميع.

رأت نيلا فرانس ميرمانز بين جموعهم، صدره بارز، ووجهه متجههم ينظر نحو علامة الشمس. نادته: "سنيور؟" وعند رؤيتها أشاح بوجهه، ضاماً رمحه إلى صدره. ابتعدوا، تتبعهم سحابة من الغبار، في خطى جايدة نحو صباح أمستردام.

غرق الشارع في الصمت، وتلاحظ نيلا كم أصبحت أصابع قدميها خدرة في البرد. تُمزق غلاف الرزمة، حانقة من فظاظلة فرانس ميرمانز، ساخطة من صانعة الدُمن للتملص منها هذه المرة أيضاً. فكرت، في كل مرة أتمس مقابلتها، ينتهي بي الأمر وحيدة.

لكن إحباطها يتبدل إلى بهجة، لأنها وجدت في الداخل مجموعة من الكعكات والمعجنات الصغيرة. فطائر صغيرة ووافل بتقسيمة مضلعة، وسكويت زنجبيل على هيئة إنسان، وأولي كوكي مرشوش بمسحوق أبيض، مدوراً وشهي المنظر. تبدو وكأنها مصنوعة من عجين حقيقي، ولكن عندما لمستها نيلا، وجدت يابسة لا تنثني. وجدت رسالة أخرى، مكتوبة على الورق أسفلهم:

لا تتركي الأسلحة الحلوة تضيع

نظرت نيلا إلى نوافذ المنزل. وصاحت، وهي تمرر رسالتها المتوسلة من تحت باب صناعة الدُمى: "الأسلحة الحلوة؟" يتحرك ضوء الصباح فوق ألواح النوافذ، مخيفة أسرار صناعة الدُمى. خفضت نيلا عينها إلى هذه الأطعمة الشبيهة المزيفة، تكاد تغريها رغبة في رميها في أقرب قناة مائية. ماذا تعني المرأة بهذه القطع؟ تفكر نيلا، لا حرب انتصر فيها المرء قط، أمام ترسانة من ملذات الحلوى.

الفراغ المتروك



عندما عادت نَيْلا إلى المنزل، وجدت كورنيليا في انتظارها عند الباب.

رأت النظرة المنكوبة على وجه الخادم، فسألته:

- ما الأمر؟

همست كورنيليا:

- السنيور. لقد عاد من فينيسيا. وما فتئ يسأل أين ريزيكي.

- ماذا؟ شعرت نَيْلا بالهواء يثقل، وتتفرز شوكة خوف في حلقها. تتخيلُ جسد ريزيكي المملوح بالدماء ينتظر في القبو، ويوهانس، الذي يجهل الأمر، ينتظر وقع خطى قدميها المتناسقتين.

قالت كورنيليا ببرة توسل:

- أنتِ من يجب أن يخبره، يا مدام. أنا لا أستطيع.

أغلقت نَيْلا الباب الأمامي بحرص، وهي تُجري عينيها على الأرضية، مطمئنة ألا أثر يُرى للدماء. كانت كورنيليا قد مسحت ومسحت، مُغرقة البلاط في الخل وعصير الليمون، دلاء من الماء المغلي والقلي فوق البقع. وفي المقابل، كان محال في بيت الدمى بالأعلى، إزالة العلامة التي تشبه الصليب من على رأس ريزيكي المنعم.

سألت:

- ولكن لماذا أنا، يا كورنيليا؟

-أنتِ قوية، يا مدام. إنكِ خير من يخبره.

لا تشعر نيلا بأنها قوية، بل تشعر أنها غير مهيأة لذلك، مُتهَيِّبة من القصة التي سيتعين عليها إخبارها. فكرت، كنتُ في حاجة فقط إلى مزيد من الوقت لأجمل هذه الحقيقة في إطار من كذبة ما. كيف قد يبدأ أي شخص محادثة كهذه؟

كان يوهانس يقف في منتصف الصالون، قد استقرت عيناه على إطار الصورة المجوف والمتكى على الرسوم الجدارية التي تمتد على الحائط كله. كان قد أحضر معه إساطين، نسيجين سميكين بأشكال هندسية. فكرت نيلا، إن لديهم عشرين أو ثلاثين من هذه الجداريات. فما الغرض من الزيادة؟ كانت الغرفة شديدة البرودة، وهو ما يزال في عباءة سفره.

فوجئ بعيني يوهانس تُشرقان. إن زوجها يبدو في الواقع مسروراً برؤيتها.

قالت:

- يوهانس، عدتَ سالماً. هل كانت فينيسيا، مُسَلِّية؟
ترددت في سماعها هولندية جاك المعوجة - سمك أكثر طزاجة.

شم يوهانس الهواء، مُجْعِداً أنفه أمام رائحة الخلل المتخلفة التي تهب من البهو. صلت نيلا أن تطفى عليها سريعاً روائح طهي كورنيليا.

يقول: "كانت فينيسيا هي فينيسيا. وكان الفينيسيون ثرثارين. وكان هناك من الرقص ما يفوق قدرة ركبتيّ."

وأمام ذهولها، ضمها في عناق كبير. رأس نيلا لا يتجاوز عظمة صدر يوهانس، وهو يضغط أذنها حيث تشعر بضربات

قلبه. وإذا يغرز ذقنه في الجزء العلوي من رأسها، تجرد العناق الغريب راحة غير متوقعة. إنها لم تلمس من يوهانس هذا القدر من قبل. تبدأ قدمها في الارتفاع عن الأرض وكأنها تتشبث بطوق نجاة. عندما تغلق عينيها، يترأى لها وجه ريزيكي الملطخ بالدماء، ومهما تضغط جفنيها لا تذهب الصورة.

- إنني سعيد برؤيتك، يا نيل. قال قبل أن ينزلها: لماذا لا نار في هذه الغرفة؟" ثم ينادي: أوتوا

أجابت:

- وأنا أيضاً سعيدة، يا يوهانس، وعقلها يحاول الإمساك بالكلمات التي ما انفكت تفلت كلما شعرت بإقبالها. "أنا - هلاً جلسنا؟"

يتهاوى على كرسي مع تنهيدة، ظلت نيل واقفة.

سألها:

- ما الخطب؟ ويُخيل إليها أن القلق في صوته سيفطرها.

اندفعت قائلة:

- لا شيء، يا يوهانس. هناك... أنا... آغنس كانت غاضبة مني. إنها لا تستطيع فعلها، لا تستطيع قول الكلمات. اختيار موضوع آغنس ميرمانز أسهل من إبلاغه بخبر كلبته الحبيبة.

اكفهرت ملاح يوهانس. "ولماذا كانت آغنس غاضبة؟"

- أنا، رأيتها في الكنيسة القديمة. قالت إن كل سكرهم ما يزال في المستودع. وأنه ربما يصبح بلورات.

وضع يوهانس يده أسفل ذقنه:

- لا تملك الحق في التحدث إليك بهذه الطريقة.

ظهر أوتو على عتبة الصالون، حاملاً سلة من الخبز. تردد، وهو لا يكاد يستطيع رفع عينيه.

قال يوهانس:

- آه، النار. ادخل، يا أوتو، وأدفتنا.

- سنيور. مرحباً بك في بيتك.

- ماذا تطبخ كورنيليا؟

- نقائق كبد الخنزير مع الشعير، يا سنيور.

- أكلتي المفضلة في كانون الأول! أتساءل ماذا فعلتُ لأستحقها. ابتسم يوهانس، وهو يشم الهواء ثانية، ويمرر يده على الإطار المجوف: ما الذي حدث هنا؟ كانت هذه واحدة من لوحاتي المفضلة.

كاد لون أوتو يصبح رمادياً في الضوء الخفيف، رمقه يوهانس بنظرة نافذة.

تقول نيليا:

- حادث.

- فهمت. حسناً، ضع حطباً كثيراً، يا أوتو. إن قدي من البرودة تكاد أن تسقطا.

استدارت نيليا، فرأت مارين واقفة عند الباب. وجهها ممتنع، ترددت قبل أن تنسل إلى الداخل، ملتزمة الحائط.

- كم مخروط سكر بعت في فينيسيا؟

- اجعلها ناراً كبيرة، يا أوتو.

- أخي، كم بعنا؟

وضع يوهانس الإطار المجهوف في وضع قائم على حجره. فأحاط
الإطار بالجزء العلوي من جسده، أوماً داخل التجويف.
اختار وضعية الحاكم المغرور، وقال:

- كان راكداً كما توقعتُ له. كان الأفضل أن أذهب في
العام الجديد.

- ربما يجدر بك إذن أن تشعل النار الهائلة، التي تريدها
عندما يُباع السكر فعلاً؟ بدا أن صمت يوهانس الذي يعقب
ذلك يشير بضغط أخته. "المولع بالكسب يُكدر بيته."

- استقبالك يزداد سوءاً، يا مارين. أنتِ من زجَّ بي على متن
سفينة إلى إيطاليا في أقسى أيام الشتاء. لا تحدييني عن الطمع.
ورجاء، كفاك استشهاداً من الكتاب المقدس. صار الأمر
مُضجراً، نظراً إلى تدينك المشبوه.

أطلقت مارين ضحكة، صوت غريب يشق الهواء:

- أنت من يثير الاستفزاز باستمرار، ولست أنا.

نزع عباءة سفره، وألقى بها في كومة، وقال:

- كفى حديثاً عن هذا المنزل وكأنه ملكك. إنه ملك بترونيا.

انطلقت هذه الكلمات في الهواء كصاعقة نحو نيلا، لكن
مارين حدقت فيه في ذهول. ثم قالت:

- هو لبترونيا إذن.

بهذه السهولة؟ هكذا فكرت نيلا، وهي تلتفت إليها. إن هذا

غير ممكن؛ لا يعقل أن مارين تعني ما تقول.

- لقد ضيَّعتُ حياتي بأكملها في تسيير أموره. قالت مارين، وهي تخطو نحو شقيقها: نحن لسنا أكثر من أسرى لرغباتك.

تهد يوهانس، وهو يرفع كفيه إلى النار مُلمساً الدفء لنفسه: أسرى! والتفت إلى أوتو، الذي يجثو على الجهة الأخرى من اللهب المتصاعد: أوتو، هل تشعر كأنك أسير؟

ابتلع أوتو لعابه، صوته أقرب إلى الهمس:

- لا، يا سنيور.

- نيلا، هل أغلق عليكِ بالقفل والمفتاح؟

أجابت نيلا:

- كلا، يا يوهانس. وإن كانت تلك الليالي الخاوية في انتظار مجيئك قد بدت أقرب للسجن: هكذا تُفكِّر. ترغب في أن تكون في غرفتها الآن، وحدها، مدفونة تحت الشراشف.

- هذا المنزل هو المكان الوحيد الذي يتمتع فيه كل منا بحريته. مال يوهانس في كرسيه ووضع رأسه بين يديه: وأنتِ، يا مارين، من بين كل الناس لا يمكنك إنكار ذلك.

انفجرت مارين:

- لا تكن أحمق. تبدو هذه المشادة لنيلا وكأن فتيلها جاهز للاشتعال، وكالنار تُصاعد حرارتها سريعاً: أنت أناني جداً. يناسبك الاحتفاظ بي هنا، بينما أنت لا تكلف نفسك إلا عناء قليلاً لإخفاء الأشياء التي فعلها.

رفع يوهانس عينيه إلى أخته. رأت نيلا كم هو منك، وجهه متهدل، وعيناه قائمتان. وقال:

- تظنين أنه يوافقني، هل تلك هي القصة التي تخبرين بها

نفسك؟ مارين، لقد تزوجتُ طفلة، مُعارضاً رغبات روجي.
وقد فعلتها من أجلك.

“لستُ طفلة،” هكذا همست نيلاً، وهي تغوص في كرسي
أخيراً من قوة كلماته. ومن جانب آخر، فهي تشعر فعلاً
كطفلة. كان يوهانس قد حوّلها في لحظة، فصارت الآن تريد
أمها، تريد شخصاً يلحظ ألمها، وآخر يُبعد جسد ريزيكي.

- لا شيء تغير، قالت مارين، متجاهلة استجداء يوهانس:
موقفك المستهتر نحو سكر ميرمانز، نحو مستقبلنا...

ركل يوهانس الإطار المجوف فتكسّر، زاحفاً عبر الأرضية
المصقولة في اللحظة نفسها التي دخلت كورنيليا، مرفوعة الكمين،
وعلى جبينها عرق. حاملة صينية من النييد والخبز، حدقت
الخدّام في الإطار المُهتم، وهي تتردد عند الباب.

قال يوهانس:

- إنك لم تُجبري قط على تقديم تنازلات!

- بل هو كل ما فعلته طوال حياتي. تظن في مقدورك شراء
الأشياء المعنوية، يا يوهانس. الصمت، الولاء، أرواح الناس...

- سوف يفاجئك...

- أخبرني إذن، ماذا يحدث عندما يضبطونك فعلاً؟ ماذا
يحدث عندما يكتشف رؤساء البلدية حقيقتك؟

بدا أوتو وكأنه يغصُّ بأنفاسه.

قال يوهانس:

- إنني أترى من أن يقترب مني رؤساء البلدية الملاحين.

- لا... بدا صوت مارين قاسياً: "لا. إنك لا تعير انتباهاً. أنا من يراجع دفاتر الحسابات. أنا من يفعل، ودعني أخبرك أن القصة التي تحكيها الدفاتر هي قصة مؤسفة حقاً.

نهض يوهانس من كرسيه، وكأما كل شبر منه يتحمّد بالتدرّج، فيما كلمات مارين تتألب عليه مع ثلاثين عاماً من السلاسة الممتّنة.

- لطالما اعتقدت أنك مختلفة، أليس كذلك، يا مارين -
عدم زواجك، تدخلك في عملي. هل حقاً تظنين، أنك ببضعة خرائط لجزر الهند الشرقية على حائط غرفتك، وبضعة كتب عن السفر، وعنبات متعفّنة، وجماجم حيوانات، تعرفين كيف تبدو الحياة هناك؟ ماذا أفعل لضمان رفاهيتك؟ بل أنت من لا تعرفين شيئاً.

حدقت مارين فيه، وقالت:

- أحمل لك أخباراً سيئة.

لا، هكذا فكرت نيلا. ليس بهذه الطريقة. أسقط أوتو قطعة كبيرة من الخث على ألواح الأرضية. وتناثر فتاتها الأسود فوق الخشب.

- إن رؤساء البلدية يجلدون امرأة عزباء مثلك إن استطاعوا!
تزلّف يوهانس، وهو يتقدم نحوها: كل ما كان عليك فعله، يا مارين، أن تتزوجي من رجل ثري، رجل ملائم، آه، يا إلهي، أن تتزوجي وحسب - لم تنجحي حتى في تحقيق ذلك. لقد حاولنا، صحيح؟ حاولنا تزويجك، ولكن تبين أن كل جلدرات أمستردام لم تكن كافية...

ارتفع من حلق مارين صوت قاتم وأجش، لها ملتو، وقد

ارتسمت على وجهها بوضوح سنوات من الإحباط:

- هل تسمعي، يا يوهانس؟

- كنتِ أماً عديم النفع، عديم الأصدقاء منذ أن ولدتِ...

- لقد جاء رجلك الإنجليزي يطرق بابنا في أمس. عثة
ماخورك. وهل تعرف ماذا فعل؟

صرخت نيلا:

- لا!

- بسببه، ماتت حبيبتك ريزيكي.

تجمد يوهانس في مكانه:

- ماذا قلتِ؟

- لقد سمعتني.

- ماذا؟ ماذا قلتِ؟

- غرز جاك فيليبس خنجراً في رقبتها وسط دهليز منزلك.
لقد حذرتك. أخبرتك أنه خطر.

تراجع يوهانس ببطء شديد نحو الكرسي، وجلس عليه بحذر
غريب، وكأنه لا يأمن لمسة الخشب، وقال:

- إنك تكذابين.

- لولا أوتو، لربما كان قتلنا جميعاً.

تصيح نيلا: "مارينا كفى!"

نقل يوهانس عينيه إلى زوجه:

- هل كلامها صحيح يا نيلا؟ أم أن شقيقتي تكذب؟

فتحت نيلاً فيها لتجيب، لكن لا كلمات تأتي. وأمام تعبير وجهها، غطى يوهانس فمه كمن يكتم صرخة.

نهض أوتو من أمام النار عيناه مغرورقتان بالدموع:

- كان يحمل خنجراً، يا سنيور. ظننته سوف... لم أقصد قط...

قاطعته مارين:

- إن جاك لم يمت، يا يوهانس. كان أوتو أرحم منه. رجلك الإنجليزي الصغير نهض ورحل على قدميه، ووضعت زوجك جثة ريزيكي في القبو.

- أوتو؟ نطق يوهانس اسم خادمه مثل سؤال لا يتحمل أن يطرحه. وسقطت يده عن فمه، فراغاً خالصاً ينتظر موجة الحزن.

همست نيلاً:

- لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة... لكن يوهانس، وقد حلت فيه طاقة غريبة، اندفع متجاوزاً شقيقته، وكورنيليا، التي أنرستها الصدمة عند الباب. سمعوا صوت تعثره عبر الدهليز، ثم على سلم المطبخ. لحقت به نيلاً، وسمعت يفتح باب القبو. فاجعة يوهانس يتردد صداها في الممر. يهتف: "فتاتي الحلوة. فتاتي الحلوة، فتاتي الحلوة. ماذا فعل بك؟"

قطعت نيلاً المسافة المتبقية في خطى خافتة، مقاومة رغبتها في التوقف، وجزء آخر منها يعرف أنها يجب أن تحاول مواساته. وجدت يوهانس راكعاً، يحتضن جسد الكلبة المتخشب، الذي يتدلى نصفه من الجوال الملطخ بالدماء. يستقر رأس ريزيكي على ذراع سيدها، جرحها يلعب في الضوء الخافت، وأسنانها

مكشوفة في تكشيرة معوجة.

همست نهلاً: "أنا آسفة جداً،" لكن يوهانس كان عاجزاً عن
النطق. يرفع عينيه إلى زوجه، عيناه دامتان، متشبهاً بحبيته
غير مصدق.

الشاهد



بدا المنزل خلال اليومين التاليين، وكأنه يداوي نفسه في هدوء معلق. التزمت مارين غرفتها، وتولت كورنيليا تنظيم الصناديق الخيرية التي سيرسلونها إلى دور الأيتام في أعياد الميلاد، كان الكعك أصفر هذا العام، وفتائر اللحم أقل. تحاشى أوتو الجميع، ملتزماً بالحديقة حيث يحرق التربة المتجمدة من دون ضرورة. قالت له كورنيليا: "ستبعثر الجذور، يا توت"، لكنه يتجاهلها. شمت نيلا رائحة حساء كوارع يغلي، وسمعت احتكاك الأطباق وقرع المصافي مترافقاً مع بؤس كورنيليا.

يخرج يوهانس خلال اليومين مساءً. لا أحد يسأله إلى أين، لأنهم يخشون الإجابة. في المساء التالي للشاجرة، وقفت نيلا وحيدة في غرفتها، أمام بيت دماها، رفعت دمية آغنس إلى الضوء الآفل. في مكان ما في المنزل، تنهى إلى سمعها صوت شخص يتقيأ، ارتطام القيء بوعاء صفيح، وشوشات، الرائحة المنعشة لشاي النعناع لتهدئة معدة متعبة. هي أيضاً تود لو تتقيأ القلق الذي يقبع داخلها. ترجو أن يكون يوهانس في مستودع الجزر الشرقية، يعمل على بيع السكر، وإن كان سلوك آغنس في الكنيسة القديمة مستفزاً، إلى درجة لا تصدق معها نيلا أن السبب الوحيد لغضبها هو مستقبل محصولها.

وبينما تتأمل مُصفرة آغنس، شعرت نيلا برجفة تسري في ظهرها، وقشعريرة مفاجئة تنتشر في جلدها. كان رأس مخروط السكر الذي تحمله آغنس قد تحول كلياً إلى اللون الأسود. صرخت محاولةً كشط البويغات، لكنها لطخت بقية المخروط

مثل مضم. تحاول نزع المخروط - وهي تفكر بدفنه في الحديقة،
طمس طاقته - فينقسم، آخذاً معه يد آغنس الصغيرة.

رمت نيلا الدمية المشوهة إلى الأرض، وظلت اليد المبتورة
بمخروطها التالف بين أصابعها. تمتت: "أنا آسفة"، غير أكيدة
لمن توجه اعتذارها، للدمية، لآغنس، لصانعة الدمي. التلف
الذي أصاب يد آغنس المصغرة يبدو متعذر الإصلاح، وهو
بطريقة ما ذنبها بالكامل.

كانت ستعزو السبب في هذه البويغات المنمنمة إلى الطقس
السيئ، لكن بيت الدمى في الطابق الأول، حيث الرطوبة
ليست شديدة. ربما هو وسخ من المدخنة، لكن محتويات بيت
الدمى بعيدة عنها كل البعد. كل هذه الاحتمالات المنطقية؛
لا أحد منها يبدو مناسباً. هل كانت هذه اللطخة السوداء،
مثل وسم ريزيكي، موجودة منذ البداية، لكنها أصغر من أن
تلاحظها العين؟ أم أنها ظهرت من المجهول، فتشعبت استجابة
لذعرها بسبب آغنس؟ لا، فكرت نيلا - "لا تكوني بخيفة إلى
هذه الدرجة". كان تحذير آخر أغفلته. نظرت إلى بيت الدمى،
إلى تشكيلة المخبوزات، والمهد، واللوحات، وأدوات المائدة،
والكتب، وهي تمنى لو أنها انتبهت أكثر عندما وصلت الدمى،
والكلبتان في البداية. هل هناك يا ترى قنابل صغيرة أخرى لا
تستطيع رؤيتها، مستعدة للانفجار؟

إن مارين تكره هذه الدمى لوثنتها، لكن هذا المخروط
المسود، هذا الوسم الأحمر على رأس ريزيكي، هذه المنحوتات
الاستثنائية، هي أكثر من مجرد أوثان. إنها تدخلات ما تزال
نيلا عاجزة عن تعريفها. توجد قصة هنا وتبدو قصة نيلا، لكنها
لا تملك روايتها. فكرت أنها تنسج خيوط حياتي. ولا أستطيع

رؤية العواقب.

أعادت نهلا فتح دليل سميت. سقطت رسائل صانعة الدُّمى، المدسوسة بين الصفحات، من ظهر الكتاب المفتوح مثل نثار مُبعثر. وجدت إعلان صانعة الدُّمى. تدربتُ على يد ساعاتي بروس العظيم، لوكاس فندبريك. كل شيء، ولا شيء.. فكرت نهلا، في كل مرة أذهب إلى منزلها، في كل مرة أطرق بجماقة بابها الموحد، أبتغي كل شيء ولا أحقق أبداً أي شيء. لا بد من اتباع أسلوب مختلف، وبينما تحديق في الإعلان، تساءلت نهلا لماذا لم تفكر في هذا من قبل. لا رسائل طويلة بعد الآن، لا ردود حاذقة وشبه فلسفية، لا توليب ولقت، ولا خروج في البرد لتجني الإحراج في الكالفرسترات.

تهرع إلى منضدة كتابتها، وهي يُذكر كيف انتظرت على عتبة منزل يوهانس في أول يوم لها، المارة في الهيرغراخت، والصبي الأعمى والرنكة، وضحك المرأتين. هل كانت صانعة الدُّمى تعرفني حتى في ذلك الوقت؟ هل كانت تعرف كم تطلعتُ إلى غرفة، ومنضدة كتابة وصفحات لأتمق استقبالي التعيس؟

وإذ تسحب ورقة، تغمس نهلا القلم وتبدأ خطابها:

عزيزي سنيور فندبريك،

أكتب إليك لأستعلم عن مُتدربة كانت لديك.

كل ما أعرفه عنها هو أنها امرأة لها قامة طويلة وشعر أشقر، وعينان تحديقان وكأنهما ستريان داخل روعي. لقد تسَلَّتُ إلى حياتي، يا سنيور، والدُّمى التي ترسلها تصبح أكثر إثارة للقلق. كيف يُعقل أنها لا تجيبني مباشرة، ومع ذلك تختارني محوراً لمشغولاتها؟

أخبرني كيف جاءت إليك ولماذا رحلت. أي قوى تحركها لتصنع من حياتي صورة مُصغرة - غير مطلوبة، بديعة، غامضة في رسالتها؟ سميتها مِطْبَقِي لكني الآن، والعياذ بالله، أدعوها نبية - ولكن لو حدثت وكانت شيطاناً متجسساً توجب عليك طرده، فعليك مكاتبتي.

أنتظر بترقب مؤلم،

بترونيلا -

سمعت طرقاتاً على بابها، فدرست الخطاب تحت كُتاب، وأسدت الستائر على بيت الدمى ولملت رسائل صانعة الدمى. - أدخل.

وأمام دهشتها التامة، دخل يوهانس بخطى متثاقلة. فسألته، وهي تجذب عباءة البيت حول جسدها وتضع الرسائل في جيبها: "هل وجدته؟" تجد نفسها عاجزة عن الجهر باسم جاك، لكنها لا تشك في أنه الشخص الذي قضى معه يوهانس هاتين الليلتين، وإن لم يجرؤ أحد على قول ذلك.

- إنك مثل طفل، يا يوهانس، يدّعي أنه لم يسرق بكل أسف، لا. أجاب، وهو يمد يديه مثل لص أخرق، وكأن جاك قد أفلت من بين أصابعه.

- كعكة.

رفع حاجبيه، ومع أن نيلا نفسها فوجئت بصراحتها، إلا أنها صارت تجد صعوبة متزايدة في إخفاء مشاعرها مع يوهانس. هو لا ينكر الاتهام، لكنه يحاول التخفيف من حديثها. قال:

- بترونيلا. أعرف أنك لست طفلة.

كاد لطفه يؤلم أكثر من قسوته. جلست على غطاء فراشها، ونظرت إلى بيت الدمى المعلق، وقالت:

- هناك الكثير مما يُعجزني فهمه. أحياناً في هذا المنزل، أرى فرجة ضوء، وكأنني وهبتُ شيئاً. ثم تأتي أيام أخرى، أشعر وكأنني في كفن من الجهل.

قال يوهانس:

- هكذا نكون جميعنا أطفالاً فعلاً. إنني لم أقصد ما قلته في الصالون. مارين تدفعني....

- كل ما تريده مارين هو أمانك، يا يوهانس. وكذلك أنا.

- أنا بأمان.

وأمام هذا، أغمضت نيلاً عينها، وهي تشعر باضطراب عميق. لا بد أنه كان شاقاً جداً على مارين طوال هذه الأعوام، أن تُعنى بشخص يظن قوة إرادته كافية لمحاربة مشكلات الوجودا إنه مواطن أمستردامي، إنه يعرف بلا شك أنه لا يستطيع العيش هنا بمفرده؟

- ليست هذه بالزيجة التي تخيلتها لنفسك.

حدقت فيه. مشاهد من حفلات، شعور بالأمان، أطفال سمينون يصرخون بالضحك، تتساقط بينهما وتلاشي إلى سواد. كل ما يخص نيلاً أخرى، تلك التي لن توجد أبداً.

- ربما كنتُ حمقاء أن تخيلتُ أشياء.

قال:

- كلا. لقد وُلدنا لتخيل. ظل يتلصقاً، عازفاً عن المغادرة. عادت نيلاً إلى ذكرى الطرد الأخير الذي تسلمته من صانعة

الدُّمى، الفطائر والكعكات المُرتبة في سلة صغيرة، مُتوارية
خلف الستائر ذات اللون الخردلي.

- يوهانس، هل تمكنت من بيع أي شيء من سكر آغنس في
فِينيسيا؟

تهاوى على طرف فراشها. وهمس:

- إنه جبل، يا نيهلا. حرفياً. ومجازياً. العثور على مشتريين، في
هذا الوقت من العام، سيستغرق بعض الوقت.

- ولكن هل عثرت على أي منهم؟

- زوجين، نعم. كاردينال وجارية من جوارى البابا. يبدو أن
الناس لا يملكون كثيراً ينفقونه هذه الأيام. وابتسم بحزن.

- سيكون عليك التفكير في شيء لبقية المخزون. لن تترك
مارين وشأنك إن علمت أنك لم تجد سوى مشتريين اثنين. يجب
أن تعدّ نفسك محظوظاً أنني وحدي من أعرف.

يبتسم يوهانس:

- لم أكن أتوقع المرأة التي صرّت إليها.

إن هاجس نيهلا الأول هو امرأة نرويجية مُحيرة تقول
حياتها عبر الدُمى، والثاني هو حماية ثروة يوهانس من التعفن
قرب البحر. لم تكن هذه هي الصورة التي رسمتها والدتها في
أسدلفت.

- إنك لا تعرف عني إلا القدر الهزيل.

قال يوهانس:

- كنتُ أمدحك. أنتِ استثنائية. سكت، وقد بدا عليه

الإحراج: سأعود الذهاب عندما يأتي كانون الثاني، وسوف أصنع لهما أرباحهما. إن سهمي لا يخسر أبداً. ويفتح ذراعيه واسعاً، وكأن علو منزله وزخرفته فيهما الدليل الكافي.

- ولكن هل تعديني، يا يوهانس؟

- أعدك.

قالت نيلا:

- لقد صدقتُ وعدك مرة. وأدعو الربَّ أن تصدُقَ وعدك هذه المرة." في الخلفية، أشارت ساعة البندول إلى وقتها المخملي. "هاك"، تقولها، وهي تنهض عن السرير وتحدث فرجة بسيطة في ستائر بيت الدمى. "أريدك أن تأخذ هذه."

و وضعت دمية ريزيكي في يده، وخفض يوهانس عينيه، وهو يرمش في تعب، غير أكيد في البداية مما يراه. ثم قال: "ريزيكي؟"

- حافظ عليها.

لوهلة سكت يوهانس، وظلت عيناه مسمرتين على النموذج الضئيل في يده. ثم رفعه، ولمس القراء الرمادي الناعم، والعينين الذكيتين الصغيرتين، والساقين النحيلتين:

- لم يسبق لي أن رأيتُ شيئاً كهذا من قبل. في جميع رحلاتي.

لاحظت نيلا أنه لم يعلّق على الوسم الأحمر. وتمنت ألا يراه، فهذا أفضل. همست:

- هدية زفافك. أعرف أن ريزيكي لم تُصنع على هيئة البشر، ولكن أرجو ألا تخبر رؤساء البلدية.

نظر يوهانس إليها، وقد أعجزه التأثير عن قول شيء، وتشبث بالهدية مثل عزاء صهري. أغلقت نيلا الباب خلفه، وهي تصغي إلى خطواته الهادئة نحو غرفته، وتشعر بسلام غريب.

ولكن في فجر اليوم التالي، أيقظتها كورنيليا بعنف، كانت السماء تشقها خطوط برتقالية وزرقاء داكنة، لا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت الخامسة. انتفضت نيلا من أحلامها حول ملابس غارقة في الدم وغرف منكشة، وشعرت بهواء الصباح البارد.

- ما الأمر؟

- استيقظي، يا مدام، استيقظي.

- استيقظت. ما الخطب؟ سألتها. ولكنها، حينما نظرت إلى وجه كورنيليا الواضح والمتهدل، نما الخوف في داخلها:

- ماذا حدث ليوهانس؟

سقطت يدا كورنيليا من على جسد نيلا مثل ورقتين ميتتين.

- ليس السينيور. إنه أوتو. لقد رحل أوتو.

أرواح ومخافِظ



كانت كورنيليا تدور حول يوهانس في حركات تكاد تشبه الرقص، إذ عليها أن تنجز عمل خادمين. تلبسه حذاءه، وتضع في جيبيه فطائر صغيرة، وتفاحة، فقد غلب إطعامه على مخاوفها. أدخل يوهانس ذراعيه في كمي سترته. وسأل:

- أين سترتي الديباج؟

تمتت مارين، وقد بات لونها رمادياً من الإرهاق:

- لا أستغرب أن تسأل هذا الآن.

قالت كورنيليا:

- لم أستطع العثور عليها، يا سينور.

- سأفقد المرافيء. لماذا هرب هكذا؟

نادت نيللا، وهي تلحق به إلى الخارج:

- تفقد السكر أيضاً.

نظر إليها يوهانس في استنكار، وقال:

- توت يأتي أولاً. لا يسعنا أن نخسره.

لكن نيللا لم تستطع مغالبة التفكير في المخروط الصغير المسودّ في يد آغنيس في الأعلى. إنها علامة، صانعة الدُمي تحاول تحديدهم، كما حذرتهم بشأن ريزيكي. لا بد أن هناك ما يمكن عمله قبل أن يخسروا السكر أيضاً؟ لكن يوهانس كان قد ذهب فعلاً، ولا يمكن لأي زوج أن تظهر في مستودع زوجها من

دون سابق معرفة.

لا توجد علامات مقاومة على فراش أوتو، ولا أثاث مكسور، ولا اقتحام للباب. كانت صرّة ثيابه قد اختفت.

قالت كورنيليا:

- لقد أخذ سترة السنيور، أنا متأكدة من ذلك.

قالت نيلا:

- ربما سيبيعها.

- بل سيحتفظ بها على الأرجح. لماذا كان عليه أن يرحل؟

أدركت نيلا أنها لم تسأل كورنيليا ماذا كانت تفعل في غرفة نوم أوتو في الساعة الخامسة صباحاً. لكن كورنيليا بدت مُستنفذة حرقاً، واستجوابها الآن قد يضر أكثر مما ينفع.

نادت مارين من أعلى السلم:

- كورنيليا. تعالي إلى هنا.

كانت مارين في الصالون، مُرتدية ثلاث سترات، وشالاً، وزوجين من الجوارب الصوفية، وتحاول بحركات خرقاء إشعال نار في الخث. حينما اعتدلت، بدت مضمة جداً، وأطول بكثير من نيلا وكورنيليا:

- لا يمكنني إشعال الخث.

- إشعال النار وظيفة توت، يا مدام.

ليست رائحة الخث الثقيلة هي ما تسبب اختناق كورنيليا، وتدفق الدموع من عينيها. "لستُ ماهرة في هذا الأمر، ركعت الخادم أمام موقد المدفأة، وجسدها انعكاس مهزوم لروحها.

تتم: "لقد سألتُ بامتداد القناة. لم يؤخذ أي أفارقة إلى
الرسيهاوس أو بهجن الستدهاوس".

- كورنيليا... قالت مارين، وهي تهوي بجسدها على المقعد
نفسه الذي تهاوى فيه يوهانس عقب نبأ رزيكي. ويعينين
حراوين ويدين تعبثان بطبقات ثيابها، عجزت مارين عن
الجلوس ساكنة. أخذت قضة من فطيرة تفاح عمرها أسبوع
أحضرتها لها كورنيليا، ثم وضعتها جانباً. ترسل نيليا صلاة
لصانعة الدُمى، أينما كانت في هذه اللحظة - مدام، امنحي
زوجي جناحين. طيري به سريعاً إلى السفن المغادرة. اجعلي
أوتو الحبيب لا يترك هذه الأرض.

- سوف يهرب. قالت مارين، وهي تفرك صدغها وكأما
تحاول تثبيت شيء مُتملبل يتحرك في جمجمتها: سيذهب إلى
لندن. عند نهر التايمز، سيجد هناك مجالاً للتخفي بين الجموع.

قالت نيليا:

- يتكلمين بثقة كبيرة.

قالت كورنيليا:

- أخبرته أن شيئاً لن يحدث. لماذا لم يستمع إلي؟

- لأنه كان خائفاً. قالت مارين، وأنفاسها تصبح أثقل. وهي
تناول فطيرة التفاح مرة أخرى وتأكل منها بلا شهية، وتقول
كمن تتحدث مع نفسها: لقد أحسن عملاً برحيله. بإبعاد نفسه
حَمَانًا. وماذا كان سيحدث لرجل مثل أوتو إن اعتقله رؤساء
البلدية؟

تقولها نيليا:

- مارين؟ هل كنتِ تعلمين أنه سيرحل؟

أفقت من مارين ومضة ارتباك أمام السؤال. تجيب، وهي تشيح بعينها وتمسّد ثورتها:

- إنه رجل ذو بصيرة.

ألحت نيلاً وقد أغاظتها الإجابات المتتوية التي يتوارى مارين خلفها:

- وهل أنتِ من أخبرته أن يذهب؟

- كان ذلك أهون الشرّين. ربما اقترحت، لكنني لم أجبر أحداً.

- أعرف كيف تعمل اقترحاتك.

حدقت كورنيليا برعب ذليل:

- أبعده، يا مدام؟ قلتِ إن جاك لن يبلغ عنه.

- إن قدرة جاك على المفاجأة لا تنتهي. إنه انتهازي. لنفترض أنه جازف وهاجمنا، لن يحظى أوتو بمحاكمة، لن تكون أمامه فرصة للنجاة.

- يا لغرامكِ بتحريكنا، يا مارين! إن أوتو قد يموت هناك، بمحاكمة أم من دونها؟

نهضت كورنيليا، قائلة:

- إنه خادم السينيور.

- أليس خادمي أنا أيضاً؟ قذفت مارين بالفطيرة إلى الحائط، مخطئة كورنيليا، تجفل الخادم عندما ترتطم الفطيرة بجدارية زيتية للريف، ويتناثر زبيبها مثل طلقات داكنة فوق الغنمة

المرسومة. هتفت مارين:

- - ألا تهمني مصلحته؟ يوهانس لا يبالي.

- إنه في الخارج يبحث عنه الآن!

قالت بصوت أقرب إلى الفحيح:

- إن يوهانس لا يحب إلا نفسه. ولهذا نحن هنا. انزلق الزبيب عن الجدارية، واستقر على الأرض، وانصرفت مارين من الغرفة بحركة بطيئة وكأنما تثقلها ملابسها.

كأثر باهت من الوعد الذي قطعته ذات يوم، مرّت أعياد الميلاد بتناقل من دون أن يظهر أثر لأوتو. أرسلت تبرعات الطعام إلى دور الأيتام، ودفن يوهانس ريزيكي في حديقة مُسبّنة.

- لم أر السنيور على هذه الحال من قبل. قالت كورنيليا لنيلا، وجهها أبيض من القلق: حتى أنه قرأ مقطعاً من الكتاب المقدس. وكأنه لم يكن هناك.

ضعيفاً ومنطوياً، يخرج يوهانس يومياً، زاعماً أنه يبحث عن خادمه المفقود ويعمل على بيع سكر آل ميرماز. خطر لنيلا أحياناً أن عليها إخبار مارين أن السكر ما يزال كله في المستودع، وأن فرانس غاضب، لكنها لا تجد فائدة تُرجى من الأمرين، فزاج مارين لا يمكن توقعه.

البويغات على المخروط المنمنم تتلاعب بعقل نيلا، فتفقدها كل يوم، مُتيقنة من انتشارها. إلا أن المخروط يظل على حاله مع مضي الوقت، وتتعلق نيلا بذلك، وقد صارت الآن مؤمنة

إيماناً كلياً بالقوة النبوية لصانعة الدُمى. سأحارب لأظهر، هكذا
تفكر، لكن المشكلة أن نيلا لا تعرف أين ستظهر. طريق
مسدود، كما تفترض. مثل قاع كيس، يَجانُ أبكم وهش.

لم يكن أوتو موجوداً في أي مكان تتصوره فيه، وبات غيابه
سؤالاً لا أحد منهم يستطيع الإجابة عنه. دميته لا تكشف
عن شيء حتى الآن، لذا تعتمد نيلا على تخمينات الأسرة
حول مكانه. فتمسك مارين بأنه في لندن، ويوهانس يُخمن
القسطنطينية. أما كورنيليا فقتنعة أنه لم يغادر البلاد. تقبل
رحيل أوتو طوعاً هو أمر يفوق احتمالها.

قالت نيلا:

- إن مدينة ساحلية هي أفضل له. في أسدلفت، الناس
سيغلقون أبوابهم في وجهه.

قالت كورنيليا:

- ماذا، في هذا البرد؟

ردت مارين:

- لا أستبعد ذلك.

- لا أصدق أنه وافق على الرحيل، قالت نيلا، وهي تحديق
فيها، لكن مارين أشاحت بوجهها. "ليس هذا عهده."

انفعلت مارين:

- أنتِ هنا منذ اثني عشر أسبوعاً، يا بترونيليا. إن عمراً كاملاً
لا يكفي للتنبؤ بما قد يفعله شخص ما.

بدأت كورنيليا في التقاعس عن التنظيف بالخل وعصير
الليمون، والكنس والتلميع، والغسيل، والتنظيف، وأرسلت

نهلا خطابها إلى لو كاس فندبريك في بروج، و أخذت تنتظر جواباً. فكرت، ربما يؤخر الطقس الشتوي ساعي البريد، لكنه يبدو ملجأها الوحيد.

قررت أن تسأل مارين إن كان يوهانس قد تحدث إليها عن مخزون السكر الذي لم يخرج من المستودع. وجدتها في الدهليز، إذ صار من عاداتها أن تدرعه، مُحَدِّقَةً في فراغ الصالون الذي وقع فيه الشجار مع شقيقها. كان ملبس الجوز قد خرج من غرفتها، وتكدس في زبدية على منضدة جانبية، وأنصاف قشوره تلمع كالخنافس. تنظر نهلا إليهم في دهشة، فليس من طبع مارين، أن تأكل تسالي مُحَلَّاة علانية. فكرت، أقترض أنني لو خضت ثجاراً مثل هذا مع كاريل، لأكلت مثل وزني مرزبانية.

تقول: "مارين، يجب أن أسألك شيئاً."

جفلت مارين، وهي تضم شالها حولها.

- ما الخطب؟ الجوز. أكلت منه أكثر من اللازم." ثم استدارت إلى الطابق العلوي نحو غرفتها وذهبت الفرصة للحديث.

كانت كورنيليا ونهلا تمضيان ساعتها في المطبخ حيث الجو أدفاً. وفي ساعة متأخرة من عصر أحد الأيام، حينما كانت مارين نائمة، ويوهانس في الخارج، سمعتا طرقاتاً صارماً وثقيلاً على الباب الأمامي.

همست كورنيليا:

- ماذا لو أن الميليشيا تطلب توت؟ رحماك يا رب.

- حسناً، إنهم لن يجدوه هنا، أليس كذلك؟ لم تكن نهلا

لتعترف لمارين أبدأ بإحساس الراحة الذي ابتابها، لكنها مسرورة باختفاء أوتو. تخيلت جاك في منتصف مجموعة، يشير إليه بإصبع الاتهام.

لم يتوقف. قالت نيلا: "سأفتح أنا،" محاولة الاحتفاظ بوهم السيطرة على الأقل. فكرت، هذا المنزل المقلوب. إذ سيدة المنزل هي أول من يرحب بالضيوف.

ولكن من زجاج النافذة، لا تلوح سوى قبعة عريضة الحواف تعلو وجهاً ممتلئاً طويلاً. فتحت نيلا الباب، وهي تشعر بارتياح لأنها ليست المليشيا، نزع فرانس ميرمانز قبعته ودخل مباشرة. يدفع معه برد كانون الأول وانحنى عابثاً بحفاة قبعته.

قال:

- مدام براندت. جئتُ لمقابلة زوجك.

قالت مارين:

- ستجده في البورصة.

جفلت نيلا، واستدارت لترى مارين تنتظر على الدرج. كانت كمن تعلم بقدومه. بدا الجو مشحوناً، انتظرت نيلا ما سيفشيانه من دلائل العاطفة بينهما. لكن، لا شيء يأتي. قالت نيلا لنفسها، طبعاً. إن مارين متمرسة في الحفاظ على مظهر هادئ.

يقول ميرمانز:

- لقد ذهبتُ فعلاً إلى البورصة. والثوك. وعدد من الحانات. وفوجئتُ أنه ليس هناك.

قالت مارين:

- لستُ وليّة أمر أخي، يا سينور.

وأمام هذا، رفع ميرمانز حاجبيه:

- لسوء الحظ.

- هل ترغب في شيء من النبيل بينما تنتظره؟ سألته نيلا،

لأن مارين ترفض الخروج من الظل.

التفت إليها:

- لقد أخبرت زوجتي في الكنيسة القديمة أن زوجك يبيع

سكرنا في فينيسيا.

تشر نيلا بعيني مارين تحرقان ظهرها.

- أجل، يا سنيور. لقد عاد الآن...

- أعلم أنه فعل، يا مدام. إن رجلاً مثله لا يخفي شيئاً من

تحركاته. عاد براندت سالماً معافى من عند الكاثوليك الفينيسيين.

انتهت أعياد الميلاد ونحن على أعتاب العام الجديد. لذا أجدني

أسأل نفسي، أين أرباحي؟

- أنا واثقة أنها في الطريق...

- إنه لم يكتب لي. لذا ذهبت ليلة أمس إلى المستودع لأرى

كيف سارت رحلته إلى فينيسيا، وهذه المرة، اصطحبت

أغنيس. وليتني لم أفعل! دار حول نفسه في اتجاه مارين، قد

جمحلت عيناه من الغضب: لم تترجح حبة واحدة من مكانها،

يا مدام. ولا حبة واحدة لعينة. أنتم أكثر من عديمي منفعة،

كل ثروتنا، كل مستقبلنا، يتعفن في الظلام. لقد لمستته، تحول

بعضه إلى معجون."

ظهرت الصدمة على مارين بوضوح، وعجزت عن استيعاب

الموقف وتطويعه. سرى الشعور بالذنب عبر نيللا ومارين التي تلوح بيدها، عزلاء أمام غضبه.

قالت مارين متلعثمة:

- فرانس. هذا مستحيل...

- سيكون هذا سبباً كافياً لتدمير يوهانس براندت، ويعلم الرب، أنني لم أعدم الأسباب فعلاً، لكننا عندما خرجنا من المستودع، رأينا ما هو أسوأ. أسوأ بكثير.

تتقدم مارين قليلاً، وتقول بصوت خافت:

- إنه يعمل على بيعه فعلاً، يا فرانس. كن مطمئناً...

- هل تعرفين ماذا رأينا، يا مدام، خلف الجدار؟

هرولت كورنيليا من سلم المطبخ. وشعرت نيللا بقلبها يخرج من صدرها. رغبت في إمساك يدي كورنيليا، لكن، هذا الرجل يحاصرها. "كان يجدر بي إخبار مارين، همست لنفسها، كان الهواء يتذبذب من حولها مع تزايد غضب ميرمانز. كانت لدى مارين شكوك فعلاً، ولكن، لو أنني أأكدت لها أن السكر مازال على حاله، وأن فرانس قد سبق له رؤيته، فربما أمكنها وضع حد لكل هذا. إنها الوحيدة التي تقيم شيئاً من النظام في هذا المنزل.

انكشفت مارين على الدرج، مع تقدم ميرمانز، في صورة مناقضة للرومانسية أو أي حب رقيق. وبينما يحرق في عينيها، ومضت في عقل نيللا صورتان لقصتهما القديمة، هدية الخنزير الصغير المملح ورسالة فرانس الجميلة، المخبأة بداخل كتاب. وتصلّي، اجعل فرانس طيباً معها.

- لقد رأينا، قال ميرمانز، بصوت خفيض: رأينا شيطنته.

قالت مارين:

- ما الذي تحدث عنه؟ أي شيطنة؟

- أتوقع أنك تعرفين منذ البداية. كيف يقضي وقته قرب جدران المستودع. وشيء كهذا لا يمكنك ألا تريه.

- لا.

- بلى، قال ميرمانز، مُعتدلاً ومُلتفتاً إلى نيلا: يجب أن يعرف العالم، يا مدام، كيف يُرضي زوجك المقرف شهواته مع صبي. أغمضت نيلا عينيها وكأنها ستمنع كلمات ميرمانز من أن تدخلها. لكن الأوان فات. وعندما فتحتهما مرة أخرى، بدا ميرمانز سعيداً بصورة مبالغة. آه، لست أول من يجلب لي هذه الأنباء، هكذا تفكر، عاجزة عن مقابلة عينيه. منحني زوجي هذا الشيء على الأقل.

لم تعد النساء الثلاث قادرات على الكلام، وقد أثار صمتهن غيظ ميرمانز، فتابع القول: إن يوهانس براندت فاسق. قالها وكأنما ليستفز ذهولهم المرتعب: دودة في فاكهة هذه المدينة. وسوف أقوم بواجبي كمواطن تقي.

همست مارين:

- لا بد أن هناك خطأ ما.

- لا خطأ هناك. والأدهى أن الصبي يزعم أن يوهانس قد اعتدى عليه.

قالت نيلا:

- إنك صديقه... خرج صوت مارين متقطعاً، ويدها تنزلق عن سور السلم: لا تسعي إلى هذا العقاب وأنت تعرف نهايته.

- لقد ماتت صداقتي مع ذلك الرجل منذ أعوام.

- لماذا إذن طلبت منه بيع سكرك؟ لماذا اخترت أخي من بين

التجار جميعهم؟

قال، مُقحماً قبعته بعنف في رأسه:

- آغنس هي من أصرت.

- لكنك وافقت، يا فرانس. لماذا قد توافق لو أنك لا تحمل

في قلبك بقية مودة؟

رفع ميرمازيده ليكفها عن الكلام:

- إن سكرنا منبوذ كروحه. وعندما رأيت الكُفر الذي كان

يرتكبه، بدا وكأن بعل زبوب نفسه قد هبط من السماء.

- إن بعل زبوب سيهبط علينا جميعاً، يا فرانس، إن واصلت

ما تفعله! تقول إنك تفعل هذا من باب واجبك نحو الرب

لكنني أظنك تفعله من أجل نقودك. المال، الثروة - لم يكن

هذا عهدي بك.

فكرت نهلاً، لا بد أنه جاك، لصق جدار المستودع. تكاد

تتمنى لو أنه هو - شيء من الثبوت على الأقل، حب ربما، في

الظلال المتقلبة لهذه الكارثة. تتساءل هل مازال يوهانس يا

تُرى هناك في المستودع، غافلاً عن اقتضاح أمره. تفكر، يجب

أن يعرف. عليه أن يهرب.

سألت:

- هل تحدثت إلى زوجي؟

التفت ميرمانز إليها بتعبير هازئ، وقال:

- قطعاً لا. كانت آغنس - بل كلانا وجب أن يغادر
المشهد. إنها لم تفق من صدمتها بعد.

توسلت إليه مارين:

- لا تسع إلى هذا الانتصار، يا فرانس. ستمرنا جميعاً. يمكننا
الوصول إلى ترتيب...

- ترتيب؟ إياك والتحدث معي عن ترتيبات، يا مدام. لقد
رتب يوهانس ما يكفي من حياتي.

- فرانس، سوف نبيع سكركم، وليكن هذا نهاية...

- لا، يا مارين. يقولها وهو يفتح الباب بقوة: إنني رجل
مختلف الآن، ولن أقف في وجه المد.

هروب



عندما خرج فرانس ميرمانز عاصفاً إلى النهار القارس، انهارت ساقا مارين. كان مشهداً ثقيلاً على النفس، مثل انهيار شجرة باهرة الجمال. هرعت إليها كورنيليا، تحاول أن تسندها. قالت مارين مُحَدِّقة في نيلا:

- لا أصدق ذلك. هل هو صحيح؟ هل يمكنه فعلاً أن يكون بهذه الحماسة؟

قالت كورنيليا:

- إلى الفراش، يا مدام. وحاولت رفع مارين في جهد عقيم، فانحنت تحت ثقلها، أبعدها سيدتها، وهي تجلس على سلم البهو. قالت مارين:

- سوف يذهب فرانس إلى رؤساء البلدية. زعزعت الكلمات الجوالمش الذي خلقه ميرمانز. كان منظرها تقشعر له الأبدان، عينان ميتتان، جسد مرتجج، وصوت خالٍ من أي روح:

- - لم يأتِ إلى هنا من البداية ليعرض التسامح. لقد جاء للتباهي لحسب.

قالت نيلا:

- علينا إذاً استغلال غروره. لا يعرف يوهانس أن أحداً شاهده. أمامه بضع ساعات لحسب ليهرب خلالها.

قالت كورنيليا:

- السنيور أيضاً؟ ولكن لا يمكن لثلاثتنا أن نعيش بمفردنا

هنا.

سألها نيلا:

- هل لديك فكرة أفضل؟

غرق الدهليز في صمت عميق. كانت نيلا تداعب أذني دانه الناعمتين بين أصابعها، وهي تفكر في مخروط آغنس المُسودّ في الأعلى، وتتساءل أين تُراه يوهانس. لقد غضب ميرمانز بسبب السكر، ربما أكثر من رؤية يوهانس يستمتع بالفاكهة المحرمة. إن بضعة آلاف من الجلودرات لربما تبطل هذا الغضب نحو آل براندت.

قالت:

- لا أعرف كيف، ولكن علينا أن نبيع السكر. إن ميرمانز ينشد النقود.

رفعت مارين عينها إليه:

- قال إن بعضه صار عجينا.

- تماماً، بعضه. إنه يبالغ على الأرجح. يحب الكذب. وربما يُسكته أن نبيع مخزونه.

- لا شيء، سيسكت هذا الرجل. صدقيني. وماذا تعزمين؟ هل تعرفين جميع وكلاء الشراء في أوروبا وخارجها، يا برونهلا، طهارة لندن، وحلوانهين ميلانو، الدوقات والماركيزات والسلطين؟ هل يمكنكِ التحدث بنحس لغات؟

- إنني أبحث عن الضوء، يا مارين. وسط كل هذا الضباب.

بعد ساعة، وقفت نيلاً أمام بيت دماها، مُحَدِّقة في الغرف
بحثاً عن دليل ما، عن إشارة تخبرها ماذا تفعل. ساعة البندول
الذهبية تذكير مُنتظم ورهيب أن زوجها لم يعد إلى المنزل
بعد، وأن الدقائق تمر. كم هو غريب، أن بعض الساعات تمر
وكانها أياماً والأخرى تطير بسرعة البرق! خارج النافذة، كان
الجوقارس البرودة، وتشعر بإحساس الخدر في أصابع قدميها،
فتتخيل لحمها ميتاً، مثل الرجل الذي عُثر عليه مُقطعاً تحت
الجليد. إن أنفاسها تصنع بخاراً، إذاً، ما زلتُ حية.

تسلل ضوء القمر قوياً من فتحة في الستار، مُظهراً كل
تفصيل في التصميم الدوّار على غلاف البيوتر، ومُحليلاً إياه إلى
حفر زئبقي في الخشب. دخل الضوء إلى الغرف التسع كلها،
ووجوه الأشخاص في داخلها تكاد تتوهج. كأس العروسين يشبه
قع خياطة باهت، وسديل المهد كبيت عنكبوت مُتلائي.
استقرت يد آغنس المبتورة على كرسي كحلية فضية، ومخروط
السكر أبيض ناصع باستثناء رأسه. تحاول نيلاً أن ترى إن
كان قد أصبح أغمق. لكنها ليست متأكدة. ما تزال البويغات
السوداء مرئية بصورة كثيفة، واستقرت في كفها مثل شيء
عليل.

فكرت، لستُ حتى ببناء حظي، فما بالك بمهندسته. العبارات
الموجزة لصانعة الدمي ومنحوتاتها الجميلة ما تزال حبيسة عالمها
الخاص، ملبوسة جداً إلا أنها ما تزال بعيدة المنال. إنها الليلة،
وكانها تسخر منها. كلما تعمّر على نيلاً أن تفهم لماذا تفعل
صانعة الدمي كل هذا، صارت صانعة الدمي في عينيها أكثر
قوة. تصلي نيلاً أن يكون لو كاس فندريك قد تسلّم خطابها، أن
تحصل على شيء من الوضوح لتجد المفتاح.

تناولت نهلا تمثال زوجها من بيت الدمى، ووزنته في كفها. هل كانت صانعة الدمى تعرف أن هذا أيضاً سيحدث، يوهانس يكشفه عدوه على المرفأ؟ ما يزال ظهره مائلاً إلى جانب، مثقلاً بصرة نقوده. لا يبدو أنها خفت، حاولت نهلا أن تستمد الشجاعة من هذا، لكنها لا تثق في نفسها ثقة كاملة لتخمين معناه الحقيقي.

سمعت باب المنزل الأمامي، تعقبه التكة المألوفة لباب مكتب يوهانس إذ يدخله. أعادت نهلا دميتها إلى الخزانة، ثم نزلت الدرج راكضة، ودخلت الحجرة من دون طرق.

- يوهانس، أين كنت؟ داست بقدميا الصوف الناعم لبساطه، الذي تشرب نسيجه بالرائحة القديمة لريزيكي.

- نهلا؟

بدا، عجوزاً منهكاً، وهذا ما جعلها تشعر أنها أيضاً كبرت. فكرت، إنه لا يعرف أن هناك من شاهده. في وسعها أن ترى أنه لا يملك أية فكرة. اندفعت نحوه وأمسكته من ذراعيه، قائلة:
- يجب أن تغادر، يا يوهانس. يجب أن تهرب.

- ماذا؟

- ولكن يجب أن تعرف شيئاً. أنا متأكدة أنك بذلت كل ما في وسعك من أجلي، بيت الدمى، ووليمة النقابة، وباقة الأزهار والفساتين. نقاشات لم أشارك في مثلها من قبل. أريدك أن تعرف هذا، قبل أن تذهب.

- اجلسي، هدئي من روعك. لا تبدين على ما يرام أبداً.

- يوهانس، لا. يتوقف نهلا، وهي تجمل عينيها في الخرائط،

والأوراق، والدواة الذهبية، أي شيء سوى النظرة الموزونة لعينيه الرماديتين: آغنس وفرانس، لقد رأياك، يا يوهانس. في المستودع. مع شاب.

اتكأ على كرسيه العالي. وبدا كمن تعطلت التروس في داخله، فتباطأت حركته تمهيداً للتوقف.

- سوف يقتلك رؤساء البلدية... ألحت نيللا في وجه صمته، مُنصتة إلى كلماتها المتهورة تتخبط معاً في غمضة: هل كان جاك؟ كيف أمكنك؟ بعد أن خانك بفعلته مع ريزيكي...

- ليس جاك فيليبس هو من خانني. قال يوهانس، بصوت أقسى من أي مرة سمعته فيها: إنها هذه المدينة. إنها السنوات التي نقضينا جميعاً في قفص وهمي.

- لكنه...

- إن سلوك أي شخص سيتشوه من أثر هذه المراقبة المستمرة، هذا التدين المتشدد - جيران يراقبون جيرانهم، حبال تلتف لتجكنا جميعاً.

- لكنك قلت لي ذات مرة: إن هذه المدينة ليست بجناً، إن سلكتُ الدرب الصحيح.

فتح ذراعيه، وقال:

- حسناً، إنها مجن. وقضبانه مصنوعة من رياء قاتل. سوف أرحل الليلة قبل أن يصبح الهروب مستحيلاً.

إنه فظ، يتألم، ويتكلم بغير طبيعته. عظام نيللا تنساقط عبر جسدها، وكأنها سوف تذوب فوق بساط زوجها ولا تعود إلى الوقوف أبداً:

- إلى أين ستذهب؟

- أنا آسف، أيتها الفتاة الحلوة، تكاد لا تتحمل هذا الحنان: من الأفضل ألا أخبرك. سوف يسألونك ماذا تعرفين، وهم يملكون طرقاً للحصول على إجاباتهم. بحث بين أغراضه فوق طاولة المكتب وناولها ورقة: كنتُ أجهز قائمة بالأسماء التي قد تهتم بشراء السكر. أعطها لمارين. إنها ضليعة في دقة الحسابات، لذا لن تواجهك أية مشكلات هناك. سأمنحك اسم وكيل أثق به في الشوك.

- شريك آخر في العمولة، يا يوهانس؟ إن أي ربح سيتقلص كثيراً.

- كنتِ مُنتبهة. ابتسم بصعوبة، وهو يرفع غطاء صندوقه ليأخذ رزمة من الجلدات، ولاحظت نيلا كيف أن داخله فارغ: لكنني لا أرى طريقة أخرى لبيعه من دون وكيل.

- هل ستعود إلينا؟

تنهد يوهانس:

- إن هذه المدينة لا تشبه أي مدينة أخرى في العالم، يا نيلا. إنها باهرة لكنها مغرورة، ولم أشعر قط أنها وطني.

- فأين الوطن إذن، يا يوهانس؟

نظر إلى الخرائط على حائطه. وقال: لا أعرف. إنه حيث يجد المرء راحة نفسه. وهذا ما يصعب العثور عليه.

في تلك الليلة، كانت نيلا هي الوحيدة التي ودعت يوهانس، وهو يرتدي عباءة سفره، ويبدو محدودباً في وجه البرد: وداعاً.

- سوف ... أشتاق إليك.

أوما لها، ولمحت تفرق الدمع في عينيه:

- لن تكوني وحدك، لديك كورنيليا.

ثم سكت، مُسويةً رباط حقيبتته، وبدا هسًا للغاية، عجوزاً مرغماً على مغامرة مفروضة:

- لديّ أصدقاء في بلدان كثيرة. سأكون على ما يرام. أنفاسه مثل دخان حار في الهواء المتجمد، سأذكرك. اعتني بمارين. احرسيا. إنها في حاجة إلى ذلك أكثر مما تظنين. ولا تدعيها تطعمك الزنكة أبداً.

تفرز المزحة في داخلها مثل سهم، ألم عظيم لم يتوقعه. إنها تعجز عن التعامل مع هذه الألفة المتأخرة، وحلاوة هذا التفاهم تسلل في غير وقتها. همست:

- يوهانس، عدني أنك ستعود.

لكن زوجها لا يجيب، لأنه كان قد مضى بصمت في ممشى القناة، مُتمرساً في الاختفاء، وحقية النقود يتأرجح على خصره. فكرت، لن أراه مرة أخرى.

ازداد الليل ظلمة، وباتت النجوم أعداء، والبرد سكيناً على عنقها، لكن نيلاً تنتظر، حتى يصبح من الصعب أن تميز بين يوهانس والظلام الذي يحمله بعيداً.

نصف دائرة



أيقظها صوت قعقة بالخارج. كانت نيلاً قد نامت ليلتها في مكتب يوهانس، وترك بساط زوجها أثراً على وجهها. في البداية، ظنت أن الصوت قادم من ناحية الخاديات على طول شارع الهيرغراخت، حيث يغطس ماصحون في الدلاء، ويغسلن العتبات، ويزن أنقاض اليوم الأخير من عام ١٦٨٦م. لوهلة، نسيت كل شيء، مُحَدِّقة في خرائط يوهانس الجميلة. ثم تدافع غضب ميرمانز وهروب يوهانس إلى عقلها، مُغلقين أي سبيل لتفكير هادئ. نظرت إلى السقف، حيث آثار الشموع سوداء مثل اللطخة على مخروط آغنس المنعم.

ثمة من يناديها، إنها كورنيليا، صوتها حاد وهستيرى:

- مدام نيلاً مدام نيلاً فركت نيلاً عينها. وكانت القعقة قد توقفت. داخلة، تعطي صندوق الجلدات وتنظر من النافذة. شرائط حمراء فوق صدور بارزة، وميض معدن مصقول، سيوف وطبنجات. ميليشيا سانت جورج. ثم بدأ القرع على الباب الأمامي. اقتحمت كورنيليا الحجر. وهمست مدعورة:

- إنهم الميليشيا، لقد جاؤوا.

أغمضت نيلاً عينها، ولتت شكراً سريعاً لأن يوهانس لا بد أنه على متن سفينة الآن، بعيداً عن هنا. كانت مارين في الدهليز بينما الطرق يستمر، فعقدت النساء الثلاث اجتماعاً عاجلاً، وبينن دانه ثوابت على أقدامها.

سألها مارين:

- هل ذهب؟ أومأت نيلا، رأت أماً عابراً في وجه مارين، أخفته بسرعة: لا أتق بنفسني معهم. قالت، وهي تصعد السلم فيما نيلا تحاول السيطرة على الكلبة.

- مارين، لا...

- لن أتمكن من السيطرة على أعصابي، خاصة لو أن فرانس ميرمانز بينهم.

- ماذا؟ لا يمكنك أن تركيني معهم...

- إني أتق بك، يا برونهلا...

اختفت مارين. وفتحت كورنيليا الباب الأمامي وفوق أعلى سلمة وقف ستة ضباط من ميليشيا سانت جورج، في زي محاربين فاخر. يعرضون دروعهم من الفضة والبيوتر، وبنادقهم يتأرجح عند أوراكهم. لم تقل نيلا شيئاً، يداها متشابكان، وأحشاؤها تبدأ في الاضطراب. لاحظت بارتياح أن فرانس ميرمانز ليس بينهم.

صرخ أقرب ضابط إلى الباب:

- جثنا من أجل يوهانس براندت. كانت له لكنة مدينة لاهاي، ألفاظه مفككة، لا تشبه الأمستردامية كثيراً.

أجابت نيلا، وهي تشعر بثقل فكها:

- إنه ليس هنا، يا سنيور. فكرت، لن أسأله لماذا جاء. لا أغلال، لا اقتحام للمنزل، لن أمنحه فرصة الإمعان في إذلالنا.

نظر الضابط المدني في عينها مباشرة. إنه طويل القامة، في مثل عمر يوهانس تقريباً، أصلع باستثناء لحية مشدبة أكثر من الآخرين. خطها الشيب وحددت في نهايات مدينة قديمة

الطراز. يسأل:

- أين هو إذن؟

أجابت نيلا: "مسافر،" الكذبة سريعة كالأنفاس، مع أنها تشعر بلسانها متورماً وثقيلاً وجدت صعوبة في أن تبدو مقنعة. حاولت تقليد مارين في تسلطها، لكنها تشعر بثقتهم الجماعية وهم ينظرون بازدراء إليها، أو سمّتهم الموحدة اللامعة، أشرطتهم الحمراء المفرودة، صف متجههم من إخوان متحدين. تبرز الصدور نحوها، والبطون، متخمة بأنغم الأطمعة.

قال آخر:

- نحن نعلم أنه هنا. لا أظنك ترغبين في إثارة ضجة أمام بيتكم.

قالت ماضية في إغلاق الباب:

- طاب نهاركم، لكن ضابط الميليشيا مدّ قدمه وأوقفها. وعلى أصوات ضحك مكتومة من الخمسة الآخرين، دفع الخشب، والحظّة علقت الشابة والجندي الأشيب في حرب قوى صغيرة. ينتصر بسهولة، ويدخل الرجال الستة معاً، أقدامهم الثقيلة تدق البلاط الرخامي. يخلعون خوذاتهم، وهم يجيلون أعينهم في الجداريات واللوحات، والسلام المصقولة في نغامة، وحاملات الشمع الجدارية والنوافذ اللامعة. يبدون كتحققين يفحصون جثة، أكثر منهم ضباط عسكرية.

صاح الضابط الأول، حينما وقعت عينه على كورنيليا:

- يا فتاة. اذهبي وأحضري سيدك. وعندما لم تتحرك، وضع يده على مقبض سيفه. وقال: أحضريه، أو نعتلك أيضاً.

قال آخر مع ضحكة:

- لُنُقِي بِهَا فِي السَّبِينْهَاس فِي طَرِيقِنَا لِنَال جَرَعَةَ مِنْ التَّأْدِيبِ.

تَسَاءَلَتْ نَيْلَا: هَلْ شَهِدَ هَؤُلَاءِ السِّتَةُ يَا تَرِي يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ مَعْرَكَةِ حَقِيقِيَّةٍ؟ يَبْدُو عَلَيْهِمُ الْوَلَعُ بِالزِّي الَّذِي يَرْتَدُونَهُ. اهِرَبْ، يَا يُوَهَانِسْ، هَكَذَا فَكَّرْتُ، مُحَاوَلَةٌ لِإِحْمَادِ ذَعْرِهَا الْمَتَزَايِدِ. اهِرَبْ، اهِرَبْ، بَعِيدًا جَدًّا.

قَالَتْ:

- سَبَقَ لِي أَنْ أُخْبِرْتُمْ فَعَلًّا أَنَّهُ لَيْسَ هُنَا. وَالْآنَ، يَا سَادَةَ، طَابَ نَهَارِكُمْ.

سَأَلَ الضَّابِطُ الْأَوَّلُ، مُتَقَدِّمًا مِنْ نَيْلَا:

- هَلْ تَعْرِفِينَ لِمَاذَا نَرِيدُهُ؟ وَانْتَشَرَ الْخَمْسَةُ الْآخَرُونَ، مُشْكَلِينَ نِصْفَ دَائِرَةٍ فَضْفَاضَةً حَوْلَهَا وَكُورْنِيلِيَا: نَحْنُ هُنَا بِأَمْرٍ مِنْ مَخَاوِثِ سَلَابَارْتِ وَكَبِيرِ رُؤَسَاءِ الْبَلَدِيَّةِ فِي السِّتْدَهَاوَسْ، يَا مَدَامُ بَرَانْدَتِ. وَضَبَابُ السَّجْنِ فِي السِّتْدَهَاوَسْ يَتَطَّلَعُونَ إِلَى زِيَارَتِهِ.

قَالَتْ نَيْلَا:

- أَغْلَقْتِي الْبَابَ، وَهَرَوْتُ كُورْنِيلِيَا لِتَنْفَسِدِ الْأَمْرِ، فَأَظْلَمَ الْمَكَانَ عِنْدَمَا أَغْلَقْتُ الْخَادِمَ الْبَابَ فِي وَجْهِ الْحَيَاةِ فِي الْخَارِجِ: يُمْكِنُكَ التَّحَدُّثُ إِلَى زَوْجِي عِنْدَمَا تَجِدُهُ.

سَأَلَ ضَابِطُ آخَرَ:

- لِمَاذَا؟ هَلْ فَقَدْتُمْ أَثْرَهُ؟

- أَرَاهُنْ أَنِّي أَعْرِفُ أَيْنَ هُوَا هَكَذَا يَجِيبُ آخَرَ مَعَ نُوبَةٍ مِنْ ضُحْكَ مَكْشُوفِ هَذِهِ الْمَرَّةِ، فَتَمَنَّتْ نَيْلَا أَنْ يَمُوتُوا جَمِيعَهُمْ.

يقول الضابط الأول:

-لقد بلغ إنجليزي عن تعرضه لاعتداء على الجزر الشرقية،
يا مدام. وممثل إنجلترا مُستنفر نياة عن مَلِكِه - وهناك شاهد
إثبات.

فكرت نيلا: " لا بد أن آل ميرمانز وجاك قد تعاونوا -
الفتى يتلقى أجراً، من دون شك، مقابل أدائه واحداً آخر
من أدواره. إن آغنس وفرانس أبعد ما يكون عن التحالف
مع جاك فيليبس، ولكن ما أهمية ذلك في مواجهة انتقام
جماعي لذيذ؟ تخيل نيلا اقتلاع رؤوس منمنماتهم وهم ثلاثتهم
مقطعون ومجردون من قوتهم.

إنها تفقد السيطرة على الوضع. تُجبل عينيها بيأس في الوجوه،
بِحناً عن قطرة لطف، أو حتى استكراه. إن أي موطن ضعف
سينفي بالعرض، وسوف تستغله. هناك ضابط واحد يبدو أكبر
سناً من يوهانس، لكنه يملك الوجه المسفوح والصريح نفسه،
عندما تلتقي أعينهما، يدير وجهه، وتمسك نيلا بما تأمل أنه لمحة
خزي عالقة.

سألته:

- ما اسمك، يا سينور؟

- آلبيرس، يا مدام.

- ماذا تفعل هنا، يا سينور آلبيرس؟ إن مقامك أكبر من
هذا. اذهب واقبض على القتلة، اذهب واقبض على اللصوص.
لم يجد ذلك نفعاً، وفي وسعها أن تسمع اليأس والخوف في
صوتها:

- لقد شارك زوجي في رفعة هذه البلاد، ألم يفعل؟

- سأحرص على أن يعامل زوجك جيداً.

- سوف تعود إلى زوجتك. وستنسى.

قال الضابط الأول، متجولاً في أبهة الدهليز في منزل يوهانس:

- إن زوجك في ورطة، يا مدام براندت. ولن ينقله أيُّ من هذا.

لسعها الغضب؛ هياج لا يبالي بشيء. تصرخ، وهي تتقدم نحوهم:

- كيف تجرؤون؟" فيتفرقون مثل سرب من الأسماك المتفاجئة: أيها الرجال الناقصون، الذين تكسوهم الأجداد المستعارة!

يتوسل كورنيليا:

- مدام!

- اخرجوا،" تقولها بصوت مهَّدد. جميعكم. تخاطبونني في منزلي كالممجين...

هتف الضابط الأول عبر البلاط:

- مدام. إن الهمجية الحقيقية هي لوطية زوجك.

تبقى الكلمة معلقة في الهواء. تنقطع لها أنفاس نيل، متجمدة بين صمت الرجال. إنها كلمة تضع ديناميتاً تحت بيوت أمستردام، أسفل كائسها وعبر أراضيها، ممزقة حياتها الثمينة. إنها أسوأ كلمة في قاموس المدينة بعد كلمتي جشع وطوفان - إنها تعني الموت والضباط يعرفون ذلك. وإذ تُسكتهم خطبة قائدهم المتبجحة، يعجزون عن النظر في عيني نيل.

من الطابق العلوي وصلهم صوت يكاد لا يسمع لباب يُغلق. ثم يخترق اللحظة المعلقة الغريبة صوت أقدام تركض في الخارج. يستديرون جميعاً، ويبرز من الباب الأمامي رأس صبي صغير لا يزيد عمره عن تسعة أعوام، كما تفترض نيلا، وجهه مفعم بالفرح، وفه يتدلى فاغراً فيما يلتقط أنفاسه. يصيح:

- لقد وجدناه.

سأل آلبيرس:

- ميتاً؟

ابتسم الصبي مظهرأ أسنانه:

- حياً. على بعد ستين ميلاً شمالاً. لقد أمسكنا به."

شعرت نيلا بمعدتها تنهار، وركبتها تنزلقان إلى الأرض الصلبة الباردة. أمسك بها شخص ما قبل أن تسقط، إنه آلبيرس، الذي يوقفها بلطف على قدميها. ترنحت، فالخبر الذي جلبه الصبي فرض نفسه عليها، وجعلها تتنفس بصعوبة. شعرت بوحدة شديدة مع كل هؤلاء الرجال، الذين لا يهمهم أتلقي زوجها محاكمة عادلة أم لا.

سأل الضابط الأول:

- أين كان، يا كريستوفو؟

- على متن سفينة، يا سيدي، عند جزيرة تيكسل. تقدم كريستوفو إلى داخل البهو، وعيناه تحدقان في البهاء من حوله. "أمسكت به مجموعة المُقدِّمة. انتخب مثل هريرة. وأخذ يقلد صوت بكائه. يتمم آلبيرس:

- حباً في المسيح.

وهمست نيلا:

- كلا، أنت تكذب.

ضحك الصبي باستهزاء، وقال:

- لقد مزح قائلاً، إنه لم يذهب إلى الستدهاوس من قبل.
حسناً، إنه لن يمزح بعد الآن.

صنع آلبيرس الفتى على قفاه. وصرخ، فيما الطفل يصرخ الماء:
- أظهر بعض الاحترام.

لكن الضابط الأول لجمه. قائلاً:

- لقد قدم كريستوفولتوّه خدمة عظيمة للبلاد.
أجابت نيلا بحدة:

- وكذلك فعل زوجي. لعشرين عاماً.

التفت إليها:

-لن نأخذ من وقتك أكثر من هذا.

تحركوا نحو الباب، فقالت نيلا:

- مهلاً، ماذا - ستفعلون به؟

- لستُ أنا من أقرر هذا، يا مدام. سوف يبحث السخاوت في الأدلة. ستقام جلسة استماع تليها محاكمة، والتي أتوقع أن تكون قصيرة، إن اتضح صدق ما سمعناه.

شقوا طريقهم أسفل سلم المدخل، يتوسطهم كريستوفولتو كتميمة ظافرة، ومضوا في شارع القناة نحو المدينة. نظر آلبيرس ورائه مرة واحدة، وهو يمنح نيلا إيماة مخرجة أخيرة. سارت الميليشيا بإيقاع عشوائي، وكان الإثارة التي خلفها لمجاحهم قد

ضوقت على النظام. ثم لم تلبث خطواتهم أن صارت تجوالاً
عابثاً، ومداعبات متبادلة، وضحك كريستوفو يعلو إلى أن اختفى
أثرهم.

ارتجفت نيلا في الهواء الأزرق لليوم الشتوي. على امتداد
شارع الهيرغراخت، تراجعت بضعة ظلال في النوافذ من
أمام عينيها. أعين عديدة تراقبها، كما يبدو، لكن لا أحد يهب
للمساعدة.

- سيقتلونه... قالت كورنيليا، مُكفئة على نفسها فوق سلم
الدھليز.

قرفصت نيلا، ووضعت يديها على ركبتي كورنيليا، قائلة:

- اهدئي، اهدئي. علينا أن نلحق به إلى الستدهاوس.

- لا يمكنك. قالت مارين التي ظهرت، متلفعة شالها، وارتم
ظلها طويلاً في ضوء الشموع.

- ماذا؟

- لن نجني بهذا سوى لفت الأنظار.

- مارين، نحتاج إلى معرفة ما سيفعلون به!

- سيقتلونه، كررت كورنيليا، وهي ترتجف:

- سوف يُغرقونه.

- كورنيليا، برّيك.

أغلقت مارين عينيها، وفركت صدغيها. شعرت نيلا بالحنق
من جمودها، وإحجامها عن الإمساك بتلابيب الموقف ورجه حتى
يخضع.

- أين قلبك، يا مارين؟ لم أكن لأترك أخي أبداً لمصيره.

- هذا ما فعلته، يا برونيللا. لقد تركته في أسدلفت وفررت
بنفسك.

- لم أكن أسمى هذا فراراً.

- ماذا تعرفين عن رؤساء البلدية؟ أنت، يا من قضيت حياتك
تكدهن في الحقول، وشربت اللبن من أبقار مزرعتك؟

"ليس هذا عدلاً. ما خطبك؟"

بدأت مارين في النزول نحو نيللا في نهاية السلم، درجة درجة
بدقة بطيئة وغريبة: هل تعرفين ما كان يوهانس يقوله لي دائماً؟
سألته، والغلُّ في صوتها يشق هواء الشتاء ويجعل الشعيرات
على ذراعي نيللا تنتصب: 'الحرية شيء مجيد. حرري نفسك، يا
مارين. قضبان قفصك هي من صنعك.' حسناً، إن تحرير المرء
لنفسه أمر معقول، لكن هناك دائماً من عليه أن يدفع الثمن.

- رثاؤك لذاتك هو ما يمنعنا من فعل شيء. لقد حصلت على
فرصتك...

هجمت مارين على نيللا، وثبتتها من معصمها إلى الحائط،
فصرخت نيللا: ابتعدي عني!

وسقطت متهاككة أمام عظمة غضب مارين. وترنحت
كورنيليا إلى الخلف في رعب.

قالت مارين:

- لست أنا من تخليت عن أخي. بل هو من تخلى عني. لقد
حفظت أسرارنا، كما لم يسعه قط، وسددت ديونه بمقدار ما
سددت ديوني، وأعرف أنك تحسبن الآن أنك تفهميننا،

لكنك لا تفعلين.

- بل أفعلي.

أفلفتها مارين، قائلة:

- لا، يا برونهلا. إن العقدة أوثق من قدرتكِ على حلها.

أجساد مخفية



وقفت نايلا على عتبة منزل يوهانس، في ليلة رأس السنة التي تمر من دون احتفال. تريد أن يمزقها البرد، ويبدل الضوء هيئتها. شارع القناة خال، والثلج شريط من الحرير الأبيض بين منازل الهيرغراخت. القمر في الأعالي أكبر من أي مرة أخرى رآته فيها، أكبر حتى من الليلة الماضية؛ دائرة شاحبة مدهشة تشع قوة. يبدو وكأن في وسعها أن تمد يدها وتلمسه. إن الرب قد دفعه من السماوات لأسفل حتى تمسك به يدها البشرية.

تمنت أن يستطيع يوهانس رؤية هذا القمر من بين قضبان زنزاتته، في مكان ما من أعماق الستدهاوس. لقد أظهرته محاولة الحرب بمظهر المذنب. أين أوتو الآن؟ أين صانعة الدُمي، التي تظل مخفية عن الأنظار؟ فكرت نايلا، لولا كورنيليا، لهربت أيضاً. أهل المنزل يتناقصون الواحد تلو الآخر، في حين يزداد بيت الدمي ازدحاماً، وحيوية أكثر من أي وقت مضى.

من الباب المفتوح خلفها، بدأت رائحة غريبة في الانبعاث، فعادت نايلا إلى داخل المنزل. إنها لا تأتي من المطابخ. وتناهي إلى أذنيها من الطابق العلوي صوت شهيق عال. صعدت السلم تتبع أثر الرائحة والصوت الغريبين، وتقطع الممر المظلم، إلى حيث خيط رفيع من ضوء الشموع يحيط بباب مارين. لا روائح حلوة من خزامى أو خشب صندل هذه المرة؛ هذه رائحة كريهة لخضار متعفن توشك معها نايلا على التقيؤ.

فكرت، إنه بخور بشع تشعله مارين، قطعة عطر مغشوشة. لكن صوت الشهيق يصبح لمحياً. أصغت نايلا، وهي تخفي

لتنظر من ثقب المفتاح، لتجد أنه مسدود.

تهمس: "مارين؟"

لم ترد، فدفعت نيلا الباب الموارب. الغرفة راوحتها تننة، رائحة لازعة لأعشاب مُلبدة وجذور وأوراق شجر مُرّة منقوعة لإطلاق خصائصها السرية. تكون مارين على فراشها، حاملة قدحاً يحوي مزيجاً أخضر بلون مياه القناة، وكأنّ خلاصة طعمي الهيرغراخت قد سُكبت فيه. كانت مجموعتها من جماجم الحيوانات قد أُلقيت على الأرض، وتحول بعضها إلى شظايا عشوائية الشكل من عظام صفراء. وكانت خريطة على الحائط قد مُرّقت إلى اثنين.

- مارين؟ ماذا بحق الملائكة...

على صوت نيلا، رفعت مارين عينها، بينما وجهها تخطفه الدموع، وجفناها ينسدلان في ارتياح. ارتخت يدها، وتركت نيلا تأخذ منها الكأس. وضعت نيلا يدها على جانب وجه مارين، على عنقها، على صدرها، مُحاولَةً تهدئة جسدها المرتجف، ودموعها المُسترسلة. وسألها:

- ما الأمر؟ سوف نلقه، أعدك.

- ليس هو. أنا لست...

عجزت مارين عن تكوين جملة. ليونة جسدها الغريبة ما تزال تحت أصابعها، شمت نيلا المزيج الكريه، وشعرت بالغثيان. تذكرت مرض مارين، وصداعها، والاشتهاء الجديد للسكر، لقطائر التفاح وملبّس الجوز. الإجهاد، ومقلبات المزاج، خلية النحل التي يجب ألا تركلها حتى لا تُلدغ. سماكة ثيابها، طريقته البطيئة في الحركة. فسائين مارين السوداء المبطننة

بالفراء، رسالة الحب السرية، التي مُرِّقت إلى هباء. أحبك.
أحبك. شِبرًا شِبرًا منك، أحبك. صرخة مارين في الفراغ،
مستلقية في حوض الماء المعطر بالخزامى: "ماذا فعلت؟"

لم تصد مارين يدي نيلا اللتين تجسَّان جسدها، وهكذا تمضي
نيلا، أبطأ، فوق ثديي مارين الممتلئين والصلبين، إلى بداية
بطنها، المخبأة تحت طبقات عميقة من التنانير عالية الحصر.

عندما نزلت أكثر، أطلقت نيلا صرخة.

توقف الزمن. لا كلمات تُقال. فقط يد على رحم، ودهشة
وصمت. بطن مارين المخبأة صلبة وضمخة، مكورة كالقمر.
مارين؟ تهمس نيلا باسمها، غير أكيدة هل تلفظت به أم لا.

أطلقت زفرة عندما تحرك الطفل داخل بيته الصغير، وعندما
ترسل قدم صغيرة ركلة تنهاوى نيلا على ركبتها. ظلت مارين
صامتة، رأسها منتصب، عيناها مُنتفختان بالتعب، شاخصتان
نحو أفق خفي أمامها، والمجهود الذي بذلته لإخفاء السر ينهال
على وجهها.

ليس هذا جنيناً حديثاً. بل هو طفل يوشك أن يولد.

- ما كنت لأشربه. هذا كل ماقالته مارين.

أصبحت جدران الغرفة مجرد ديكور لمشهد مسرحي ينهار،
ومن ورائه يظهر مشهد آخر جديد كل الجدة. ديكور بلا ألوان
يمتد في جميع الاتجاهات، بلا إشارات أو معالم، مجرد فضاء لا
نهاية له. مارين تجلس في سكون تام.

تذكرت نيلا المهد الصغير في بيت الدمى، وسرت في جسدها

رجفة. كيف عرفت صانعة الدُّمى بهذا؟ كانت عينا مارين على الشمعة، شمع نحل، لا شمع يحترق، بل رائحة العسل اللطيفة فقط. يتراقص اللهب كعفريت، إله ضوء صغير يسخر من شلل تفكيرهما. كيف البداية، ماذا يُقال؟

همست مارين أخيراً:

- لا تخبري أحداً.

- مارين، لا مزيد من الأسرار في هذا المنزل. يجب أن تعرف كورنيليا.

تهتت مارين:

- ربما هي تعرف فعلاً. كنتُ أُلطخ خرق حيضي بدم خنزير حتى لا ينتابها الشك. تطرف في وجه نيليا. كما أنك تعرفين جيداً ثقب الأبواب في هذا المنزل.

- هذا إذن ما كنتِ تفعلينه في القبو. ظننتكِ تنظفينها.

- لقد رأيتِ ما أردتِ رؤيته.

تغمض نيليا عينيها، وتستحضر صورة مارين في القبو وقد رفعت يديها الملطختين بالأحمر. يا لتماميها باسم سرها، إذ زيفت طمئتها، وبدلت في مظهرها حتى يظل جسدها على شكله. إن تكور مارين الشامل يثير الدهول. لقد صنعت نسخة من نفسها - قلبان، رأسان، أربعة أذرع، أربعة أرجل - مثل وحش ستضمينه في سجل سفينة، مُدبلة على واحدة من خرائط يوهانس المسروقة. لقد أجادت إخفاءه.

كم مرة حدث ذلك، الفرص المُقتنصة بعيداً عن مرأى أغنس، ويوهانس، والمدينة بأكلها؟ إنها صدمة، وكونها من

فعل مارين هي صدمة أكبر. زنا، جسد على جسد، مُلقين
بالكتاب المقدس عرض الحائط. لكن هذا هو الحب، هي نيلا
تفكر. هذا هو ما يجعل المرء يُقدِّم.

خفضت مارين رأسها بين يديها. وقالت: "فرانس،" ويكفي
اسمه لنقل كل ما أخفته، الحقيقة التي يمكن أن تدمر حياتها.

- كان غاضباً بسبب السكر فقط، يا مارين. إنه يحبك. رفعت
مارين عينيها، وتعبير دهشة يتفتق من وجهها المنهك: أخبريه
عن الطفل. حالما يعرف، لن يؤذي يوهانس لأن فعلاً كهذا
سيعرضك للخطر.

قالت مارين:

- لا، يا برونيليا. ليست هذه واحدة من قصص كورنيليا.
جلستا صامتتين برهة قصيرة، وتذكرت نيلا عدائية ميرمانز
القبيلة، نظرة الانتصار على وجهه عندما أعلن عما شاهداه هو
وآغنس.

- لا داعي أن يعرف الناس هذا، يا مارين. نحن بارعون في
الإخفاء.

فركت مارين عينيها:

- لستُ والقة كثيراً من هذا. أخذت نفساً عميقاً، وقالت:

- لو نجا هذا الطفل، فسوف يوصم.

- يوصم؟

- بخطيئة أمه، بخطيئة أبيه...

- إنه طفل، يا مارين، وليس شيطاناً. في وسعنا أن نتعد عن

هنا. قالت نيلا بركة أكبر: نأخذك إلى الريف."

- لا شيء فعله في الريف.

عضت نيلا لسانها، وابتلعت الإهانة، حسناً، تماماً، لا أعين متطفلة.

- هل تعرفين ماذا تعني حُبلي بالفرنسية، يا نيلا؟ أونسانت.

اغتاظت نيلا، لا تختلف مارين عن شقيقها، تغير مسار الحديث بمفردات أجنبية، وتشوش عليك بنغمات ثانوية مُحَنكة.

- هل تعرفين المعاني الأخرى لكلمة أونسانت؟ ألتت مارين، وسمعت نيلا الآن نبرة فزع خفيفة في صوتها. محيط. سور. نغ.

تركع نيلا أمامها. تقول:

- في أي شهر أنتِ؟

زفرت مارين، وهي تضع ذراعيها فوق بطنها البارزة:

- سبعة أشهر أو نحوها.

- سبعة أشهر؟ لم أكن سأعرف قط. لقد جبلت أمي أربع مرات منذ أن وعت، لكنني لم أر ذلك عليك.

- إنك لم ترّكزي، يا نيلا. لقد وسّعتُ تنانيري وربطتُ نديي.

لم تستطع نيلا كبح ابتسامتها، حتى في هذا الموقف الاستثنائي، تُظهر مارين نفراً بجو معالم جسدها، وإخفاء حقيقتها عن كل نظراتهم: لكنني في هذه الأيام أجد صعوبة في المشي. وكأني أسير حاملة كرة أرضية.

- لن يلبث حملك أن يظهر. مهما ارتديت من تنانير وشالات.

- إنني طويلة القامة على الأقل. سوف أبدو أكولة للحسب،

تجسيدا لخطيئتي.

أقلت نيلا نظرة على الكأس. كان من الممكن أن تقتلها هذه التركيبة بسهولة. تركيبة - مفردة توحى ببداية الشيء، بينما هي في الحقيقة نهايته. لقد ماتت فتاة في أسدلفت إثر شرب تركيبة من الخربق والنعناع البري. كان أصدقاء شقيقها قد فرضوا أنفسهم عليها وأحدهم "شيك طفله بداخلها" بحسب تعبيرهم. صنع والدها التركيبة، وحدث خطأ ما، لأنهم دفنوها صباح اليوم التالي.

أكثر أهل الريف يستطيعون تمييز فطر سام، أو شجيرة قاتلة. إن سبعة أشهر هو آخر الحمل، وكان من الممكن أن تقضي مارين أيضاً نجبتها، بعد كل ما خاضته من إخفاء حدره. هل تعرف مارين هذا يا ترى أم لا؟ كلا الإجابتين تسبب الاضطراب.

- من أين حصلتِ على السم؟

قالت مارين:

- من كتاب. حصلتُ على المكونات من ثلاث صيدليات متفرقة. يظن يوهانس أنني سرقت كل بذوري وأعشاب مني منه، لكن نصفهم في الواقع يأتي من دجالين في أمستردام.

- ولكن لماذا الليلة؟ ألم تساءلي قبل الآن كيف ستصرفين؟
أشاحت مارين بوجهها، رافضة الإجابة، فألحت نيلا:

- - مارين، هذه التركيبات تصبح في غاية الخطورة إذا لم تشربها في وقت مبكر بما يكفي. لكن مارين ظلت صامتة.

- مارين، هل أردتِ أن يعيش هذا الطفل؟

لمست مارين بطنها، وظلت على صمتها، مُحَدِّقَةً في سرمدية لا تراها نيلا. تذهب عينيا نيلا إلى كومة الكتب. ويلفت نظرها الآن عنوان واحد، أمراض الأطفال لستيفانوس بلانكارت، ولا تصدِّق أنها لم تتمعَّن في وجوده في آخر مرة كانت هنا.

عينا مارين أيضاً على الكتاب، وبدت خائفة وصغيرة في السن بصورة غريبة. تناولت نيلا يدها، ومر نبض صغير من كف لكف، قالت نيلا: أتذكر عندما مددت يدك إلى أصابعي في أول يوم وصلت.

- كلا. لم يحدث.

- مارين، إنني أتذكره بوضوح تام.

- أنتِ من مدَّت يدها وكأنا هي هدية. كنتِ... واقفة من نفسك.

- لم أكن قط. وأنتِ قدَّمتِ يدكِ وكأنا تشيرين إلي بالعودة إلى الخارج. قلتِ إنني أملك عظماً قوية مقارنة بفتاة في السابعة عشر.

- يا له من شيء مخيف يقوله المرء. في صوت مارين حيرة.

- خاصة وأني في الثامنة عشر.

رق جلد مارين الآن؛ وشعرت نيلا بالترحيب أخيراً. وانكأ جسدها على نيلا، وسكن في هدنة. عجزت نيلا عن تصديق ما جلبه المساء في هذه الغرفة الصغيرة العامرة بالخرائط. إنها حقيقة أكبر بكثير من قدرتها على الاستيعاب، وعقلها يطن على أطرافها، محاولاً الدخول. ترغَّب في طرح العديد من الأسئلة، لكنها لا تعرف كيف تبدأ.

استكانت كلتاها في هذ الوضع الفريد، وخطرت لها فكرة. يمكن لهذا الطفل أن يصبح الدليل على أن يوهانس هو الزوج الذي يفترض أن يكونه، مؤسس أسرة هولندية صالحة. ولكن بنظرة إلى وجه مارين الشاحب، كبحت نيلًا لسانها. "أعطني طفلك، يا مارين، وأنقلي مصير أخيك". ليس عرضاً يسهل تقديمه، وهو على الأرجح أشقُّ في استقباله. ظلت مارين تقدم التضحيات طوال حياتها، ومثل هذا الاقتراح لا بد من طرحه بترؤ. تقول بلطف:

- سيكون علينا البحث عن قابلة.

أتى رد مارين:

- سيكون عليك الذهاب إلى المستودع وتفقد السكر. وبدأ جسدها في التصلب.

- ولكن، يا مارين! ماذا سنفعل بشأنك؟

ذهلت نيلًا أمام قدرة مارين على فصل نفسها بهذه الطريقة، طاوية حقيقة طفلها مثل جوهرة في جيبيها. نهضت مارين من السرير مترنحة وهي تشق طريقها بين الجماجم المبعثرة. من دون تبايرها الخارجية، تستطيع نيلًا رؤية تكورها كاملاً، وانتفاخ ثدييها المرضعين. خلف جدران جسد مارين الثقيل، يتقلب طفل، مملوكاً ومالكاً، أمه التي لم يقابلها بعد هي إلهه. الطفل قادم - ورغم أمل نيلًا في الصراحة، إلا أنها تعلم أن هذا سيكون أكبر سر عليهم كتمانته.

يذكرها الحديث عن السكر بأمر ما:

- لقد منحني يوهانس قائمة بأسماء لشراء السكر، قالت كارهة، لعدم رغبتها في ترك مارين تحيد عن مسألة طفلها المقبل.

- طيب، هذا جيد.

ولكن قبل أن يتأني لنيلا أن تكمل حديثها، سمعتا خطى خفيفة تبتعد في الممر. قالت مارين:

- كورنيليا، التنصت من الأبواب في دماها

- سأتحديث إليها.

تهدت مارين، وقالت:

- عليك أن تفعلي، قبل أن تختلق حكاية أسطورية أخرى.

- لن تكون في حاجة إلى ذلك. قالت نيلا وهي تتوجه نحو الباب: لا شيء هنا أسطوري أكثر من الحقيقة.

من كتبت ياسمين

t.me/yasmeenbook

لا مرسة



في غرفة نيل، كانت كورنيليا صامته وعنيدة في البداية، لكنها انهارت، وسقطت على السرير وكأن عظامها رماد. قالت: - كنتُ أعرف. لكن وجهها المتحير يخون حديثها الهجومي. هرعت نيل إلى الخادم وضمتها إليها. فكرت، "مسكينة، يا كورنيليا. لقد خُدعت. لكن هذه اللعبة السحرية الهائلة قد مُرست أمام أعينهم جميعاً. إن هذه أعظم خدعة لعبتها مارين قط، إلا أنها خدعة حقيقية.

قالت كورنيليا:

- كنتُ أعرف أن هناك خطباً ما. لكنني لم أرغب في التسليم بذلك. حُبلي!

- لطخت خرق طمئتها بدم حيوانات لتخدعنا.

تجيب كورنيليا، وعبوسها يتبدل إلى إعجاب مُمتعض:

- فكرة ذكية.

- أذكي بالتأكيد من عدم الزواج والإنجاب.

- مدام! بدت كورنيليا مُستاءة، وأدركت نيل أنها لن تخبر هذه اليتيمة عن تركيبة مارين. لكنها تفكر بدفعة من حب، وإن كنتُ أراهن أن ملكة التنصت هذه قد سمعت كل شيء.

هناك طفل في الطريق. كُشف سر مارين، وصارت نيل تراه الآن في انتفاخ الستائر، في استدارة وسائد غرفتها. ترسل عينها خلف كورنيليا، إلى فراشها. إن مارين تملك الشيء

الوحيد الذي لن أحظى به أبداً. تقتحم صورة ميرمانز ومارين معاً عقل نيليا من دون دعوة. جسداهما، فكرت، هذا ليس عدلاً. كان الأمر يتجاوز ذلك على الأرجح - فأمامها رجل يرى أن لمسة مارين تدوم لألف ساعة؛ أنها ضوء الشمس الذي يقف عنده، مُستدفئاً. كيف من الممكن ألا تفيض مشاعرهما، أمام مثل هذا الشعر؟

تسألها كورنيليا:

- ماذا سنفعل بالطفل؟

- أقترح أن مارين قد تأخذه إلى دار أيتام خاصة.

قفزت كورنيليا على قدميها:

- كلا! يجب أن نحتفظ به، يا مدام.

قالت نيليا:

- كورنيليا، إنه ليس قرارك. ثم تضيف وهي تفكر في يوهانس بزنتاته: ولا قراري أيضاً."

تعقد الخادم ذراعيها:

- كنت سأعني بذلك الطفل كالأسد.

- ربما كنتِ ستفعلين، يا كورنيليا. ولكن لا تحلمي بأشياء لا يمكنكِ الحصول عليها.

عرفت نيليا، وإرهاقها يحتم، أنها كانت كلمات قاسية جداً. ذكرتُها بما تقوله مارين. تركتها كورنيليا إلى بيت الدمى. كان القمر قد توارى الآن خلف غيمة، والشموع تلقي بضوء مُتعرِّج عبر الغلاف المبرقش.

سحبت كورنيليا الستائر الصفراء القطيفة ونظرت إلى الداخل.
ونبلا التي يشتد نجلها من قسوتها السابقة، لا تفعل شيئاً لمنعها.
تناول الخادم المهد، فتأرجحه في كفها. وتهمس:
- جميل جداً.

تفكر نبلا، كان يجدر بي أن أنتبه، أن أول شيء أرادت
مارين حمله من بين كل القطع، كان هو المهد. ماذا أيضاً
فشلتُ في ملاحظته؟ الكثير، وأنا ماضية في الفشل.

كانت كورنيليا قد سحبت دمية مارين، وقالت:

- إنها هي،" حدقت بدهشة في سيدتها: وكأني أحملها في
كفي!

حدقت مارين المصغرة في كلتا المرأتين، فها مطبق، وعيناها
الرماديتان لا تتحركان. مررت كورنيليا يدها على درز تنورة
سيدتها، صوفها الأسود الناعم يحمل متعة وفيرة في لمسه. رفعتها
إلى ضوء الشموع. وهمست بحيلة الدمية بكلتا يديها:

- حماك الله، يا مدام. وعندما التقت شفتا كورنيليا بالبطن
المنمنمة لتقبيلها، أجفلت، وابتعدت.

- ما الخطب؟ كورنيليا، ما الأمر؟

- أشعر بشيء ما.

انتزعت نبلا الدمية منها، ورفعت حواشي ثوبها ثم التنورة
الداخلية، حتى وصلت إلى جسد مارين المصنوع من الكنان
المحشو. وحينما لمست أصابعها ما اكتشفته كورنيليا،
اضطربت، لقد هزمتهم صانعة الدمي مرة أخرى.

كان جسد مارين المصغر، متكور البطن، يحمل مولوداً

في مثل حجم بدرة، تبدو الدمية مثقلة مثل المرأة في الغرفة
المجاورة، بطنها يكبر بمرور الوقت.

بدت كورنيليا مصدومة.

- أمرتِ بدمية حُبلى لمدام مارين؟ وإذ تنظر إليها الخادم وفي
عينها الزرقاوين لمعة اتهام، تشعر نيليا بجسدها يتخشب: كيف
أمكنكِ أن تخونيننا هكذا؟

توسلت إليها نيليا:

- لا، لا. لقد بدأ السقوط، الطوب المفكك، الفجوة في
السد.

- تعرفين كيف تنتشر الشائعات...

- أنا- أنا- لم أطلبها، يا كورنيليا.

- من فعل إذن!

- لقد أرسلت إلي، لم أطلب إلا عوداً، و...

- من يتجسس علينا إذن؟ دارت الخادم حول نفسها في
الغرفة، مُلّوحة بالدمية كدرع.

- إن صانعة الدُّمى ليست جاسوسة، يا كورنيليا. إنها أكثر من
ذلك...

- إنها؟ كنتُ أظنُّ أن كل تلك الرسائل مُوجهة إلى حربي؟

- إنها نبيّة - انظري إلى بطن مارين! إنها ترى حيواتنا - إنها
تحاول تقديم المساعدة، تحاول تحذيرنا-

أمسكت كورنيليا دمية إثر دمية، تقسس أجسادهن بحثاً
عن مزيد من الأدلة، ثم رمتها واحدة تلو الأخرى على

الأرض، وقالت بغضب:

- تحذيرنا؟ من تكون هذه المرأة، هذه الشخص ما؟ ماذا تكون صانعة الدمى هذه؟ ثم قبضت على دميها، مُحَدِّقَةً فِيهَا برعب: يا يسوع الحبيب، لقد عشتُ حياتي بحرص، يا مدام، كنتُ مطيعة. ولكن منذ أن وصل بيت الدمى هذا، فُتحت أبواب كثيرة لطالما نَجَحْتُ في إغلاقها.

- ولكن، هل هذا شيء سيء؟

نظرت إليها كورنيليا وكأنها مجنونة:

- السنيور في السجن، وأوتو رحل، ومدام مارين تحمل عاراً سرياً مع رجل هو عدو هذه الأسرة! لقد انهار عالمنا، وهذه، التي تصنع الدمى، تراقبنا طوال هذا الوقت! كيف حذرتنا، ما المساعدة التي قدمتها؟

- أنا آسفة، يا كورنيليا، آسفة جداً. لا تخبري مارين أرجوك. إن صانعة الدمى تملك الأجوبة.

- إنها ليست سوى متلصصة، لا أحد يحركني سوى الرب في الأعلى.

- ولكن لو أننا لم نعرف بأمر مارين، فكيف عرفت هي، يا كورنيليا؟

- كما سنعرفه. بل قد عرفناه فعلاً. لم نكن في حاجة إليها لتخبرنا.

- وانظري إلى هذا. "تريها نهلا مخروط آغنس المسود." كان أبيض في بداية مجيئه.

- إنه سخام من المدفأة.

- إنه لا يذهب بالفرك. وكانت ريزيكي تحمل علامة على رأسها، حين قتلها جاك.

تراجع كورنيليا عن بيت الدمى:

- من هذه الساحرة؟

- ليست ساحرة، يا كورنيليا. إنها امرأة من النرويج.

- ساحرة نرويجية تحولت إلى جاسوسة أمستردامية! كيف

تجرؤ على إرسال هذه التماثم إليك...

- ليسوا تماثم.

أشعلت مرارة كورنيليا حريقاً في قلب نيللا. شعرت كأنه يتم تشريحها وكذا صانعة دماها، الشيء الوحيد الذي تمتلكه قد شق وتناثرت أحشاؤها.

- لم يكن لي شيء في هذه المدينة، يا كورنيليا. لا شيء.. وقد اهتمت. لا أفهم لماذا اختارتني، لا أفهم الرسائل التي ترسلها دائماً، لكنني أحاول...

- ماذا تعرف أيضاً؟ ما الذي ستفعله؟

- لا أعرف. صدقيني أرجوك، لقد طلبتُ إليها التوقف، لكنها لم تفعل. كانت كمن فهمت تعاسي، واستمرت.

قطبت كورنيليا جبينها، وقالت:

- لكنني حاولتُ إدخال السعادة إلى حياتك. كنتُ هنا...

- أعلم أنك كنتِ. وكل ما عرفته عنها أنها تدرّبت على يدي ساعاتي في بروج. لقد كاتبته، لكنه لا يختلف عنها في الصمت. تسمع نيللا صوتها وهو يلح في النحيب، والدموع

الحارّة تهدد بالتدفق من عينيها. - ولكن ماذا قال بليكورني في عفته؟ لَيْسَ خَفِيٌّ لَأَ يَظْهَرُ.

انفجرت كورنيليا:

- لا يسمح للنساء بالتدرب في الحرف. لا رجل سيهتم بتدريب امرأة. لا نقابة ستضمها إليها باستثناء الخياطات أو مُوزّعات الخلع برائحته المنتنة؟ وما الفائدة من الأساس؟ الرجال هم صنّاع هذا العالم.

- لقد صنعت الدقائق والثواني، يا كورنيليا. لقد صنعت الزمن.

- لولا أنني أغلي سمك الحفش في صحنك، وأتبل فطائرِك، وأنظف نوافذك، لأمكنني أنا أيضاً أن أصنع الوقت. لأمكنني أن أصنع دمي شيطانية وأتلصص على الناس...

- إنك تلتصصين على الناس فعلاً. ومن هذا المنطلق، فأنتِ مثلها تماماً.

بانفعال وأنفاس لاهثة، زمّت كورنيليا شفيتها ودفعت دميّتها داخل البيت، قائلة:

- لستُ مثلها في شيء.

لملت نيلاً تشكيلة الدمى، وقالت بصوت ضامر:

- ما كان يجدر بي أن أفقد أعصابي، يا كورنيليا.

خيم صمت قصير:

- ولا أنا، يا مدام. لكن عالمي تحول بسرعة كبيرة في الأيام الماضية. لقد تفكك.

- أعلم، يا كورنيليا. أعلم.

أغلقت نيلاستائر على بيت الدمى كطريقة لجلب شيء من السلام المؤقت. وفي رد صامت، أغلقت كورنيليا ستائر النافذة، ووقفت الفتاتان في الظلام.

- يجب أن أعنى بمدام مارين، قالت كورنيليا، وهي تدير ظهرها بتصميم إلى بيت الدمى.

وحينما أضحت وحيدة، تخيلت نيلاستائر صانعة الدمى، وهي أصغر سناً. ربما كانت كورنيليا مُحقة، ربما لا أحد كان سيشتري ساعاتها، مفضلاً تلك التي صنعها رجل؟ لم تكن لتتمكن قط من صقل مهاراتها، لذا توقفت عن محاولة تطويع الإيقاعات الاصطناعية للرجل، وتوجهت إلى الداخل. في أي مرحلة يا ترى اختارت هذه النقلة الحميمية والشاذة إلى حياة المنازل الداخلية ولماذا اختارتني؟ أراحت نيلاستائر رأسها على جدار بيت الدمى. كان ملمس الخشب البارد على بشرتها مثل بلسم. فكرت، إن صانعة الدمى، بعرضها لقصة حياتي، قد أصبحت هي نفسها مؤلفتها. كم أتمنى لو أستطيع استعادتها من جديد.

الجزء الرابع

كانون الثاني، ١٦٨٧ م

وَهُوَذَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ

فِي الْكَثْرَةِ... كَيْفَ أَهْمِلُ وَحَدِي فِقْلَكُمْ وَحَمَلَكُمْ

وَخُصُومَتَكُمْ؟

سفر التثنية ١: ١٠-١٢

بويغات



يتمخذاً الأسترداميون من أول يوم في العام الجديد موعداً لفتح النوافذ في شعيرة جريئة يدخلون بها الهواء البارد إلى منازلهم، ويزيلون بيوت العنكبوت والذكريات التعيسة. ارتدت نيليا ثياب الخدم، وساعدت كورنيليا سيدتها على ارتداء حداثها وتعليق مفتاح مستودع يوهانس حول عنقها مثل وسام.

إنه ليس عيد الغطاس بعد، يوم تبادل الأدوار، لكنهم لا يملكون وقتاً يضيعونه. بدت الخادم كمن يتوقع مجيء إبليس بنفسه مع عفاريته، لكنها كانت قد تعهدت ألا تخبر مارين بالسر المخفي تحت تنانير دميتها، ولا بالرأس المسود لمخروط أغنس. قال نيليا:

- إنها في حاجة إلى الهدوء. فكري في الطفل.

أغلقت نيليا معطف الخادم الخشن حول عنقها. حاولت أن تصف بثبات، لكنها شعرت بنفسها تهوي، إلى أعماق أبعد مما تصورت أنها ممكنة، في وحل المدينة ومستنقعها، إلى زمن الطين والبحر.

قال كورنيليا:

- لا يجدر بك أن تذهبي إلى الجزر الشرقية بمفردك.

- لا تملك خياراً. عليك البقاء هنا مع مارين. لن أغيب.

- خلدي دانه. ستكون حارستك.

تركت نيليا المنزل، ومضت في شارع الهيرغراخت، ودانه

تخبُّ إلى جوارها، والمفتاح يستقر ثقيلًا على صدرها. أرادت رؤية يوهانس في الستدهاوس أولاً، لكن الهيمنة تكون للمال في أمستردام وعليها أن تكون منطقية. تساءلت: "ماذا تُراها تجد في الجزر الشرقية". "من غيري سيفعل هذا، يا مارين؟" قالتها متوسلة في وقت سابق من هذا الصباح: "إن يوهانس في زنزانه. لو أن آغنس وفرانس قررا ألا تأخذهما رحمة، فربما يكون في وسعنا رشوة جاك لتغيير قصته على الأقل".

فأومات مارين بموافقتها، ويداها على بطنها. الآن وقد عُرِف حملها، يبدو جسدها وكأنه ازداد حجماً. إنني رغيف عملاق، قالتها والدة نيلا عندما كانت حبلِي في أرايلا. والآن تبدو مارين أيضاً كمن تترقب إثبات جدارتها، التأكّد من أن بدانتها كافية. مارين وعقدتها الأوثق من أن تُحَل؛ أياً كان ما عنته؟

أضافت نيلا:

- بعد ذلك سأزور يوهانس، إن أدخلوني. هل تريدني مني حمل رسالة إليه؟

بدا وجه مارين صورة جامدة للخزن. ثم ابتعدت، وهي تُخفض يديها إلى جانبيها، وتحدّق جهة الصالون:

- ليس في يدي أن أقول شيئاً.

- مارين...

- الأمل خطير، يا برونيل.

- إنه أفضل من لا شيء.

كان البرد قارساً، سكاكين حادة صغيرة على وجه نيلا. فكرت، فلتسرع يا فصل الربيع، ثم تساءل هل تُراه حكيماً أن

تتمنى انقضاء هذا الوقت على مارين، على يوهانس. ربما بحلول فصل الربيع، تكون جمهوريتهم الصغيرة قد صارت حطاماً تحت أقدامهم. وحتى تنفض عنها الغم، تمشي بوتيرة سريعة، لعشر دقائق أو نحوه شرق المدينة. وجدت نفسها تفكر في رحيل صانعة الدُمي من الكالفرسترات. لم تكن نيلا قد تخلت عن الأمل، ما زالت يتوق في الشوارع إلى لحظة من شعر أشقر، إلى طرق على الباب وطرده جديد. لكنها لا تجد سوى الصمت منذ أيام عديدة. كانت نيلا قد أخبرت كورنيليا أن صانعة الدُمي تدير لها الطريق، ومع ذلك تشعر بأنها وحيدة، تتخبط في الظلام. تحتاج إلى المزيد من الرسائل، المزيد من الدُمي، لتفهم ما سيأتي وما مضى. عودي، هكذا تفكر، وهي تعبر واحداً من الجسور العديدة إلى الجزر الشرقية. لا أستطيع فعل هذا من دونك.

حيثما نظرت وجدت ماء، بحيرات جامدة كالزجاج، مرقطة بالسواد كمرآة صدئة عندما تتوارى الشمس الضعيفة خلف السحاب. في حانة قريبة، تُقدّم بطاطس يوهانس المفضلة التي لبها هش. لا تستغرب لماذا كان يفضل هذه المنطقة، فهي أقرب إلى البحر، قليلة الناس. وهناك أماكن كثيرة تصلح للاختباء.

ظهر أول أثر من المستودعات، أبنية من الطوب شاهقة الارتفاع، يفوق عرضها المنازل التي تقوم في دائرة المدينة. تبدو لها الجزر خاوية هذا الصباح. ربما، مازال معظم الناس في الفراش على الأريج، يزيلون بالنوم أثر شرب نخب العام الجديد. لم يكن والدها يظهر حتى المساء التالي من توديع العام القديم، ثم كان يستيقظ ليقول إن شيئاً لم يتغير. تفكر نيلا، ليس الأمر كذلك هنا. لم يعد شيء على حاله. يجعلها الهدوء

تسمع وقع قدميها، ولهاث دانه الخفيف وهي تسرع إلى جانبها. على الرغم من السكون الذي يخيم على هذه الأراضي المنفصلة، إلا أنه سكون مخلف بالتركيز، فكل الأشياء هنا تملك هدفاً واحداً، الجزء الخلام من التجارة، تخزين المؤن، صيانة السفن، إطعام البحارة والقباطنة سواء بسواء. مُسترشدة بوصف مارين، وصلت أخيراً إلى مستودع يوهانس، بارتفاع ستة طوابق، وباب أمامي أسود صغير.

فتحت الباب بيسر. وأعدت هندمة تنورة كورنيليا ومئزرها الواسعين. كُنَّ قد حاولن تحديد أيهما الأسوأ -ضبط خادمة في مخزن سيدها، أم زوجها؟ ورحمن أن الخادم أخف وقعاً. إن سمعة يوهانس براندت في غنى عن إضافة خبر مدام بترونيليا وهي تلتصص على الجزر. تخيلت فرانس وآغنس عندما جاءا يتسللان من خلف المبنى.

أمرت دانه: "اجلسي هنا، يا فتاة"، وحاولت التركيز على المهمة المكلفة بها. تربت على رأس الكلبة. "وانجحي إن اقترب أحدهم." تفكر، علينا وضع كلب حراسة بصورة دائمة. الآن وقد اختفى جاك.

داخل المستودع تباطأت أنفاس نيليا. شعرت بضآلتها، وهي تتف عند نهاية سلم حائط طويل ونحيل يصل إلى ما بعد خمسة طوابق مشغولة بمخزون يوهانس. إنه الرجل الذي يمتلك كل شيء، لكنه لم يشعر سوى بالحرمان.

تشعر نيليا في اعتلاء السلم بحثاً عن السكر. وكأنها تتسلق حياة زوجها. تصعد أعلى فأعلى داخل القاعة الضخمة، وتنانيرها تعلق بدرجات السلم، في تهديد بالسقوط. وفي طريقها ترى أبواباً من حرير كورومانديل والبنغال، قرنفل، جوزة طيب

وقشرة جوزة الطيب في صناديق مكتوب عليها جزر الملوك، فلفل مُصنّف من مالابار، أعواد قرفة سيلانية، أوراق شاي في صناديق مطلي عليها عبر باتافيا، ألواح خشب غالية المظهر، أنابيب نحاس، شرائط قصدير، أكوام من صوف هارلم. ترى أطباقاً دلفتية، براميل نبيل تحمل علامة إسبانيا وخيريز، صناديق من صباغ الزنجفر والقرمز، زئبق للرايا والزهري، حلي فارسية مطلية بالذهب والفضة. وإذا تشبث بالدرجات، تفهم افتتاح مارين بعمل أخيها. فكرت، منقطعة الأنفاس ودائخة، هنا الحياة الحقيقية. هنا مهبط المغامرات الحقيقية.

اضطرت نهلا إلى الصعود إلى الأفاريز لتجد مخاريط السكر. كان يوهانس قد وضعها في المنتصف، وغطاها بملاءات، في منأى عن الرطوبة. أعجبا هذا الاهتمام، وكادت من فرط تأثرها تبكي. لقد أوحى إليها ميرمانز أنه ألقى بمخاريط آغنس في الطابق الأرضي جنبا إلى جنب مع الأشرطة الاحتياطية والحبال الخام. لكن هذا لم يكن صحيحاً. لقد اهتم يوهانس. هناك الكثير من المخاريط، حتى أنها تلمس الروافد.

وقبل أن تغادر نهلا السلم، اقتربت من غطاء الكنان، ورفعت طرفه بحذر شديد. وجدت مخاريط السكر مصفوفة فوق بعضها كالمدافع. كان ينقصها مخروط واحد، هو ولا شك المخروط الذي أحضرته آغنس في العشاء - حلاوة ذات حدّين إن وُجد شيء كهذا. فكرت نهلا، سوف أتخطم لو أن هذا الشيء انهار.

يوجد هنا أكثر من ألف مخروط. ركعت نهلا إلى جوار المخاريط التي تبدو أقرب للحديثة. إنها ما تزال مرتبة وناصعة، وموسومة من دون شك بصليبان أمستردام الثلاثة. بعض من

النصف الآخر المكرر في سورينام، رطب الملمس، وتعود أصابع
نِلا ملطخة قليلاً بمعجون أبيض. في الجزء الخلفي من جبل
السكر، كانت بويغات سوداء صغيرة قد انتشرت فعلاً على ربع
من سكر سورينام. لا شيء يمكن أن ينقل البلورات الثمينة التي
أصابتها اللفحة بالفعل. ومع ذلك، هي تفكر - لقد بالغ ميرمانز،
ورأى ما أراد أن يراه. ربما يمكننا تخفيفها - لا بد أنه في
مقدورنا إنقاذ ولو جزء من كل مخروط.

أخذت تلحس ما خرج من سكر في أصابعها. وتفكر، ماذا
لو متُّ من لعق سكر فاسد، من شهوة البطن. ألم يكن القس
بيليكورني ليحب ذلك.

أخرجت قائمة يوهانس من جيبها، مرصوفة بأسماء مُزركشة
وفيرة. إنها تضم عوائل نبلاء إنكليز وكرادلة، أميرة إسبانية،
بارون، أناس يحملون رغبة في تحلية ساعات رفاقتهم في لندن،
وميلانو، وروما، وهامبورغ، وحتى منافي الفوك. دهشت،
كيف نجح يوهانس في التجارة مع الإسبان، والإنجليز، على
الرغم من الحرب التي خاضوها مع بلادهم. يذكرها هذا بشيء
قاله يوهانس لميرمانز في نقابة الصاغة. إنهم يروننا في الخارج غير
أهل بالثقة. لا أحب أن أوصف بهذا.

إن السكر أكثر مما توقعت. شعرت أنها تحمل على كاهلها واقع
العجز الحالي ليوهانس ومارين. عندما أشارت إلى يوهانس أن
توظيف وكيل يوب عنهم في الإبحار إلى الخارج سيستقطع
نصيباً كبيراً من عمولتهم الثمينة، لم ينكر ذلك. لكنهم في حاجة
إلى شخص أقرب إلى متناولهم، شخص يفهم، شخص يرغب في
السكر. نهضت نِلا، ووضعت يديها على ردفها، وشهدت عقلها،
مُحدقة في مصدر رزق فرانس وأغنس. ثم إذ هي تتذكر، تعليقاً

في أول شهر لها في أمستردام، وهي تجلس مذهولة وفي حجرها تستقر كعكة في غلافها المفتوح. وقائله شخص أعجب نيلاً فوراً، امرأة تتمتع برقي وخبرة. "توفي إسفنجي هذا الصباح ومرزبانة في العصر".

كورت نيلاً قائمة زوجها. أجل، وهتفت سرّاً في وجه الجدران والروافد، في السقف الخشبي. أعرف ما علينا أن نفعله.

الستدهاوس



تبعت نيلاً حارساً عبر أول ممر تحت الأرض في جهن
الستدهاوس، ثم إلى جناح طويل من المبنى. تناهى إلى أذنيها
سعال المساجين الجاف وتدمرهم. المكان أكبر مما ظننت.
يُخَيَّلُ إليها أنه يتمدد بصورة مهيبة كلما تعمقت فيه، مُفَلِّتاً من
إحساسها بالأبعاد. زلزانة تلو زلزانة، طوبة تلو طوبة، لتجد نفسها
عاجزة عن استيعابه.

سمعت صرخات وأنيناً، وجلجلة قضبان ونحيباً. رفعت رأسها
خشية أن يشعروا رائحة خوفها المتصاعد، وحاولت صمّ أذنيها
عن صرخات الرجال المتنافرة.

سارت مع الحارس حول فناء مكشوف، في منتصفه آلات
غريبة مصنوعة من ألواح خشبية مثبتة بمسامير قابلة للتحريك.
وآلة أخرى فيها صف من نتوءات حادة. إن السجناء يوضعون
هنا لتقويمهم بالمعنى الحرفي للكلمة. تحوّل نيلاً نظرها، عازمة ألا
يخيفها شيء، وهي تتحسس مفتاح المستودع المُخبأ على صدرها،
وفكرتها الطازجة ما تزال مضيئة في عقلها. لا تدعي الأسلحة
الحلوة تضيع.

قال الحارس وهو يفتح باب زلزانة يوهانس: - ها هو ذا.
تلكاً أطول من اللازم، ثم أوصد الباب خلفها.

قالت نيلاً وهي تعطيه جِلدراً من بين القضبان:

- لا تعد سريعاً. همست لنفسها: "يا للأشياء التي علمتني إياها
هذه المدينة" وضع الحارس الجِلدِر في جيبه، وابتعدت خطواته

سريعاً. تناهت إلى سمعها أصوات نوارس تحلق عالياً في السماء، وقعقة بعيدة لعربات تسير فوق الحمى.

في الظل، اتكأ يوهانس على طاولة صغيرة. لم يكن لديه كرسي أو مقعد، لذا وقفت أمام الباب. تحيط بها رطوبة، وطحالب تكسو الجدران، هي خريطة من جزر خضراء ليس فيها خطوط طول وعرض. بدا يوهانس مُستغرقاً في التفكير، لكن حيويته حاضرة. حتى هنا، وهو مجرد من حقوقه، ما يزال قادراً على إثارة الإعجاب. سأهاها:

- رشوة موظفين؟

- نحتاج إليهم أصدقاء. خرج صوتها مكتوماً بسبب الجدار المعدني السميك.

قال بابتسامة:

- يتكلمين مثل مارين.

لقد لكموه في كلتا عينيه، وصار الجلد المحيط بهما بلون التوليب الجاف. شعره أشعث كأعشاب بحر مبيضة، وملابسه تبدو عليها القدارة. ترتمش ذراعه وهو ينهض مُستنداً إلى الطاولة. ويقول:

- يرفضون منحي الكتاب المقدس، أو أي كتاب، في الحقيقة.

أخرجت نهلاً، من الجيب الذي لا يحوي قائمة السكر المكرمشة، ثلاث شرائح من لحم مدخن ملفوفة في ورق، ونصف رغيف مغطى بقطن وقطعتين صغيرتين من الأولي-كوكي. تعبر الزنزانة، بديها مبسوطتين ويقبل يوهانس الهدية، قد بدا عليه التأثر:

- كنتِ ستقعين في ورطة لو أنهم وجدوها.

- أجل، قالت، وهي تبتعد مرة أخرى، فتكنس زاوية الزنانة بقدمها.

- كنتُ قريباً من الهروب.

نظرت نهلاً إلى ركن الزنانة، حيث عائلة من فئران وليدة تحدث حفيفاً على القش، يتسلق أحدها الآخر في ألفة عمياء. جلست بتثاقل على فرشاة القش، وينتشر في داخلها حزن عميق، أحبط رغبته في القتال:

- ماذا قالوا لك؟

أشار يوهانس إلى كدمات عينيه:

- إنهم رجال قليلو الكلام.

قالت، في محاولة يائسة للتغلب على حزنها:

- في بداية لقائي بك، لم تكن تكترث للكتاب المقدس، للرب، للذنب والخطيئة والندم.

- كيف تعرفين أنني لم أفعل؟

"لم تكن تذهب إلى الكنيسة، وتستفزك صلوات مارين المنزلية. تشتري أغراضاً ثمينة. وتأكل أطعمة فاخرة، وتمتنع كل ما تقع عليه يداك من متع. كنت رب نفسك، مهندس حظك.

ابتسم مُشيراً إلى الجدران من حوله.

- وانظري ماذا بنيت.

- لكنك كنت حراً، أليس كذلك؟ فكر في كل الأماكن

التي ذهبت إليها. ابتلعت نيلاً لعابها، مُحافِظة بالكاد على استرسال كلماتها.

- كانت شقيقتي تقول دائماً، إنني مزيج مريع من الطيش والعزيمة.

- أهدا عدتَ إلى جاك؟

يُغمض يوهانس عينيه وكأن الاسم يغمره.

- لقد خانك، يا يوهانس. دُفعت أموال وأخذت أموال...

يقول يوهانس:

- لم أعطه فلساً واحداً منذ اليوم الذي غرز خنجره في كلي، كلماته وكأنها تسقط خلاله مثل الحجارة. "لقد عينته حارساً على السكر، لكن مارين كانت من القلق بسببه حتى قررتُ فصله. كنتُ متفهماً وجهة نظرها طبعاً. عاد إلى العمل ساعياً، وعندها بدأت الأمور تسوء. لقد قابلتُ جاك بالقع بعد قتله ريزيكي." تلين أساريره في الضوء الخافت. "لم أر قط ندماً كالذي أبداه على ما فعله.

عضت نيلاً على لسانها. إن جاك على الأرجح لم يجد بدأً من إظهار ندمه، ولم يجد يوهانس في المقابل بدأً من تصديقه.

- لا بد أن له أهمية كبيرة في داخلك، حتى تغفر له شيئاً كهذا. ظل صامتاً، فأردفت: يوهانس، هل كان ذلك - حباً؟ فكر في سؤالها، وأذهلها من جديد كيف أنه يأخذها دائماً على محمل الجد:

- مع جاك، بدا الأمر وكأن... شيئاً عصياً على الفهم... لم يلبث أن أصبح حقيقياً جداً. يا لسرعته، يا نيلاً. لقد جعلني

جاك بأكاذيبه أرى الحقيقة، بالطريقة نفسها التي يمكن للوحة أن تظهر شيئاً ما بصورة أفضل مما هو في الواقع. أصبحت تقريباً لا أميزه عن الحب، تنهد يوهانس: لكنه لم يكن سوى حب مرسوم. هل تفهمين؟ كانت صورة الحب أفضل من الفوضى التي خلفها وراءه.

قدم لها يوهانس صراحتة مثل هدية مفاجئة أخرى. في وسعها أن ترى القناة الجارية بينهما نقية جداً وصالية، ولكن عندما أغلقت نيلاً عينها لا ترى سوى تيار ماء راكد.

سألها:

- هل أنتِ على ما يرام؟

- تؤمن مارين أن الحب في السعي إليه أفضل منه عند امتلاكه.

- لا يدهشني هذا. إنه ليس أفضل. لكنه أسهل. خيال المرء أكثر سخاء دائماً. ومع ذلك، فالسعي يرهقه في النهاية.

تساءلت نيلاً، وإلامَ نسعى جميعاً؟ أن نعيش طبعاً. أن نتحرر من القيود الوهمية التي تحدث عنها يوهانس في مكتب منزله. أو أن نكون قانعين في قيودنا على الأقل:

- إلى أين كنت تنوي الذهاب، عندما أمسكوا بك في توكسل؟

- لندن. كنت آمل في العثور على أوتو. كانت مارين في غاية الاقتناع بوجوده هناك. كيف هي أختي؟

- أنت ذو نفوذ، يا يوهانس، شعرت نيلاً بضرورة أن تتجاوز سؤاله، إذ تعلم أنها إن لم تفعل، فسوف يفضح وجهها الحقيقة

حول مارين: لقد رأيتك في وليمة النقابة. قلتها بنفسك - لا يمكن لرؤساء البلدية أن يقربوك.

نزل بجسده إلى فرشاة القش إلى جوارها:

- إنها الكرمين نيفاندوم (.)، يا نيلا. رجلان معاً. في مواجهة هذا الاتهام لا نفوذ لأحد، إلا الرب. إن عدم اتخاذ إجراء معناه قبول الأمر، والناس يجب أن يروا رؤساء البلدية يتحركون.

- علينا إذن، أن نجعل ميرمانز يغير رأيه!

مرر يوهانس يده على قمة رأسه، وكأنما ليجد جواباً هناك. ثم قال:

- مضى على هذا سنوات الآن، لكنني فعلت شيئاً أغضب فرانس كثيراً. وبعدها ارتكبت جريمة أكبر عندما صرتُ ناجحاً. وها هي الجريمة تترد وتعود الآن لمطاردتي.

تتخيل نيلا يوهانس أصغر سناً، وهو يرد فرانس خائباً من منزله، وأخته تراقب متخفية عند النافذة، الإذلال القبيح الذي خيم الآن عليهم جميعاً.

قال يوهانس:

- ظننتُ أن قبول التوسط لبيع السكر ربما يجلب وفاقاً. لكن فرانس كان قد... تخنن. انتظر طويلاً ليثار لنفسه من عائلة براندت. أنا كل ما يكرهه، ويريد أن يكونه. وآغنس، حسناً. آغنس ستسلك دائماً الطريق المفروش بفتات سمومه."

- أعتقد أن آغنس تكن لك الإعجاب.

- حسناً، إن هذا لن يزيد الأمر إلا سوءاً. مملأنا عيننا يوهانس

مثل خرزتين رماديتين في الضوء الضعيف. قال، وهو يتناول يدها:

- - إني سعيد جداً بقدمك. لا أستحق ذلك.

ظنت نيلاً أنه لا بأس بالتقدير على الأقل، مادام الحب غير ممكن. متى يتوقف بحثها عن بدائل للأصل؟ ومع ذلك، فهي تفضل البقاء إلى جواره عن أي مكان آخر.

يقول يوهانس:

- إن لم أعترف، فسوف تُعقد محاكمة. خلال بضعة أسابيع. وفي كلتا الحالتين، لا أتوقع الخروج من هنا حياً.
- لا تتحدث بهذه الطريقة.

- سوف أجري الترتيبات اللازمة. أنت، مارين، كورنيليا. وأوتو، إن قُدِّر أن يعود. يصبح صوت يوهانس فظاً فجأة، كاتب عدل يقسم تركة شخص آخر. "سيحضر جلسة الاستماع بضعة رجال من شخصيينبانك أمستردام، وإن كان سخاوت بيتر سلابارت سيشرف عليها."

- لماذا ليس السخاوت فقط؟

- لأن التهمة جسيمة. لأنه أنا. لأنه كلما كانت القضية فاضحة، ازداد اهتمام مواطنينا المعترين. يسكت قليلاً: لكنني أتخيل أنها ستكون سريعة.

- يوهانس...

- تنتهي التهم الكبيرة عادة بالموت، وبدأ صوته في التهذج: والسخاوت يحب اللوم الجماعي. كلما ازداد العدد في طقس ما، أضفى ذلك عليه تبريراً.

قالت نيلا:

- سأبحث عن جاك. سأدفع له مبلغاً أكبر ليغير قصته. " يلمح
صورة صندوق نقود يوهانس الفارغ، والسكر الأسود في أكوام
في الطابق السادس من مستودعه: كما أني فكرت في خطة...

قال يوهانس:

- هناك حارس. يطلقون عليه الكاهن الدموي. يشد أكثر على
يدها: كاهن في المهنة، ووحش في الطبيعة.

تعلق الكلمة الأخيرة في الهواء الرطب، جبارة، لا تُقهر.
تلمس نيلا وجهها. كانت الرطوبة في الهواء قد جعلته بارداً
جداً. كيف تمهل يوهانس هنا يوماً كاملاً؟

قال يوهانس:

- رأيت ضحاياهم يُحملون من أمام زنزاني. عظامهم قد برزت
من تجاوبها بلا عودة. سيقان لم تعد سيقاناً، أطراف كالقطن
المبلل، أحشاء كاللحم المفروم. سيعتصرونني لأقول أموراً.
وسوف أقولها، يا نيلا، وينتهي الأمر.

دفن يوهانس وجهه في أعرق ما يمكنه في كتفها. تشعر نيلا
بأرنبة أنفه تنغرز في جسدها، وتضع ذراعها حوله. ترغب أن
تحميه من رأسه حتى أحمص قدميه، أن تعيد إليه انتعاشه، أن
تجعله يفوح برائحة التوابل، والهال العالق في أظفارها. تهمس:
يوهانس. يوهانس. إنك تملك زوجة. أنا زوجتك. أليس هذا
دليلاً كافياً؟

"لم يكن ليكفي قط."

لماذا عن طفل إذن؟ تريد أن تسأله. ماذا عن طفل؟ سر

مارين على طرف لسانها. تُفكر، مهلة أطول - كل ما أريده هو مهلة أطول. من يدري أي قصة قد نرويها في مهلة شهرين؟
تقول:

- يوهانس، ليتني كنت كفاية.

تراجع يوهانس، وأمسك بجانبها.

- كنتِ معجزة.

انسحب الضوء من الزنانة، وقریباً يعود الحارس. كانت هذه أول مرة تمضي نيلاً كل هذا الوقت مع زوجها بمفردهما طوال الأشهر الأربعة التي هي عمر زواجهما. تُذكر عندما أخبرت يوهانس في حجرة مكتبه كم أنه يسحرها. واذ تنظر إليه الآن، ترى صدق تلك الكلمات. حديثه وعلومه، تكيفه الساحر مع نفاق العالم، رغبته في أن يكون نفسه. يرفع يده إلى ضوء الشمعة، فتبدو حواف أصابعه القوية والصلبة جميلة. كم ترغب في أن يعيش.

هذا الحديث عن تبدل الأحوال، كيف أن الأشياء تتغير، عن الغرف التي تمتلئ وتخلو، عن جسدي الشقيقين اللذين تفتقا عن سرين كبيرين، كل هذا يجعلها ترغب في إخباره عن صانعة الدُمي. وكان عمراً مضى منذ أن نزلت السلام ورأت بيت الدمي قابلاً على البلاط الرخامي. كم شعرت حينها بالإهانة، كم كانت مارين غاضبة.

- هل أخبرك جاك من قبل عن مُوظفه في الكالفرسترات؟

- كان له مُوظفون كثيرون.

- امرأة من بيرجن؟ شقراء؟ تدربت على يد ساعاتي.

قضم يوهانس قطعة صغيرة من إحدى الكعكتين المغلقتين بالسكر، وأضاء شمعة على طاولته. شعرت نيلًا بنظرة الهادئة على قمة رأسها. وقال:

- لا. كنتُ لأتذكر ذلك.

- إنها صانعة الدُمي، التي استأجرتها لتأثيث بيت الخزانة. هي من صنعت دمية ريزيكي.

وإذ ذاك أشرقت عيناه المتعبتان. "امرأة؟"

- أجل، أعتقد ذلك.

- يا لها من مهارة وقوة ملاحظة استثنائيتين. كنتُ لأصبح مُموِّلها، لو أُتيحت لي نصف فرصة. مدّ يده في جيبه، ورفع الكلبة الصغيرة بحنان وملاحه مفتونة: إنني آخذها معي أينما ذهبت. إنها أعظمُ معين.

همست: "حقاً؟" سلّمها يوهانس المنمنمة، وبتوقير، تناولها نيلًا بأنامل مرتجفة تمررها على نعومة رأس ريزيكي المصنوع من جلد فأر. على جمجمة الكلبة، لا تجد أدنى أثر من اللون الأحمر. تعيد نيلًا التحقق، ولكن لا شيء تبقى من العلامة الصدئة التي كانت متأكدة منها من قبل.

تهمس:

- إنني لا أفهم.

- ولا أنا. لم أر شيئاً مثلها من قبل.

ألقت نيلًا نظرة أخيرة على الجمجمة الصغيرة للحيوان. لا شيء.. سألت نفسها، هل رأيتها من الأساس؟ تمرد الشك الآن على اليقين، ما رأيته، و ما لم تره في الأشهر القليلة الماضية يلف في

دوامه داخل رأسها.

قال يوهانس:

- أحياناً أشك أنني أجلس ساكناً هنا، أنني أيضاً قد مت بالفعل.

- أنت حي، يا يوهانس. أنت حي.

- عالم غريب. بشر يدورون ليطمثوا أحدهم الآخر بأنهم لم يموتوا. نحن نعلم أن هذه ليست ريزيكي، لكننا بطريقة ما نشعر أنها هي. وهكذا يخلق شيء صلب ذكرى هلامية. ليته كان العكس، أن تستطيع عقولنا تجسيد أي شيء نريده. "يتهد، وهو يمسح وجهه بكفيه: عندما غادر أوتو، أدركت ضالة نفسي، حتى لكأنني ميت.

سكت، وأعاد ريزيكي إلى جيبه: ستكون هذه الزنزانة الآن هي نطاق حياتي اليقظة، يقولها، ماداً ذراعيه كطاحونة عوجاء: هناك آفاق عبر الجدران، يا نيلا. انتظري وسترين".

غادرت نيلا، وقد ضاقت بتلك الغرفة الصغيرة. بالطحالب والفئران، بأصوات رجال يزعمون كالطيور؛ ويوهانس سجيناً في قفص، بومتها الكبيرة محاطة بالغربان. خرجت نيلا مترنحة إلى شمس الشتاء، وعندها فقط تبكي بدموع عنيفة صامتة، متكئة إلى سور المدينة.

فركير شجيل



عندما تفتح نيلابا الباب الأمامي، نحدث في حلقها الرغبة في إخبار مارين عن حالة السكر ووضع يوهانس.

ففي منتصف الدهليز، كان مهدٌ بالحجم الطبيعي، متأرجحاً على حامله المصنوعين من الصفيح. زُينَ خشبه البلوط بتطعيمات خشبية من ورود وأقحوان وعسلية ووردة الذرة. وله غطاء، مُبطن بالقطيفة وموشى بالدانتيل. إنه، بجماله ومفاجأته، نسخة طبق الأصل من المهد في بيت الدمى في الأعلى.

أغلقت نيلابا الباب، وهي ما تزال مضطربة من زيارة يوهانس. ما تخيلته استهزاءً في البداية، إرسال مهدٍ إلى امرأة زواجها هزلي، قد أصبح حقيقة واقعة. أقبلت كورنيليا مهرولة على سلم المطبخ.

قالت ل نيلابا:

- ما هذا؟ هل تراه أتى من...

قالت كورنيليا بحدة:

- كلا. لقد طلبته مدام مارين. وصل في صندوق من لايدن.

لمست نيلابا خشب المهد. شعرت به يفرّد تحت أصابعها، والتطعيمات الخشبية ألحان موزونة.

- إنه الذي أرسلته لي نفسه.

- أعرف. الشخص...

طهرت مارين من الصالون. بدا محيطها الآن من مسافة قريبة

كجذع شجرة بلوط. قالت:

- دقة الصنع لا مثيل لها. إنه كما تخيلته تماماً.

- كم كلف هذا لصنعه، لشحنه إلى هنا؟

تتحيل نيلا بحباة أموال يوهانس المتقلصة تبخر أخيراً في الهواء:

- مارين، لو أن أحداً من الجيران رأى هذا، فم سيفكرون؟

- فيما تفكرين به نفسه.

- ماذا؟

- لا تظني أنني لم ألاحظ طنين عقلك. توجهت مارين نحوها

بحركات ثقيلة: تريدين أن تأخذي طفلي لنفسك؟

كيف تقرأ مارين عقول الناس أسرع من أي شخص آخر؟

تفكر نيلا، في وسعي أن أراوغ، ولكن ما الفائدة؟ كنتُ أنا

من طالب بنهاية الأسرار بيننا.

- مارين، أنا لا أريد أن آخذ طفلك...

- لكنك تفترضين أنه سيكون مفيداً... أصرت مارين، وهي

تغطي بطنها بيديها وكأن نيلا ستنتزعه في التو واللحظة: للتضحية

الأخيرة؟ التخلي عن طفلي من أجل شقيقي، من أجلك.

- إن يوهانس في سجن الستدهاوس، يا مارين. هل سيكون

من الفظاعة الشديدة لو تظاهرتنا مؤقتاً أن الطفل لي؟ سيكون في

وسعنا إثبات أن يوهانس يمتلك الرغبات نفسها كبقية الرجال.

ألا تريدينه أن يعيش؟

- إنك حقاً لا ترين.

- أرى ماذا؟ إنني أرى أكثر مما ترين.

- برونهلا، إن هذا الطفل لن يكون مفيداً على الإطلاق. بقي في ذلك.

- أعرف ذلك، يا مارين، أعرف. وبينما أنا أحاول إنقاذنا، تنفقين أنت أموالاً لا تملكها.

تأتي الصفة فجأة، مُدئة ونزاً على وجه نيهلا.

- أتعجب كيف له أن يجبك. اندفعت الكلمات، حارة وقاسية من فم نيهلا قبل أن تتمكن من منعها.

قالت مارين:

- لقد أحببني. وما زال.

قالت نيهلا بهدوء:

- سيكون علينا استئجار قابلة. لا يمكنني تحمل عبء هذه الولادة بمفردي.

أطلقت مارين صوت ازدراء:

- لن تحملي أي عبء أبداً.

قالت كورنيهلا، ببرة فيها توسل:

- كفى، كفى.

- مارين، إنه القانون...

- كلا. ولا في أي حال. "دفعت مارين طرف المهد، فتأرجح مثيراً بفراغه عداً غريباً: هل تعرفين علام ينص القانون أيضاً، يا برونهلا؟" كانت وجنتاها حمراوين، وشعرها قد المحل من قلنسوته: على القابلة تدوين اسم الأب. وإذا لم تخبرها، فسوف تبلغ عن صمتنا أيضاً. أوقفت المهد، وهي تنفس بقل: لذا كما

فعلتُ دائماً، سأعامل مع هذا بمفردى.

وضعت مارين يدها على بطنها، لكنها هذه المرة جفلت، كمن
لمست لهماً يحترق.

في العصاري، تتجول نهلاً ببطء في الأروقة. وتُسعرها الغرف
المهادئة كأن لا أحد في المنزل سواها. ما يزال مفتاح المستودع
مُعلقاً حول عنقها، مُستمدداً الدفء من جسدها، أغلى عندها
من أي قلادة فضية قد يبتاعها لها يوهانس.

تحمل كورنيليا المهد مُستعينة بحبل إلى زنزانة مارين الصغيرة،
حيث ينتظر بترقب، شاغلاً معظم المساحة الفارغة وسط
الجماجم والخرائط والريش. كان موقف الخادم من سر مارين
انسلاخاً سريعاً صار الطفل الآن أَعْجوبة، بوتقة تحترق فيها كل
مشكلاتهم تنفس كورنيليا وجوده الغيبي، فتستنشقه كهواء
نقي كلما استطاعت. كانت قد عادت إلى التنظيف، ففتحت
النوافذ رغم مقمتها للبرد؛ ولَمّت بشمع العسل أعمدة السرائر،
وألواح الأرضية والخزائن وعتبات النوافذ، وضعت مباخر
برائحة الخزامى، وخللاً على الزجاج، وثرث عصير ليمون على
الملاءات النظيفة. لكن هذا أفضل من كآبتها، كما تفترض
نهلاً.

في الحجرة الخلفية في الطابق الأرضي، في منأى عن أعين
المتطفلين في شارع القناة، يتناهى إلى أذني نهلاً، مارين
وكورنيليا وهما تجهزان طاولة الفيركرشپيل. يتذكر قطع اللعب
التي هي بدور كزبرة صغيرة في الطابق العلوي، وصندوق
صانعة الدمى الخشبي المُتقن في صنعته، يظهر كمعجزة. كانت
قد بثت تقريباً من وصول أخبار عن لوكاس فندبريك في

بروج، التي تبعد مائة وخمسين ميلاً، من الطرق المتجمّدة. لقد ضاع خطابي على الأرحح، هكذا فكرت، وهي تتسلل إلى الباب للتصنّت على مارين وكورنيليا.

قالت مارين بحسرة:

- جسدي الحوتي.

- في داخله يونس الصغير،" ابتسمت الخادم. ما تزال نيليا متأثرة من صدامهما الصباحي. وتفكر، إن مارين لا تتعامل مع كل شيء وحدها. من التي ذهبت إلى المستودع، إلى الستدهاوس؟ لكنهما لم تملكا الوقت لحسم ذلك بالجدال. صار الوقت آخر ما نقص من مخزن رفاهيتهم.

ماذا تُراها تقول آغنس إن رأّت مارين الآن؟ لا شك أن فرانس ميرمانز سبق له أن فكر في هذا الاحتمال. كل تلك الأوقات التي قضاها مع مارين، في خفية عن عيني زوجته الثاقبتين. ألم يخش أي منهما من الطريقة التي قد تأخذ بها الطبيعة مجراها؟

- إنه يركني! قالت مارين لكورنيليا، خافضة عينيها إلى بطنها: عندما أقف أمام المرأة أحياناً أرى عليّ بصمة قدم صغيرة. لم أر في حياتي مثل هذا الشيء.."

أما نيليا فرأت، عندما كان أشقاؤها، قبل أن يولدوا، يلكون جدار رحم أمها. لكنها لن تقول هذا، لأن مارين في تعجبها هي رائعة إلى حد ما.

لكنها عوضاً عن ذلك تقول وهي تدخل الغرفة:

- سأحب أن أرى ذلك.

قالت مارين:

- سأعطيك إن فعلها مرة أخرى. أحياناً، تكون يده. وتبدو مثل كفّ هريرة.

تسألها نيلا:

- هل هو ولد في رأيك؟

- أعتقد ذلك. هكذا تجيب مارين، مانحة البروز في جسدها خبطة حاسمة. تتردد أصابعها، وكأنما تريد التريبت عليه. تقول: إنني أقرأ من قرة، مشيرة إلى كتاب أمراض الأطفال لبلانكارت على الطاولة.

ثنت كورنيليا ركبتيها في تحية، وسمحت لنفسها بالانصراف.
قالت نيلا:

- لا بد أن الأوان قد اقترب.

تجيب مارين:

- سوف نحتاج إلى ماء ساخن، وملابس، وعصا أعض عليها.

لم تشعر نيلا سوى بالشفقة. ويتذكر ما قالته كورنيليا عن والدة مارين. لقد نجت بصعوبة بعد ولادة مدام مارين. هل تعرف مارين أي شيء عما ستلقاه من دم، وتمرد جسد، وأصوات وخوف محتم؟ تبدو مارين عازمة على فرض إرادتها الجبارة على هذا الطفل، وكأنها، مثل المخلوق المنزل في داخلها، لا تتأثر بفضاخ العالم الخارجية، وكأنها محصنة ضد المعاناة.

"فكرت أن نلعب دوراً، قالت مارين، وهي تصفّ قطع الفيركشپيل مثل قطع نقدية.

- ابدئي أولاً.

عدت نيلا هذا عرض سلام، وحركت أول قطعها على لوح الفيركشپيل. تقوم مارين بحركتها، متأملة القرص الوحيد، وهي ترجُّ حجر الزهر كسنتين في جوف قبضتها. عضت على قطعها السوداء، مترددة أين تضعها.

قالت نيلا:

- مارين. لم تسألني عن المستودع!

لم ترفع مارين عينها عن اللوح. وشعرت نيلا، على الرغم منها، أن صبرها ينفد: ولم تسأليني عن يوهانس.

ترفع مارين عينها:

- ماذا؟

- سوف ... يُخضعونه ... للتعذيب...

- كفى.

- إذا لم...

- لماذا عليكِ تعديبي؟ تعرفين أنه لا يمكنني الذهاب لرؤيته!

- لكنني أحتاج إلى مساعدتك. أحتاج إلى شاهدين معتبرين، يا مارين. فرانس وأغنس. فكري فيما يعنيه ذلك.

خيم على مارين سكون تام:

- عرفتُ ما يعنيه ذلك في اللحظة التي جاء فرانس إلى منزلنا.

- تحدّثي إذن إلى فرانس، يا مارين. أخبريه عن طفله.

وضعت مارين حجر الزهر بتأنٍ شديد على لوح الفيركشپيل. بدت مُجهدة الأنفاس، وهي تقطب حاجبيها، وتزم لها.

وتقول:

- تجملين من مثل هذه المحادثة أمراً هيناً. إنكِ لا تعرفين شيئاً عما تقولين.

- أعرف أكثر مما تظنين، كبرت نيلاً نفسها، مُحاولَةً السيطرة على مزاجها السيئ وإزاحته إلى وقت حاجة. وأضافت بلطف أكبر: إن ميرمانز رجل. يستطيع أن يفعل شيئاً.

- بقي بي، إن ما يستطيعه شيء لا يُذكر.

- إنه لا يملك وريثاً، يا مارين...

- ماذا؟ هل تقترحين أن أقبض طفلي الآن؟ كيف برأيكِ ستستقبل آغنس خبراً كهذا؟ وفتت مارين فجأة، وراحت تزرع الغرفة الصغيرة: سيمرحها هذا سبباً أكبر لدفتنا. دائماً ما تدخلين...

- إنه ليس تدخلاً. إنه مقاومة من أجل الحياة.

- إنكِ لا تعرفين شيئاً عن المقاومة من أجل الحياة.

قالت نيلاً، باندفاع:

- إنني أعرف ما حدث، يا مارين. كورنيليا أخبرتني.

- ماذا حدث؟

- أعرف أنكِ وفرانس كنتما عاشقين، ومنع يوهانس زواجكما.

وضعت مارين يدها على الحائط لتثبت نفسها وتطوي ذراعها الأخرى تحت جنينها، وقالت بفحيح وحشي عجيب:

- ماذا؟

- أعرف أن فرانس تزوج من آغنس نكاية فيك. إن آغنس أيضاً تعرف هذا. لقد رأيتُ كيف ينظر فرانس إليك - أعرف بشأن الخنزير الصغير المملح، ورسالة الحب في كتابك. تخبريني باستمرار أنني لا أرى، لكنني أفعل.

ردت مارين:

- الخنزير الصغير المملح! ثم سكتت قليلاً، كأنما تنظر إلى ذكرى مغمورة منذ زمن وهي تعود للظهور داخل عقلها:

- وقد جرؤت كورنيليا على إخبارك بهذا؟

اختلست نيلا نظرة إلى الباب:

- لا تفضي منها. أنا من أجبرتها، أردتُ أن أعرف. كان ذلك مهماً.

صمتت مارين لبرهة قصيرة، ومن ثم أرسلت زفرة ثقيلة، ونزلت بجسدها إلى كرسيها. ثم قالت:

- إن فرانس يحب زوجه، وحينما همت نيلا بالاعتراض، رفعت يدها: إنك لا تعرفين شكل الحب، يا برونيليا. لا ينبغي الاستهانة بعشرة اثنتي عشر عاماً.

- ولكن...

- والباقي قصة جيدة، مُلققة الأجزاء من التنصت على الأبواب. إنها أكثر إمتاعاً مما لو كنتُ اختلقتها بنفسني. كان يجدر بي تكليف كورنيليا بأعمال منزلية أكثر.

- إنها ليست قصة...

- خرجتُ منها بصورة حسنة، أليس كذلك؟ أما أخي فكان نصيبه من ذلك أقل. لكن الحقيقة مختلفة بعض الشيء..

لاحظت نيلا كيف ترتجف يدا مارين: لقد رفض يوهانس فعلاً عرض زواج فرانس ميرمانز، قالت مارين، بصوت كئيب الآن.

- كنت أعرف ذلك...

- لأن هذا ما أردته.

حدثت نيلا في قطع اللعب على لوح الفيركرشپيل، واهتزت أشكالهم أمام بصرها. ما تسمعه الآن ليس منطقياً. فقد صدمها بوح مارين، وأصبح يقينها مزعزعاً.

- حقاً أحببتُ فرانس عندما كنتُ في الثالثة عشر، لكنني لم أرغب قط في الزواج منه.

وعلى الرغم من أنها بدت حزينة حزناً يفوق الوصف، إلا أن عاطفة أخرى ترضع مثل شمس باهتة على وجه مارين. إنها تستشعر، الارتياح الحلو والمر النابع من الاعتراف.

ومع ذلك، ظلت نيلا عاجزة عن الفهم. إنه المشهد والممثلون أنفسهم، ولكن ليس في أدوارهم المفترضة. لقد فعلتُ شيئاً أغضب فرانس كثيراً، هكذا قال يوهانس في زواجه بالسدهاوس. لماذا لم يقل حينها شيئاً لنيلا؟ لماذا لم يبرئ نفسه قط؟ أي رباط ولاء هذا الذي يربطه ومارين معاً، حبل زلق جداً حتى أن نيلا لا ترجو أملاً في الإمساك به؟

تقول مارين بهدوء:

- عندما بلغتُ السادسة، لم أرغب في التخلي عن كنتُ وماذا حُزت. كنتُ أملك بيتاً أنا ربته فعلاً. عندما سافر يوهانس، كنتُ الرئيسة.

حضرت دموعها الآن، واغرورقت في عينيها الرماديتين.
فتحت ذراعها بكناحين، في إشارة مفهومة إلى الغرفة التي
تجلسان فيها:

- لا توجد امرأة حازت هذا، إلا لو كانت أرملة. ثم جاءت
كورنيليا وأوتو. كان يوهانس يقول: "قضبان بجننا هي من صنع
أيدينا." لقد وعدني بالحرية. ولزمن طويل صدقته. ظننتُ أنني
حقاً كذلك. تنتقل يداها إلى بطنها.

- مارين، إنكِ تحملين طفل ميرمانز...

- ومهما تكن نقائصه، فقد تركني أخي دائماً على حريتي. من
المؤسف أنه لا يستطيع قول الشيء نفسه عني.

ضغطت مارين أصابعها تحت عينيها، كأنها بذلك ستوقف
الدموع. لم يجد ذلك نفعاً، لأن الدموع واصلت انهماكها، حتى
أنها تحولت إلى نجيب: لقد أخذتُ من يوهانس أشياء لم يكن
لي الحق في أن أخذها.

- مارين، ماذا تقصدين؟

كانت مارين تلامي صعبة أمام الكلمات. مسحت وجهها
بأيديها النحيفتين، وهي تأخذ نفساً طويلاً: عندما طلب فرانس
يدي للزواج، كنتُ حائرة كيف أرفض. لم يكن موقفاً
أعددتُ له. فكرتُ أن الأفضل بالنسبة إليه أن يسمع أنني
محظورة، عن أن يكتشف هذا... العزوف الذي شعرت به.
لذا طلبتُ من أخي أن يتحمل اللوم. في عينيها حزن جاح: وقد
فعل. كذب يوهانس، من أجلي. كنتُ صغيرة، جميعنا كانا لم
أصبر قط أنه سينقلب... وضعت مارين يدها على فمها، عاجزة
عن كبح دموعها. قالت: "راحت الصداقة. راح التفاهم.

لأنني لم أتحمل فكرة الزواج.

المخروط الواعد



أمام مستودع زوجها، انتظرت نيلًا قدوم هانا وأرنود ماكفريد، ومفتاح يوهانس حول عنقها. رن عقلها بهذه الحقيقة الجديدة عن مارين ويوهانس؛ تفاهمهما الواضح بمقدار ما هو غامض. الحب شعاع شمس قد يغشي القلب أحياناً. يبدو أن مارين رأت في الزواج تنازلاً عن شيء ما، بينما نساء كثير، بما فيهن أمي يعدنه الصورة الوحيدة الممكنة للنفوذ الذي يمكن للمرأة أن تحظى به. يفترض بالزواج أن يستخدم الحب، أن يزيد من سلطة المرأة، هي نيلًا تمنح. ولكن هل هو يفعل ذلك حقاً؟ لقد آمنت مارين أنها أقوى سلطة من دونه. نبذ الحب من دون استخدام، وحقاً حدثت أمور عجيبة. طفل، ووزنانه سجن، أجل، ولكن أيضاً حرية اختيار وتشكيل مصير.

عقب بوحها عن ماضيها، أرادت مارين شيئاً يصرف انتباهها، شيئاً يشغلها، بل طالبت حرفياً بذلك، وانتهزت نيلًا الفرصة. قالت لنفسها، وهي تكئى على جدار المستودع؛ لم تكوني متحجرة القلب، كان ذلك ضرورة محتمة. وعليه، بينما جلست نيلًا عند الطاولة الصغيرة في الحجرة الخلفية، بعيداً عن أعين المتطفلين في شارع القناة، كتبت مارين خطاباً إلى أرنود ماكفريد بخط يوهانس. كانت قد وافقت نيلًا على فكرتها الجديدة، ودعت ماكفريد إلى تذوق السكر مع عرض بيعه حصراً في الجمهورية؛ بيع أسرع للجمهور جاهز. تفكر نيلًا بتهمك، منحني زواجي بعض النفوذ على الأقل.

تردد صوت مارين داخل رأس نيلًا. "لمن من نضع حاجز

الريح. يوجد ألف ونحسمائة مخروط، والتي في تقديري، إن أحسنأ صنعا، ستجني ثلاثين ألف جِلدِر. ابدئي برقم أعلى مما سيبيع به. تذكرني أنهم حال رغبتهم في الشراء، فسوف يُقسمُ الريح على ثلاثة أطراف، ويظل القسم الأكبر من المال حقا لفرانس.

- ولكن ماذا لو أن أرنود سمع عن يوهانس، ماذا لو رفض أن يشتري؟

- إنه الجِلدِر في مواجهة التدين. كل ما تملكه هو الابتها لله أن يكون أرنود ما كفيريد أمستردامياً قبل أن يكون ملاكاً.

- ربما يعرف أننا نريد بيع المخزون بسرعة. ربما يرى العفن.

- كوني جريئة، يا نيلّا. ارفعي السعر، وتظاهري بأنك تقدمين خصماً بسبب البويغات.

لم يسع نيلّا إلا الإعجاب بالطريقة التي رفعت بها مارين جسر حزنها عندما استدعى الأمر ذلك، كيف أمكنها إزاحة نفسها إلى مكان يعجز الآخرون عن الوصول إليه. لقد راودها الشك في كونها هي نفسها ضئيلة جداً على هذه الفكرة الكبيرة، إنها قد تفرقها، مغمورة بطموحها. إلا أن مارين منحتها كل الكلمات التي أرادت سماعها. "بترونيلّا"، قالتها بهدوء:

- لست وحدك في هذا الأمر. أنا موجودة.

عبر لوح الفيركشپيل المهجور، مدت مارين يدها إلى يد نيلّا وضغطتها، وخيّل لنيلّا وسط دهشتها، أن قلبها ربما ينفجر.

رأت نيلّا اقتراب الزوجين الحلوانيين في الضوء البارد. تساءل هل أخبرهم أحد يا ترى بما حدث في الستدهاوس، ولكن لا يبدو أن فضيحة القبض على تاجر ثري قد اخترقت

شوارع المدينة بعد. لم تسمع كورنيليا شيئاً على امتداد شارع القناة - ربما عمل آلبيرس مدفوعاً بلباقته، على إلزام حرس سجن الستدهاوس بالصمت؟ لكنها مسألة وقت لحسب قبل أن يعرف الجميع ما حدث ليوهانس براندت. إن طفلاً مُتَّبِعاً بعمر تسع سنين مثل كريستوفيل لن يسهل لجمه مثل حارس سجن يعول أسرة. إن سطح أمستردام يتغذى على هذه المراقبة المتبادلة، هذا القمع لروح المرء باسم الجيرة.

تحت ظل المستودع في الخارج، بدا أرنود أقل انفعالاً وقد حلت بدلة وقبعة سوداوين أنيقين مكان مئزره. بدا شخصاً مختلفاً عن ذاك الذي يضرب صواني التوفي الإسفنجي. إنه كمن قلبه الهواء.

- سنيور، مدام، قالت نيلا، وهي تدير المفتاح في القفل: تهنئي بقدوم العام الجديد. شكراً على قدومكما.

- لم يذكر زوجك في خطابه أننا سنقابلك، يقولها أرنود، عاجزاً عن إخفاء دهشته لرؤية نيلا هنا وحدها.

- فعلاً، يا سنيور، أجابت نيلا، شاعرة بعيني هانا الذكيتين عليها: إن زوجي مسافر.

- ومارين براندت؟

- في زيارة عائلية، يا سنيور.

- فهمت. تجلي الاستياء على أرنود أمام صغر سن نيلا وجنسها، وكأنها خدعة، تمثيلية، ولكن اصبر فقط، هكذا تفكر نيلا، وهي تشد قبضتها في كفي معطفها.

"تفضلاً من هنا، سنيور، مدام. وانتبها لأقدامكما على درجات السلم."

وإذ يتقدّم أرنود وهانا على السلم الحائطي، يتذكر نيلا يد دمية
أغنس في المنزل. ربما لم يزدد المخروط اسوداداً في بيت الدمى،
لكن يوماً كاملاً كان قد مرّ خارج ذلك العالم المُصغّر، ليلة
أخرى من عوامل الجوّ، ليلة أخرى من الرطوبة. من الصعب
أن تمنحني نيلا ماذا ستجد. لا شيء يبقى على حاله. بدأ قلبها
يخفق بقوة إذ تسمع أرنود يصعد الدرجات بأنفاس مصفّرة،
ووقع قدمي هانا الأنيقتين على السلم خلفه.

- ها هي، قالت، مشيرة إلى المخاريط عندما وصلوا إلى
السطح.

قال أرنود:

- لم أتوقع أن تكون الكمية كبيرة.

- تخيلها وقد صارت جلدات. رفع حاجبيه وجففت نيلا
سراً أمام لهجتها التجارية الفظة. قالت لنفسها، فكري في مارين.
وكوني في دمالة يوهانس.

اقتربت هانا من ناحية سورينام وهي تشم الهواء بحدة. وتساءل:
- عفن؟

- يوجد في عدد قليل فقط. لم يكن الموسم لطيفاً.
ركع أرنود بتبجيل، مثل كاهن أمام مذبح. وسأل:

- هل تسمحين لي؟

- تفضّل.

رفع أرنود مخروطاً من ناحية سورينام، وآخر يحمل علامة
الصلبان الثلاثة لأمستردام. ومن جيبه يُخرج سكيناً صغيراً

حاداً، وبحركة سريعة خبيرة، كشط جزءاً جامداً من كل مخروط. يقسمهما إلى اثنين، وقدم نصفاً إلى هانا. عندما يضعان عينة سورينام فوق لسانيهما، يتقابل أعينهما.

ماذا يقول أحدهما للآخر من دون كلمات يا ترى؟ إن حديثاً يجري بينهما بلا شك. يكرران الأمر مع عينة أمستردام، فيديانها في فيهما ويتناجيان في صمت. فكرت نيلا، إن الزواج، أياً كان غرضه الحقيقي، هو شيء عجيب. من كان ليجمع امرأة راقية مثل هانا برجل يشبه كعكة مدورة مثل أرنود ماكفريد؟ تمت لو كان يوهانس موجوداً. كان رجل متعدد اللغات مثله، ليفهم صمت التجار. صورته في تلك الزنزانة تفوق احتمالها، فتدفنها نيلا، محاولة التركيز على السكر.

قالت:

- يوجد هنا ألف وخمسمائة مخروط. سبعمائة وخمسون جرى تكريرهم في سورينام. والباقي هنا في المدينة. نحن نعتزم بيع الكمية كلها.

- حسبتُ براندت يتاجر من الشرق؟

- هذا صحيح. لكن مزرعة في سورينام أنتجت محصولاً فائضاً وأراد الملاك قصره على الجمهورية. سوف يأتي مُشتررون آخرون لرؤيته لاحقاً من هذا اليوم، تكذب. "إنهم متلهفون جداً."

مسحت هانا بأناقة زاوية فمها:

- ما هو سعر سكر أمستردام؟

تظاهرت نيلا بالتفكير. ثم قالت:

- ثلاثون ألفاً.

اتسمت عينا هانا في دهشة. وقال أرنود:

- مستحيل.

- أخشى أنه كذلك. قالت هانا: نحن ببساطة لا نملك هذا القدر من المال.

تمم أرنود:

- حالنا مُزدهرة بما يكفي. لكننا لسنا مُغفلين.

- نحن صانعا كعك، ولسنا بائعي سكر، قالت هانا، مُقطبة في وجهه: ربما لا تحمكنا نقابة، لكننا مازلنا نجبازي معجنات، خاضعين لشطحات حكام المدينة وكراهمهم للأوثان الكاثوليكية المصنوعة من بسكوت الزنجبيل.

تقول نيلا:

- إنه سكر ممتاز، وأنا واثقة أن في وسعكما تمييز ذلك. جودته وحدها ستضمن بيعه. ليس هناك ما يشير إلى تراجع في اشتها الحلوى، المرزبانية، الكعك، الفطائر. وتراقب أرنود وهو يفكر، مُحَدِّقاً في الأقباع التي تصل إلى السقف. تضيف: سوف تزداد شهرتكما قطعاً. لا يسعني سوى تخيل الأبواب الأخرى التي قد يفتحها مثل هذا السكر.

يُخَيِّلُ لنيلا في غير يقين أن هانا تخفي ابتسامته. من المُستبعد أن يكون في حوزتهما ثلاثون ألف جِلدِر مُدَّخِرَة، وإن كان كل شيء جائزاً في هذه المدينة. إنه مبلغ ينافي المنطق، ولكن ماذا بيدها أن تفعل؟ نصحتها مارين أن تحدد سعراً مرتفعاً حتى يشعر أرنود بأنه يحرز تخفيضاً جيداً. إنهما يريدان حصتهما، وآغنس تريد حصتها. ويراود نيلا اليأس.

قال أرنود:

- سندفع لكم تسعة آلاف.

- لا يمكنني إعطاؤك كل هذا السكر مقابل تسعة آلاف.

- حسناً. سنأخذ مائة مخروط من سكر أمستردام مقابل تسعمائة جِدر ونطلعكم على معدل البيع. إن حققنا ربحاً، نعود لشراء المزيد.

تحاول نهلا التفكير بسرعة، اقتداءً بأرنود. إنه يريد القمع الواحد بتسع جِدرات، لكنها في حاجة إلى بيع الواحد بما يقارب العشرين جِدر. فكرت، لقد جاء مستعداً. فقالت:

- قليل جداً، يا سنيور. ثلاثة آلاف وخمسمائة.

يضحك أرنود. ويجيب:

- ألف ومائة.

- ألفان.

لوي شفتيه:

- ألف وخمسمائة.

"اتفقنا، يا سنيور ماكفريد. لكن ثمة طرفين آخرين معنيين سيأتيان لرؤيته عصر اليوم. في وسعي إمهالك ثلاثة أيام لاتخاذ قرارك بشأن الباقي، ولكن إن هم عرضوا سعراً أعلى، فسوف تضيع فرصتك.

أجاب، عاقداً ذراعيه، ويبدو عليه الإعجاب: "اتفقنا." يظهر أنه سعيد؛ فهي المرة الأولى التي تراه يبتسم. "لمئة مخروط."

شعرت نهلا بدوار. إنها لم تنه الأمر كما كانت ترجو، لكن

بعضاً من مخزونهم سيجري تداوله على الأقل، وفي أمستردام، حيث الكلمات تسري كالماء، لن يتطلب الأمر أكثر من طبق كعك لذيذ. تضع مخروط سوريناميا في سلة حتى تجرب كورنيليا تجفيفه.

نقد أرنود نيلا ألفاً وخمسمائة جِدر في عملات ورقية جديدة. وحينما لمستها شعرت بالانتعاش؛ إحساس بباب يُفتح، طوق نجاة مصنوع من الورق. ألف جِدر يجب أن تذهب مباشرة إلى آغنس وميرمانز في شارع البرنسغراخت، استمالة لمحاولة منعهما من تقديم شهادتهما ضد يوهانس. والخمسمائة الباقية يجب أن يرثي بها جاك فيليبس. وسيكون عليهم التفكير في ادخار أي شيء لأنفسهم لاحقاً.

شرعت هانا في تعبئة المخاريط في سلة، وسألتها:

- كيف حال كورنيليا؟

إنها خائفة، هكذا تريد نيلا أن تقول. إنها تلتصق نفسها بمطبخها. كانت قد تركت الخادم في حالة هياج، وهي تنزع بعنف القلب المحكم لثمرة ملفوف سافوي، وتقطع بصلاً أخضر وكراث: إنها بخير، شكراً لك، يا مدام ما كفيد.

- بعضهم يتقلص، وبعضهم يكبر، قال أرنود، وهو يهز رأسه أمام جبل الأقماع.

ضغطت هانا على يد نيلا. وقالت:

- سوف نبيع هذا السكر ونعود. سأحرص على ذلك.

هرعت نيلا إلى المنزل ما إن تبدأ ممطر، شاعرة بالجلدات

الورقية في جيبها وكأنها رايات انتصار صغيرة. إنها بداية، ونيل
يق في هانا ماكفريد. ربما لا تكون زيارة آغنس وفرانس
ميرمانز في البرنسفراخت أمراً ممتعاً، لكن ما يهم هو الأداء.
سوف تنجي نفسها الحقيقية كما فعل مارين. ثمة أمل في أن
مرأى شيء من المال قد يلين قلب فرانس ميرمانز الغريب في
تسجيره، أو يوقظ روح آغنس الكريمة التي طال كونها. هل في
وسعهما حقاً أن يرغباً في موت يوهانس؟ كم من بؤس لا بد
اختزنته، حتى ترغب في نهاية إنسان آخر؟

وحيثما دلفت إلى الدهليز، وتنفض قطرات المطر، تسمع نيل
صوت بكاء كورنيليا. نحبيها الخافت يرتجف من مطبخ الخدمة.
رمت السلة التي تحوي المخروط السورينامي المسود وركضت
إلى أسفل السلم، وهي تكاد تتعث في تنانيرها.

هناك قشور خضروات على الأرض، فوضى من وجبة
نسلات خضراء وبهضاء.

تسألها نيل:

- ما الخطب؟

أشارت كورنيليا إلى الرسالة فوق الطاولة. "هل هي منها؟
تقولها نيل، ومعنوياتها ترتفع. فكرت، أخيراً، عادت صانعة
الدُّمى. تجري إلى الورقة. وإذ تقرأ الكلمات، يشقها نصل
خوف حاد، وتبخر جلدات أرنود وفرحة السكر إلى عدم.

وتهتف:

- يا إلهي. اليوم؟

قالت الخادم:

- أجل. لم تنبأ مُتَلَصِّصَتِكَ النرويجية بهذا.

الوحوش يروضها الرجال



قاعة المحاكمة في الستدهاوس هي غرفة مربعة بنوافذ عالية وشرفات للمشاهدين تمتد بحيطها العلوي، هي شيء بين مصلى ووزنات غائرة. لا ذهب، ولا مخمل، ولا أي ترف، بل أربعة جدران بيضاء ناصعة، والأثاث داكن وبسيط. أما بقية الستدهاوس فضخم، تفغر له الأفواه. أقبية تعلو إلى طنف مذهبة، وخرائط جدارية منحوتة من الرخام تملأ في الضوء - أما في هذه الغرفة حيث يطبق القانون، تكون الأجواء رزينة. تتخذ نيلا وكورنيليا مقعدهما في شرفة المشاهدين وتنتظران أسفل إلى القاعة.

ثم يدخل السخاوت، وهو رجل يُدعى بيتر سلابارت، وستة رجال آخرون في صف ويتخذون مقاعدهم تحضراً لجلسة استماع يوهانس. "لا بد أنهم أعضاء الشخينبنانك"، هكذا تهمس نيلا إلى كورنيليا، التي تومئ برأسها، وهي لا تكاد تستطيع إيقاف ارتجافها. تتفاوت أعمار الرجال الستة، وبعضهم يبدو أيسر حالاً من الآخر، لكن لا أحد منهم يرتدي عباءة وأنطقة مثل السخاوت المترئس. إن التفرد هو نقطة سوداء في هذه المدينة، وتخشى نيلا أنهم سيتكاثفون أمام تهمة يوهانس، في جماعة ترى في نفسها الصلاح، وتوحدها الكراهية.

وجدت نيلا صعوبة في النظر إلى السخاوت سلابارت. إن الرجل يحمل أكثر من شبه عابر بعلجوم، فوجهه بعلي الشكل، بقم واسع وعينين جامدتين. ثم يبدأ المشاهدون من المدينة يملؤون الشرفة من حولها، كان بينهم نساء عديدات

وحتى حفنة من الأطفال. يُخيلُ لنيلا أنها ميّزت المخبر الصغير كريستوفل الذي نقل خبر القبض على يوهانس.

تمتت كورنيليا: "ما كان يجدر بهم إحضار أطفال." وجود صغار بهذا العدد يسبب لها التوتر، وكأنهم جاؤوا لمشاهدة حوت وقع في صنارة.

يسار الشرفة حيث تجلس هي وكورنيليا، يقع نظر نيلا على هانا وأرنود ماكفريد. هما يعرفان إذن، فكرت نيلا، وهي تحييهما بإيماءة، وقلبا حزين. نقر أرنود أنفه في اتجاهها، حاولت أن تستمد الراحة من هذه اللقطة التواطئية. هل كان يعرف من البداية؟ تجرد العزاء في احتمالية تفوق أمستردامية أرنود على تدينه، إلى أن تتساءل هل تُراه بناء على نتيجة هذه المحاكاة، سيعود ويطلب بقية السكر بسعر أكثر تخفيضاً.

وفي الصف الأمامي من الناحية الأخرى للشرفة، تجلس آغنيس ميرمانز متلقّعة في فراءها. همست كورنيليا: "ما خطب وجهها؟" تظهر ملاح آغنيس فعلاً أكثر بروزاً حتى من المرة التي رأتها نيلا في الكنيسة القديمة في شهر كانون الأول. تبدو مريضة، وقد برزت عظام وجنتيها وعينيها أكثر من اللازم وهي تنظر أسفل القاعة، وتعبث بشيء في حجرها. تشبث آغنيس بجأفة بالحاجز الخشبي أمامها، أظفارها مقضومة كلها. غطاء رأسها الذي كان ذات يوم مثالياً كان مائلاً، وزال لمعان اللآلئ الصغيرة التي تحيطه؛ توحى ملابسها بأنها ارتدتا على عجل. تبدو مثل حيوان وقع في بئ، بعينين تجوبان الشرفة، نجحان عن شيء ما.

قالت كورنيليا:

- سأخبرك أنا ما خطبها، يا مدام. إنه الشعور بالذنب.

لكن نيلا تشك في ذلك. ما هو الشيء الذي تعبتُ به آغنس كفتاة صغيرة، ما هو ذلك الشيء الصغير الذي تدسه في طرف كها؟

وخلف زوجه، جلس فرانس ميرمانز معتمراً قبعتة العريضة. تتساءل نيلا لماذا لم يجلسا معاً. بدا وجهه العريض والوسيم رطباً بسبب المطر في الخارج، وهو يعيد هندمة سترته، فيجذب أطرافها كمن يشعر بالحر الشديد. تربت نيلا على جيبها الذي مازال يحوي جلدرات أرنود. عليها إقناع ميرمانز بأن المال في الطريق، الكثير من المال. دعنا ندفن هذه الفوضى، يا سنيور - دعنا نقل إننا أخطأنا - لا شك أنك ترى آغنس في حالة لا تؤهلها للشهادة. وإذ يتدرب على هذه الردود، تحاول نيلا الالتقاء بعينيه، لكن ميرمانز لا ينظر صوبها، محققاً عوضاً عن ذلك من فوق رأس زوجه صوب الحلبة في الأسفل.

يطلق نفس جماعي حاد في أرجاء القاعة عندما يدخلون يوهانس. وضعت نيلا يدها على فها، لكن كورنيليا لا تتمالك صرختها. فتقول:

- سنيور. سنيوري!

تخلص يوهانس من أيدي الحرس الذين يسندونه، لكنه مشى بصعوبة. يراقبه أعضاء الشخيبانك، وجوههم متوترة. كان جلياً أن يوهانس قد وضع على آلة تعذيب، أصابته بجروح جسيمة لكنها لا تكفي لتودي بحياته. انحنى على أحد جانبيه، وكاحلاه لا يكادان يقويان على الحركة، فيجر قدماً واحدة خلفه مثل خرقة متهدلة. لقد قال يوهانس: إن في وسعه رؤية آفاق عبر جدرانها، ولكن كم تغير شكله في أيام قليلة. عباهته مهترئة، إلا أنه عندما يتخذ مقعده، يضعها خلفه وكأنها قماشة

نسيجها الذهب.

لكن وحشية المسامير والأربطة لم تفلح بطريقة أو أخرى. كان جلياً أن السجين الشعث قد تمسك بأسراره - ولو أنه لم يفعل، لما كان أي منهم هنا الآن في قاعة المحاكمة. ألم يخبرهم بأي شيء؟ سيكون الهدف من هذه الجلسة هو انتزاع مشهد مسرحي باستخدام إذلال لفظي هذه المرة، إذلال سيشهده المواطنون، نوع مختلف من الوحشية. ماذا قال يوهانس في زنايته؟ كلما ازداد العدد في طقس ما، أضفى ذلك عليه تبريراً.

تسترجع نيلا صورته في وليمة نقابة الصاغة. السحر الذي تمتع به، الحنكة والذكاء الفريدين، الطريقة التي اجتذب بها كل الناس. أين هؤلاء الناس الآن، لماذا لم يأت سوى الأطفال والموظفون لرؤيته يقاوم؟

همست كورنيليا:

- يجدر به الاستعانة بعكاز للشيء.

- كلا، يا كورنيليا. إنه يريد منا أن ندرك وحشيتهم.

- واختبار تعاطفنا أيضاً. كانت هانا ماكفريد قد انتقلت للجلوس إلى جوارهما، وهي تتناول يد نيلا بين يديها. وإذا تشكل النسوة الثلاث سلسلة، شعرت نيلا بقلبها يكاد ينفطر. كانت تظن طوال هذا الوقت، أن يوهانس قد حرم مارين الحياة التي أرادتها، بينما هو كان يحاول منحها حريتها. إن قلب يوهانس عظيم مثله، ولكن انظروا إلى أين قاده.

ليت في وسع مارين أن ترد له الجميل الآن، وهو أشد ما يحتاج إليه. ربما فات الأوان لإقناع جاك بتغيير قصته أو

ترضية فرانس في غضبه، وها هي الحكومة قد صارت طرفاً، ما الذي يمكن أن يصمد أمام الآلة الغاضبة التي لمحت لوطياً محتملاً في داخلها؟ إن ثروتي ليست ملبوسة، قالها يوهانس ذات مرة. إنها في الهواء. لكن طفلاً سيكون من لحم ملبوس. أعيرينا الذي قريباً يكون طفلك، يا مارين، أعيرينا على الأقل صورة مزيفة لزواج طبيعي.

تسترجع صورة المهد المنعم، وبطن دمية مارين المنتفخة، ومخروط السكر في يد آغنيس ودمية جاك السليمة، تلحن نيلا صانعة الدُمى لأنها لم تنبها إلى ما كان يجب فعله، إلى ما كان في مقدورها تجنبه. ما فائدة نبيّة لا تكشف المحتوم؟

مالت هانا عليها:

- لقد تعاقدنا فعلاً على نصف الكمية التي أخذناها هذا الصباح، يا مدام. يريد أرنود إرسال بعضها إلى لاهاي حيث له عائلة. أنا واقعة أنه لن يمضي وقت طويل حتى نأخذ كمية أخرى - تذكرني ذلك رجاء عندما تقابلين أولئك... الأطراف المعنيين.

حاولت نيلا كتمان إحراجها. إنها لا تجد بأساً في المراوغة مع أرنود. بل وكأنه يرحب تقريباً بذلك، لكنه مع هانا يبدو شيئاً معيباً. تسألها:

- هل يعرف أي من زبائمه لمن هو السكر؟

وإذ ذاك، هانا هي من يتضرج. وتقول:

- إن أرنود يُغفل ذكر المصدر. لكنه سكر ممتاز، يا مدام. أظنه لو كان من بعل زبوب نفسه، فإن زوجي سيبيعه.

لا تنفك كلمات هانا تمنع نيلا الأمل، ولكن يبدو هنا، في

قاعة المحاكمة، وكان مازق يوهانس قد اكتسب زحماً خارج حدود سيطرتها. يتساقط المطر بغزارة أكبر الآن، هدير خافت فوق السطح.

- يا أناس أمستردام الطيبين، إننا لمحظوظون،" هكذا يستهل السخاوت سلابارت قوله. صوته عميق وسلس، ويصعد إلى حيث يجلس الأهالي العاديون على مقاعدهم الخشبية اليابسة. ها هو رجل في ريعان عمره، وذروة سلطته التشريعية، يسيطر على حياة المواطنين في قبضته. تفكر نيلا، إنه يأكل بشهية، وينام بعمق. أهوال غرف التعذيب تحت قدميه بعيدة عنه بعد جزر الملوك.

"لقد نهضنا بمدينتنا،" يقولها سلابارت. وتموج الشرفة بتأيد نفور، ويومئ أعضاء الشخينبانك في موافقة. "لقد ذللنا أراضينا وبحارنا، ونحن الآن نستمتع بما تجود به من غلال. جميعكم أناس صالحون. لم تضيعوا أنفسكم في وفرة سعدكم.

ولكن..." يقطع سلابارت كلامه، رافعاً إصبعه ثم مشيراً إلى يوهانس. "ها هو رجل تعاضم غروره. رجل ظن أنه فوق عائلته، فوق المدينة، الكنيسة، الدولة. فوق الرب." يقطع سلابارت كلامه مرة أخرى، تاركاً الصمت يملأ خطابه بالعظمة. "يظن يوهانس براندت أن في إمكانه شراء أي شيء. كل شيء يملك ثمناً بالنسبة إليه. حتى ضمير شاب، اتخذه وسيلة لإمتاع جسده وحاول شراء صمته بالمال."

تنطلق موجة من الانفعال. غرور، متعة جسد - هذه الكلمات المحظورة تمنح الناس في القاعة شعوراً غامراً بالإثارة. لكن نيلا تشعر بخوف يتشعب، كواحد من نباتات مارين السامة.

- لا تملك توجيه اتهام كهذا. صوت يوهانس أجش وخشن.
"لم يتخذ الشخيبناك قرارهم ولا يمكنك اتخاذه نيابة عنهم.
أظهر لهم بعض الاحترام، يا سنيور. إنهم رجال حصيفون.
تنتفخ أوداج بضعة من أعضاء الشخيبناك خيلاء. يرمق
البقية يوهانس بمزج من الانبهار والاشمئزاز.
قال سلابارت:

- إنهم مُستشارون أكفاء، لكنني من سيقول الكلمة الأخيرة.
أنت تنكر تهمة الاعتداء اللوطي؟
ها هي الكلمات التي كان المشاهدون في انتظارها. كانت
كمن تُغلغل بين المتفرجين، في تحدٍ أن تحملها أعصابهم، أن
تدوق فيها الخطيئة النادرة.

- أجل. يقولها يوهانس، ماداً ساقيه الكسيحتين: على الرغم
من جهودكم القصوى.

- أجب على قدر السؤال فقط، من فضلك، يقولها سلابارت،
وهو يبحث بين أوراقه. "في يوم الأحد، التاسع والعشرين
من كانون الأول من العام الماضي، عند مستودعات الجزر
الشرقية، يقول جاك فيليبس من بيرموندزي، لندن، إنك
اعتديت عليه ومارست اللواط معه. لقد ضرب ورض حتى
كاد لا يستطيع أن يمشي، في يوم الرب."

انفجر المشاهدون. ويصرخ سلابارت: "هدوء. الزموا
الصمت.

يقول يوهانس، رافعاً صوته فوق الضجيج: -

- لستُ الفاعل.

- سوف يقسم الشهود على الكتاب المقدس أنهم رأوك.

- ومن أين يعرفونني حتى يحددوا هويتي؟”

“إنك وجه معروف، يا سنيور براندت. ليس هذا بالوقت الذي تدعي فيه التواضع. أنت صاحب نفوذ، قطبٌ ثري يُقتدى به. يتواجد كثيراً قرب المرافئ، المستودعات، المراسي. الفعل الذي ارتكبته...

- يزعم أنني ارتكبته...

“يتعارض مع كل ما هو خير، كل ما هو صواب. إن سلوكك نحو عائلتك، مدينتك، بلدك هو ذاك السلوك الذي يميز الشيطان.

يرفع يوهانس بصره إلى مربع السماء البيضاء الذي يظهر من النافذة العالية. يتلمل أعضاء الشخيبانك في كراسيم الصغيرة. قال بهدوء:

- ضميري مرتاح. كل ما تهمني به زائف كأسنائك.

يضحك الأطفال في الشرفة ضحكات مكبوتة.

- إهانة المحكمة بالإضافة إلى اللواط...

- ربما أكون قد أهنتُ المحكمة أيضاً، يا سنيور سلابارت.

فماذا ستفعل؟ هل ستغرقني مرتين لأنني أشرتُ إلى زينتك؟

بحفت عينا سلابارت العجوميتان، ويهبط خداه السمينان في غضب كتمه بصعوبة. فكرت نهلاً: “احترس، يا يوهانس”.

قال سلابارت:

- عندما أسألك، فعليك أن تجيبني بالاحترام الذي يفترض

بكل مواطن إظهاره لسيادة القانون.

- أسألني إذن سؤالاً يستحق هذا الاحترام.

يبدو الاستمتاع على أعضاء الشخيبناك بهذه المشادة،
ورؤوسهم تلتفت يميناً ويساراً بين الرجلين.

يسأل سلابارت:

- أنت متزوج؟

- أجل.

تراجع نهلاً في مقعدها منكمشة. تنظر إليها آغنس عبر الفضاء
بينهما، وتكشيرة تتحرك على شفيتها.

- وأي نوع من الأزواج أنت؟

- أنا زوج من قطعة واحدة، أليس صحيحاً؟

ضحك بعض الرجال في الشرفة، ونظر يوهانس إلى الأعلى،
فبيز وجهه كورنيليا بارزاً من الحاجز وأجبر نفسه على الابتسام.

- إن هذا لا يجيب عن سؤالي، أعاد سلابارت، وصوته يعلو
بصورة طفيفة.

- هل أنت زوج صالح أم سيء؟

نفض يوهانس منكبيه في لا مبالاة:

- أعتقد أنني زوج صالح. زوجتي راضية. لديها المال
والأمان.

- ذاك جواب تاجر. المال لا يعني الرضا.

- آه، صحيح، نسيتُ آلامك الروحانية عندما يتعلق الأمر
بالمال، يا سلابارت. فلتجرب أن تقول ذلك لحرفي ماهر،

رجل يحافظ على نهضة هذه الجمهورية إلا أنه لا يستطيع أن يوفي إيجار منزله. جَرَّب أن تخبره أن الأمان لا يعني السعادة بالضرورة.

سُمت زجرات التأيد في الشرفة ويدون أحد أعضاء الشخينبانك شيئاً. سأله سلابارت:

- هل لديك أطفال؟

- ليس بعد.

- لماذا؟

- لم يمض على زواجنا سوى أربعة أشهر. تشدُّ كورنيليا على يد نيللا. دوئما علم، كان يوهانس قد أتاح الفرصة لاستخدام طفل مارين وسيلة لإنقاذه.

- كم مرة تضاجعها؟

يسكت يوهانس قليلاً. لو أنه أراد استيعاب الشعور بوقاحة هذا السؤال، هذا الاجتياح اللفظي لمخدعه، فهو لا ينجح. يميل أعضاء الشخينبانك إلى الأمام، وكذلك يفعل فرانس ميرمانز. تشبث آغنس بالحاجز، مترقبة مثل غراب الجيف.

يقول يوهانس:

- بمقدار ما يُتاح لي. أضطر للسفر كثيراً.

“تأخرت على الزواج، يا سينور.”

رفع يوهانس عينيه إلى الشرفة:

- كانت زوجتي تستحق الانتظار.

تجلى الحنان في صوته، وشعرت نيللا بالحزن يخسر في داخلها،

وتهدت امرأتان خلفها تهيدة امتنان.

يقول سلابارت ملاحظاً:

- قت على مر السنين، بتعيين العديد من المُدرِّبين في مختلف النقابات.

- إنه واجبي كمواطن أمستردامي، وعضو قديم في الفوك. أنا سعيد لأنني فعلت ذلك.

- قد يقول بعضهم، إنك كنت سعيداً أكثر من اللازم. على مر السنين، مجموعة كبيرة من الشباب...

- مع احترامي، أليس كل المُدرِّبين شباباً.

- بعدد يتجاوز من وظفه غيرك من أعضاء النقابة القدماء أو ممثلي الفوك. لدي كل الأرقام هنا.

نفض يوهانس كتفيه في حركة مترنحة. وقال:

- إنني أغنى من معظمهم. والناس يحبون أن يتعلموا مني. قد يزعم المرء حتى أن هذا هو سبب وجودي هنا.

- وماذا تعني بهذا؟

- دائماً ما يطمع أفقر الصيادين في ذكر الأيل الأكبر. أتساءل، يا سخاوت سلابارت: من الذي سيستولي على أعمالي إن أنا غرقت؟ هل سيكون أنت، فتقسمها وتغلق عليها في خزائنك بالسدهاوس؟

صرخ سلابارت:

- إنك تهين مدينة أمستردام إنك تغير اشمئزانا بتلميحائك. يجيل السخاوت أنظاره بين أعضاء الشخيبناك: تعد المدينة

لعبة، مقوضاً كل شيء نعمل من أجله.

- ليس هذا بيان حقيقة. إنما هو رأيك.

- وظفت زليجياً أيضاً، أليس كذلك؟

- إنه من بورتونوفو، في داهومي.

- احتفظت به قريباً منك، علمته طريقة عيشنا. لقد روضت

الوحش.

- علام تحوم، يا سلابارت؟ إلام تهدف؟

- أردتُ فقط أن أقول إنك تميل إلى غير المألوف، يا سنيور

براندت. كثير من زملائك سيؤكدون ذلك. نادوا على المدعي.

هكذا يزعم سلابارت وإذ ذاك، تبحظ عينا يوهانس في

صدمة.

- المدعي؟ تستدير نهلاً إلى كورنيليا. "حسبتُ اليوم مُقتصراً

على عرض التهمة؟

ولكن لا، إنهما تسمعان وقع قدميه، وتنظر الفتاتان إلى

أسفل في رعب والحرس يُحضرون مُتهم يوهانس عبر باب

القاعة.

الممثل



شبكت كورنيليا يديها بيدي نيلّا عند رؤية الإنجليزي مرة أخرى. دخل قاتل ريزيكي إلى القاعة هائماً. لقد فقد شعره الجامح لمعانه ويضع ضمادة ملطخة بالدماء على كتفه.

تمت نيلّا:

- ليس هذا دمه. سيكون جرحه قد شفي بمضي هذا الوقت. رفع جاك ناظريه إلى الشرفة ولاحظت نيلّا كيف أن أغنيس هي من تراجع في مقعدها منكشة هذه المرة.

ولدى رؤية ذلك الشيطان الإنجليزي المتجسّد، استوى أعضاء الشخينبانك في مجلسهم. ويسأل سلابارت:

- هل أنت جاك فيليبس، من بيرموندزي، إنجلترا؟

بدا جاك لوهلة متردداً أمام نظرات المتفرجين وهمساتهم. ونيلّا، إذ يتذكر أداءه المثالي في الدهليز بعد أن طعن ريزيكي، وعجزت عن التمييز هل هو خائف أم هو فقط يتظاهر.

أجاب جاك:

- أنا هو. ألقى بالكلمتين كقفازين عند قدمي يوهانس، وهولنديته الغريبة يتردد صداها في القاعة. ضحك بضعة أناس في الشرفة من دون تكتم في سخرية من لكنة جاك.

- أعطه الكتاب المقدس،" يقولها سلابارت في وهيرة واحدة، ونهض كاتب المحكمة يرفع نسخة مكتتزة صغيرة:

- - ضع يدك عليه واحلف أنك ستقول الحق.

يضع جاك أصابعه المرتعشة على الغلاف الأمامي. وقال:

- سأقول الحق.

وجه يوهانس قناع جامد، ويتجنب جاك مقابلة نظره.

- هل تعرف هذا الرجل؟" ويشير سلابارت إلى يوهانس،
لكن جاك لا يرفع رأسه المطأطئ. "قلت، هل تعرف هذا
الرجل؟

لكن جاك ظل لا ينظر. هل هو شعور بالذنب، أم خوف
مزيف، مجرد خدعة من الخدع التي تعلمها جاك في مسارح
التأيمز؟ قال سلابارت بصوت أعلى قليلاً:

- هل أنت أصم؟ أم أنك لا تفهم ما أقول؟

قال جاك:

- بل أفهم، وقفزت عيناه نحو يوهانس، لتتباطأ على ساقيه
العرجاوين، وعباءته بادية التمزق.

سأل سلابارت:

- ما التهم التي توجهها إليه؟

- أوجه إليه تهمة الإجبار على اللواط، والاعتداء، والرشوة.

أثار الاضطراب حفيفاً بين أعضاء الشخيينبانك: دعني أقرأ
شهادتك بصوت عالٍ أمام المجلس. " ثم يتنحى سلابارت. "
>أنا، جاك فيليبس، من بيرموندزي، إنجلترا، المقيم في المنزل
الذي يحمل لافتته رمز الأرنب على ضفة الكلوفاينيرشبورخفال
قرب شارع البيتانيسترات، كُتِفْتُ على حين غرة وأجبرتُ على
ممارسة اللواط في وقت متأخر من مساء يوم التاسع والعشرين
من كانون الأول. كان مُغتصبي هو يوهانس ماتوس

براندت، تاجر أمستردامي وبهينديير في الفوك. أخذتُ رغماً عني، وطُعنْتُ في كتفي جرأً مقاومتي. هل هناك ما أردتُ إضافته؟» هكذا سأله سلابارت، وهو يرمقه من فوق نظارته.

- كلا.

تلتفتُ كورنيليا إلى نيللا. "هل قال الآن أن السنيور طعنه؟ هل يعني هذا أن توت في أمان؟ نظرتُ كمن لا يمكنها تصديق الأمر:

- معجزة واحدة صغيرة، يا مدام.

لكن نيللا لا يمكنها أن تشعر بالسعادة نفسها. إن الكذبة تخلي مسؤولية خادمه، لكنها تحكم أغلال يوهانس إلى خطر الموت.

- وكل شيء هنا هو صحيح؟ قال سلابارت مُلمحاً إلى الشهادة.

- نعم، يا سنيور. عدا أنه عندما طعنتني، كان يقصد قلبي.

- فهمت. وأين كتَّفك، يا سيد فيليبس؟

- في الجزر الشرقية. أعمل بين الحين والآخر عامل مخزن في مستودعات الفوك.

- وكيف بدا لك؟

- ماذا تقصد؟

- حسناً، كيف كان سلوك يوهانس براندت قبل أن يكتَّفك؟

- كان مسعوراً.

استغربت نيللا، كيف يعرف جاك كلمة كهذه بالهولندية؟

- هل تبادلتما الحديث؟

اندج جاك في تمثيله الآن. بصمت قصير لفنان محنك، ينتظر،
تاركاً القاعة لا تسمع شيئاً سوى التساؤلات والمطر المنهمر.
كرر سلابارت:

- هل تحدث إليك؟

- ناداني بابتة الأخ الصغيرة وسألني أين أقيم.

- ناداك بابتة الأخ الصغيرة! التفتُ سلابارت إلى
الشخيبنبانك: إن هؤلاء الرجال شاذون على جميع مستويات
الحياة. بل إنهم يسرقون مفردات الأسرة ويحولونها إلى مهزلة.
هل قال شيئاً آخر، يا سيد فيليبس؟

قال جاك:

- قال إنه كان يراقبني. طلب مني أن أسمح له بالعودة ورؤية
مسكني.

- وكيف أجبته؟

- دفعته، وقلت له أن يتركني وشأني.

- وبعد أن دفعته؟

- أمسك بي من ذراعي، وهجني إلى مستودعه.

- وبعد ذلك؟ صمت جاك، فقال سلابارت: وبعد ذلك؟

اعتدى عليك؟

- أجل.

- أجبرك على ممارسة اللواط.

- أجل.

انفجر اثنان من أعضاء الشخيبنبانك في نوبة سعال، ويحدثُ

مقعدها صريراً على الأرضية. والناس في الشرفة يتمنون.
ومن بين أعمدة الحاجز حدق طفل لا يتجاوز الثالثة، في ذهول
مرعوب.

يميل السخاوت للأمام نحو جاك، ووميض خافت من الفرح
في عينيه البرمائيتين:

- هل قال أي شيء في أثناء اعتدائه عليك؟

- قال إنه كان يجب أن يحصل عليّ. إنه يريد أن يريني كم
يحب ابنة الأخ الصغيرة.

- وهل قلت شيئاً؟

أرجع جاك كتفيه إلى الخلف، مُظهراً ضمادته الملطخة
بالدماء، ومُبرزاً صدره: قلتُ له إنه يحمل الشيطان في داخله.
ثم أخبرته أنه الشيطان بذاته، لكنه لم يتوقف. قال إنه سيُري
صعلوكاً مثلي كيف يكون الأمر عندما يمتطيه رجل مثله. قال
إنه يحصل دائماً على أي شيء يريده، وإنه سيضربني إذا لم
أخضع.

- لدينا تقرير طبيب عن حالة المدعي الجسدية عندما جاء
إلى الستدهاوس بدعواه، قالها سلابارت، وهو يسلم نسخاً من
التقرير إلى أعضاء الشخينبانك:

- لقد طعنك، يا ولدي. قال بإنكليزية عامية: كان سيصيب
قلبك لو أنه أدنى قليلاً.

ولد. إنجليزية عامية مُلغطة، مسكين الولد جاك، وهو مُحاصر
في الظلام يحاصره إبليس نفسه. في ضوء هذا الإعلان الواضح
عن الجانب الذي يتعاطف معه سلابارت، يبدو يوهانس رازحاً
تحت ثقل، وكان عظامه مصنوعة من حجر.

قال جاك:

- لقد فعل. وحينها رفع يوهانس عينيه. واستدار جاك في عجلة إلى أعضاء الشخيينبانك قائلاً: وضربني. لم أكن قادراً على المشي.

قاطعته يوهانس:

- كل هذه أكاذيب.

قال جاك:

- لا يمكنه مخاطبتي، يا سخاوت سلابارت. أخبره أنه لا يمكنه مخاطبتي.

- صمتاً، يا براندت. سوف تحظى بفرصتك. سيد فيليبس، هل أنت متيقن تمام التأكد أن الرجل الذي اعتدى عليك في تلك الليلة هو يوهانس براندت؟

قال جاك:

- متيقن تماماً. لكن ركبتيه بدأنا تخوران.

قال يوهانس وجاك يترنح نحو الأرض:

- إن الفتى يوشك على الإغماء.

قال سلابارت ملوحاً بيده نحو جاك:

- أخرجوه. فرفعه اثنان من الحرس، وقال: تُوْجَل الجلسة إلى صباح الغد في الساعة السابعة.

قال يوهانس:

- سخاوت سلابارت. كان اليوم لعرض التهم فقط كما يفترض، لكنك أحضرت المدعي عليّ. أي حيلة تمارسها؟ متى

بأبي دوري لطرح الأسئلة؟ لقد سميت لتشويه سمعتي وترويع الجمهور. لا بد أن يتاح لي الكلام.

- إنك تتحدث كثيراً فعلاً. ونحن حتى لم نحضر الشهود بعد.

قال يوهانس:

- ذكّر في الكتاب أن هكذا يجب أن تجري الأمور. كل منا يجب أن يحظى بفرصته. ثم أشار إلى الكتاب المقدس. " (لَا تَنْظُرُوا إِلَى الْوُجُوهِ فِي الْقَضَاءِ. لِلصَّغِيرِ كَالكَبِيرِ تَسْمَعُونَ. لَا تَهَابُوا وَجْهَ إِنْسَانٍ لِأَنَّ الْقَضَاءَ لِلَّهِ. وَالْأَمْرُ الَّذِي يَعْسُرُ عَلَيْكُمْ تَقَدِّمُونَهُ إِلَيَّ لِأَسْمَعَهُ). سفر التثنية. في حال أردت التأكد."

أجاب سلابارت:

- سوف تحصل على دورك، يا براندت. لكننا الآن سنؤجل الجلسة. الساعة صباحاً في الغد."

يُقاد يوهانس وجاك من بابين مختلفين. يُبقي جاك رأسه مغمياً، لكن يوهانس يلتفت لحظات إلى الشرفة، حيث كورنيليا ونهلا قد نهضتا فعلاً. رفعت يدها وأوما لها قبل أن يؤخذ بعيداً.

أخذ الناس يتمطون، ويتبادلون تعابير الدهشة والارتعاع، خرج مدمنو التنزه من جيوبهم أكياس المكسرات، ولفائف الجبن واللحم. قطعت آغنيس المشى في عجالة. ودهشت نهلا من جديد أمام نحول قوامها، وحركات قدميها الشبيهة بالطيور. كان فرانس ميرمانز قد اختفى بالفعل.

لم تكن تملك فائضاً من الوقت، فقالت لكورنيليا:

- لن أتأخر. عودي إلى مارين.

وفوراً، بدا على هانا الفضول، أرسلت نهلا نظرة تحذير إلى

كورنيليا. حتى هانا لا يجب أن تعرف. وأجابت كورنيليا
بإيماءة تكاد لا تُرى.

دارت نيللا، ولحقت بآغنس من حيث خرجت، شاهدت
أن شيئاً سقط من آغنس على الأرض حيث كانت تجلس.
كانت قدمان صغيرتان ببرزان من تحت المقعد، يحيط بهما
نعلان خشبيان. أعرف هاتين القدمين، هكذا فكرت وهي تجثو
في التراب.

القدمان لدمية صغيرة ترتدي ثوباً ذهبياً. الوجه هو وجه نيللا،
شعرها يُفلت في خصلات من غطاء رأس بلون الزعفران.
تهمس: "بحق الملائكة." هذه النسخة منها بدت أقل ادهاشاً من
الدمية التي في بيت دماها. نظرتها أكثر ثباتاً. غريزيلاً، تبحث في
الجسد المنمنم، عن جروح، كما تقول لنفسها، للتسلح ضد أي
خطر قادم. لكنها في قرارها، في تجويف مظلم من عقلها لا
تزوره إلا نادراً، تعرف أنها تفعل ذلك بحثاً عن أي دلالة على
وجود طفل. أو انتفاخ، أبعدت نيللا الحزن، وقالت لنفسها،
"لا توجد جروح وكسور على الأقل. لم تحن ساعتك بعد."

الجلدر والدمية



هذه الدمية ربما هي مع آغنس منذ شهر. كانت غيورة من بيت دماي، فادّعت امتلاكها واحداً، ثم فضحت نفسها على عتبة المنزل بعد حفلة السُّكَّر، حينما قالت لفرانس: أريد بيت دماي أن يكون أجمل من بيتها. ولا يوجد بلا شك سوى مكان واحد قد تشتريني آغنس منه؟ هذه الدمية صادقة جداً ودقيقة جداً. يؤلمها كثيراً أن تسلم أنها صنعت لشخص آخر.

وضعت نيلاً دميتها اللامعة في جيبها مع جلدات آرنود، واندفعت أسفل السلم بحثاً عن ميرماز. كان المطر قد هدأ قليلاً، والضوء أغمش. تسكع جمهور المحكمة في الشارع الضيق متجنبين البرك. لمحت نيلاً الطوق الأبيض عتيق الطراز، والرداء الأسود الطويل للقس بيليكورني. وجهه النقي، تاجه من الشعر الأشيب، والعينان المليئتان بالوعظ الغاضب. كان الآخرون قد احتشدوا حوله، كالهيو على الصوف. مع نقرات المطر، يعلن:

- هذه خطيئة. ريمها ظاهرة. لقد عاش يوهانس براندت حياة آئمة.

علقت المرأة التي إلى جوارها:

- إنها مغبة الترف.

قال رجل:

- لكنه أربح المدينة أموالاً. لقد جعلنا أغنياء.

قال بيليكورني:

- جعل منا أغنياء؟ وانظر ماذا فعل الثراء بروحه. وهمس بكلمة وكأنه ينفث بزفرة أخيرة، رجس يوهانس براندت.

تنفست نيلا بصعوبة. كانت روائح طعام مُنتن تفوح مع تسلل الرائحة الكريهة المدخنة والكثيفة للحوم الحانة على الجدران، وبيليكورني يحرك عينيه فوقها.

سألها إحدى النسوة اللاتي مع بيليكورني:

- هل بكِ خطبٌ، يا فتاة؟ لكن نيلا لا تجيب.

- الزوجة... همس بها شخص ما، فالتفتت المزيد من الرؤوس.

فكرت نيلا، انظروا إليّ إذن. انظروا إلى الزوجة. فصرخت نيلا:

- أجل. أنا زوجته.

قالت المرأة الأولى:

- إن الرب يرى عبر الأبواب، يا مدام. إنه يرى كل شيء..

سارت نيلا في الاتجاه المعاكس، مُعتصرة الدمية في جيبها. تحاول تصور المنزل من دون يوهانس. كلا، هكذا تُفكر، شاعرة بحياة زوجها تنسل من بين يديها. لا يمكنك أن تتركه يموت.

- مدام براندت.

استدارت، فوجدت فرانس ميرمانز واقفاً أمامها. تماسكي، يا نيلا إليزابيث. قالت:

- سنيور. كنتُ أبحث عنك. أين زوجتك؟

دفع ميرمانز قبعته في رأسه:

- لقد ذهبت آغنس إلى المنزل، وسوف تعود غداً. إنها

مُنحرفة المزاج، منذ أن رأَت ذاك الهول...

- عليك أن تنهي هذا، يا سنيور. هل يستحق المال أن تقتل صديقك؟ ترددت، وتابعت: "أو تُشعر مارين بكل هذه التعاسة؟"

يضع ميرمانز قدمه في بركة ماء:

- إن يوهانس براندت ليس صديقي، يا مدام. وأغنس شاهدة أمام الرب. أنا آسف من أجل مدام مارين، لكن ما فعله زوجكِ بذاك الصبي لا يمكن أن يمر من دون عقاب.

همست نيلًا:

- إن الأمر لا يتعلق بما فعله يوهانس مع جاك، أليس كذلك؟ إنه ما حدث منذ اثني عشر عامًا. تظن أن زوجي حطّم حياتك. ولكن ليس هو من فعل.

انتفخ صدر ميرمانز:

- مدام...

- أعرف ما حدث، يا سنيور. أنت ومارين. إنني أفهم غيره أغنس، ولكن...

- صمتًا. يقولها بهسيس مُهدّد. "احتفظي بخيالاتك الخبيثة لنفسك."

- منذ اثني عشر عامًا، اتخذ يوهانس قرارًا يخصك. لكنه لم يفعل...

- لن أتكلّم في هذا الأمر، يا مدام. نقل ميرمانز عينيه في عجالة بين طرفي الشارع، جافلاً من المطر الذي يبلل حرف قبعته ومقدمة حدائه المربعة: "إن أغنس زوجتي."

- لكن الأمر لم ينته بعد، يا سنيور ميرمانز. وهناك شيء آخر عليك معرفته. تُخرج نيللا الألف جِلدِر، وتحتها الدمية الصغيرة التي تجسدها. تقول: إنه جزء من أموالكم. لقد باع يوهانس كمية مُعتبرة من سكركم، يا سنيور. إلى آرنود ماكفريد.

- ألف جِلدِر. ما زلتُم تعدونني غيبياً؟ ثم بتغير ملامح ميرمانز؛ فتتقبض بالخوف: وما هذا؟

إنه ينظر مشدوهاً إلى الدمية. ذكرته في مسيرة ميليشيا سانت جورج بالكالفرسترات، قال، وهو يحرق في علامة الشمس:

- من أين حصلتِ عليها؟

- أنا... إنها أنا.

- أبعديها. الآن.

أخذت نيللا نفساً عميقاً. فكرت، إن إخباره عن مارين قد يكون الشيء الوحيد الذي يُنهي هذا الجنون. تقول:

- سنيور، إن مارين...

- إياك أن تُري هذا الشيء لأحد، هل تسمعين؟

نفض ميرمانز عن طرف قبعته ماء المطر، فانتشر على فستان نيللا.

تعيد نيللا الدمية إلى جيبها. وتسأله:

- لماذا؟ لكنه امتنع عن الإجابة: سنيور، هل طلبت أغنس بيت دمي على هيئة منزل كما؟

- إن قديفة مدفع كانت لتلحق بزواجي ضرراً أقل من تلك الدُمي الملعونة، هكذا يفور، وهو يتزعم منها النقود. سأعد هذه

الجلدريات ثم أودّعكِ.

- سيأتي منها المزيد. وربما حينها تعيد النظر في خطتك لمحاربة زوجي.

- لا أملك خطة، يا مدام. إنها إرادة الرب.

- ماذا أرسل لك صانع الدُّمى؟

رفع ميرمانز الجلودريات التي أصابها رذاذ المطر، وقال: ألا يجدر بك الانشغال أكثر بطريقة جلب المزيد من هذه؟

بدأ المطر يسقط بوتيرة أكبر. فاندفع مشاهدو المحكمة من جوارهما، عائدين إلى حمى الشرفة. أمسكت نيللا بذراع ميرمانز لتمنعه من المغادرة.

- هل أرسل لك صانع الدُّمى أشياء ستحدث، يا سنيور؟ أو أشياء قد حدثت فعلاً؟

- تلميحات شريرة وتقليد حقير - إن أي هولندي لا يجدر به تحمل ذلك. "يتردد، ثم تستحوذ عليه الفرصة ليتحدث عن الأمر، الارتياح لوجود شخص واحد قد يصدقه. "لقد أخفيت الطرود والرسائل، لكن آغنس كانت تجدهم، أو هم يجدونها. ليست الغيرة هي ما أثارت اضطرابها، يا مدام. إنه بيت الدُّمى ذاك. لو أنها لم تعرف بأمر بيت دُماك، ما حدث شيء من هذا.

- شيء من ماذا؟ هل آغنس بخير؟

- لا تنفك آغنس تقول، 'إنها الحقيقة. إنه يخبرني بالحقيقة.' لذا ذهبتُ إلى الكالفرسترات لاعتقال ذلك المنمم.

- أنت...

- سيفل بيت دُماكِ ناقصاً، يا مدام، تماماً كما سُوي بيت دُمي
آغنس بالأرض. لقد أبدى رؤساء البلدية اهتماماً كبيراً عندما
عرفوا بوجود شخص يعمل داخل المدينة من دون أن تحكمه
نقابة. صانع دُمي، وأضاف هازناً: إنها ليست وظيفة مُعترفاً بها.

فطر الخوف قلب نهلا لم تعد تشعر بجسدها، كل ما يسهها
رؤيته هو وجه ميرمانز الكبير، عيناه الشبيهتان بأعين الخنازير،
وامتداد فكه العريض:

- سنيور، ماذا فعلت بصانع الدُمي؟”

- كان قد رحل، الجاسوس التافه الوضيع. لكنني عملتُ
جهدي ألا يعود. لقد أوقعوا غرامة ضخمة على ماركوس سميت
لأنه ترك شخصاً من خارج أمستردام يعلن عن خدماته في
دليله. وذلك المنزل في الكالفرسترات سيصبح مسكناً لشخص
ينتمي حقاً إلى هذه المدينة، أمسك ميرمانز بالألف جِلدراً أمام
عينها:

- إنكِ لا تدريين حتى أي إهانة هذه، يا مدام، المئات
والآلاف التي كان في وسعي أن أجنيها. لقد ضاع معاشي
بسبب إهمال براندت.

يا لهوسه بجِلدراته، وعدم اكترائه بكل شيء آخر. يندفع الدم
حاراً في عروقها، فتنبث منها الأدخنة ويطلق عنانها. تقول:
لقد رأيتُ مخاريط سُكر آغنس. مجدك المُستعار. لم تُعفن كلها،
ولكن أنت من تعفن، وكذلك زوجتك. لقد نجحت مارين
عندما قررت أن ترفضك.

عند هذا الحد، تراجع مُترجماً.

- وأعتقد، يا سنيور. بل إنني أعرف أنه حتى لو كان يوهانس

قد باع كل واحد من تلك المخاريط بحلول هذا الوقت، لظلمت
مسروراً برؤيته يفرق.

- كيف تجرؤين. لستِ سوى حقيرة...

- احتفظ بهذه الجلدات، قالت وهي تستدير مُبتعدة،
وتهتف في السماء: وعلَّ صانع الدُّمى يطارد اثنينكما إلى الجحيم.

الوافد



من الستدهاوس، انطلقت سريعاً صوب الكالفرسترات،
لكن خطوات راكضة وهتاف كورنيليا أوقفها في الطريق:

- مدام، مدام!

- كورنيليا؟ لقد وجدتُ ميرمانز...

- هل أخبرته عن مدام مارين؟

بدا على كورنيليا، كانت تنظر إلى أول الشارع وآخره. تبدو
غضبة في ضوء المطر الخافت، ويدها مضمومتان وكأنها تمسك
بغصن زهور وهمي.

- كلا. شعرت نيلاً بالإرهاق فجأة: لقد قايضته. الجلدات
مقابل الحياة.

انهار وجه كورنيليا:

- ولكن، هل أقنعته بالتراجع عن الشهادة؟

- منحته ألف جِدر مقدماً لبلورات سكره الثمينة. لا يمكنني
أن أعد بأنها ستغير أي شيء، يا كورنيليا. لقد حاولت. لقد
فعل شيئاً لصانعة الدمى، أرسل رؤساء البلدية إلى هناك. لا
أعرف إن كانت...

- يجب أن تأتي إلى المنزل.

- ولكن...

- الآن. هناك شيء يحدث لقلب مدام مارين!

- ضعي يدك عليه. قالت مارين، وهي تخرج مُتمايلة من الظلمة، ما إن وصلت المرأتان وأغلقتا الباب الثقيل، تابعت، إن قلبي ينبض بسرعة كبيرة.

وضعت نيلا أصابعها على عنق مارين، وشعرت بالنبض يثب ويرسل دفتاقه. صارت تلهث مارين، مائة يدها إليها.

- ما الخطب؟

- الألم، إنه يمزقني.

- ألم؟ قالت كورنيليا مدعورة: قلت إن لا ألم قد بدأ.

أطلقت مارين أنينا. وبلل سائلُ صوف تنورتها الداكن، مُنحدرًا صوب الحافة في دائرة تتسع.

- لنصعد. قالت نيلا، مُحاولَة إضفاء الهدوء على صوتها، لكن قلبها يدق بعنف:

- سنذهب إلى غرفتي. إنها أقرب إلى المطبخ لجلب الماء.

سألت مارين:

- هل حان مخاضي؟ صوتها عالٍ من الخوف.

- ربما. علينا استدعاء قابلة.

- لا.

- في وسعنا شراء سكوتها.

- بماذا يا برونهلا؟ لست الوحيدة التي تبحث في صندوق يوهانس.

- أرجوك، يا مارين. لدينا ما يكفي لنُدفع لها الهدى.

- لا أريد أحداً هنا سواك أنتِ وكورنيليا. أمسكت مارين

بيد نيلًا، وكان التثبيت بها سيجعل كل شيء على ما يرام:
إن النساء تفضلن هذا طوال الوقت، يا بترونيلا. لا أحد سواكِ
يمكنه أن يرى.

قالت كورنيليا:

- سأحضر ماءً ساخنًا، ونزلت مسرعة إلى مطبخ الخدمة.
لاحظت نيلًا أن كتاب بلانكارت مفتوح على كرسي.

- أتعرفين ما عليكِ عمله، يا بترونيلا؟

- سأحاول.

كانت نيلًا في الرابعة عندما وُلد كاريل، والتاسعة عندما
صُحبت أرابيلا من والدتهم. يُذكر الصراخ، واللهاث، والحوار
كبقرة سارحة في المنزل. الملاءات ملطَّخة باللون الأحمر،
ومُكوَّمة لاحقًا في الحديقة، تمهيداً لحرقها. الضوء الضعيف
على وجه أمها المتعرق، نظرة التعجب على وجه والدها. وهناك
الآخرون طبعاً، الأطفال الذين لم ينجوا. كانت أكبر سنًا في
ذلك الوقت. أغلقت نيلًا عينيها، مُحاولَةً تذكّر ما كانت القابلات
تفعلنه، مُحاولَةً نسيان تلك الجثامين الصغيرة.

قالت مارين:

- جيد. لكنها تبدو شاحبة.

- عندما اشتد الألم، كانت أمي تمشي في المكان.

لمدة ساعتين، زرعت مارين الطابق العلوي، وبتأوه عندما
يطلق هزيم الرعد في داخلها. توجهت نيلًا إلى النافذة،
وفكرت في يوهانس على فرشته القش، في جاك يُمثّل لينجو
بنفسه، في مهرمانز بكبريائه وجلدراته المبللن بقطرات المطر،

في آغنس تنتظر رسالة من الكالفرسترات. أين صانعة الدُمي الآن؟ في زاوية عين نيلا، ترى بيت الدمى نابضاً خلف ستائره الصفراء، عامراً بالدمى التي تمكنت من الحصول عليها. سيبقى بيت دُماكِ ناقصاً، يا مدام.

في الخارج، كان المطر قد اشتد وقعه. مطر كانون الثاني، بارد ومتواصل. هناك كلاب يتشاجرون، وخيال قط أصفر بني. ثم ملأت الغرفة بجأة رائحة كريهة، واستدارت نيلا من أمام النافذة لترى نظرة رعب خالص على وجه مارين، إذ تحدّق في كومة من براز دام ساخن عند قدميها.

- آه، رباه، قالت مارين، وهي تغطي وجهها بيديها. وتقودها نيلا إلى الفراش مرة أخرى: لم أعد أملك جسدي. أنا...

- لا تفكري أكثر في الأمر. إن هذه علامة جيدة.

- ولكن ماذا يجري؟ إنني أنهار. لن يتبقى شيء مني عندما يولد الطفل.

مسحت نيلا الفوضى، ووضعت المنشفة المتسخة في دلو له غطاء. عندما تستدير تجد مارين متكومة على جانبها. قالت ووجهها مدفون في الوسائد:

- لم أتخيل الأمر سيكون هكذا.

قالت نيلا، وهي تمنحها منشفة مبللة نظيفة: -

- لا، إنه لا يكون أبداً.

صهقت مارين أوراق خزامى في قبضتها، وتنفسها بعمق. قائلة:

- أنا متعبة جداً. أنا مهترئة حتى النخاع.

قالت نيلا:

- ستكونين بخير، لكنها تعلم أنها مجرد كلمات. في الدهليز، تنفس الهواء البارد، وقد أراحها أن هربت من جو الغرفة الثقيل، ونبض خوفها البطيء. صعدت كورنيليا الدرج، وأخذت بيد نيل، منحتها ابتسامة، وقالت:

- لقد أنعم الرب علينا، يا مدام. أنعم علينا بجيثك.

حلّ المساء، وظلت الأمطار متواصلة. كانت موجات الألم تنهال من دون توقف. بدت مارين وكأنها تُعتمر داخل جسدها. إنه كعذاب مُتعاقب عميق، كما تقول. تتمم، أنا غيمة ممتلئة بالدم، كدمة عملاقة، جلدي يتفسخ مرة تلو أخرى. وكأنتا من أجل راحتها، قد خلعتا عنها تنانيرها الخارجية فصارت لا ترتدي سوى بلوزة قطنية وتورة داخلية.

مارين هي وعاء ألم وهي الألم نفسه. لم يعد فيها شيء يشبهها. وإذا تمسح كورنيليا ونيلاً جبين مارين وتدلّكان صدغيها بالزيوت العطرية لتهديتها، تتخيل نيلاً مارين جبلاً، ضمناً ورائحاً، لا شيء يمكنه تحريكه. والطفل في داخلها هو حاجٌ يهبط قته، نشطاً بينما مارين نفسها مشلولة. كل خطوة يتقدمها، كل نكرة من عصاه في جنبها، كل ركلة تمنحه مزيداً من السلطة.

صرخت مارين. قد التصق شعرها بجبينها، وصار وجهها الأملس في العادة، أحمر ومنتفخاً. تكتئ على طرف السرير، وثيقاً فوق البساط.

همست نيلاً:

- يجدر بنا طلب المساعدة. انظري إليها. لن تدري حق

بشيء.

عضت كورنيليا على شفتها، وهي تتمعن في وجه مارين المتألم

والمُتفَصِّدِ عِرْقاً. تجيب همساً، وعيناها تلعبان بالخوف:

- بل ستدري. لا يمكننا. تريد مدام مارين ألا يعرف أحد آخر. ثم أَلقت بمنشفة فوق السائل الخفيف الذي لفظته مارين:
- وحتى لو، ممن سنطلبها؟

قالت نيلا بهسيس:

- لا بد من وجود شخص في دليل سميت. نحن لا نعرف ماذا نفعل. هل من الطبيعي أن يتقيا هكذا؟
تتمم مارين:

- أين هو؟" ومسحت لها في إحدى الوسائد. قدمت إليها نيلا طرف منشفة مُرطَّب ليمتص البلل.

ثم تمت عائدة إلى كورنيليا:

- سيكون علينا أن ننظر أسفل تنورتها الداخلية.

امتقع وجه كورنيليا، وقالت:

- كانت لتقطع رأسي إن فعلت ذلك. إنها لا تسمح لي حتى بالنظر إلى مؤخرتها عارية.

- علينا أن نفعل. لا أعرف إن كان هذا الألم طبيعياً.

قالت كورنيليا:

- عليك أنت أن تفعلي، يا مدام. أنا لا يمكنني.

رفّ جفنا مارين، وأطلقت صوتاً خشناً خفيضاً. تعلو حدته، وينطلق منها كنداء بوق. وحينما أطلقت واحدة أخرى من تلك الزفرات الحادة، تحسم نيلا ترددتها فتجثو على ركبتيها، وترفع طرف تنورة مارين الداخلية. إن النظر بين ساقَي مارين

بكاد يكون مُستحيلاً، لا بل كفراً.

غاصت نهلا برأسها داخل الجو الفاسد الحار للتنورة الداخلية، وأمضت النظر فيما يمكنها رؤيته. إنه أكثر شيء عجيب وقعت عليه عيناها. شيء لا يمكن تصنيفه، هو ليس إلهياً ولا بشرياً، والغريب أنه كلاهما في آن واحد. في تلك اللحظة، كان كشيء قادم من أرض أخرى. شيء صغير يتعملق، فم ضمخ مسدود برأس طفل.

رأت نهلا هامة صغيرة، تحاول الخروج في حرارة الشراشف، فرفعت رأسها إلى الهواء. وقالت مبتهجة:

- إنني أراه.

تسألها مارين بوهن:

- تريه؟

قالت نهلا:

- عليكِ الآن أن تدفي. عندما يظهر الجزء العلوي من رأس الطفل، فذاك يعني أن عليكِ أن تدفي.

- أنا منهكة جداً. عليه أن يشق طريقه بنفسه.

غاصت نهلا مرة أخرى تحت طرف التنورة ومدت يدها لتلمس الطفل:

- إن أنفه لم يخرج، يا مارين. لن يمكنه التنفس.

- ادفي، يا مدام، عليكِ أن تدفي.

زجرت مارين، ووضعت نهلا غصناً بين أسنانها: والآن ادفي مرة أخرى!

غرزت ضروسها في الخشب، وبدأت تدفع مفرغرة من خلف العصا، وتقول بأنفاس مقطوعة:

- إنه يمزقني. أشعر به يفعل.

رفعت نيلا التنورة، وغطت كورنيليا عينيها. قالت نيلا: "إنك لا تتمزقين"، لكنها ترى شقاً أحمر في كومة الشعر الأرجوانية، والمزيد من الدم. احتفظت بهذا لنفسها. وقالت:

- إنه قادم. واصلي الدفع، يا مارين، واصلي الدفع.

تقف كورنيليا عند النافذة وتشعر في صلاة محومة طويلة. أباناً الذي في السماوات - لكن مارين تطلق نواحاً، أئيناً لا يقطع من العذاب، من التجلي. إنه صوت من شأنه أن يسليخ جلدًا - ولكن فجأة، ومن دون سابق إنذار، يخرج رأس الطفل كاملاً. وجهه لأسفل، وأنفه يواجه الملاءة، ورأسه كحلة شعر داكنة ومبللة.

- لقد خرج رأسه! ادفعي، يا مارين، ادفعي!

صرخت مارين صراخاً ثقب آذان المرأتين. تدفق المزيد من الدم الساخن مُبلاً الفراش. شعرت نيلا بغثيان، وهي تشك في أن نزول هذه الكمية من الدم أمر طبيعي. كادت مارين تخلع يد كورنيليا في أثناء جهدها في لفظ الطفل. يدور رأسه ربع دائرة، وشاهدت نيلا في ذهول الشيء الصغير وهو يحاول بالتخلص تخليص نفسه.

ثم ظهر كتف، وأطلقت مارين خواراً آخر، فعاد الطفل لتوجيه رأسه إلى الفراش.

- ادفعي، يا مدام، ادفعي.

دفعت مارين بقوة أكبر، وسلت نفسها للعذاب، وكفت عن المقاومة، وأخذت تشهق طلباً للهواء، قالت

- لم أعد أستطيع.... قلبي.

وضعت كورنيليا يداً مُترددة على صدر مارين، وقالت:

- إنه يقفز كعصفور، يا مدام. إنه يدق بقوة.

ساد الغرفة سكون مطبق، وجثت نيليا على ركبتها، كانت كورنيليا عند الوسادة، مارين مُتباعدة الأطراف مثل نجمة وقد رفعت ركبتها. انخفضت ألسنة اللهب، كان هذا آخر مخزونهم من الحطب. في الخارج، لا صوت إلا صوت المطر. ودانه تمخس الباب، في رغبة يائسة لإدخالها.

انتظرت المرأتان. وظهر الكتف الآخر، صغيراً مثل كتف دمية، عبر مستنقع مارين المُتوسّع. تعود مارين لتدفع من جديد، وإذ تمد نيليا يديها إلى كتفي الطفل، رأسه في مثل حجم فنجان شاي، انزلق جسده فوق يديها المُتفاجئتين مع دفقة أخيرة من الدم. بأصابع مبللة، شعرت نيليا بوزنه القريب من وزن رغيف سميك، عيناه مغلقتان كفيلسوف، وأطرافه مبللة ومزرقّة، تكسوه رقع معجونة بيضاء، منطوية على نفسه بإحكام فوق راحتيها المُرتجفتين. تتحقّق. إنه بنت، حاجُ الألم فوق جبل مارين.

قالت نيليا وهي ترفع الطفلة:

- آه، يا مارين. مارين، انظري!

بكت كورنيليا فرحاً. وقالت:

- بنت! بنت صغيرة!

كان الحبل الطويل الذي يربطها لامع وعضلي، ويمتد متلوياً
إلى داخل مارين. قالت نيلا لكورنيليا:

- أحضري سكيناً. علينا أن نقطع هذا.

هرعت كورنيليا لتنفيذ الأمر. أنفاس مارين ثقيلة، وهي
تحاول رفع نفسها على مرفقيها لترى. لكنها تنهار عائدة إلى
رقادها، غير قادرة على الكلام. قالت وصوتها شبه مخبول
وأجوف:

- ابنتي، هل هي حية؟

نظرت نيلا إلى الطفلة، تكسوها قشرة من سائل جاف وآثار
يدي زوج خالها الملطختين بالدماء. شعرها غامق ومُلبَّد، عيناها
ما زالتا مغلقتين، وكأن الآن ليس الوقت المناسب للإعلان عن
نفسها.

قالت مارين:

- إنها لا تصدر صوتاً. لماذا لا تصدر صوتاً؟

تناولت نيلا خرقة مبللة دافئة من سطل الماء، وشرعت في
التمسيد على ذراعي الطفلة الرخوين، وساقها وصدرها. سألتها
مارين:

- هل تعرفين ماذا تفعلين؟

أجابت نيلا: "نعم"، لا تدعيها. تفكر، استيقظي، يا طفلة.
استيقظي.

ظهرت كورنيليا تحمل سكين تقطيع اللحم. لم تصدر الطفلة
صوتاً بعد، والغرفة أيضاً صامتة صمت القبور، وجميعهن
ينتظرن، وهن يصلين بكل جوارحن من أجل صوت صغير

واحد يدل على الحياة.

ناولت نيلا الطفلة لكورنيليا، وحاولت قطع الحبل، ولكن رغم مادته البشرية، إلا أنه بدا أقوى من خشب البلوط. عليها أن تنشره نشرأ، ويتناثر الدم على الشراشف وعلى الأرضية. ودانه، التي كانت قد تسللت إلى الغرفة، تُقبل مهرولة وتبحث عن احتمالية وجبة.

ربما هو مجيء الكلبة، ربما هي المساعدة الخرقاء في تخليصها من حبلها، لكن الطفلة تبدأ في البكاء.

- حمداً للرب. وانفجرت كورنيليا في البكاء.

صهبت مارين نفساً طويلاً مرهقاً ينتهي بالنحيب.

والطفلة بين يدي نيلا الآن، عقدت كورنيليا شريطاً كحلياً حول الطرف القصير للحبل عند بطنها. ارتخي الطرف فوق بطن الطفلة، وأصبحت البنت الصغيرة أخيراً ظافرة في المعركة.

أخذت نيلا تدلك جسد الطفلة بقوة أكبر، وتشاهد مبهورة الدم وهو يأخذ في التدفق عبر شبكة الأوردة المدفونة عميقاً. مالت إليها كورنيليا، التي كانت تقف إلى جوارها، وهمست:

- ألا ترين؟

- أرى ماذا؟

قالت كورنيليا مشيرة إلى الطفلة:

- انظري. انظري."

- تياً، قالت مارين، لجفلتا. كان صوتها خشناً وغلظاً: اسمها تياً. وململت في عدم ارتياح في فراشها. كان طرف الحبل السري الخاص بها ما يزال متصلاً بأحشائها والدماء يتدفق منه.

حاولت رفع ذراعها، لكنها أكثر إرهاقاً من أن تفعل.

رددت كورنيليا: "تياً،" مُحَدِّقة في الطفلة التي وضعتها نيلاً على صدرها. تحركت الطفلة مع إيقاع تنفس أمها الخشن. فارتجفت أصابع مارين على ظهر تياً، وهي تلمس الردف الصغير، والمخناة الظهر الشبيهة بهريرة. اغرورقت عينها بالدموع، وراحت تنتحب، بينما كورنيليا تهون عنها، مُمسدة على جبينها. تشبثت بطفلتها، التي دفنت رأسها في عنق أمها. ظهر على وجه مارين تعبير مذهول، هو مزيج من الانتصار والألم. قالت:

- نيلاً؟

- نعم؟

- شكراً لك. شكراً لكليجا.

تبادلنا النظر، تجمع كورنيليا ملحمة المناشف. أنفاس مارين تتحرج قليلاً، صوت يصيب جلد المرء بالتقلص والوخز. استدارت مُبتعدة إلى النافذة لتنظر خارجها إلى الغلام المُخيم على القناة. كان المطر قد توقّف أخيراً. فوق سطوح المنازل التي تفصل بينها مسافات ضيقة، دوارات الرياح والجلونات، القمر عال في السماء المُرصعة بالنجوم، نصف دائرة مُتعرّج من الضوء الساطع.

عندما التفتت إلى الستائر المخملية المغلقة لبيت الدمى، بطراً لنيلاً أن يوهانس قد نسي شيئاً عندما أمر بمقاساته. أين غرفة مارين، أين هجرتها العامرة بقرنات الحبوب والخراطط، وأصدافها وعيناتها؟ هناك المطبخان، وحجرة المكتب، والصالون، وغرف النوم، وحقى العلية. ربما كان يحميها، أو ربما لم يفكر من الأساس في طلب إنشائها. لم ترسل صانعة الدمى

أي تعليق على خلوة مارين الصغيرة. كانت غرفتها السرية قد
أفلتت من التعريف.

الحكاواتي



حاولت نيلا وكورنيليا الحصول على شيء من النوم، وهما تجلسان على كرسيين من خشب الورد قامتا بجريهما من الصالون. تتلملان في عدم ارتياح بينما مارين تنهد وتأوه في الفراش.

عندما استيقظت نيلا، كانت الأجراس تدق مُعلنة تمام الثامنة. ما تزال في الغرفة رائحة مزعجة، أحشاء مكشوفة، وبراز، ودم، وجسد هش. نار المدفأة قد خبت. وحولها رؤوس خزامى هشة منشورة، والإبريق الفضي قد أُلقي على جنبه في خضمّ عذاب مارين. أدركت أنها تأخرت ساعة عن زوجها.

اضطربت، وجذبت الستائر. ففتحت كورنيليا عينها، وقفزت نحو الفراش، قالت نيلا:

- يجب أن أذهب إلى يوهانس. الآن.

توسلت إليها كورنيليا:

- لا تركيني. لا أعرف ما يجب فعله.

وسادة مارين مُبتلة تماماً بالعرق، وتياً نائمة على صدرها وقد دُفرت في حرام. وعلى صوتيهما ترمش الأم الجديدة. خلف لمعة العرق، ظل جلدتها يفوح برائحة جوزة الطيب، ونيلا تستنشقها. عليها أن تذهب إلى الستدهاوس، لكنها تشعر بعدم ارتياح في ترك مارين هذه الحالة.

قالت مارين:

- نيلا، اذهبي وأخبريني ماذا سيفعلون به ؟ كان صوتها أضعف حتى من الليلة السابقة. "اذهبي. كورنيليا، ابقى معي." تناولت كورنيليا يد مارين، وقبلتها بالعاطفة الشديدة التي تميز طفلاً:

- طبعاً، يا مدام. طبعاً سأفعل.

دارت نيلا حول السرير. ما يزال الحبل السري داخل جسد مارين، وطرفه مبروم على الفراش. تحاول تهجبه، وكأن ذلك سيزيل السدادة عن شيء ما - هذا الإحساس بالرهبة، لكنه عالق، ويتأوه مارين ألماً.

تقول كورنيليا:

- إنها في حاجة إلى النوم. يجدر بنا أن نتركها.

همست مارين:

- أعرف أنك تريدان استدعاء شخص ما، يا نيلا. لكن لا أحد يجب أن يعرف.

كانت بطن مارين قد انكمشت قليلاً، الآن وقد نجحت تياً في الخروج، إلا أن الكملة ما تزال بداخلها. عندما تضغط نيلا عليها، تنتفض مارين. تفكر نيلا، ليس هذا طبيعياً، لا شيء من هذا طبيعي. الكملة صلبة، وعنيدة، ولو هلة شكت في وجود طفل فإن في الداخل، توأم أكثر هدوءاً، يكره الخروج إلى الفوضى. تتمنى لو أنها تعرف أكثر، تتمنى لو كانت والدتها موجودة. لم تشعر من قبل بمثل هذا العجز.

اختنقت الأنفاس في حلق مارين. وتسرع كورنيليا بانتزاع تياً فيما تعصر مارين رثتها. تقول كورنيليا:

- مدام؟" لكن مارين تضرب الهواء بيدها، صدى مرئي لشقيقها.

وعلى إثر الأصوات العجيبة التي تطلقها والدتها، تبدأ تياً في إطلاق المزيد من عندها. أصوات مُفجعة ومبهجة، زعقات قصيرة عائدة إلى صوت جديد تماماً. تحت غلاف الصرخات، أومأت نيلا إلى كورنيليا لتنضم إليها في الزاوية. تهمس الخادم، وهي تنظر في تعاسة إلى تياً.

- انظري، يا مدام، انظري. ماذا سنفعل؟

- ماذا تعنين؟

- لا يبدو هذا معقولاً. محال أن يكون حقيقة!

تجاهلتها نيلا، وقالت في هسيس:

- ابحثي عن دليل سميت، وأحضري مرضعة، قابلة، أي شخص قد يفهم ما يحدث لها.

نظرت كورنيليا إلى الطفلة في رعب:

- لكن مارين ستقتلني.

- كورنيليا، أطيعي وحسب. إن يوهانس يحتفظ بالنقود في الصندوق بحجرة مكتبه. امنحي المرأة كل ما يلزم لضمان صحتها. وإن لم تجدي ما يكفي، يهي الفضة.

- ولكن، يا مدام...

خرجت نيلا من الغرفة، وهي أكثر يأساً من أن يتوقف.

ركضت إلى الستدهاوس، وصلت لاهثة ووجهها أحمر،

لتجد شرفة المشاهدين وقد امتلأت والإجراءات وقد بدأت فعلاً، واضطرت إلى الجلوس في الخلف. منهكة ومُشوَّشة، رأسها يؤلمها، وعيناها متعبتان جداً وجافتان، وأظفارها بلون الصداً من بقايا دم مارين. تريد نيلاً أن تهتف ليوهانس بما أنجزته مارين، بالسحر الذي ينتظره في منزله، لكنها تعلم أنها لا تستطيع. تتساءل، أي عالم هذا الذي نعيش فيه، حيث يكون إعلان وجود تياً فقط سبباً في أذاها؟

نظرت من فوق رؤوس جماهير الشرفة، إلى أسفل القاعة. حيث يُثبت يوهانس جسده المُحطَّم على كرسي، شاخ الرأس. كان سلابارت إلى طاولة مكتبه، وإلى جواره يصطف أعضاء الشخيينبانك. كان جاك الآن وسط الجماهير في الأسفل، يشاهد فرانس ميرمانز جالساً على كرسي في منتصف الأرضية.

لماذا ليست آغنس معه هناك؟ ماذا فاتني؟ تقع عيناها على مؤخرة رأس الأب بيليكورني، جسده مائل للأمام، مُنفلج، مُترقب. تسأل جارتها:

- هل أدلت آغنس ميرمانز بشهادتها؟

- في السابعة، يا مدام. كانت ترتجف. خلت أنها لن تهلت الكتاب المقدس أبداً. هزت المرأة رأسها بينما يتناهى صوت سلابارت إلى نيلاً. السخاوت بكامل طلاقته فعلاً.

قال:

- أخبرتما زوجتك بصورة مبسطة ما رأيته في ليلة التاسع والعشرين من كانون الثاني، يا سنيور ميرمانز. إنني لن أخدش أبداً حياة امرأة، ولكن، قد حان دورك الآن للتحديث، وأود أن أستجوبك بصورة أدق. أخبرنا بما شهدته، يا سنيور ميرمانز.

أوما ميرمانز، شاحباً وضمناً في كرسية:

- كان دور خلف المستودع، وتماهت إلى أسمعنا أصوات. كان سنيور برادت قد دفع هذا الشاب إلى جدار المبنى. ألصق وجه الفتى على طوب الحائط. كلاهما كان سرواله حول كاحليه، وقبعته ملقاة.

وإذاك تنطلق شهقات حادة؛ صورة تجمع بين الانحطاط والرغبة المفروضة: كان جاك فيليبس، الذي عرفتُ اسمه الآن، يتوسل إليه أن يتركه. وأنا واستنجد بنا. كانت زوجتي، كما تفهم، مصدومة جداً. إذ إنها سبق واستضافت هذا التاجر على مائدتها.

صوت ميرمانز المرتجف يملأ الغرفة، وتشعر نيلاً أن جدران الستدهاوس تُحکم خناقها.

قال سلابارت:

- تابع.

قال ميرمانز: "سمعنا الصوت المقرز لإفراغ براندت شهوته. تركتُ أغنس وعندما اقتربت، رأيتُ الشبق في عيني براندت. رفع سرواله عندما دنوتُ، وأخذ يضرب السيد فيليبس، بسرعة، بضراوة. وكان هناك خنجر. رأيتُه يطعن جاك في كتفه. كانت الطعنة قريبة من قلب الرجل - إنه لا يكذب. يجب ألا تضطر امرأة إلى رؤية ذلك. ولا رجل كذلك.

تُبهُتُ القاعة برواية ميرمانز. كان يوهانس قد أحنى رأسه، مُحدباً جسده المضعف في وضع المقاومة.

قال سلابارت:

- فرانس ميرمانز، لقد عرفت يوهانس براندت منذ أعوام عديدة. بصرف النظر عن هذا الموقف الذي شهدته، وبصرف النظر عن شهادة زوجتك الصالحة تحت القسم، فإن هذه الساعة هي فرصتك لإثبات أن هذا الرجل قد يحمل خيراً بين جنباؤه.

- أفهم.

- قال براندت إنكما تعرفان أحدهما الآخر جيداً.

- كما نعمل معاً في شبابنا.

- وأي نوع من الرجال كان؟

بدا ميرمانز وكأنه في صراع. إنه يعجز حتى عن النظر إلى تقوس ظهر يوهانس، مفضلاً التحديق في رأس قبعته المخروطية السوداء. يقول:

- ذكي. نزاع إلى فلسفته الخاصة.

- كان يوهانس براندت مكلفاً ببيع محصولك، هل هذا

صحيح؟

شعرت نيلاً بإحساس تدهور في داخلها، وكان قلبها قد بدأ يُسرب آخر ما تبقى من قوته. سوف يلتقي باتهام آخر بعد عند قدمي يوهانس، التكاسل في التجارة، وهي ليست بالجريمة البسيطة في أمستردام.

قال ميرمانز:

- صحيح.

- وفيما يتعلق بتلك الصفقة، هل خزّن السكر جيداً؟ هل كان

براندت يقوم بعمله؟

تردد ميرمان. ثم قال:

- نعم. كان يفعل.

اعتدلت نهلا في جلستها. لماذا قال ميرمانز شيئاً كهذا؟ وفقاً لهذه الرواية، فإن السكر في مجمله نقي. وإذا يدون اثنان من الشخيبينبانك شيئاً ما، أدركت أن ميرمانز لا يملك رغبة في إعلان غضبه من يوهانس. إن ميرمانز عندما يكتم مشكلة السكر الذي لم يتم بيعه، يحرم يوهانس من فرصة كشف ذلك دافعاً لانتقامه. إنه يسدُّ قنوات الدفاع أمام يوهانس. أراد ميرمانز أن تبدو هذه قضية سلوك محرم خالصة في حق الرب والوطن، ولا شيء آخر. وهي تستبعد أن يعترف يوهانس بركود في البيع. إنه لو فعل ذلك فسوف يخط بيده خراب سمعته.

لم يُخَيَّلَ لنيلا أن ميرمانز سيكون بهذا المكر. ثم وفي أثناء اختلاسها نظرة إلى آرنود ماكفريد، ففكرت، لكن ميرمانز بهذا التأكيد العلني على جودة المحصول كله، ربما يكون قد منح آل براندت هدية بيعه في المستقبل. وإذا تشعر بالذنب من لمحة السرور التي اتبعتها، تحاول نيلا التركيز على اللحظة الراهنة.

سأله سلابارت:

- في وسعك إذن القول إنه كان تاجراً بارعاً؟ أخذ ميرمانز نفساً عميقاً. فيلحُّ سلابارت:

- - لقد أقسمت على قول الحقيقة، حسناً؟

- تحت القسم، كنتُ لأتردد في وصفه بهذا.

- تراه تاجراً رديئاً؟

- أعتقد أن سمعته على مر التاريخ، قد هجبت حياً للذات.

ليست كل نجاحاته مُستحقّة.

- ومع ذلك عينته لبيع محصولك؟

- زوجتي... يتلعم.

- ما علاقة زوجتك بهذا؟

أسقط ميرمانز قبعته على الأرض واستعادها. يرفع يوهانس رأسه، من دون أن يزيح عينيه أبداً عن صديقه القديم.

- لطالما سعى براندت خلف إرادته بإصرار جامح، قال ميرمانز متوجهاً صوب يوهانس:

- لكنني لم أدرك مدى جموحك. الرشاوى التي قدمتها، والديون التي أربيتها - ليس لي لحسب ولكن لنقابات، وموظفين وأصدقاء...

قاطعته يوهانس:

- من هؤلاء الرجال؟ هل هذا اتهام رسمي؟ أرني إياهم. أرني دفاتر حساباتهم.

- لم آتِ اليوم إلا لشخصك...

- إنني لا أدين لك يا فرانس. ولا لأي رجل...

- لكن الرب كلّمني، يا يوهانس.

- الرب؟

- لقد أخبرني أنه يكفيني صمت.

بدا صوت ميرمانز مدهوشاً حتى وهو يتحدث، كمن ضبط نفسه بالجرم المشهود، صريعاً لاندفاعه، للتلذذ المر الذي يمكن للجميع أن يشعروا به في أدائه.

- إنك لم تصمت قط، يا فرانس، عندما تعلق الأمر بالحط من شأني.

- إن صديقي القديم يحتاج إلى الخلاص، يا سخاوت سلابارت. إنه مُحطَّم. يعيش في ظل الشيطان. لم يكن في وسعي أن أرى ما رأيته ذلك المساء وألتزم الصمت. ولا في وسع أي مواطن من أمستردام أن يفعل.

انتهى حديثه، رفع ميرمانز رأسه كمن يتوقع الفرج، لكنه لم يجد شيئاً منه، بل وجد يوهانس فقط أمامه، وجهه مثال للاشمئزاز. ببطء، استقام ظهر يوهانس على الرغم من ألمه. حتى أن نيلا سمعت طرقعات عظامه، وهي في الأعلى.

قال يوهانس:

- نحن جميعاً ضعفاء، يا فرانس. لكن بعضنا أضعف من الآخر.

أحنى ميرمانز رأسه. فسقطت القبعة من يديه وهذه المرة بتركها حيث هي. مشهد كتفيه المنتفضين يُقي الحشد في حال من الترقب الصامت. يوهانس مرآة ميرمانز للنظر إلى نفسه، وقد رأى الرجل حفرة مظلمة مكان انعكاسه. لا أحد يلمس ميرمانز، لا أحد يتقدم لمواساته أو تهنئته على ما فعل.

قال يوهانس:

- فرانس. ألسنت من تمكن من اصطياد لوطي، نهاب جشع للشهوات، ألسنت من أسهم في تطهير شوارع المدينة وقنواتها؟ لماذا لا يسمعك إذن سوى البكاء؟

ضجبت القاعة بالصيحات والتصفيير. طالب سلابارت بالهدوء حتى يتمكن وأعضاء الشخيبانك من الوصول إلى حكم.

صاح يوهانس عالياً: "كلا!" وعينه تتركان ميرمانز وتلتفتان صوب السخاوت. "هذا لا يصح."

حل صمت في القاعة، وتطاوت أعناق الجمهور في الشرفة لرؤية هذا الرجل بسحره وطبيعته الخطرة، والذي كشف خبيثات مجتمعهم المنمق في دقة. ينهض يوهانس بصعوبة شديدة، متكئاً على الكرسي:

- جرى العرف أن يُسمح للمتهم بالتكلم.

تخنخ سلابارت، وهو ينظر إليه في مقت لم يكتبه:

- تريد أن تتكلم؟

وكطائر مكسور الجناحين، رفع يوهانس ذراعيه أعلى ما يمكنه. فأفلتت من جاك صرخة وسقطت عباءة يوهانس الداكنة التي كانت تغطيه متكومة على الأرض.

قال يوهانس:

- إنك تضع على جسدك هذا الزي في الصباح، يا بتر سلابارت. وكذلك تفعل، يا فرانس ميرمانز - وكلاكما يخفي خطاياهم وضعفه في صندوق تحت سريره، آملاً أننا سننسى كل شيء في غمرة الانبهار بالزي.

قال سلابارت:

- تحدث عن نفسك، يا يوهانس براندت، وليس عني"

نظر يوهانس إليه. وسأله:

- هل أنا الآثم الوحيد في هذه الغرفة؟ ويستدير، رافعاً عينيه إلى صفوف المشاهدين: هل أنا كذلك؟

لم يتلقَ أي جواب. وخيمَ سكون على الحشد. قال يوهانس:
- لقد عملتُ من أجل هذه المدينة. منذ اللحظة التي صرتُ
فيها كبير السنِّ بما يكفي. أبحرت إلى أراضٍ لم أحسب أنها
موجودة، حتى في أحلامي. رأيتُ رجالاً يحاربون ويموتون
ويعملون من أجل هذه البلاد، على الشواطئ الحارَّة والبحار
الهائجة، مُحاطرين بحيواتهم من أجل مجد أكبر من الذي نالوه
عند الولادة. يسعون، وبينون، من دون أي اغترار بأنفسهم.
سفاوت سلابارت يسخر من خادمي الإفريقي، رجل من
داهومي. هل يعرف السنيور حتى أين تقع داهومي، وهو يشرب
شايه المحلَّى بالسكر، أو يأكل كعكاته الصغيرة؟ فرانس ميرمانز
ينتقد حرياتي لكنه لا يجد غضاضة في استمراء حرياته. هاتوا
خريطة، يا سادة، وتعلموا.

“لقد ضممتنا فتاة يتيمة إلى منزلنا. تكفَّلتُ بمتدربين، وعملتُ
بلا كلل في مواجهة الموج العالي. ولسوف يُغرقنا ذلك الموج
جميعاً، يا سادة. لقد رأيتُ دفاتر الحسابات، رأيتُ كيف
تداعى الفوك في الماء، لكنني لم أستغل حاجة إنسان خلال
ذلك، لم أقدم رشوة لشخص قط ليشهد زوراً. حاولتُ إسعاد
زوجي، كما أسعدتني في الوقت الذي قضيناه معاً. لكن
المشكلة، أيها السادة، والسيدات، هي أن أولئك الذين حرموا
الأفق يريدون هدم آفاقكم. إنهم لا يملكون شيئاً، سوى الطوب
والأعمدة، لا يملكون ذرة من مسرات الرب العظيمة.” ينظر
إلى جاك. “إنني أرثيهم، حقاً. إنهم لن يحافظوا على مجد البلاد
الذي رأيتُه يوماً.

كرجل عجوز يسير يوهانس مُقترباً من ميرمانز. يرفع يده،
فيجفل ميرمانز، متوقفاً ضربة. لكن يوهانس يلبس كتفه

المرتعشة.

قال:

- فرانس. إني أمنحك كل مفترتي. بدا ميرمانز وكأنه يخور
تحت تأثير لمستته. "وأنت، يا جاك فيليبس؟"

يرفع جاك عينيه فتلتقيان بعيني يوهانس.

- أنا!

- أنت حجر ألقى في بحيرة. لكن التموجات التي تصنعها لن
تمنحك الاستقرار أبداً.

يصيح سلابارت، مشيراً إلى يوهانس:

- أخرجه!

حدق رجال الشخينبانك في السجين بنظرات مُتَحَيِّرَة، وكأما
هو، عملاق بين الرجال، مجرد لمسة منه لها القدرة على التدمير.
صارت القاعة إيقاعاً متناوفاً من المهمات والاستهجان.
بدا بيليكورني في قمة الانفعال. الموت يحوم في الجو، مُلَبِّحاً
إليهم جميعاً، برعبه أو بالنعيم من بعده. لا يريدون ليوهانس
أن يذهب، يريدون إبقائه هنا. لقد حاول الأثرياء إسكاتهم
من قبل، لكن لم يسبق لشخص واحد أن تقلد نفوذه بهذه
اللامبالاة، أو أشار إلى أسنان القاضي المزيفة وأثار الضحك في
المكان.

لكنهم يأخذون يوهانس إلى الخارج، ويلتف أعضاء
الشخينبانك حول سلابارت في نصف دائرة فيما يشق ميرمان
طريقه بصعوبة إلى كرسي بعيد، شاحباً ومرتجفاً. إن سلطة
الدولة على وشك أن تمارس نفسها وأجساد الناس متوترة.

نيلا مثلهم. تشعر بضغط بين ساقيها، وكأنها قد تبلل نفسها من الخوف.

تمر الدقائق. عشرٌ ثم عشرون، ثلاثون. إن مشاهدة هؤلاء الرجال وهم يقررون مصير يوهانس هو أمر مروع. فكر نيلا، احتمال العفو موجود دائماً، لكن سلابارت، وهو جالس في مركز نصف الدائرة الذي يشكلونه، يواصل المهمة في آذان بقية الرجال.

تفرقوا أخيراً، وعادوا إلى كراسيهم. تقدّم السخاوت بتناقل إلى المربع الذي يتوسط القاعة وأمر باستدعاء يوهانس براندت مرة ثانية. فعاد السجين سائراً ببطء من دون مرافقين، جأراً قدميه المعطوبتين. توقف يوهانس قبالة السخاوت، ونظر مباشرة في عينيه. نهضت نيلا في الظل، ورفعت ذراعها. تهمس، أنا هنا، لكن يوهانس ثبت عينيه على وجه سلابارت، ولم تجرد نيلا صوتاً أعلى يتغلب على رعبها.

قال سلابارت:

- لقد كُشف أمرك. إن جريمة اللواط غايتها تدمير قداسة مجتمعنا واستقامته. لقد أُنحِت بِقَتِكَ في نفسك وثروتك حتى نسيت ربك. شهواتك قد سُمت وشوهدت، ولكن كذلك كان إثمك.

دار سلابارت حول المربع الذي يتوسط القاعة. وعقد يوهانس يديه خلف ظهره. تصاعد شيء ما داخل نيلا، إنها تتخفق بمحاولة لإبقائه في الداخل.

قال سلابارت:

- الموت هو مصيرنا جميعاً. إنه الحقيقة الوحيدة في هذه

فكرت نيلا "لا، لا، لا، لا، لا."

- بخصوص الجريمة الفحشاء التي ارتكبتها، فليعلن اليوم، التاسع من كانون الثاني من عام ١٦٨٧م، أنني أنا، بيتر سلابارت، سخاوت أمستردام، وهؤلاء الأعضاء الستة من شخصياتك هذه المدينة، نجدك، يوهانس ماتهوس براندت، مدنياً على خلفية الاعتداء باللواط على جاك فيليبس، مدنياً بالتهجم وما تبعه من رشوة. وعليه، أعلن أن عقابك العادل هو أن يوضع الثقل في عنقك ويلقى بك في البحر، هذا الأحد عند الغروب. فليكن التعميد الجديد ليوهانس براندت عبرة لكم جميعاً. وليرحم الرب روحه الآثمة.

مرّت لحظة، جزء من الثانية، تلاشت فيها القاعة من حول نيلا. مع انفصالها عن جسدها، عن عقلها، تتصارع مع الهواء، محاولةً منع عالمها من الانهيار. ثم عندما خرّ يوهانس إلى الأرض، فإن الألم الذي حاولت نيلا كتمانها يفيض منها. وتصبح الغرفة صاحبة بالأصوات، تكتسحها، تدهسها. تحاول المقاومة، فيتدافع الناس في المشى، وهي لا تعرف سوى أن عليها الفرار من هذه الغرفة قبل أن تفقد الوعي. كانوا بالفعل يرفعون يوهانس، ويجرونه إلى الخارج، قدماه لا تلمسان الأرض.

نادت:

- يوهانس، سوف آتي من أجلك!

قال صوت: "لا." كانت نيلا واقفة من أنها سمعته، صوت امرأة، قادم من أعلى سلم الشرفة. التفت، وبحث جزافاً

عن صاحبتہ. ثم رأتها... الحركة الفجائية، الاختفاء والظهور
المميزين لرأس أشقر فاتح.

الابنة



ركضت نيلا من الستدهاوس، ودما ينشد ألعاناً عالية جداً حتى لتظنها مستحيله. ركضت أسرع من أي مرة ركضت فيها من قبل، أسرع من لما كانت طفلة تطارد كاريل أو أرابيلا عبر الغابات والحقول. يلتفتُ الناس لينظروا إليها، هذه الشابة المجنونة بقم فاغر، وعينين تفيضان بالدموع، بسبب الرياح، كما يفترضون. تفكر نيلا، أين هي، وأين كانت؟ لم يعتقلها رؤساء البلدية بعد. لم يكن لها أثر عندما وصلت نيلا بمشقة إلى نهاية سلم الشرفة، فضت ركضاً في شارع الهيليغفيخ وهي الآن في الكالفرسترات. ثمة قوة تدفع نيلا، السريعة دائماً، نحو الطيران.

لكنها عندما وصلت إلى منزل صانعة الدُّمى، توقفت فجأة.

ما يزال الباب موجوداً، لكن علامة الشمس اختفت. كانت أشعة الجرم السماوي قد اقتطعت بفضافة من طوب الجدار، وأعمى نصف الشعار، فما تبقى منه سوى كلمة يظنها لعبة. وتكوم ركام من غبار الطوب على عتبة الباب وكان الباب نفسه قد ترك موارباً.

وأخيراً تستطيع نيلا، من بين كل الأيام، أن تدخل. نظرت يمين الشارع ويساره. لا أثر لبائع الصوف المقابل. تفكر، فليلقوا بي في السبينهاوس لدخول ملك ممنوع، فليغرقوني أنا أيضاً.

دفعت نيلا الباب، وانسلت إلى داخل غرفة صغيرة. يفاجئها أنها جرداء للغاية، خشب أرضيتها مخدوش ومترب، ورفوفها فارغة على جدرانها العارية. كم كانت كورنيليا ستحب الانقضاض على هذا المكان بخلها وشمع لمحلها. تبدو وكأنها لم

تُسكن قط.

في الخلف غرفة أخرى، لكنها تبدو بدورها مجردة من الحياة. صعدت نهلاً بهدوء درجاً خشبياً، وهي تشعر بأضلاعها تكاد تعجز عن احتواء رتبتها المضطربتين.

عندما وصلت إلى القمة، تجددت أنفاسها في حلقها. كانت منضدة عمل عريضة قد نُصبت بحيط الجدران الأربعة؛ غرفة مربعة أخرى، ألواح الأرضية مكسوة بالتراب، والنوافذ ملطخة بخطوط من أثر المطر. ولكن على منضدة العمل، يوجد عالم كامل.

تتناثر قطع أثاث صغيرة لم تكتمل عبر جزء من المنضدة. نصف منشورة ومنبوذة -بلوط، دردار، ماهوجني، زان- كراس وطاولات، وأسرّة ومهود، وكفن أيضاً، وخزائن، وإطارات صور. توجد هنا قطع تكفي لتأثيث عشر، بل عشرين بيت دمية، مخزون يكفي عمراً بأكمله. في جبهة مُتفحمة، تنسكب قدور نحاسية غاية في الصغر وأطباق فناجين بيوتريّة معيبة كمثل عملات أجنبية، وتنتشر أذرع شمعدان مُصفر كمثل محالق صغيرة.

ثم تأتي الدمى. صفوفاً، على هيئة عرائش -عجزة، شابات، قساوسة وجنود، بائعة رنكة، صبي على عينيه ضمادة، وهل هذا آرنود ماكفريد، بمثزره ووجهه الأحمر المستدير؟ بعضهم من دون رأس، وآخرون من دون ساقين، بعضهم من دون ملامح، وآخرون بشعر متقن التجميد، وقبعات صغيرة بحجم رأس عثة.

بأصابع مرتجفة، تبحث نهلاً في مدينة أمستردام عن يوهانس جديد، عن أمل أخير يأس في أنه سيعيش. يوم الأحد عند

الغروب - لقت الكلمات الثلاث عقلها مثل لعنة أبدية. لحت طفلاً، لا يتجاوز حجمه إبهامها، متكوراً على نفسه، عيناه مغلقتان مع ابتسامة صغيرة.

ثم أطلقت صرخة. حيث تقع أمامها دمية منزل، صغيرة بما يكفي لتستقر في راحة يدها. إنه منزلها - تسع غرف وخمسة تماثيل بشرية منحوتة في داخله، شغل الخشب مدروس ومعقد. كل غرفة تحوي صورة مصغرة من المصغرات التي أرسلت إليها، الكرسيين الأخضرين، العود، المهده. بانهار، تضم حياتها في قلب راحتها.

وضعتة نيلا في جيب معطفها مع الطفل، وبعد شيء من التردد أخذ آرنود أيضاً. يصعب عليها أن تنفض عن ذهنها أثر حديث كورنيليا الخزعبلي عن الأوثان، لكن نيلا تشبث بهم، ملتزمة بعض العزاء مع غياب أي منمنمة ليوهانس.

على يسار نيلا تستقر كومة من الخطابات، مصفوفة بأناقة ومشبوكة بملقط. يهدين مازالتا ترتمشان، تناول الحزمة وتبدأ في تصفحها. أحدها يقول: أرجوك - لقد جئتُ طلباً للقائك مرات عدة، لكنك لا تجيب. وآخر: تسلمتُ المنمنمة التي أرسلتها. هل تعني أنني لا يجدر بي الزواج به؟ وآخر: إن زوجي يهددني أن أضع حداً لهذا الأمر، لكنني حينها لن أطيق العيش. وآخر: لقد أرسلتَ قطي الذي قضى معي اثني عشر عاماً، إني مضطرة أن أطلبك بالتوقف. وآخر: شكراً لك. لقد مات منذ عشرة أعوام وإني لأفتقده كل يوم. وآخر: كيف عرفت؟ أشعر بالجنون يزحف داخلي. بعضها طلبات فقط: جروان، أبيض وأسود، لكن أحدهما يجب أن يكون قرماً. مرآة، تحمل وجهاً جميلاً.

فتشت نهلا عن خطاباتها، وها هي ذي، أولها الذي كُتب في
تشرين الأول من العام الماضي في بداية وصولها، عندما أثار
مارين زوبعة ولم تكن كورنيليا تعدّ صديقة بعد. كانت قد
كتبت، لا يسعني سوى تخمين أنك ماهر في فن المُصغرات. كم
يبدو ذلك بعيداً

فكرت: "طوال هذا الوقت، كان هناك من يراقبني ويحرسني،
يعلمني ويسخر مني". لكنها أول مرة تشعر بهذه المشاشة. ها
هي ذي مخبأة وسط العديد من نساء أمستردام، بخاوفهن
وآمالهن السرية. هي لا تختلف عنهن. هي آغنس ميرمانز.
هي فتاة في الثانية عشر. هي المرأة التي ستفتقد زوجها كل
يوم. نحن النساء، فيلق تسيطر عليه صناعة الدمى. ظننتها تسرق
حياتي، لكنها في الحقيقة فتحت حجراتها وسمحت لي بالنظر إلى
داخلها.

أخذت تكفكف دمعها، ووجدت بقية رسائلها، بما فيها
الرسالة الطويلة التي فقدتها يوم ظهر جاك في البهو، والتي كانت
قد طلبت فيها لوح فييركشپيل. ما تزال ملصقة بإذن الصرف
ذي الخمسمائة جِلدِر. ليكن الزيت الذي سيلين مفاصل بابك
العنيدة، هكذا كتبت، لكن صناعة الدمى لم تقم حتى بصرفه.
لم تأخذ المال.

فكرت نهلا، لا بد أنها كانت تراقبني في الكنيسة القديمة
ذلك اليوم، عندما ذهب أوتو ليصلي وأمسكتني آغنس من
ذراعي. لا ريب أن الطريقة الوحيدة التي كانت ستعرف بها
عن رغبتني في لوح فييركشپيل هي أن تتسلل وتسرق حقيقتي؟
يقولون إن من يراقب يراقب دائماً في أمستردام، حتى أولئك
الذين لا يمكنهم الرؤية.

لكن، كل هذا أقرب إلى التلصص الذي قالت عنه كورنيليا، وأبعد عن النبوة التي اعتقدتها نيللا. شمت رائحة الورق، وكألما تبحث عن رائحة صانعة الدُّمى، صنوبر نروييجي ربما، أو الرائحة المنعشة لنعناع إلى جوار بحيرة. لكنها لا تجد سوى ورق جاف، يفوح برائحة طفيفة تشبه رائحة غرفة نيللا. كان هذا الخطاب مُخصّصاً لصانعة الدُّمى، وبطريقة ما استلته. على جانب خطاباتنا توجد حواشٍ. بيضاء، أخضر. زوج، أجل، يوهانس براندت. إنها تحارب لتظهر أبواب كثيرة من دون مفتاح، وأكثر من مستكشف واحد. الكلب. الشقيقة، الخادم. خرائط لا يمكنها أن تغطي عالمهم. باحث دائم، توليب مزروع في تربتي لن يحظى بمتسع لينمو. لا تعودني وحدك. تحدثني إلى الفتى الإنكليزي. حاولي وادفعيه ليرى.

تكرر نيللا، توليب مزروع في تربتي.

يوجد شخص في الأسفل، يغلاق الباب الأمامي، ويتجول بطيئاً بحذاء ثقيل. تبحث نيللا في يأس عن مكان تختبئ فيه، ثم تهرول إلى غرفة خلفية في الطابق نفسه. لا تجد فيها إلا سريراً ضيقاً غير مرتب. فتزحف تحت هيكله، وتنتظر.

نادى صوت: "هل أنتِ فوق؟" إنه صوت رجل، ناعم وفيه شيء من التبرُّم. وقعه غريب على أذني نيللا، ليس من هذه المدينة. يقول:

- لقد أتيت. وصلتني خطابات كثيرة. حذرتك مراراً وتكراراً ألا تفعل هذا.

انتظرت نيللا. كان غبار الأرض يتسلل إلى أنفها، وقبل أن يسمعها منع الأمر، تعطس. يصبح صوت الحذاء أعلى، بدأ

الرجل يصعد السلم الخشبي. وهو الآن يجرد قدميه في أرجاء الورشة، فيرفع أشياء ويعيد وضعها مُستهجناً، وبينما يقلب في مشغولات صانعة الدُمى. تسمعه نيلاً يتمتم: "يا لها من موهبة. يا لها من خسارة!"

توقف. فتجمدت نيلاً، وكتمت أنفاسها.

نادى من الغرفة الأخرى:

- برونيلاً، لماذا تختبئين تحت السرير؟" لا تتحرك نيلاً، وقشعريرة تسري في جسدها، والدم يخفق في رأسها. يضيق حلقها، وتشعر بسخونة في عينيها. كيف يعرف اسمي؟

واصل:

- أستطيع رؤية قدميك. هيا، يا فتاة. لا وقت لدينا لهذا. ومع هذا التعليق الأخير يطلق ضحكة خافتة. تخال نيلاً أنها قد تثقياً من الرعب.

"هيا، يا برونيلاً. دعينا نناقش أحداثك الغريبة."

صوته ليس جافاً. ومع أن نيلاً كانت لتفضّل قضاء بقية هذا اليوم الفظيع مختبئة تحت فراش المُصغرة المهمل عوضاً عن مواجهة العالم، إلا أن دعوته، المعروضة بكل لطف وإغراء، جعلتها تزحف خارج مخبئها.

واذ ترى أمامها رجلاً عجوزاً، تصرخ في دهشة. إنه صغير جداً، حتى لتشعر بنفسها ضعف حجمه. تسأله:

- من تكون؟

أسمت عيناه المائعتان، وتراجع إلى الخلف. على قمة رأسه تستقر كومة وحيدة من شعر أبيض مثل إضافة متأخرة. قال

مُتَحِيرًا:

- لكنكِ لستِ بترونيلا.

قالت نيلا، وذعرها يأخذ في التزايد:

- بل أنا هي. "أنتِ هي بترونيلا، هي تقول لنفسها. طبعاً أنتِ هي. تسأله مرة أخرى: "من تكون؟" محاولة إضفاء التحدي على صوتها.

رمقها الرجل العجوز بارتياح:

- أنا لوكاس فندبريك. سقطت نيلا على السرير. وجمال بعينه في أركان الغرفة، وهو يقول بأسى: "لقد رحلت. أعرف ذلك."

- صانعة الدُمي؟

- بترونيلا.

هزت نيلا رأسها، كأنما لتطرد اسمها من أذنيها:

- بترونيلا؟ سنيور - هل كانت المرأة التي تقيم هنا تدعى بترونيلا؟

- هذا صحيح، يا مدام. هل هو اسم نادر إلى هذه الدرجة في لغتنا؟

اقتضت نيلا أنه ليس كذلك - فوالدتها تشاركها اسمها، وكانت آغنس قد أشارت إلى الأمر نفسه في وليمة النقابة. تقول نيلا، مُحاولَةً السيطرة على ارتباكها:

- لكنها من النرويج. إنها من بيرجن.

غيم وجه لوكاس فندبريك:

- كانت والدتها من بيرجن. أما بترونيلا فقد عاشت معي في بروج.

- ولكن لماذا؟

ردد فنديريك:

- لماذا؟ وجمال بعينه بنظرة المهجور في الغرفة، لأن بترونيلا هي ابنتي.

تسمع نيلا الكلمة الأخيرة التي يلفظها، لكنها لا تستوعبها. يبدو مستحيلًا وصف صانعة الدمى ابنة - إن الكلمة تستحضر أسدلفت، أمًا، أمانًا غريبًا، العزاء في النقص البشري. تقول:

- لا أصدقك. إنها صانعة الدُمى، إنها ليست...

قاطعها فنديريك:

- جميعنا يأتي من مكان ما، يا مدام. هل تظنين أنها جاءت من بيضة؟

يرتجُ السؤال في عقل نيلا. إنها واثقة أنها سمعته من قبل. يقول:

- لقد رفضت عائلة أمها أن تأخذها.

- لماذا؟

صمت فنديريك مُشبحاً ببصره.

شعرت نيلا بدوار، فعادت، وجلست على الفراش، وقالت:

- لقد كاتبتك، يا سنيور.

- لو أنك فعلت، فقد كنتِ واحدة من أوف.

قفزت عينا نيلا إلى كومة الخطابات، الظاهرة فوق منضدة

العمل عبر الغرفة الأخرى. وقالت:

- فعلتُ ذلك لأن ابنتك كانت قد بدأت تخيفني. لكنها لم تجب قط ولا أنت فعلت. أردتُ أن أعرف لماذا كانت ترسل لي تلك القطع.

- إنني بكل صدق، يا مدام، لم أرها منذ أعوام. تتخنع وهو يبعث بكلمة شعره، مُربّياً على جمجمته وكأنما ليكنم الحزن الذي يحاول مرتجفاً أن يطفو على السطح: ما انفكت الخطابات تصلني، ثم اكتشفتُ وضعها لذلك الشعار في دليل سميت. 'كل شيء، ولا شيء'.

- ولكن...

- عسير عليّ أن أصدق أن برونهلا كانت تحاول إخافتك.

نهلا تذكر آغنس، أظفارها المقضومة، سلوكها المشتت والغريب: أصور أنها أخافت كثيرين منا، يا سنيور.

قطب، إن ابنتي تحمل افتتناً كبيراً بالعالم، يا مدام. لكنني أقر، أنها لا تكترث في الغالب بالشكل الذي تعرض به نفسها. كانت دائماً تقول إن هناك شيئاً لا تصل إليه يدها وسمته (الزيبق الأبدي). "يجلس على طرف الفراش، قدماه لا تلمسان الأرض. ويهتف فجأة: "ليتها قنعت بصنع الساعات! لكن برونهلا رغبت طويلاً في أن تحيا خارج حدود الوقت المحسوب. دوماً مشاكسة، دوماً فضولية. لقد حضرت من طريقة تمسك الناس بساعاتهم، وضرورة أن يتحلى كل شيء بالنظام. كان عملي مُقيداً جداً بالنسبة إليها، ومع ذلك ما كانت المبتكرات التي وضعتها في ورشتي تُباع إلا نادراً. أعتزف أنها كانت قطعاً استثنائية، لكنني كرهتُ وضع اسمي عليها والزعم

أنها من صنيعي.

- لماذا؟

- لأنها لا تقرأ الوقت! بل هي تقيس أشياء أخرى - أشياء لم يرغب الناس في تذكرها، الموت، قلب كسير، الجهل والحماسة. كانت ترسم وجوه الزبائن بدل الأرقام. وتضع لهم رسائل تنبثق من الساعة عندما يصل العقرب إلى الثانية عشر. كان عليّ أن أرجوها حتى يتوقف. قالت إنها فعلت ذلك لأنها كانت ترى داخل أنفسهم، ساعاتهم الداخلية، التي لم تول اهتماماً بالدقائق والثواني. كنتُ كمن يحاول ترويض قطة.

تسأله نيلاً: "هل صدقتَ أنها كانت ترى داخل النفوس؟ بدت كمن يعرف كثيراً مما سيحدث لي."

حكّ فندريك ذقنه. قائلاً:

- حقاً؟" نظر صوب ورشة ابنته: تتحدثين بتعنت النساء اللاتي أرسلن لي ذاته. بولع شديد في التخلي عن سلطة النفس.
- لا! على العكس، يا سنيور، لقد ساعدتني على استرجاعها. جعلتها الحقيقة في قولها تصمت، في احتجاجها. بسط فندريك يديه:

- لقد أعادت لك شيئاً كان ملكك، ابتسم، وقد تبدى عليه سرور نجعل: كل ما يسعني قوله هو الآتي، يا مدام. لقد آمنت ابنتي ببسر أن لما تفعله هدفاً، لكفي حاولتُ تعليمها أن هذه آخر حدودها مع موهبتها في قراءة الناس. سيكون على الآخرين أن يقرروا رؤية ما تراه، وإلا استنزفت نفسها هدرًا. لم ترد على رسائلك، فربما لأنها شعرت أنك ستفهمين. رأيت ما كانت تحاول قوله.

شعرت نايلا بالدموع تتجمع في عينها، قالت:

- لكنني أظنكِ تفعلين.

تحَدَّق نايلا في الخطوط المرسومة على باطن كفيها، وتوجهها إلى أماكن لا يمكنها رؤيتها. ضمتها مُغلقة هذه الخرائط التي تحددها، وقالت:

- ربما أفعل.

إن فندبريك يبلبها بأسئته التي تسبر الأغوار. تريد أن تركز إلى الهيرغراخت، لتكون مع مارين وكورنيليا وتياً، لتجلس مع دانه وتمسّد أذنيها. لكنهما ستسألان عن يوهانس وسيكون عليها أن تخبرهما. الأحد عند الغروب. تشك في أنها تملك القوة.

قال لوكاس فندبريك:

- لا أعرف ماذا كانت تفعل طوال هذه الأعوام، أي مهارات غريبة اكتسبت أو أي صحبة رافقت. إنها أذكى شخص عرفته في حياتي. ولكن إن رأيت ابنتي، يا مدام، فأخبرها رجاء أن تعود إلى البيت.

تركت نايلا فندبريك، يفتقد ابنته، ويعي ببطء أشغالها اليدوية الجميلة في مجموعة من الصناديق. يقول:

- ينبغي ألا تبقى هنا. لكنني لن أتخلص منها. ربما تأتي إلى بروج لاستعادتها.

تفكر نايلا في النساء عبر أمستردام، يترقبن ما سترسله صانعة الدُمن من طرود. بعضهن بتخوف، وكثيرات منهن بأمل،

وأخريات بالنظرة الخالية التي تميز من لا يستطيع العيش من دون شيء آخر يمنحهم القوة، من دون صانعة الدمى وصفتها المتملصة. سوف ينتظرون سعادتهن. وعندما لا تأتي السعادة، عندما تنقطع الطرود، كما انقطعت مع نيل، ماذا سيفعلن حينها؟ هؤلاء النساء منحن رسائلهن إلى صانعة الدمى، التي قايضتها بعملة من أنفسهن. هن الآن يملكن أنفسهن، ليقاوضن بها، أو يكتزنها، أو يفقنها.

خرجت نيل من شارع الكالفرسترات، ذاهلة عن نداءات الباعة. الأحد عند الغروب. تسأل نفسها، كيف سأخبرهما؟ كيف سأخبرهما أن حجراً سيوضع حول رقبة يوهانس قبل أن يلتقى به في البحر؟

بخدر، تواصل المشي في الشوارع، وفوق الجودين بوخت. كانت كورنيليا واقفة عند الباب، تنتظر، وبرؤية منظرها، يتلاشى في حلق نيل كل شيء عن أبناء يوهانس وسر لوكاس فندريك وصانعة الدمى. كانت الفتاة شاحبة وحزينة. تبدو أكبر كثيراً من عمرها.

كل ما تقوله كورنيليا:

- لقد أخطأنا في شيء ما. فعلناها بصورة خطأ.

باب يُغلق



أصبح الوقت هلامياً في هذه الحوادث. تبش نيلاً في آخر ذكرياتها، لقد تركت مارين يقظاً، ركضت إلى الستدهاوس ثم إلى الكالفرسترات طلباً للخلاص لن يأتي أبداً. كل ذلك في اليوم ذاته لكن حكم سلابارت، وأسرار فندبريك، تبدو كحوادث من العام الماضي. لقد ابتلعت مارين الوقت، وعلى خريطة بشرتها الشاحبة، تعجز نيلاً عن العثور على شيء يدل متى غرقت وكيف اختفت.

كان ذكاء مارين قد قاوم حتى النهاية، فكأنها أن ترحل في الخفاء. تسلت روحها من بين أصابعهم. أفلتت حتى في أنفاسها الأخيرة، مُحْتَفِظَةً لِنَفْسِهَا بِلِحْظَةٍ مَوْتِهَا.

- لا ... واختنق حلق نيلاً بالكلمات.

- لا. مارين، هل تسمعينني؟

لكن نيلاً تعرف أنها ما عادت موجودة. وقفنا إلى جانب السرير، تلسان وجه مارين. تلمع بشرتها بطبقة من الرطوبة، وكأنها كانت راقدة تحت المطر.

بذراعين ترعشان، تُلمِّم كورنيليا إرث مارين الوحيد من فوق نديها الخامد. رفعت تياً، و حملت الطفلة الصغيرة في يدها. كانت كورنيليا قد قَطَّعَتْهَا بِلِغَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقَطْنِ، فلم يظهر منها سوى وجهها بلون قشرة البندق. ظلت نيلاً وكورنيليا عند السرير، مُدْعَتَيْنِ لِمَارِينِ فِي صِدْمَتِهِمَا.

قالت نيلاً همساً:

- هذا غير ممكن.

- لم يكن في وسعي فعل شيء. قال صوت جاء عند الباب المفتوح، جفلت نيلًا، واستدارت في فزع لترى امرأة ضخمة تسير نحوهما، بكمين مُشمرين، وبنية تشبه قطع أبقار من أسدلفت.

- من...

قاطعتها المرأة:

- ليزيث تيمرز، وجدتي خادمك في دليل سميت. ينبغي إخراج هذه الطفلة من هنا على الفور.
تمتت كورنيليا لنيلًا:

- كانت الأقرب، "أنتِ من أمرني أن أفعل، يا مدام.

حدقت نيلًا في هذه الليزيث تيمرز، حاجبة جسد مارين الممدد عن عيني الغريبة المتفحصتين. تتساءل في هذا الهدوء المخيم الغريب، كيف أمكنها أن تُقدم على هذا التهور، امرأة كورنيليا أن تفتح أبوابهم وتكشف أسرارهم. كئُتلب في قنّ الدجاج، وقفت ليزيث ويدها على ردفها.

همست كورنيليا:

- إنها مُرضعة. لكنها لم تنجح في اختبار القابلات.

أجابت ليزيث برصانة وقد سمعت ما قيل:

- لقد أنجبتُ أربعة أطفال. وتقدمت نحوهما بخطوات واسعة، فانتزعت تيّاً من بين ذراعي كورنيليا.

- لا!... هكذا هتفت كورنيليا عندما حملت ليزيث الطفلة

إلى المدخل، وهي تسحب كرسياً. تفحص المُرْضعة الطفلة من
الأمام والخلف، وكأن تِيًّا ثَمرة خضار مشبوهة في السوق. بعد
تمرير أصابعها المحمرة على قبعة تِيًّا المحكمة الصغيرة، تُدني مشدّها
ولقيصها المفكوكين. رفعت تِيًّا إلى حلماتها الوردية الداكنة
وتركتها ترضع، وعلقت:

- لقد أسأتم عملاً.

قالت كورنيليا:

- ماذا تعنين؟ كان في صوتها زعر لم تجد نيلا له سبباً.

رفعت ليزيث عينها:

- أعني قاطها.

مع إرهاقها، تستشيط نيلا غضباً، وقالت:

- إننا لا نمنحك أجراً لقاء انتقاداتك، يا سيدة تيرز.

تقول ليزيث من دون أن ترتبك:

- اسمي. إن أجسادهم تكون كالشمع في هذا العمر. إذا
قطعتهم بطريقة خاطئة، فسوف تحصلين على عمود فقري
منحرف وساقين معوجتين عندما يصبح عمرها عاماً.

تُبعد تِيًّا عن صدرها وتشرع في حل قاطها وكأنها طرد. وفي
لانية، كانت قد أزال غطاء الطفلة.

تقدمت كورنيليا خطوة إلى الأمام، متوترة، مُستنفرة.

فسألتها نيلا:

- ما الأمر؟

لم تكن في غمرة اندفاعها إلى الستدهاوس، قد ألقت سوى

نظرة خاطفة على الطفلة في صباح اليوم التالي للولادة. لكنها الآن، وإذ يُذكر اضطراب كورنيليا، لا يبدو هذا معقولاً. محال أن يكون حقيقة، ترى بعينها ما كانت الخادم المدهولة تحاول إخبارها به.

إضافة إلى رأسها الذي يكسوه شعر داكن، أسود جداً مقارنة بأي طفل هولندي، كانت بشرة تيا التي غُسلت حديثاً بلون الجوز المغلف بالسكر. كانت الرضيفة قد فتحت عينيها، لتظهر قزحياتها مثل بركتين صغيرتين من الليل. اقتربت نيلا، عاجزة عن إبعاد عينيها.

تهمس كورنيليا:

- تيا، آه، ياتوت.

وكأنما سمعت هذا، أدارت ابنة أوتو وجهها إلى الخادم. وأرسلت نظرة وليد؛ عالم يتكون منها وحدها.

ترفع ليزبيث عينيها إلى نيلا، في انتظار أن يتكلم. ومع ازدياد وطأة الصمت في الغرفة، عادت كلمات مارين لتدور في سباق داخل رأس نيلا. إن هذا الطفل لن يكون مفيداً على الإطلاق. لو أن هذا الطفل نجح، فسوف يوصم. لا ريب أن ليزبيث تسمع دقات قلبها؟ وإلى جانبها، تبدو كورنيليا مشلولة.

ثم تنجح نيلا في أن تقول: "ستكافئين بسخاء، على كل ما تقدمين من مساعدة. جلدراً واحداً في اليوم." تكشف رعشة في صوتها عن صدمتها مما تراه؛ وجه يكشف عن وجه، سر يتجلى. شبراً شبراً منك، أحبك.

تكور ليزبيث خديها في تفكر، ويدها الخشنة تربت بلطف على شعر تيا الأسود. يتأمل المرضعة غير القانونية اللوحات، وساعة

البندول، والإبريق الفضي. تَبَّتْ عيناها على الخزانة الضخمة التي تحوي حيواتهم المصغرة، قائمة توحى بالترف والإسراف، إلى درجة تُشعر نَيْلا بالهجل.

وأخيراً تعلق ليزيث:

- حتماً سأفعل، يا مدام. سأخذ أربعة جلدرات في اليوم.

ما تزال نَيْلا في ذهول يُعجزها عن قول الكثير، لكنها مكثت في أمستردام طويلاً بما يكفي لتعرف أن المرء يساوم مع أول أنفاسه. إنها تشعر بالارتياح في العموم لأن ليزيث تبدو راغبة في أموالهم أكثر من أسرارهم، ولكن ربما تتبالغ المرأة في انتهاز حظها المفاجئ. همست نَيْلا لنفسها، لن أسمح لأحد بالمرن عليّ. يبدو أن المرضعة تعرف الفوضى التي تعج تحت السطح، لكنها أيضاً لسوء الحظ تعرف سعرها.

ربما كان يوهانس مُحَقّاً - حتى الأشياء غير المادية مثل السكوت قابلة للمساومة مثلما قد يفعل المرء مع نخلد غزال، أو زوج من التدرج، أو قالب جن كبير. تفكر في صندوق يوهانس الناضبة جلدراته. تذكر نفسها، عليك الذهاب لمقابلة هانا. يجب بيع كل ذلك السكر. ولكن متى؟ إن الفيضان يحدث فعلاً، كما قال أوتو تماماً.

- جلدران في اليوم، يا مدام.

جعدت ليزيث تيمز أنفها:

- نظراً إلى الظرف غير الطبيعي أنا واقفة أنك ستفهمين.

لثلاثة.

كنتُ على وشك إخبار فرانس ميرمانز أن مارين قد أنجبت طفلة منه، هكذا تفكر نَيْلا، مع رعشة داخلية مما كان سيحدث

لو أنه اكتشف ذلك السر أيضاً. قالت:

- فليكن، يا سيدة تيمرز، ثلاثة جلدرات في اليوم. عن مجمل خدماتك.

أومات ليزيث برضا:

- يمكنكِ الاتكال عليّ. لا يهمني رؤساء البلدية.

- أنا واثقة أنني أعرف ماذا تقصدين، يا سيدة تيمرز.

ابتسمت ليزيث بتكلف:

- تحبين هذا، ها؟ حسناً، الأبُّ أبُّ في عالمي. جميعهم سواء.. وهي طفلة جميلة، لا تسيئي الفهم.

- لا أسيء الفهم! رددت نيلا، وهي تحاول السيطرة على ذهولها. وتتساءل، هل ياترى أوتو يعرف من الأساس؟ هل أخبرته مارين - ألهذا هرب؟ تبدو كورنيليا كمن سيفقد الوعي، وتتساءل نيلا هل اشتبهت الخادم يا ترى في هذه الحقيقة الخارقة. كم كانت واثقة وهي تحكي قصة مارين وفرانس ميرمانز، كم كانت متفخرة بمؤهلاتها كملكة لثقوب الأبواب! كان أوتو صديق كورنيليا، رفيقها في هذا المنزل. لقد خسرت تاجها.

تقول ليزيث:

- إنهم يحبون ذلك، أتعرفان؟

انفعلت كورنيليا:

- ماذا تقصدين بحق السماء؟

تجاهلت ليزيث مناوشة كورنيليا بطرف عينيها، وتعلقت ببيرة

جافة:

- إحكام القمط حولهم. إنه يذكرهم بالرحم.

يفيض حزن وارتباك على وجه كورنيليا. وعندما تذكر نيليا يوهانس في الستدهاوس والحكم عليه، تدرك استحالة أن تخبر كورنيليا بحقيقة أخرى.

في غرفة مارين، وسط الدور والريش، شرعت ليزبيث في عرض الطريقة السليمة لربط القمط. كان تياً مطواعة وشبه نائمة. ثم تعود لإطعامها، وتستيقظ الطفلة، مُتشبثة بالحياة، بقوة العزم التي تُذكر نيليا بمارين، عندما كانت تستغرق في قراءة دفتر الحسابات أو تحدّق في واحدة من خرائط يوهانس. وقفت مُتمعّنة في اللغز المُدهل، لمعة توفى الخوخ في بشرة تياً. تسحب تياً نفساً مسموعاً وتكور أصابعها في قبضة. كان نسق وجهها الوليد يعلن بوضوح عن أبيها، لكن الوقت مازال مبكراً على استنتاج أي جانب ستقع عليه العملة.

شرعت كورنيليا، بمحركات وكأئما تحلم، بإشعال المبخار في أنحاء المنزل، مُبعدة رائحة الموت. أدارت جميع المرايا إلى الحائط، حرصاً على أن تجد روح سيدتها طريقها إلى السماء. لا يحبون أن تعلق مارين في المداخن، يريدون لروحها أن تحلق عبر السحاب فوق سطوح أمستردام.

سيتوجب عليهما نقل جثمان مارين قريباً جداً، كما تخبرهما ليزبيث. إذ إن الجو الفاسد سيضر بصحة تياً:

- ضعي عليها ملاء بسيطة، يا مدام.

قالت نيليا:

- ملاء بسيطة؟ لا أظن ذلك. تستحق مارين أجود أقمشة

الدمقس.

يأتي صوت كورنيليا الضعيف ليقول:

- كانت لتفضل البسيطة على الأرحح.

حالما نامت الطفلة، فأخذت ليزيث جلد راتبا الثلاثة،
ووضعتها في جيب مزرها، وقالت:

- أرسلني لي عندما تستيقظ. أسكن قريباً من هنا.

وفي طريقها للخروج من باب المطبخ، كما أصرت نيل، لا
يمكن لليزيث تميز استخدام الباب الأمامي، مهما كان أجرها
عالياً، فتوقفت وتلفتت إلى ربة عملها الجديدة. وتسألها:

- ما هذا الشيء الذي تملكينه في الأعلى؟ الخزانة الكبيرة في
الزاوية. لم أر شيئاً مثلها من قبل.

- لا شيء.. إنها لعبة.

- يا لها من لعبة.

- سيدة تميز...

- لا بد لكم من تعميد الطفلة. أسرعي، يا مدام. هذه الأيام
الأولى حرجة.

تفرورق عينها نيل بالدموع. تذكر آخر كلمات سلابارت.
فليكن التعميد الجديد ليوهانس براندت عبرة لكم جميعاً.

رمقتها ليزيث بمزيج من الشفقة ونفاد الصبر، وهمست:

- لا تخلي عنها قبعتها، يا مدام. أراه شعراً جميلاً، لكن على
الطفلة المسكينة أن تعيش في هذه المدينة.

وإذ تقول هذا، تتساءل نيل كيف سيكون ذلك ممكناً من

الأساس. لكن كورنيليا لن تتخلي عن الطفلة أبداً.

تربض كورنيليا عند المهد. وجهها شاحب، وخالٍ من التعبير. تبدو ذابلة، ويذكر نيليا أول لقاء بينهما في الدهليز، غرورها، وثقتها في معاينة القادمة الجديدة. لا تصدق أن هذه هي الفتاة نفسها!

- لقد حاولتُ، يا مدام.

- فعلتِ كل ما في وسعك.

توقفت نيليا لحظة، مُنصتة إلى المنزل. في الحديقة، تحترق صُرّة ملاءات مُتبيّسة صار لونها بنيًا، إلى ندف خفيفة، ألياف قطنية متفحمة بتطاير في السماء. ترى نيليا بين ألسنة اللهب، مربعاً مطرّزاً من وسادة، عش طائر زاه وسط زخارف من ورق الشجر. لقد طرّزت كورنيليا كمية كبيرة. كل شيء يذكرها بصوت مارين.

همست كورنيليا:

- سوف نحفظ بيتيًّا، أليس كذلك يا مدام؟ إنها هنا آمن من أي مكان آخر.

قالت نيليا:

- نحن نقدم الرشاوي لأشخاص جدد فعلاً حتى نحفظ آخر أسرارنا. متى سيتوقف ذلك؟ فيجيب الصوت في رأسها، سيتوقف عندما يفقد المال. قالت كورنيليا ببرة حازمة:

- سوف أموت قبل أن أسمح لشيء أن يصيب هذه الطفلة.

- كورنيليا، أعدكِ أننا لو انتهى بنا الأمر إلى نقلها إلى أسدلفت، فلن نتخلي عنها.

إنها أسدلت الآن التي تبدو بعيدة بُعدًا باتافيا، لا أمستردام، كما قالت آغنيس ذات مرة. سمعت نيلًا صوت مارين من جديد، واضحاً بجرس، وعيناها الرماديتان تشتعلان بالازدراء. لا شيء نفعه في الريف.

أشارت كورنيليا قائلة:

- يمكن لتيًا أن ترتدي طاقة على شعرها في الخارج، وتطلقه في المنزل.

- كورنيليا...

- وسيكون علينا إخبار الأب بيليكوري عن مدام مارين. لا يمكننا مجرد دفنها في أي مكان. لا أريد وضعها في سانت أنطونوس. إنها بعيدة جداً. أريدها هنا، داخل أسوار المدينة...

قاطعتها نيلًا وقد أحست بالخادم تفقد صوابها:

- دعيني أعد لك شيئاً تأكلينه. بعضاً من الجبن والخبز؟

أجابت كورنيليا وهي تقف مرة واحدة:

- لستُ جائعة. ولكن علينا أن نعدّ بعضاً من الطعام ونأخذه إلى السنيور.

تجلس نيلًا، مُستنفدة أمام المس الذي أصاب كورنيليا، حائرة في إيجاد كلمات تشرح ما حدث اليوم في الستدهاوس. إنها تتوق إلى رؤية يوهانس، ولكن عليهما أن تفعل شيئاً من أجل مارين، قبل أي شيء صباح الغد، بعد الحصول على شيء من النوم. اليوم خميس. بحلول غروب يوم الأحد، ستبدأ هي وكورنيليا وتياً رحلة سقوط حر، مع ليزبيث تيمرز مُتشبثة بتنانيرهما. في هذه المدينة يبدو قتل النفس بمثل سهولة رفع

قطعة لعب من على لوح الشيركشپيل.

ربما لم توجد في كل أمستردام طفلة مثلها. هناك اليهود السفارديم طبعاً - صبيان وبنات لشبونة السمر، وهناك المهجنون الذين جلبهم تجار برتغاليون، وينتظرون خارج المعبد اليهودي في الهاوتغراخت، ليحجزوا مقاعد لسيداتهم. هناك الأرمن القارون من الأتراك العثمانيين، ومن يدري ما الذي يحدث بعيداً في الهند الشرقية، لكن الناس في أمستردام يحافظون على عرقهم، لا يختلطون بأجناس أخرى. لهذا ما انفك الناس يحدقون في أوتو. ومع ذلك، ها هنا خلطة نقية من جنسين متضاربين في الجمهورية، قد وُلدت، لا على بعد آلاف الأميال، ولكن في الثنايا العميقة في أرض الأجداد، في أرقى منطقة بالجودين بوخت. إن تياً تفوق حتى والدها في مدى ضردها الفاضح بالنسبة إلى هذه الشوارع والقنوات.

شبراً شبراً منك، أحبك. أوتو وتوت، دائرة مُكتملة، الرسالة والطفلة اللذان خلفهما انعكاس لصورته. يُذكر نيلا الهمس في الليل، والأبواب التي تُغلق، ووجه كورنيليا الذاهل عندما تسألها نيلا في الصباح إن كانت قد ظلت مُستيقظة لوقت متأخر. مارين، دامعة في الكنيسة القديمة. أوتو، هلياً بعدها بأسابيع في المقعد نفسه. هل كان ذلك عندما أخبرته مارين؟

الشيء الوحيد الذي قد تهممه نيلا عن أوتو ومارين هو تياً، التي بدورها ستكون سراً لا يعرفه سواها، فوالدتها ميتة ووالدها غائب. فكرت نيلا في أم أخرى، في بيرجن، وطفلة محبطة أخرى، تعيش في بروج مع أب مسن. لماذا أبعدت صانعة الدُمى عن بيتها؟ لقد أصابني قلة النوم بالجنون، هكذا قالت نيلا لنفسها، وهي تحاول العودة بذاكرتها، بحثاً عن دلائل ربما فاتتها

حول أوتو ومارين، أو بترونيلا الأخرى. وتشك في أن الأيام
ستكشف لها أياً مما أُلغز عليها فهمه.

تمنعت كورنيليا في وجه تيا، وقالت في صوت خافت:
- أردته أن يكون السنيور ميرمانز. أردته أن يكون هو.

- لماذا؟

لكن كورنيليا لا تجيب، هذا هو أقصى اعترافها. لقد كانت
شديدة الإصرار على هوية حبيب مارين السري، هدية الخنزير
المملح وغيره أغنس الزوجية. كان يجدر بي تكليف كورنيليا
بأعمال المنزل أكثر، هكذا قالت مارين، متدمرة من نزعتها إلى
نسج القصص. صحيح أن ميرمانز كان يطيل النظر إلى مارين؛
لكن مارين نفسها لم تتقدم أي دليل. وماذا قالت عندما سُئلت
عن عواطفها؟ إنكِ تحملين طفله، هكذا قالت لها نيلا، وكان
ردها، لقد سلبتُ يوهانس أشياء ما كانت من حقي. مارين
المُبهمة، كما هو شأنها دائماً، تعيشها في الظل بين الأكاذيب
والحقيقة.

قالت كورنيليا:

- ليت الأمور تعود إلى ما كانت عليه.

تقول نيلا وهي تتناول يدها:

- كورنيليا. عليّ إخبارك بخصوص يوهانس. تشعر بحزنها
يتفتح، وردة متحجرة تُسقط بتلاتها بسرعة كبيرة. بتيقظ
وهدهوء، جلست الخادم على السرير.

قالت كورنيليا في انتباه لا يلبس:

- أخبريني إذن.

خَيْلٌ لَيْلًا أَنْ الْجُدْرَانَ سَتَهَدَّمُ مِنْ قُوَّةِ دُمُوعِ كُورْنِيلِيَا.
تَسْتَيْقِظُ تَيًّا طَبْعًا، وَتَرْفَعُ نَيْلَا الْوَالِدَةَ الْبَاكِيَةَ مِنْ وَسْطِ أَغْطِيَّتِهَا
الْقَطْنِيَّةِ. الطِّفْلَةُ تَضُنُّ الْأَبَابَ، عَوْرَتِهَا مَغْطَاةٌ بِلِفَافَةٍ بَيْضَاءَ،
وَرَمَّاهَا مِنْفَاخَانِ صَغِيرَانِ يَبَادِيَانِ مَنْ فِي الْغُرْفَةِ.

- لماذا عاقبنا الرب، يا مدام؟ هل خطط لهذا من البداية؟

- لا أعرف. ربما طرح السؤال، لكننا الجواب، يا كورنيليا.
علينا أن نتحمل. من أجل تيا، علينا أن نخرج من هذا.

سألها كورنيليا، وهي تدفن وجهها في يديها: - ولكن كيف؟
كيف سنعيش؟

قالت نيلًا:

- اذهبي لإحضار ليزبيث، تحتاج تيا إلى أن ترضع.

أجبرتها الضرورة أن تهدأ، خفضت صوتها أمام بكاء الطفلة.
وبوجه ملطخ وإحساس متبلد، تركت نيلًا على السرير، وتيا
تصرخ بين ذراعيها. وعندما استلقت نيلًا على ظهرها مع
الطفلة، شعرت بشيء ينفذ أول ظهرها، وحينما مدت يدها
تحت الوسادة، وجدت أصابعها جسمًا صلبًا صغيرًا.

همست، أوتو، وهي تنظر إلى دميتها في إحدى يديها، بينما
تحمل يدها الأخرى ابنته التي من لحم ودم. لم تكن نيلًا قد
لاحظت أنه أخذ من بيت الدمى. هل كانت مارين تنام هنا،
ليلة بعد ليلة وهي تخفيه تحتها، تعزية فشلت في استحضاره إلى
المنزل؟

- أين أنت؟ هكذا تسأل نيلًا، وكأن كلماتها ستعيده إلى
حيث فشلت دميتها بصورة مُحزنة أن تفعل. تبكي تيا طلباً للبن،
ملاكهم الصاحب لديها جديدة شجاعة. لقد حصلت هذه الطفلة

على بداية، تماماً كما حصل يوهانس ومارين على نهاية.
وسط صراخ الطفلة، ثلثو نيلاً سرّاً صلاة معينة. زماناً
في أسدلفت، كتب كاريل في غمرة حزنه على موت أبيه
نداءً للرب. كان مُصمّماً وطفولياً، بأفضل معاني الكلمات.
تسترجعها نيلاً الآن، الكلمات المنقوشة في قلبها، وتتم بها
في أذن تيّاً الصغيرة. طلباً لمواساة، ورغبة في انبعاث أمل لا
ينضب.

من كتبت يا سمين

t.me/yasmeenbook

غرف خاوية



باتت ليزبيث تيمرز ليلتها في المطبخ. وفي صباح اليوم التالي، الجمعة، بدا وجهها مُغشى بهواء الغرفة الرطب. وتقول:

- جثمان السيدة. ستحتاجان إلى مساعدة.

شعرت نيلا بامتنان يغمرها. وسمعت صوت يوهانس في رأسها، يسأل شقيقته. مارين، هل تظنين أن هذا المنزل يُدار بالسحر؟ تفكر نيلا، ليس بالسحر، ولكن بأشخاص مثل كورنيليا وليزيث تيمرز.

كورنيليا، التي لم تلمس أصابعها مارين في حياتها سوى لماماً، تصبح مُجبرة الآن على حمل سيدتها وإمساكها بإحكام. تقول الخادم:

- كانت تنفر من لمسها. وتساءل نيلا أمام الواقع المُتمثل في تيّاً، عن مدى صحة هذا الكلام.

- هذه مناسبة. رفعت كورنيليا تنورة سوداء طويلة. إنها تكثر من الكلام اليوم، وكأن صوتها سيُبعد الأرواح الشريرة التي تنادي من الستدهاوس، وقد صارت كلمات يوم الأحد عند الغروب تهدر داخل رأسها أيضاً. كانت الدعائم القماشية للشد الذي اخترته مُبطّنة بفرو السمور والسناجب، وشريط من القطيفة يمتد بطول العمود الفقري. تقول كورنيليا:

- سيليق تماماً بمدام مارين.

شعرت نيلا وكأنها تتقف على رمل مُتحرّك قد يبتلعها في أية لحظة. بلل العرق إبطيها، وأحسّت أن أمعاءها مُفكّكة. أجابت

بابتسامة واهنة:

- صدقت.

قطبت ليزيث حاجبها، وقالت:

- كل الملابس جميلة. ولكن علينا تجهيزها أولاً.

هذا هو الجزء الأصعب.

أجلسن مارين، واستخدمت ليزيث سكيناً حاداً لتمزيق التنورة والقميص الداخليين. تُجمد نيلاً نفسها عندما ينشق النسيج إلى اثنين، مُحاولَةً وضع تركيزها على المهمة التي يقمن بها. إن النظر إلى الجراب المترهل الفارغ الذي أقامت فيه تيا قرابة التسعة أشهر يسبب ألماً قاتلاً، ورؤية ثديي مارين المستديرين والممتلئين أمر لا مفر منه. بين ساقها يبقى الحبل السري، الشيء الذي لم يتمكن من إخراجِه.

استنشقت كورنيليا جرعات كبيرة من الهواء، لا تعرف نيلاً إن كان ذلك حزناً أم تفرزاً. المدخل الذي جاءت منه تياً إلى العالم يبدو مغلقاً، لكن نيلاً لا تجرؤ على الاقتراب، خشية أن تطلق المزيد من الدماء. في المقابل، يدلكن أجزاء أخرى من جسد مارين بما تبقى من زيت الخزامى، كاثماتٍ راثحتها التي أخذت تحتد، حلوة بصورة غريبة.

ترنحت نيلاً وليزيث وهما ترفعان مارين. كانت كورنيليا تلبسها التنورة برفق، وتعقد وثاقها بأصابعٍ مرتعشة. عندما تُميلها نيلاً إلى الأمام، يقع رأس مارين على صدرها. تُدخل كورنيليا ذراعاً من المشد. "لم ألبسها ثيابها منذ سنوات"، قالت بصوت خفيف وعال، ينساب مع أنفاسها. "كانت تلبس ثيابها بنفسها

دائماً.

أدخلت كورنيليا في قديمي مارين جوربين من الصوف،
ونعلين من جلد الأرانب مطرزاً بالحرفين الأولين من اسمها.
وتغسل نيلاً وجه مارين، وتمسحه في توقير بمناشف نظيفة.
وفكت ليزبيث شعرها، وأعدت تضيفه، ثم دسّته تحت
قلنسوة بيضاء أنيقة.

قالت نيلاً:

- مهلاً. ثم ركضت إلى غرفة مارين الصغيرة، حيث ترقد تياً
نائمة في مهدها الخشبي. أنزلت نيلاً خريطة إفريقيا إلى أسفل،
المُدبَّلة بعدُ بأسئلتها المفتوحة، طقس؟ أطعمة؟ دين؟

قالت كورنيليا عندما رأت ما جلبته نيلاً:

- يجدر بنا إرفاقها بالمزيد من مجموعاتنا. الريشات والتوابل -
تلك الكتب.

قالت نيلاً:

- لا. سوف نحفظ بهم.

- لماذا؟

- لأنهم يوماً ما سيصبحون ملك تياً.

أومات كورنيليا، بادية التأثر بالمنطق والشجن في هذه
الفكرة. وتخيلت نيلاً كورنيليا خلال أربعة أعوام من الآن،
وهي تُري البنت الصغيرة ذاك العالم الواسع الذي جمعه والدتها
ذات يوم باجتهاد، وبحبٍ أيضاً من دون شك. وإذ تحمل عينا
الخدّام الزرقاوان نظرة شاردة، تتساءل نيلاً هل تراها كورنيليا
تفكر مثلها في ذلك المستقبل - تياً، تدلّل ساقها الصغيرتين

من السرير، بينما الخادم التي أحبت والدتها، تُفَرِّجها على هذا الميراث الغريب. تريد نيلا لكورنيليا أن تثبت بالصورة، مُعِيناً من المستقبل يُخْرِجها من رعب الحاضر.

قالت كورنيليا:

- تبدو مُسالمة.

لكن نيلا ترى التغيُّن المألوف على جبين مارين، وكأنها كانت تحل مسألة حسابية معتدلة الصعوبة، أو تفكر في شقيقتها. لا تبدو مارين مُسالمة. إنها تبدو كمن لم تكن ترغب في الموت. كان ما يزال لديها الكثير لتقوم به.

بينما تذهب ليزيث وكورنيليا إلى غرفة مارين للعناية بتيًّا، هبطت نيلا السلم إلى خزانة الأدوات الخاصة بأوتو، حيث رُصت أدواته على رف مُرتَّب، جاهزةً على الدوام، مُلَيَّنة ومشحوزة بعناية. وجدت بُغيَّتها. كان مزارعو أُسدلفت بسمونها المhraوة، وكانت تراقبهم في صغرها، وأذرعهم القوية تلوح بجسارة نحو الأشجار المحتضرة.

عادت إلى الطابق العلوي، كانت تتمتات المرآتين تنهاى إليها في المر، أوصدت نيلا باب غرفتها لأول مرة، ورمقت بيت الدمى في الزاوية، هدية يوهانس الجميلة. في تشرين الأول الماضي، سمَّها إلهاء، لكن نيلا، على عتبة حياة جديدة، لم تعدها أكثر من تهميش إضافي لها. لقد رفضت هذا العالم المهجور، ثم آمنت بالتدرُّج أنه يحمل الأجوبة في داخله، إنَّ صانعة الدُّمى كانت الشخص الذي يمك المصباح. لكن يوهانس كان محقًا بطريقة ما، ففكرت نيلا: "كل شيء في هذه الخزانة كان يُلهيني فعلاً. كثيرة هي الأمور التي حدثت بينما كنتُ أنظر في الاتجاه الآخر. كنت واقفة بأنِّي لا أتحرك،

ولكن انظري إلى المدى الذي وصلت إليه.

أصبحت نيلًا مُتَيَقِّنة الآن فقط مما يجب فعله. تقترب من الخزانة وترفع ذراعها، مُقَلِّدة الفلاحين الذين كانوا يقطعون بفؤوسهم الجدوع المتأوهة. نفسٌ عميق، لحظة يتحمد فيها الزمن، ثم ينزل الفأس. يخترق الغلاف المُبرقش، يُعجج الخشب المتشظي. تُلَوَّى عروق البيوتر كجلود نبات، وتهوي الستائر المحملية على الأرض. تُهيل نيلًا الضربات، إلى أن يختر المنزل مُسَلِّمًا. تنهار الأرضيات، وتنداعى الأسقف، الصنعة والوقت، التفاصيل والنفوذ، كل ذلك يخترُ عند قدميها.

انفجر الدم في عروقها، رمت الفأس ومدت يديها في داخل الأنقاض. تنزع ورق الحائط المصنوع من الجلد الإيطالي، المنسوجات الجدارية، الغراء الذي يلصق أجزاء الأرضية الرخامية. تُمسك بالكتب، فتُمزِّق صفحاتها المنمنمة. تُهشم بقبضتها كأس العروسين، فينصاع المعدن الرقيق تحت ضغط يدها، وتجمع الكرسيين المصنوعين من خشب الورد، وقفص العصافير، ويبيو، وصندوق المرزبانية، والعود، وتسحقهم تحت نعل حداثها، لتذهب كل معالمهم، بلا رجعة.

وبأصابع كالمخالب، شقَّت نيلًا جسد ميرمانز مُمزَّقة قبعته ذات الحواف العريضة. تقتلع رأس جاك كوردة ميتة. وبقطعة من خشب الجدار، تهشم يد آغنس، المُتشبِّهة بعدُ بخروط السكر المُسود. نيلًا لا تستبقي كورنيليا ولا نسختها، الشاحبة والذهبية، الأولى التي أرسلتها صانعة الدُعي، والثانية التي تركتها آغنس على أرضية الشرفة في الستدهاوس. تلقي بهم في الكومة مع صرة النقود التي كانت مرفقة بدمية يوهانس. وحدهما مارين ويوهانس تبقيهما سالمين، فتضعهما في جيبها مع أوتو

والطفلة الصغيرة. تستطيع تياً أن تحظى بهم عندما تكبر، صوراً
لأشخاص ذهب زمانهم.

تتحسس آرنود في جيبها وتردد. إنها مجرد دمية، تقول لنفسها،
وهي مشدوهة بعد من المزيج الغريب بين الصنعة والتجسس
الذي تملكه صانعة الدمى. ليس مهماً. تزنه في راحة يدها. لم
يُبع أكثر السكر بعد. أعادت الحلواني مرغمة إلى جيب تنورتها،
آمناً وبعيداً عن الأنظار.

خاوية، ومنهكة، لم تعود نبلاً قادرة على تحطيم شيء، كانت
هدية زفافها قد تحولت إلى كومة حطب. وبيطاء تنزل إلى
جوارها، مُسندة رأسها على ركبتيها المثنيتين. بلا أحد يضمها،
ضمت نفسها، وبدأت النحيب.

الآفة في البستان



كان جلياً في ذلك المساء، أن كورنيليا لن يُثنيها شيء عن الذهاب إلى بحجن الستدهاوس. كانت في نشاط محموم، قد أعدت فطائر محشوة بدجاج ولحم عجل، ماء ورد ويقطين محلي، ملفوف ولحم بقر. تفوح منها رائحة البيت، مطبخ متين بأدوات جيدة، تعود دفته طبخة حكيمة.

قالت:

- أنا ذاهبة، يا مدام. كان التصميم قد أعاد بعض اللون إلى وجهها.

- لا تخبريه بما حدث هنا.

تجذب كورنيليا صرة الطعام الدافئة إلى جسدها، وعيناها تغرورقان بالدموع. دست الفطائر في مئزرها، وقالت:

- إنني أفضل الموت على تحطيم قلبه، يا مدام.

- أعرف.

- ولكن لو أخبرناه عن تيّاً، البداية الجديدة مع الطفلة الرضیعة...

- سيضعف ذلك من حسره على الحياة التي يوشك على تركها. لا أظن في إمكانه تحمل ذلك.

امتعضت كورنيليا من القرارات الفظيعة التي تُجبران على اتخاذها. وراقبت نهلا الهيئة البائسة للخادم وهي تمضي في شارع القناة.

كانت ليزبيث في مطبخ الخدمة، تطوي حفاظات جديدة
لأجل تيا. تسألها نيلا:

- هلا مكثتِ معها لبضع ساعات ريثما أعود؟

رفعت ليزبيث عينها:

- بكل سرور، يا مدام.

شعرت نيلا بالراحة؛ لأن ليزبيث لا تسألها إلى أين تذهب؛
على النقيض تماماً من كورنيليا. تتساءل ماذا تراها ستقول
ليزبيث عن المجزرة في غرفتها، الدمار الذي أوقعته عروس
طفلة بلعبتها. قالت للرضعة:

- يوجد حطب في الطابق العلوي. يجدر بنا إبقاء تيا في جو
دافئ.

سمح لنيلا بالدخول من باب غرفة الكيركيستر الموالية
لأرغن الكنيسة القديمة. كان الأب بيليكورني على طاولة
مكتبه. إن نيلا هنا من أجل كورنيليا. أما هي فكانت تفضل
دفن مارين في هدوء بكنيسة سانت أنطونوس، بعيداً عن أعين
العامة. كانت قد سألت كورنيليا:

- أليس هذا ما كانت هي نفسها ستريده؟

- لا، يا مدام. كانت سترغب في أرفع تكريم مدني يمكن
لهذه المدينة أن تسبغه. هذه هي العادات والتقاليد، التي تتمسك
بها كورنيليا حفاظاً على المظاهر. وهكذا يتخلد إرث مارين.

نظر بيليكورني إلى نيلا، محاولاً إخفاء لمعة النفور في عينيه.
تفكر وكراهيتها يبرعم، أنت تعرف من أكون. كنت واقفاً

خارج الستدهاوس، رافعاً صوتك ليسمع الجميع. كانت نيلا قد جاءت مُتسلّحة بثروتها، لكن الآليّ والفيستان الفضي بدياً درعاً واهياً أمام ازدراء بيليكورني.

تقول بصوت واضح، وهي تنظر إليه مباشرة:

- جئتُ أبلغ عن وفاة.

دسّ بيليكورني ذقنه في ياقته الغزيرة.

- حسبتُ ذلك لن يكون قبل الأحد؟

وسحب بجمل الدفن المكتنز نحوه، كتاب كبير غلافه من الجلد ينقل حركة الأجساد في هذه المدينة، وانتقالها إلى الجنة أو النار. يغمس قلبه في الحبر.

شدّت نيلا قامتها، وأخذت نفساً عميقاً:

- جئتُ أبلغ عن وفاة مارين براندت.

تردد قلم بيليكورني. ورمق نيلا، ووجهه المتصلّب يميل أماماً فوق الدقتر. مردداً:

- وفاة!

“البارحة عصرأ.”

وضع القلم، وتراجع بيليكورني في مقعده. ليقول أخيراً:
“ليرحمها الرب.” ثم ضيق عينيه.

- أخبريني، كيف رحلت أختنا مارين براندت عن العالم؟

استرجعت نيلا صورة جثمان مارين، والملاءات الملطخة بالدماء، والوليدة تياً، ثم تعود أكثر بالزمن، أوتو ومارين ملتحمان، وسرهما المدفون في أحشاء جسد مارين الحي.

- ماتت بالحمى، يا نيافة القس.

بدا عليه الذعر:

- أظنّينه داء التعرُّق؟

- لا، يا سنيور. كانت مريضة منذ فترة.

- صحيح، لم أرها في الكنيسة في الأسابيع الماضية. ضمّ بيليكورني يديه، وأراح ذقنه على أنامله المديبة:

- - كنت أظن غيابها ربما يتعلق بشقيقتها.

- لم تكن الصدمة لتزيد الأمر سوءاً، يا سنيور. كانت ضعيفة جداً فعلاً، قالت نيلا بخفوت، والكراهية يتغلغل في داخلها، وتكاد تمنعها من التنفس.

- حقاً ما قلت؟ ظلت نيلا صامتة، لا تريد أن تمنح هذا الرجل الوقود الذي يشتهيهِ. وسألها: "هل حضر الخيورت لمساعدتكم؟"

يتذكر جنازة والدها في أسدلقت، كيف جاء الجيران لمساعدة أمها المفجوعة؛ نخلعوا الثياب عن جثمانه، وألبسوه ثوب نوم، ورفعوا جسده المتخشّب على صاج مفروش بالقش تحسباً لأي تسرب. وبعدهم شابات القرية العزباوات، جئن لوضع السعف والزهور، وإكليل الغار. لا خيورت كهذا كان موجوداً من أجل مارين، وهدما هي وكورنيليا، والأسى يتخلل ذعرهما، وليزيث، امرأة لم يسبق لها قط أن رأت مارين حيّة. لقد أشعلت كورنيليا تلك المباخر على الأقل.

يؤلّم نيلا ما تلاقيه مارين من نقص الوقار في الموت. كان ينبغي وجود خيورت، لأن مارين كانت امرأة صالحة، كانت

قوية. كانت تستطيع أن تقود جيشاً في حياة أخرى. ولكن في النهاية، لم تُبقِ مارين إلى جوارها أي أصدقاء، عدا واحد فقط، وهو غائب.

أجابت:

- نعم، يا نيافة القس. لقد جاء الجيران. ولكن علينا التعجيل بنقلها. علينا إحضارها إلى الكنيسة.

قال بيليكورني:

- لم تزوج قط. خسارة.

فكرت نيل، إن الخسارة بالنسبة إلى بعضنا هي في الزواج.

الظلام حالك في الخارج. في صحن الكنيسة، يتناهى إلى أذنيها صوت عازف الأرغن وهو يتدرب على أنايبه، وتُضاء المشاعل لصلاة المساء. نهض القس مُسداً رداءه الأسود كما لو أنه مئزر. وقال:

- لو أنك جئتِ طمعاً في دفنها هنا، فهذا مستحيل.

خيّمت لحظة صمت. ثبتت خلالها نيلاً قدميها على الأرض، وظهرها مستقيم.

- لماذا، يا نيافة القس؟

صوتها قوي ومُتّزن، لأنها جعلته كذلك. لن تسمح له أن يرتعش أو يستسلم للعاطفة. أغلق بيليكورني سجل الدفن ونظر إليها، متفاجئاً، وكأنه لم يعتد مطالبته بمزيد من التفصيل:

- لا يمكننا استقبالها، إنها موصومة بالتبعية، يا مدام. مثلك. توقف لحظة، مُهلماً فيها بعينيه المتحجّرتين: إنني أمنحك كل تعاطفي، يا مدام.

- ولكن لا شيء من رحمتك.

- إننا نعاني فائضاً في العدد، إن من يسمع عظامي هم هياكل عظمية لا أجساد حية. رباه، الرائحة الكريهة، همس لنفسه: "إن كل عطور العرب لتعجز عن حجب ذلك التفسخ في الأجساد الهولندية." التفت إلى نولا واكتفى بالقول:

- آسف لوفاتها، ولكن لا يسعني استقبالها هنا.

- سنيور...

- اذهبي إلى الرجال في كنيسة سانت أنطونيس، سوف يساعدونك.

"لا، يا نيافة القس. ليس خارج أسوار المدينة. لقد تعبدت هنا."

- إن الدفن داخل المدينة ليس خياراً متاحاً لمعظم الناس هذه الأيام، يا مدام.

- ينبغي أن يكون لمارين براندت.

- لم تعد هناك أمكنة. ألا تسمعيني؟

أخرجت نولا من جيبها مائتي جلد من أموال آرنود، ووضعتها على سجل بليكورني. وقالت: - إن نظمت شاهد القبر والتابوت والرجال الذين سيحملونه ومكان الدفن في الكنيسة، فسوف أضعف هذا المبلغ عند إتمام الأمر.

ينظر بليكورني إلى المال. إنه مال يأتي من زوج لوطي. إنه مال يأتي من امرأة. إنه الأصل العميق للشر، لكنه مال كثير.
يقول:

- لا يمكنني قبول هذا.

أجابت نيلا، بتعبير حزين:

- الجشع هو الآفة التي علينا استئصالها.

- تماماً، وقد رأيت سعادته باقتباس جملة الوعظية.

واصلت نيلا:

- ولا شك أنك، كرجل دين، أفضل من يقف على الوقاية من الآفة.

أجاب، وعينه ترددان على الجلدات:

- حالما يتم استئصالها.

- طبعاً.

- يلزمنا صدقات كثيرة من أجل بؤساء مدينتنا.

- ولا بد من التحرك لمساعدتهم، وإلا أخذت الآفة في الانتشار.

جلسا في صمت.

قال بيليكورني:

- توجد مساحة صغيرة في الزاوية الشرقية من الكنيسة. مساحة لقبر متواضع، لا أكثر من ذلك.

فكرت نيلا، يا له من أحق. إنه مجرد رجل من الرجال، لا يزيد قربيه من الرب على الرجل الذي يجاوره. تتساءل كم تراه سيققطع من الأربعمائة جِدر قبل أن يُقسّم المال على حاملي النعش والصدقات. هل ستحب مارين الزاوية؟ لقد أمضت حياتها في الزاوية، وربما كانت ستفضّل حصن الكنيسة. ولكن

في صحن الكنيسة، سيطؤها الناس في رواحهم ومجيئهم. بعض المواطنين سيحبون على الأرحم مثل هذه الخاتمة، حتى لا ينسون أبداً، فيبقون في الذاكرة ويذكرون في الدعوات، لكن نهلا ترى أنه مهين جداً لمارين. الزاوية أفضل.

قال القس بيليكورني:

- إنني أقول الصدق، يا مدام. الكنيسة متخمة. تلك الزاوية هي أفضل ما يمكنني تقديمه.

أجابت:

- إنها مناسبة. لكنني أريد التابوت من أجود أنواع الدردار.

أخذ بيليكورني قلبه وفتح السجل مرة أخرى:

- سوف أهتم بالأمر. نستطيع إقامة الجنازة مساء الثلاثاء

المقبل، بعد القداس اليومي؟

- حسناً.

- الليل أسهل. إذ إن الرائحة التي تنبعث عند فتح الأرض

تنفر الناس من صلاتهم.

- فهمت.

- كم عدد الحضور؟

أجابت نهلا:

- ليسوا بالكثير. لقد عاشت حياة منعزلة بالكامل. قالت هذا

ببيرة أقرب للتحدي، ل ترى إن كان سينكر كلامها، أو يقدم

معلومات جانبية تخص حياة مارين الخفية. ربما يذكر متاجر

الكتب التي زارتها. الصحبة التي رافقتها، ذلك الزنجي الذي

سارت به في الشوارع.

لكن بليكورني يكتفي بزعم شفتيه. لا خير في الانعزال، عرفت نيلا ما يعنيه تعبير وجهه. التضامن المجتمعي، مراقبة الجار، الجميع يتفقدون الجميع، هكذا يستمر ترس هذه المدينة في الدوران. لا أن يحجب المرء نفسه عن أعين المتطفلين. يقول، وهو يضع الجلدات داخل السجل:

- ستكون مراسم مختصرة.

- لا نُحِبُّ الخيلاء.

- تماماً. وإلى جانب اسمها وتاريخي الميلاد والوفاة، ماذا تريدون أن ينقش على شاهد القبر؟

أغلقت نيلا عينها، واستحضرت مارين في ثوبها الأسود الطويل، قلنسوتها وكأها المثاليان يخفيان تحتها ثوراناً عظيماً. تمتنع عن السكر أمام الملاء ثم تختلس الجوز المغلف بالسكر، تخفي رسائل الحب التي أرسلها أوتو، تدون بلداناً لم تزرها على خرائط شقيقها المختلسة. مارين، التي تستهجن الدمى، ثم تمام ودمية أوتو تحت وسادتها. مارين، التي لم ترغب في أن تصبح زوجاً، لكنها أعدت لتيا اسمها قبل أن تولد.

شعرت نيلا بالثقل الذي تسببه خسارة مارين حياتها من دون جدوى، الأسئلة العديدة التي ظلت بلا إجابة. فرانس، يوهانس، أوتو - هؤلاء الرجال الثلاثة، هل يعرفون مارين أفضل منها؟

سألها بليكورني بصبر نافذ:

- حسناً؟

تفصحت نهلا، وقالت:

- تي نشان فيكيرا.

- هل هذا كل شيء؟

قالت:

- نعم. تي نشان فيكيرا.

لا شيء يبقی علی حاله.

درجات الشعور بالحياة



صباح السبت، تناولت نَيْلا فطيرة من غرفة الكرار، وهي تظنها مصنوعة من التوت. فقد كاد الجوع أن يقتلها، إذ لم تكن قد أكلت شيئاً تقريباً منذ صدور الحكم.

لقد خدعها الغلاف، كاشفاً عن فطيرة مصنوعة من السمك البارد، مفلطح باهت الطعم بينما كانت تأمل في فاكهة شتوية. شعرت نَيْلا في حالتها المتوترة، أن الطعام وكأنه يسخر منها. تساءلت في بؤس هل ستضيف كورنيليا يا ترى طعم السكر على أي شيء مرة ثانية، فنظر الجوز المغلف بالسكر قد يستحضر مارين وتناقضاتها اللذيذة.

توجهت نَيْلا، ومعدتها تترقرق، إلى متجر هانا وآرنود، الذي تعلقه علامة مخروط سكر.

قال آرنود عندما رآها:

- سوف نأخذ كمية أخرى. إنه يتفاعل جيداً مع التوفي الإسفنجي، ولا شك في أنكِ تتمنين التخلص منه.

- نود. قالت هانا، أعتذر، يا نَيْلا. إنهم لم يظبوه شيئاً من السلوك المهذب في لاهاي.

ابتسمت نَيْلا، وقالت:

- لا عواطف في العمل. "إنني لا أحتاج إلى الإعجاب بك، يا آرنود،" هكذا فكرت، وإن كانت مولعة بهانا- دبلوماسية فصيحة في مئزر مُعْفَر. حالماً يُباع هذا السكر، تقسم نَيْلا لنفسها أنها ستُقحم دمية آرنود في أي منحل بالمدينة، حتى يغطيه

النحل النهم.

قالت هانا:

- تعالي، وأشارت إليها لتجلس على المقعد المُلَبَّع في مقدمة المتجر. وعاد آرنود بخطى ثقيلة إلى المؤخرة، قارعا صوانيه.

قالت هانا بوجه مُشرق:

- تذوق هذا المشروب الجديد من حبوب الكاكاو الذي أعمل عليه منذ فترة. وضعتُ بعضاً من سكرِك، وقليلاً من بذور الفانيليا.

إنه لذيذ بحق. يُدْفئُ جسد نيلًا مثل ذكرى سعيدة من الطفولة. تسألها هانا:

- هل عرفتِ؟

- ماذا؟

- لقد رفع رؤساء البلدية الحظر عن البسكويت المُشكَّل على صورة البشر. مع أن بسكويتنا على شكل كلب كان مشهوراً جداً، إلا أنني سعيدة لأنه يمكننا العودة إلى نقش أشكال الأحبة من أجل أولئك الذين يحفظون بالشباب والحب. إنها أخبار سعيدة لمخزونك.

طوقت نيلًا بأصابعها الممتنة قدح الفخار الساخن. إنها أخبار سعيدة، ولكن ليس بما يكفي لإزاحة الكتابة الطاغية التي تشعر بها في داخلها: لا أستطيع البقاء طويلاً في الخارج. قالت وهي تفكر في أسرتها، حديثة التكوين،، لم تلتقي بصفهم إلا مؤخرًا.

تقول هانا وهي تنظر إليها بحذر:

- طبعاً.

تساءلت نيلا، هل تعرف يا ترى، أم إن كورنيليا أمسكت لسانها أخيراً؟ قالت:

- لكنني أشكرك، على صداقتك وعلى التجارة معك.

قالت هانا:

- كنتُ لأفعل أي شيء من أجلها.

تخيلت نيلا هانا وكورنيليا في الميتم، أي عهد أقسمتا عليها؟ أي ندور بالدم حتى الممات؟ خفضت هانا صوتها، وتابعت: منذ زواجي، ألقنت نظرة على آرنود، والمتجر يستحوذ على كل ساعة من يومي.

- لديك آرنود.

- تماماً، ابتسمت هانا، إنه ليس رجلاً قاسياً. ولا هو أناني. لقد طوعتُ فرشتي من العجين. "ثم مالت إليها، وهمست: "سندفع لك المال الذي تحتاجين إليه. من البدور الصغيرة تنمو الزهور الكثيرة."

بحثت نيلا بعينها داخل المطبخ:

- ولكن ماذا سيقول آرنود؟ لا يمكنني البيع بسعر منخفض.

هزت هانا كتفها في لا مبالاة، وقالت:

- هناك سُبُلٌ للإقناع. إنه مالي أيضاً. لقد جنيتُ وادّخرت ما أمكنتني قبل الزواج. كان شقيقي قد ضارب بأموالي في البورصة وما إن حققتُ ربحاً حتى طلبتُ منه التوقف. أطاعني، بعكس أحدهم. "تنهد. "إن آرنود يقدر مواهبي، ولكن يبدو أنه نسي لمن يعود نصف رأسماله. إنه يحب دوره الجديد تاجراً في السكر. لقد منحه مكانة في نقابة الخبازين. ربما

يُصِيبُونَهُ كَبِيراً لِلْعَمَالِ. يَعْتَقِدُونَ أَنَّ جُودَةَ الْمُنْتَجِ تَعْنِي أَنَّهُ تَاجِرٌ مَاهِرٌ. "تَبْتَسِمُ هَانَا. "وَصِفَاتٌ جَدِيدَةٌ، وَخَطَطٌ لِلتَّوَسُّعِ. يَرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ لِبَيْعِ الدَّفْعَةِ التَّالِيَةِ مِنَ السُّكَّرِ فِي دَلْفَتِ وَلايْدِنَ، إِضَافَةً إِلَى لَاهَايِ." تَصَمَّتْ هَانَا لِحَفْظَةِ. "جَمِيعَهَا قَرَارَاتٌ مِنْ تَشْجِيعِي.

- هل سترافقيه؟

- على أحدنا إبقاء العمل مستمراً هنا. سوف نأخذ ثلاثمائة مخروط أخرى. وثمانك في المقابل ستة آلاف جِلدِر. ثمن مُنصف، أليس كذلك؟ إن بلورات السكر أنفع لي من الماس، يا مدام براندت.

ما الذي تشتريه هنا - سلام، أم لحظات للاستمتاع بثمره جهدها؟ فرحت نيلا بالمبلغ الذي عرضته هانا.

تقول هانا:

- أعتقد أنه على المدى الطويل، سيعود بالنفع علينا جميعاً.

عادت نيلا من عند هانا وآرنود بخطى سريعة في اتجاه الستدهاوس. أدخلها الحارس من البوابات، وسلكت الممر ذاته، وجدت باب يوهانس مفتوحاً. وهذه المرة تنفتح الحارس ثلاث جِلدِرَاتٍ لِمَنْحِهَا وَقْتاً أَطْوَلَ مِنْ رِبْعِ السَّاعَةِ الْمَعْتَادِ. الأيَّامُ الْمَعْدُودَةُ لِيُوهَانَسَ تَزِيدُ مِنْ ثَمْنِهِ، لَكِنْ نَيْلَا مُسْتَعِدَّةٌ لِتَقْدِيمِ عَشْرَةِ أَضْعَافِ ذَلِكَ إِنْ وَجِبَ. فَاحَتْ مِنَ الْحَارِسِ رَائِحَةٌ مُمِيزَةٌ لِمَاءِ وَرْدٍ وَيَقْطِينٍ، وَبَعْدَ أَنْ رَاجَعَ النُّقُودَ فِي يَدِهِ، أَشَارَ مُغْلَقاً بَابَ الزَّنْزَانَةِ.

كان شخص ما، ربما كورنيليا، قد حلق لحية يوهانس الخفيفة، الشيء الذي زاد من نحوله، وكان جمجمته تريد البروز من رأسه. كان حرياً بي أن أحضر له قيصاً جديداً،

هكذا تفكر، وهي تتأمل زوجها في الضوء الخافت. كان القميص الذي يرتديه رطباً ومهلهلاً. ابتلعت نيلاً لعابها، وهي تشد من أزرها أمام المشاهد. كان يجلس على فرشاة القش، مسنداً رأسه إلى الطوب الرطب، وساقاه الطويلتان ملويتان في غرابة خارج حدود ردفه.

أدركت كم يشبه مارين، متغطرساً في استرخاء، شبه وسيم حتى في هذا الظرف. انقبض حلقها. كان في الركن براز، مغطى كيفما اتفق بالقش. فأدارت وجهها.

تساءلت نيلاً، لو أني أخبرته بكل شيء، فمن سيفتنه يوهانس أكثر من خانة؟ يتذكر جاك وهو يصرخ في أوتو - إنه يعرف أنك فعلت شيئاً. كان يوهانس قد شكك ذات مرة في تدوين مارين في أثناء تلك المشادة في الصالون، ولاحقاً، قالت هي إنها سلبت من شقيقها شيئاً لم يكن من حقها. هل كان يوهانس يعرف، ويغض النظر؟ يبدو شيئاً لا يمكن تصديقه، ولكن ما أكثر ما لا يمكن تصديقه في شخص يوهانس. كثيراً ما كان هو ومارين يتشاجران على أوتو، وكل منهما يطالب به كالخق في الأرض، محتجاً بأنه يقدره أو يحتاج إليه أكثر.

تستقر الفطيرتان المتبقيتان من طعام كورنيليا من دون أن تمساً إلى جوار يوهانس. قالت:

- يجدر بك أن تأكلها وهي طازجة.

أجاب بصوت خافت:

- اجلسي معي.

كم يبدو هشاً، وخلت عيناه من الضوء. تكاد نيلاً تشعر بروحه تذوب في الهواء، إلى عدم. تريد أن تتشبث بها وتضمها في

قبضتِها، أن تمنعها من أن تفلت.

تقول وهي تجلس:

- لقد بدأتُ في بيع السكر. يساعدي حلواني.

أجاب بما يشبه الابتسامة:

- لا أعتقد أنكِ ستغيرين كل شيء بحلول الغد.

كبحت نيلاً رغبتها في البكاء. يبدو أن كورنيليا قد صدقت وعدها في ألا تخبره شيئاً عن مارين، لكن كيف في وسعهما ألا تعترفان له بما حدث؟ شقيقته، أحبُّ خصومه، قد ماتت. كيف من الممكن ألا يلاحظ الحزن في وجوه نساته؟

قال يوهانس:

- مُحال أن يقبل ميرمانز رشوة الآن، على أية حال. يبدو في النهاية أن بعض الأشياء لا تُشترى. كانت مارين محقة، لا يمكن للمرء أن يساوم على المُجرّدات. خاصة الخيانة.

تذكر نيلاً صورة ليزيث تيمرز، وهي تُفصل في ثمن صمتها:

- لكننا في أمستردام...

- حيث يتأرجح البندول بين الرب والجِلدِر. يقول فرانس إنه يفعل هذا لإنقاذ روحي، لكن خلف ذلك شعور بالفضب لأنني لم أُعجَل في بيع السكر. إنه يدافع عن سكره باتهامي بالواط.

- هل هذا هو السبب الوحيد، يا يوهانس، الانتقام؟

نظر إليها في العتمة، وانتظرت. فكرت؛ الآن سيخبرني بلا شك عن مارين ورفضها الزواج. لكن يوهانس مخلص حتى

النهاية. يقول:

- كان ذلك السكر يمثل له الكثير. وقد استهزأتُ به بعدم مبالاتي.

- لماذا فعلت ذلك؟ بسبب جاك؟

- لا. بل لأنني وجدتُ مذاق جشع فرانس وآغنس في الهواء وشعرتُ بالاشمئزاز.

- لكنك تاجر، ولست فيلسوفاً.

- ليس الجشع من أساسيات التاجر الناجح، يا نيللا. إنني لا أشتهي لنفسي سوى أشياء بسيطة.

“البطاطس فقط؟

- البطاطس فقط. وأنتِ مُحقّة، لستُ فيلسوفاً. ما أنا إلا رجل اتفقَ أنه أبحر إلى سورينام.”

- قلتَ إن السكر كان لذيذاً.

أخذ يحول بعينه بوجوم في الغرفة:

- وهكذا كوفتُ بسخاء. السر في التجارة هو ألا تبالي في الاهتمام، وتباهي دوماً للخسارة. يبدو أنني اهتمتُ أقل من اللازم وأكثر من اللازم.

لاحت فكرة اقتراب أكبر خسارات يوهانس. قال:

- لقد أسأتُ تقدير الموقف. جروح قديمة. ثم يؤنبها: لم يعد مهماً. تعالي، ليس هناك ما نفعله. لقد أغرقتني كورنيليا بدموعها والآن تفعلين مثلها. كان في وسعك أن تحضري لي قيصاً جديداً. يا لكِ من زوج مريعة. ضغط على يدها. “عليك

أن تخبري مارين أنها لا يجب أن تأتي إلى هنا."
فاض في داخلها الشعور بالخسارة. مدُّ آسن.
قال:

- لا أرغب في أن تراني هكذا.

- يوهانس. لماذا خانك جاك؟

مرر يده عبر شعره الفضي، وقال:

- المال، حسبما أقرض، ودلالة المال. لا بد أنه كذلك،
لأن أي سبب آخر سيجعلني عاجزاً عن الرد. ازدادت وطأة
الصمت واستشعرت جهد يوهانس في كتمان خوفه. يقول:

- - كان عليك أن تسمعي شهادة آغنس. عهدتها واهية
العزم، لكنني أظنها في تلك اللحظة، قد انهارت بحق.

أخذ يتحدث بوتيرة سريعة، مُنتزِعاً نفسه من أكثر أفكاره
ظلمة. "لقد أحببت آغنس فرانس دائماً، لكن مثل هذا الحب
الزائد عن الحد قد يتحول إلى سم. هل كانت راضية عن تنفيذ
أوامره هذه المرة، لن أعرف أبداً. إنها تؤمن بربها طبعاً،
والنظام المقدس الذي يجب أن تسير به الأمور. لكن خطباً
كان يحيط بها صباح الخميس. بدت مشوشةً بالكامل، وكأنما
كانت تعرف تمام المعرفة أنها ترتكب خطأ، لكنها سترتكبه
على أي حال. على الأرجح أنها لم تعرف نفسها قط مثلما عرفتها
حينها، ولا فاجأت نفسها كما فعلت في تلك اللحظة."

ضحك، واحتوى نهلا الصوت في داخلها.

واصل:

- كانت مارين مُحقِّقة دائماً بشأن آغنس وفرانس. إنهما من

نوعية الأشخاص الذين يرون السكر المُسودَّ في كل مكان.

يعلم الرب أن زوجها لم يكن دائماً أحصاف من يحكم على الأشخاص، ولكن عندما يتعلق الأمر بمارين، فإن يوهانس كان يمنح شقيقته دائماً حق قدرها. إنه يملك مخزون سنوات من ذكائها ولحظات كانت فيها أطف. ربما يكون قد شاهدها تتحول من فتاة مُشرقة إلى امرأة أفسى قد عجزت عن السير في الدرب الذي رسمه خيالها. إنه سخي في حقها، ويخيّل لنيلا وكأن كل شخصيات مارين ترافقه، مشعة في عتمة الزنزانة.

ليست نيلا بكجك. لن تكون من يمزق الصورة التي رسمها يوهانس لشقيقته من إطارها. لن تستطيع أبداً أن تخبر يوهانس بما خسره، ولا كم كانت ضئيلة في النهاية معرفتهم بمارين.

قالت:

- إنني أكرههم، يا يوهانس. بكل روحي.

- لا، يا نيلا، لا تهدري نفسك. أخبرتني كورنيليا عن الشغل الذي أنجزته مع آرنود ماكفريد. لم أفاجأ، لكنه كان أمراً سرني سماعه. أتصور السكر يباع هنا داخل البلاد!

- كانت مارين خير معين، قالت، وهي تتحسس مفتاح مستودعه تحت قبصها، لصق جلدها. وعندما يغلفهما الصمت، يشبكان أيديهما، وكأن لمسة الجسد ستؤخر مجيء الفجر.

حجر الطاحون



رأت نهلاً مئات السفن راسية، هياكلها تمتد بطول الأرصفة النائية التي تملكها الفوك. فلوتة، وغاليوت، وهوك، وذوات العارضة المربعة، مختلف الأشكال والوظائف، كلها لخدمة الجمهورية. معظم الصواري عارية، أشرعتها وجبالها مطوية، لحمايتها من الطقس إلى أن يحين موعد طليها بالقار، ثم ربطها وشدها عبر الخشب.

أما السفن التي تبسط أشرعتها فتبدو وكأنها زهور تفتتح، متأهبة لتلقف الرياح التجارية والسفر بجارتها إلى أماكن بعيدة. تُحدث أبدان السفن صريراً، وقد تمددت من أثر الرطوبة المالحة الهوجاء التي تلتف حياة كل نوتي. رائحة المياه الآسنة حول حافة المرفأ، بقايا طعام لم تتمكن طيور النورس من إنهائه، أجساد أسماك نصف منقورة. تحت الضوء الآخذ في الانحسار، تُصرف المجاري من السفن في الماء.

إن مشهد السفن يكون مُبهراً في العادة، هياكلها الضخمة متمايلة فوق الموج، مربجات الإمبراطورية، كلاب الحرب الذين يتكفلون بالأعمال القدرة للجميع. ولكن في الأصيل المنحسر من يوم الأحد، تنجذب أعين الجميع إلى الرجل الذي يحيط بعنقه حجر الطاحون.

إن المراسم التشريفية، سواء كانت في زفاف أم في جنازة، هي أمر مستهجن في أمستردام، فالطقوس قد تصبح فاضحة أكثر من اللازم، وكاثوليكية أكثر من اللازم، ولا بد من تجنبها. لكن الرجل الثري الذي ينتظر حكم الإعدام غرقاً

هو أمر مختلف، عصارة الفضيلة، الرمزية التي يمكن اجتثاثها من الكتاب المقدس. كان جمهور من الناس قد احتشد طبعاً. يصطفون بطول اللسان البحري، عدد كبير من موظفي الفوك، قباطنة بحر وكتبة. هناك القس بيليكورني، السخاوت سلابارت، وحتى آغنس ميرمانز، وحيدة وهي ترتدي طوقها القرو في غير هندمة. زوجها ليس معها. وهناك عدد كبير من رجال النقابة، ونواب حكم من الستدهاوس، وزوجاتهم، وقساوسة آخرون، والرجال الثلاثة المتجهمون الذين يشكّلون حرس يوهانس.

وقفت نيلا خلف الحشد المُحاذي للرصيف. تمر عينا بيليكورني القاسيتين عليها، متظاهراً بأنه لا يراها. كان حاملو النعش قد جاءوا ليلة البارحة لوضع مارين في تابوت وحملها معهم، والآن تنتظر مارين في سرداب الكنيسة القديمة استعداداً لآخر قداس تحضره.

عاد بيليكورني إلى موضوع اليوم. تفكر نيلا، أي أعجاد داخلية لا بد أنه يشعر بها الآن. هنا تتحقق الإرادة الدموية للقانون والكنيسة، ويبدو هو راضياً رضاءاً مقرزاً.

كانت نيلا قد وعدت يوهانس أنها ستكون هنا عصر اليوم، ويا له من وعد قبيء لم يكن عليها أن تنفي به أبداً. ليلة أمس، كانا قد جلسا في ظلام زنزانته لمدة ساعة، يداهما متشابكاً في صمت، والحارس لا يتدخل. تلك الساعة الهادئة كانت ذات طبيعة لن تشعر بها نيلا مرة أخرى. سوف تلقبها في المستقبل، بليلة زفافها، اتحاد حيث لا حاجة للكلمات. لقد تخلياً عن الجدال، عن السلطة المضللة، وفي مكانيهما حلت لغة أعمق وأثرى.

لحظة الرحيل، وقفت نيلًا عند باب زنايته، وابتسم فدا في غاية الشباب، وشعرت هي بغاية العجز، وكان الصمت قد نقل لها بطريقة ما كل حزنه. سيتعين عليها حمله فيما يوهانس يخلق، خاليًا، وحرًا.

في المنزل، كانت كورنيليا قد خدّرت بشرية مُنومة ثقيلة، أعدتها بسهولة مرعبة ليزيث تيمرز، التي حضرت عند شروق الشمس لإرضاع تيمًا وقررت البقاء. قالت:

- قد تكون الحاجة لي أكبر اليوم. تقابلت أعينهما. أوامات نيلًا بصمت، كانت ليزيث الآن في المنزل، تنتظر عودتها في المطبخ.

تشعر نيلًا بالأرض تميد من تحتها فتقف مُباعدة بين قدميها أملًا في بعض الثبات. تهب الرياح العاصفة لكانون الثاني عبر معطفها، حادة كمخلب قطة. كانت ترتدي غطاء رأس، وتورة بنية بسيطة تخص كورنيليا. جاءت مُتَنَكِّرة حتى تطيق هذه المحنة، وكان التخفي في ملابسها قد يحميها من الحقيقة.

كان يوهانس أيضًا يرتدي زيًا. كانوا قد ألبسوه حلة من ساتان فضي على غير مقاسه، وريشة مبهرجة في قبعته لم يكن يوهانس ليرتديها قط، إشارة مقصودة تقول إن المرء هو ما يرتديه. تلمح نيلًا لقطعات منه عبر أكشاف الحشود، قيص براق كدرع خلال ألوان من الأشهب والأسود. اتكأت فجأة على المرأة التي إلى جوارها، فجفلت المرأة من اللمسة واستدارت.

قالت وقد رأت الرعب على وجه نيلًا:

- لا بأس، يا حبيبي. لا تنظري إن كان الأمر يفوق احتمالك.

كاد لطفها يشطر نهلا. كيف لأناس طيبين أن يأتوا
ويشاهدوا هذا؟

وضع سلابارت يده على كتف يوهانس، ومنذ تلك اللحظة،
كفت نهلا عن النظر. تستمع فقط، مُغلقة عينيها، والرياح
تصنع وجهها، والأشعة تتلاطم مثل غسيل مبلول. سمعت
وقع حجر الطاحون يجره الجلادان. كان يوهانس، مُتصلاً
بنهايته، سيكون الآن موشكاً على السقوط من على حافة اللسان.
أصدر الحجر الذي يزن نصف طن صريراً ممتداً يسري تحت جلد
نهلا إلى نخاعها.

عندما شفق الحشد، شعرت بالتدفق الساخن للبول يجري على
ساقها المكسوتين بالجوارب، والصفوف يتشربه مهبّجا جلدها.
إنه يقول شيئاً. تخيلته يجيل عينيه بحثاً عنها، عن مارين، عن
كورنيليا. تسرّ لنفسها، اجعله يراني. اجعله يفكر أنني أصلي من
أجله.

لكن الرياح بددت كلمات يوهانس الأخيرة، ولم تسمع منها
شيئاً. همست، يوهانس. تُصغي سمعها، ولكن من حولها تنتشر
تمتمات بليدة، صلوات وجمل عقيمة. إنه أضعف من أن
يجعل صوته يطنى، وفي الوقت الذي تمخّذ فيه التتمات، يكون
حجر الطاحون قد ألقى به من حافة اللسان. ومعه يوهانس. إنه
يضرب سطح البحر الهاج ويغوص تحته.

فتحت عينيها. علت موجة غليظة، ثم ابتلعت ذروتها على هيئة
دائرة بيضاء، واختفت في ثوان.

لا أحد يتحرك.

قال رجل أخيراً:

- كان واحداً من أفضل تجارنا. كم نحن حمقى.

انطلقت الزفرات من الحشود، وشعورهم تخفق فوق جباههم. قال أحدهم:

- لا جسد لدفته. لن يعيدوا استخراج جثته.

انصرفت نيلا. هي حيّة، وليست حيّة. إنها في الماء في الأسفل مع يوهانس. وإذ تُكفى على الجدار، ورأسها إلى أسفل، يندر جسدها بدفع جوفه إلى الخارج. كم من الوقت سيستغرقه البحر للملء رتيه؟ تفكرت، كن سريعاً. كن حراً.

ثم شعرت بشيء يخز مؤخرة عنقها، وركبتها ترغبان في الترح. ترفع نيلا رأسها، وتطوف بعينها فوق الحشود بحثاً عن لمحة من شعر أشقر. تفكر نيلا، إنها ما تزال هنا في وسعي أن أشعر بذلك. نظرت عبر وجوه الناس، بحثاً عن تلك النظرة التقويمية المأدبة، لحظة تقول فيها صانعة الدُمى وداعاً.

لكنها ليست صانعة الدُمى من تقف في المسار الذي تنظر إليه.

لقد ازداد نحافة، ويرتدي الملابس نفسها التي رحل بها، مُتسحاً بالمعطف الديباج الفاخر. لثانية مجنونة، خيل لنيلا أن زوجها قد خرج من الماء، أن ملاكاً أعاده إلى الحياة. ولكن لا، إنه هو بلا شك. رفعت نيلا يدها، ويرفع أوتو، فاغراً فاه، راحة يده. خمسة أصابع مُرتجفة، نجمة ساطعة وسط الظلام.

الجزء الخامس

المساء نفسه، الأحد، ١٢ كانون الثاني، ١٦٨٧م

هَلُمَّ نَرْتَوِدَا إِلَى الصَّبَاحِ. نَتَلَدُّ بِالْحُبِّ.

لَأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ. ذَهَبَ فِي طَرِيقِ بَعِيدَةٍ. أَخَذَ
صُرَّةَ الْفِضَّةِ بِيَدِهِ. يَوْمَ الْهَلَالِ يَأْتِي إِلَى بَيْتِهِ.

سفر الأمثال ٧: ١٨-٢٠

هولندا الجديدة



أدركت أنه في صدمة مما شهده، لأنها اضطرت إلى مصبه من ذراعه، وأقدامهما تتعثر على البلاطات.

قالت:

- تعال إلى المنزل. تعال إلى المنزل.

كان العذاب يطحن، وأنفاسها يتقطع من شدة الألم. كان الضوء قد تضاءل الآن، والغسق يلفُّهما. حاولت تبديد صورة نافورة الماء، وصوت يوهانس والبحر يسحبه. تسرع الخطى خشية أن يشلها الحزن، أن تنهار مُتكوِّمة في شارع القناة ولا تنهض أبداً.

استدار أوتو نحوها، مذهولاً، وهو يحكم حوله معطف يوهانس. يتوقف مشيراً إلى الخلف في اتجاه الميناء.

- مدام، ما الذي حدث هنا؟

- لا أستطيع. لا أعرف ماذا أقول، يا أوتو. لقد رحل.

هز رأسه، مذهولاً:

- لم أكن أعرف أنه اعتقل. ظننتُ الذهاب إلى لندن سوف يحميكم جميعاً، يا مدام. لم أكن قط....

- تعال.

حينما بلغا الهيرغراخت، غمر مشهدُ المنزل أوتو. أمسك بمطرقة الباب التي على شكل دلفين مثل دعامة لتمنعه من الانهيار، ووجهه معركة بين العذاب والتمالك. وما يوشك على

اكتشافه خلف الباب يتفتح مثل زهرة خبيثة في جسد نيلا،
إذ يبدو مستحيلًا أن بشراً قد يصمد أمام هذا الألم المضاعف.
سارت مُتعثرة خلف أوتو في هذا الاستقبال الذي هو الأسوأ
من نوعه؛ لكن الهدوء الداخلي للكان لا يوحى بفقدان مارين.

- من هنا. يتقدمه نحو الصالون، حيث كانت ليزبيث تبرز قد
أشعلت ناراً في المدفأة، فشعرت بدفء لم يشعر به أحد منهم
منذ أسابيع، وفي السنة اللهب الراقصة بهجة لا تناسب الجو.
شعرت نيلا بدمها يشرق. خلف اللهب، تنثني شظايا البيوتر في
المنخاة مهذبة، وتتفلق ألواح من الخشب المبرقش وتقطع.

وقفت ليزبيث في منتصف الغرفة، ضامة تياً بإحكام إلى
صدرها، ورمقت أوتو الذي يحدق في الطفلة. وتساءل:

- من يكون؟

استدارت نيلا إليه، وهي تتساءل، هل تراه قادراً على تقديم
نفسه؟ هل يدور في خلده السؤال نفسه عن ليزبيث تبرز. وكن
هو في حلم، مدّ أوتو يديه نحو الطفلة طالباً حملها. وانتبهت نيلا
أنها رآته يقوم بهذه الإيماءة من قبل، عندما مدّ يديه في أول
يوم لها هنا، مقدّماً لها زوج قباقيب للحماية من البرد.

تتكلم ليزبيث خوفاً.

قالت نيلا:

- ليزبيث، إن هذا أوتو. سلميه الطفلة من فضلك.

كانت حدود سلطتها ملبوسة حتى أن ليزبيث أطاعت فوراً.
وتمتت المرزعة: "رفقاً بها." يحتضن أوتو تياً إلى صدره وكأنها
الحياة نفسها - وكان قلبها النابض الصغير سيمد قلبه بالحياة.
حتى ليزبيث تلتزم الصمت، وهي تراقب تعارفاً غريباً جداً

وسط كل هذه الخسارة، غريباً جداً، وطبيعياً جداً أيضاً.

تمتت نيلا: ليزيث، اذهبي وأيقظي كورنيليا.

وحالما يفردان، تعلم نيلا أنها يجب أن تتحدث. تقول:

- اسمها تيا. أوتو. ثمة ما ينبغي أن أخبرك به.

لا يبدو أن أوتو يصني، مفتوناً بوجه تيا، مُستغرقاً في انعكاسه الصغير.

- أوتو...

قاطعها:

- قالت مدام مارين إنه سيكون صبياً.

تحار نيلا كيف تستجيب. يبدو التحدث مستحيلًا. في النهاية تقول:

- كنت تعلم إذن؟

يومئذ، وبينما يتحرك وجهه أمام ضوء النار، رأت نيلا دموعه، كان يكافح بدوره بحثاً عن الكلمات، أي كلمات قد تعبر عن جزء من الحمل الذي يبدو أنه يُثقل كاهله. يشير فجأة إلى الأرضية غير الملمّعة، وكراسي خشب الورد التي يكسوها التراب. ويقول:

- إنها ليست هنا. وكان هذه الجمادات هي دليل جامع على الفقد.

قالت نيلا:

- لا. إنها ليست هنا. ابتلعت لعابها، وهي تشعر بالدموع

تقترب، وتخشى أن يكون البكاء تعدياً على حزنه: أنا آسفة، يا أوتو.

- مدام. قالها أوتو، بصوت أجش، حتى ليكسر الكلمة البسيطة إلى نصفين. رفعت عينيها واستقبل نظرتها المنكوبة، وتابع القول: لقد أنقذت الطفلة. كانت مُستعدة للتضحية بحياتها حتى تتمكن هذه المخلوقة الصغيرة من النجاة.

قالت نيلّا:

- ولكن، لماذا كان عليها ذلك؟ دموعها تنهمر الآن، وتعجز عن كبحها، وعندما تحاول فإنها تنهمر أسرع، وأكثر غزارة، مُغشية بصرها: لقد تدهورت حالتها سريعاً. أنا، نحن لم نتمكن من إعادتها إلى الحياة. لقد حاولنا، يا أوتو، لكننا لم نكن نعرف...

- فهمت، لكنها ترى الألم على وجهه، شعرت نيلّا بساقيها تهدأ لأن فاستعانت بكرسي. وظل هو واقفاً، يحدق في قبة رأس تيّا. ويقول: "لم أرها قط بتصميم مثل تصميمها عندما أخبرتني أنها حبيبي. كنتُ واقفاً أنها نهاية العالم. سألتها: 'كيف ستكون حياة هذا الطفل؟'

- وبم أجابت؟

ضم أوتو تيّا إليه أكثر. قالت، 'ستكون حياته كما يصنع منها.'

- آه، يا مارين.

- كنتُ أعرف أن رحيلي قد يجنبكم الكثير من المشكلات. ولكن كان لا بد لي أن أعود. كان لا بد لي أن أرى.

تحوم حقيقة وجود تيا - الفعل الذي أدى إلى خلقها - تحوم في الهواء، الحياة والموت يداً بيد. تفكر، ربما هو سر سيقية أوتو دائماً طي الكتمان. ويعلم الرب أن كورنيليا ستساعده، متظاهرة أنه لم يحدث قط، وكان تيا جاءت من جبل بلا دنس، أو نبتت من شجرة. ربما يخبرنا يوماً ما كيف بدأت حكايته مع مارين، ولماذا؟ وهل رأى كل منهما الحب قوة أم انغماساً؟ وهل منح كل منهما الآخر قلبه مطمئناً من دون قيد، أم مثقلاً بمرور الوقت؟

تيا، خريطة نفسها - سوف ترى نصف معالم وجه أبيها مرسومة في وجهها وتساءل، أين أمي؟ تفكر نيل، سوف أعطيها الدمية. سأريها تينك العينين الرماديتين، ذنك المعصمين النحيفين، حتى الصدرية المبطنه بالقراء. لا مزيد من الأسرار، هكذا قلت. لذا سأريها ذلك التكور المرئي، هدية صانعة الدمى وقد أعلنت. كنت هناك، يا تيا. لقد رأيت برونيليا فندريك قدومك المرتقب، وعرفت أنه أمر جيد. حتى أنها أرسلت لك مهداً. كانت تروي قصتك قبل أن تولدي، لكنك الآن من يتعين عليها إكمالها.

كانت ليزيث قد أحضرت كورنيليا من فراشها، وقفت وهي ماتزال ثملة من أثر الناردين. في مدخل الصالون، وعلى وجهها علامة استفهام، وذهوله ينهل من الجواب المقابل لعينها. وتهمس: "إنه أنت."

أجاب أوتو بتوتر:

- إنه أنا. كنت في لندن، يا كورنيليا. نعتني الإنجليزية بالأسود وطفل الحمل. كنت أقيم في إيمرلاد باروت. كنت سأكتب

لك وأخبرك. أنا...

تعثرت الكلمات فوق الكلمات. وتصدى أوتو لموجة الحزن قبل أن تنكسر على رأس صديقه القديمة.

سارت كورنيليا مُترنحة نحوه، تلمس مرفقيه وكتفيه، ما تزال يدها تحملان تياً. لمست وجهه، أي شيء يثبت أنه حقيقي. وصنعت مؤخرة رأسه في غضب محب. وهي تقول: "كفى. كفى"، وراحت تضمه وتنفس وجوده.

تركتها نيلا في الصالون وهي ما تزال في معطفها، وعبرت الأرضية الرخام إلى الباب الأمامي، الذي كان قد ترك موارباً في غمرة الحدث. فتحت على مصراعيه ووقفت على العتبة، والهواء البارد يلفح خديها. كانت أجراس مساء الأحد قد انطلقت على سطوح أمستردام، وتساعد صليل الكنايس المتناغم. تحب دانه لتحية سيدتها الصغيرة، مادة رأسها لتربت عليه. فسألت نيلا الكلبة: "هل أطعموك، يا جميلتي؟" وهي تفرك الفراء الحريري في أذنيها الجميلتين.

وإذ تعلن الأجراس بداية الليل، ترى نيلا الهلال الأبيض الصغير، مثل ظفر امرأة مُتقوساً في السماء التي يغلفها الظلام. مرت كورنيليا عبر البهو، بمئزر مربوط، ورأسها صوب مطبخها. ونادت:

- الجو بارد، يا مدام. ادخلي.

لكن نيلا ظلت تحدق في امتداد القناة المتجمدة. بطول حافتيها، حيث يمتد الآن خط من الجليد الذائب. كانت خطوط من الماء الدافئ تنسل من الأطراف الشتوية للهيرغراخت، ويبدو لعينها مثل دانتيل ممزق، مثل كسوة مهد

عملاق.

أسقطت كورنيليا مقلاة في المطبخ. ومن الصالون يأتي صوتٌ يحاول تهدئة تيّا التي انطلقت في البكاء، وخلق صوتاً ليزييث وأوتو فوق البلاط. مدت نيلا يدها في جيب معطفها لإخراج دمية المنزل التي أخذتها من الكالفرسترات، لكنه لم يعد هناك. هذا مستحيل، هكذا تفكر وهي تنبش القماش. الرضيعة موجودة - وكذلك دمية آرنود. هل سقط مني إذن، وأنا أركض في شوارع المدينة؟ هل نسيت في الورشة؟ تقول لنفسها، لقد رأيته. كان حقيقياً.

حقيقياً أم لا، فهو لم يعد في حوزة نيلا، لكن الأشخاص الخمسة الذين وضعتهم صانعة الدمى في داخله ما يزالون في هذا المنزل. الأرملة الشابة، المرُضعة، أوتو وتيّا، كورنيليا، هل سيأتي يوم ويعرفون الأسرار التي يخبئها كل منهم في حياته؟ جميعهم خيوط فالتة - ولكن، هكذا كان الحال دائماً. نحن نكوّن جدارية عامرة بالأمل؛ لا أحد سينسجها سوانا.

كان الغسق قد صار ليلاً، وهبت رائحة جوزة طيب؛ جسد دانه الصغير يُدْفئ ساقَي نيلا. السماء بحر فسيح يتدفق بين السطوح؛ إنه أكبر من أن ترى العين المجردة كيف بدأ، أو أين نهايته. يأخذ عمقه، اللامتناهي بالنسبة إلى نيلا، في سحبها بعيداً عن المنزل.

نادتها كورنيليا:

- مدام؟

تستدير، مُستنشقة رائحة التوابل. وبعد أن تختلس نظرة أخيرة إلى الهواء في الأعلى، تدخل نيلا إلى المنزل.

معجم ألفاظ هولندية خاصة بالقرن السابع عشر



بيفينديبر Bewindhebber - مُساهم في شركة الهند الشرقية الهولندية. ويملك في الغالب حصة كبيرة من رأس المال.

بورس Bourse - سُيِّدت أول بورصة بضائع بين عامي ١٦٠٩م و١٦١١م، على ناحية من قناة روكين. وتألَّف البناء من فناء مستطيل تحيط به أروقة يُقام فيها التداول.

دوندربس Donderbus - ويعني حرفياً «أنبوب الرعد»، وهو طور مبكر من أطوار البندقية.

خيبورت Gebuurte - اتحاد سُكَّاني، يتولى بصورة تعاونية أمور النظام والسلامة والهدوء العام، ومساعدة الجيران في المصائب، والوساطة في النزاعات المنزلية، ومد العون في حالات الموت و في أثناء الدفن.

جِلدر (Gulden) - Guilder عملة فضية سُكَّت لأول مرة في عام ١٦٨٠م، وقيمتها ٢٠ ستايفر أو ١٦٠ داوت. صدرت الفئات النقدية الأكبر في صورة عملة ورقية.

هيربرود Herenbrood - ويعني حرفياً «خبز السادة» ويأكله الأثرياء. مصنوع من دقيق القمح، المُنتقى والمطحون، نقيضاً لخبز الشيلم الأرخص.

فَارنار Warenar - الأحق الحقيقي للشاعر هوفت - ملهاة تراجيدية كُتبت عام ١٦١٧م حول الوسطية والطمع والهوس. بطلها فَارنار البخيل وله ابنة، اسمها كلارتشيا،

تعمل من دون زواج من خاطب لا يرضى عنه فارنار. كانت أمستردام قد صارت في القرن السابع عشر، مركزاً دولياً لتجارة الكتب، ولم تخضع الكتب للرقابة الحكومية. كانت الكتب التي تُحظر في بلدان أخرى تُنشر في أمستردام.

هوتسبوت Hutsbot - يخبز قوامها اللحم والخضروات، تُطبخ في قدر واحد.

كانديل Kandeel - كودل في الإنجليزية، وهو شراب حريف من الخمر، يُضاف إليه أحياناً لوز مطحون ونشا قح وفواكه مجففة، وعسل وسكر و صفار بيض.

أولي كوكي Olie-koecken - الدوناتس في طور مبكر. دقيق قح مع زبيب ولوز وزنجبيل وقرفة وقرنفل وبنّاف، يُقلى في الزيت ويغلف بالسكر.

پاتنس Pattens - حذاء يشبه القبقاب ينتعله الناس داخل المنزل وخارجه لحماية الحذاء الرقيق من الأوساخ.

پوفرت Puffert - فطيرة محلاة مُتخمّرة تُقلى في الزيت.

سُخيين Schepenen - لو أن السخاوت هو العمدة أو ضابط الأمن في المنطقة، فإن سُخيين هو مجلس محلي. وعند اضطلاع بالقضايا، يُشار إليه باسم السُخيينبانك. والذي كانت إحدى مهماته هي إصدار الأحكام على المجرمين، وبذلك يؤدي وظيفة هيئة المحلفين أو المجلس المحلي. وعليه، فإن سُخيين غالباً ما تُرجم في الإنجليزية إلى «عمدة» في هذا السياق التاريخي الهولندي.

سحاوت Schout - هي المقابل الهولندي لكلمة عمدة أو مأمور. وهو من يشرف على الإجراءات القانونية للقضايا في

الستدهاوس، مثله مثل رئيس القضاة.

سبينهاوس Spinhuis - سجن النساء في أمستردام، وتأسس عام ١٥٩٧م. وتكلفت فيه السجينات بأعمال الغزل والخياطة.

ستدهاوس Stadhuis - مجلس المدينة، وحالياً القصر الملكي في ساحة دام. كانت الشهادات والمداومات في القضايا تُجرى في السخاوت كامر، أما السجن وغرفة التعذيب فكانا في القبو. يُنطق الحكم بالإعدام في القبو، ويقوم بذلك السخاوت، أمام المتهم وفي حضور راعي الأبرشية. يمكن لأي نظارة أن يستمعوا إلى النطق بالحكم، واقفين في مساحة محدودة بالطابق الأرضي، مُطلين على هذه الحجرة. كان قبو ستدهاوس يحوي أيضاً بنك صرافة أمستردام، الذي يحوي في خزائمه جميع أنواع القطع النقدية والذهب الخام وقوالب الفضة. كان البنك يقيد حسابات المودعين بما يساوي مقتنياتهم بالجلدر. كما أجرى عمليات تحويل الأموال من حساب عميل إلى حساب آخر.

فيركيشپيل Verkeerspel - نسخة هولندية قديمة من لعبة الطاولة، صُوِّرت كثيراً في اللوحات المرسومة لتذكير الناس بعدم الرضا عن ذواتهم. والكلمة تعني «لعبة التغيير».

مقارنات بين الرواتب في نهاية القرن السابع عشر بأمستردام



في الربع الأخير من القرن السابع عشر، كان ٠.٠٠١٪ من أثرياء أمستردام يمتلكون ٤٢٪ تقريباً من إجمالي ثروات المدينة.

كان الأمين العام على خزانة الجمهورية (وهو أعلى منصب في الحكومة) يحصل على راتب قدره ٦٠ ألف جِلدِر سنوياً في عام ١٦٩٩م.

وكان تاجر ثري مثل يوهانس ييجني ما متوسطه ٤٠ ألف جِلدِر في السنة، إلى جانب أملاكه التي شكّلت شريحة منفصلة وكبيرة من ثروته - وقد اشتهر عن كبار التجار أنهم أورثوا تركات تصل إلى ٣٥٠ ألف جِلدِر.

السخاوت أو المأمور في أمستردام (منصب رفيع في الحكومة) قد يجني ٩٠٠٠ جِلدِر في السنة.

الجراح قد يجني حوالي ٨٥٠ جِلدِراً في السنة.

الحرفي المتوسط أو الماهر (إسكافي، شمّاع، خباز) قد يجني ٦٥٠ جِلدِراً في السنة. (كان دخل أرنود وهانا عالياً، لكنهما دجما دخليهما وحالفهما الحظ في البورصة.)

العامل العادي قد يجني حوالي ٣٠٠ جِلدِر في السنة، أو ٢٢ ستايفِر في اليوم.

عينة من المصارييف المنزلية
لثري أمستردامي في أواخر
القرن السابع عشر



قيص رجالي - جلد واحد

مديونية صيدلية - جلدان و ١٠ ستايفر

تنورة نسائية بسيطة - جلدان

معاش أرملة من نقابة زوجها - ٣ جلدات في الأسبوع

لوحة لمنظر صغير من الطبيعة أو الكتاب المقدس - ٤

جلدات

ثوب منزلي - ١٠ جلدات

مديونية طبيب جراح - ١٥ جلدراً

لوحة لمعركة بحرية في إطار مذهب - ٢٠ جلدراً

دولاب مفارش مقبول - ٢٠ جلدراً

مديونية إسكافي - ٢٣ جلدراً

لوحة لمشهد صيد منسوب إلى إيطاليا على طراز لوحات كايب

- ٣٥ جلدراً

معطف وصدرية - ٥٠ جلدراً

دولاب مفارش من خشب الجوز الفاخر - ٦٠ جلدراً

فستان من قماش الدمقس - ٩٥ جلدراً

مديونية خياط - ١١٠ جِلدِر

حصان وزلاجة - ١٢٠ جِلدِرأ

مائة رطل من الكركند - ١٢٠ جِلدِرأ

الالتحاق بواحدة من النقابات المقصورة على فئات معينة
(مثل صاغة الفضة والذهب والرسمين وتجار النبيلد) - ٤٠٠
جِلدِر

اثنا عشر صحفا من الفضة - ٨٠٠ جِلدِر

منزل لتاجر على نطاق صغير وعائلته - ٩٠٠ جِلدِر

منسوجات جدارية لغرفة في منزل على قناة الهيرِغراخت -
٩٠٠ جِلدِر

قلادة من الماس - ٢٠٠٠ جِلدِر

منزل مصغرٌ بحجم خزانة، مؤثث بسبعمئة قطعة على مدار
سنوات - ٣٠٠٠٠ جِلدِر.

شكراً

إلى أوائل القراء: جيك أرنوت، ولورنا بيكيت، وماهاليا بيلو،
وييب كارتر، وأنا ديفيس، وإميلي دي باير، وبولي فيندلاي،
واد غريفيث، وأنطونيا هانويل، وسوزان كولكارني، وهيلي
أوجدن، وصوفي سكوت، وتيسل سكوت وقارثات مجموعة بهج
تورنرز. شكراً لأنكم لم تقولوا إنها كانت هراء وعلى ملاحظتكم
الطيبة والمفيدة والمبتكرة دائماً. إن حظي في الأصدقاء يشير إلى
أنني سأعود في الحياة القادمة في جسد بعوضة.

إلى الحسنات الثلاث بأقلام وعلامات تعجب: محررتي في
المملكة المتحدة، فرانيسكا ماين، والتي مزجت التعليقات
والملاحظات الخارقة باللفظ والرفافة - ومحررتاي في
الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، لي بودرو وجنيفر
لامبرت، واللتين ساعدت فطنتهما وحماستها على أن تخرجا هذا
الكتاب في ألمع صورة ممكنة. أشكرن جزيل الشكر، ثلاثي،
لإيمانكن بكلينا أنا وصانعة الدُمي.

وفي دار نشر بيكادور، شكر عظيم لساندرا تايلور، وجودي
موليش، وسارا لويد على كل جهودكن وروحكن الظرفية،
وبول باجالي على دعمه الرعوي، ونيكولاس بليك على نظرتك
الشاملة. وأشكر أيضاً لاین لينمان آندرسن، ومارتن آندرسن،
وكاتي توك، وفريق التصميم في بيكادور، وديف هوبكينز،
الذين وضعوا تصميم غلاف رائع لنسخة المملكة المتحدة، يكمله
منزل مصغر حقيقي. وشكر عميق أيضاً لجرج فيليبك وريان
ويلارد في هاربر إيكو.

إلى مارجا دي بور في دار لايتنج سايتوف، لملاحظاتها
الممتازة عن بنية أمستردام التحتية، وحياة بترونهلا أورتمان

الحقيقية وزوجها يوهانس، وللتفاصيل القانونية والمدنية في أواخر القرن السابع عشر في هولندا. أي خروج عن الدقة والحقائق يعود لي وحدي، وسيرة حياة نيلام هي كاملة من وحي الخيال.

وعلى الاستشارة الطبية: أشكر جيسكا كالتر، وبراسانا بارانا، وفيكتوريا سكوت. وأعيد أن أي تفاوتات هي ذنب خيالي المفرط النشاط وحده.

وإلى صاحب العينين الثابتين: جيل برادلي.

إلى إدوارد بيرنس وبينني فريمان، اللذين بلطفهما سمحا لي بعزل نفسي في منزلهما، حيث لا إنترنت - بل وقت وسلام وهدوء. ونبيذ.

لساشا راسكين، على توليها صناعة الدمي في الولايات المتحدة. وأيضاً:

إلى وكيوتي، جوليت موشنز: الناصحة، والنصيرة، والنجمة، والصديقة. لتحويل هذه التجربة إلى شيء ممتع وغاية في الروعة - أنتِ وكيكة استثنائية وإنسانة مذهلة.

إلى ليندا وإدوارد، والمعروفين أيضاً بماما وبابا. لأنهما قرأ لي في طفولتي، واصطحباني إلى المكتبة وابتاعا لي الكتب. لأنهما قال لي: «لماذا لا تكتبين قصة؟» عندما شعرتُ بالملل وأنا في السادسة، وأنا في الثانية عشرة، وأنا في السابعة والعشرين. ولأنهما كانا دائماً، دائماً إلى جواربي.

إلى مارجوت، لأنها لم تزد عن كونها كرة عقيمة من الفراء تدوس على لوحة مفاتيحي.

والى يدي. أحرار كيف أبدأ. شكراً لك، على سبع سنوات
من الحب والصدقة والتفكير والمرح والدهشة. أنت غير عادي.
روحي الجالبة للحظ.

(١) في الأساطير الإغريقية الرومانية، هي وحوش مجنحة خيثة
نصفها امرأة والنصف الآخر طائر. وكانت الهاربيات سيئة السمعة
بسبب شرها ورائحتها البغيضة. وقد أرسلتها الآلهة عقاباً لمضايقة
فينوس الأعمى، فتق وضعت وجبة أمامه، هبطوا من الجو وحملوها.
(ويكيديا)

(٢) مفردة لاتينية تشير إلى كبيرة اللواط في ذلك الوقت.

من كتبت ياسمين

t.me/yasmeenbook